

تاريخ
الأدب العربي
٦

عصر
الدول والإمارات
الشام

تأليف
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الثانية



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

تحدثت في هذا الجزء عن تاريخ الأدب العربي بالشام في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، ورأيت أن أرجع بالحديث عن الشام إلى تاريخها منذ الفتح العربي، وبالمثل عن مجتمعتها والحركة العلمية والأدبية فيها، وكنت ترجمت في الجزء الخاص بالعصر الإسلامي لشعرائها المبكرين: عدى بن الرقاع العاملي والطرمّاح الطائي والوليد بن يزيد، وترجمت في الجزء الخاص بالعصر العباسي الأول لشعرائها الأفاضل: منصور النمرى والعتّابي وأبي تمام، كما ترجمت في الجزء الخاص بالعصر العباسي الثاني لشاعريها البارعين: البُحترى والصنوبري. ومنعاً للتكرار لم أر العودة إلى تراجمهم جميعاً في هذا الجزء وقصره في تراجم الشعراء على حملة لواء الشعر بالشام بعد العصر العباسي الثاني. وقد بدأت الجزء ببيان مجمل لتاريخ الشام القديم، وتحدثت عن الفتح العربي لها وقيام الخلافة الأموية بدمشق، وكان سلطانها يُظلُّ العالم الإسلامي من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي، ثم ما كان من تحوّل الشام زمن الخلافة العباسية إلى ولاية تابعة لبغداد، وتبعيتها للدولتين: الطولونية والإخشيدية حين تأسست بمصر، واستيلاء الدولة الفاطمية بالقاهرة على الشطر الأكبر منها، وتأسيس إمارة الحمدانيين في شماليها بحلب ثم إمارة بني مرداس، وما حدث من نزول حملة الصليب بها في أواخر القرن الخامس الهجري، وجهاد عماد الدين زنكي في القرن السادس وابنه نور الدين أمير حلب - لهم - جهادا عظيما، وضربات صلاح الدين الأيوبي لجموعهم ضربات قاصمة وسحّقه لهم في حطين وغير حطين. وتدين الشام لخلفائه الأيوبيين، ثم تدين للمماليك، ويمزقون المغول في عين جالوت شرّ ممزق، ويطردونهم من الشام كما يطردون منها بقايا حملة الصليب نهائيا. ويدور الزمن دورات، فتنزلها - مع مصر - جحافل العثمانيين وتظل ولاية عثمانية إلى أن تُشرق عليها أضواء العصر الحديث.

وكان المجتمع الشامي - حين الفتح العربي - يضمُّ أخلاطاً من أمم شتى آسيوية وأوربية، وأخذ الإسلام يمزج بين هذه الأخلاط مكوناً منها أمة شامية عربية واحدة. وصبت

فيها - زمن الدولة الأموية - كنوز العالم الإسلامي، مما أتاح لها في تلك الدولة رخاء غير قليل، وظلت - بعدها - تنعم بعيش رغد لما فيها من أنهار وعيون وزروع وفاكهة متنوعة ونقل من فستق وغير فستق. وكان أهلها يتقنون - من قديم - صناعات الخزف والأثاث والمعادن والزجاج الملون والنسيج. وظلت التجارة منتعشة بها إلى نهاية أيام المماليك، إذ كانت بوابة كبرى لتجارات آسيا وأوروبا. وعرفت - مثل شقيقاتها العربيات - كثيراً من فنون اللهو والغناء. وشاع التشيع في جوانب من ديارها وتعددت بها فرقة المتطرفة من إسماعيلية ونصيرية ودروز وفداوية، وشاع فيها الزهد والتصوف وطرقه وما يتصل به من الخانقاهات.

وكانت الحركة العلمية في الشام نشيطة، وألمت بما كان بها - قديماً - من تراث يوناني علمي وفلسفي، وتحدثت عن رعاية حكامها - منذ الفتح العربي - لحركتها العلمية، ثم ما كان من تأسيسهم للمدارس فيها منذ القرن الخامس الهجري وكثرتها كثرة مفرطة في القرون التالية. وألمت بحركة الترجمة في القرون الأولى للهجرة بها وكبار مترجميها وازدهار علوم الأوائل فيها من طب وفلسفة وفلك وهندسة ورياضيات وجغرافيا. وأوضحت ازدهار علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة مع عرض أعلامها جميعاً عرضاً تاريخياً دقيقاً، وبالمثل أوضحت ازدهار علوم القراءات والتفسير والحديث النبوي والفقه ومذاهبه وعلم الكلام مع التتبع الدقيق لأعلام كل منها تاريخياً، وعرضت الكتابات التاريخية ومؤلفيها النابهين في السيرة وتاريخ المدن والتاريخ العام وتاريخ الدول وكتب التراجم، وبذلك كله اتضحت الحركة العلمية في الشام على مر الزمن، واتضح معها التاريخ الدقيق لجميع العلوم وأعلامها المجليين.

وتحدثت عن اللغات في الشام قبل الفتح العربي وكيف أنها كانت قد أخذت في التعرب قبله بقرون، وتم لها هذا التعرب سريعاً بحيث أصبحت العربية لسان سكانها جميعاً. ولم يكن لها في الشعر العربي نشاط يذكر قبل الإسلام، حتى إذا دخلت في الدين الحنيف وهاجرت إليها جموع من القبائل القيسية النجدية المشهورة بنظم الشعر أخذ الشعر يكثر في السنة أهلها من البدو والحضر، وأخذ يظهر فيها شعراء نابهون. وطوال أيام الأمويين كان شعراء الحجاز ونجد والعراق يفدون على دمشق لمديح الخلفاء، وتبع في البيت الأموي وبين خلفائه غير شاعر.

وتشارك الشام بقوة في ازدهار الشعر العربي في العصرين العباسيين: الأول والثاني.

ويتكاثر شعراء الشام في القرن الرابع الهجري وتوَجَّه بهم حلب في عهد سيف الدولة الحمداني، ويترجم الثعالبي في كتابه «اليتيمة» لكثيرين منهم، كما يترجم الباخريزي في كتابه «دُمِيَّةُ القَصْرِ» لطائفة من مشهورهم في القرن الخامس الهجري، ويترجم العماد الأصبهاني وزير صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس لنحو مائة وثلاثين من شعراء الشام، وتحفل كتب التاريخ والتراجم - بعده - بالشعراء الشاميين في أزمنة الأيوبيين والمماليك والعثمانيين. وتشارك الشام - منذ القرن السادس - مشاركة خصبة في الأشكال الجديدة من الشعر الدوري فتكثر بها المسمطات والرباعيات والموشحات، ويشتهر فيها غيرُ وشاح. ومنذ أبي تمام يُكثر شعراؤها من البديعيات، ويدخل الشعراء عليها صوراً مختلفة من التعقيدات. وأخذتُ أحل شخصيات شعراء الشام في عصر الدول والإمارات منذ القرن الرابع الهجري، فللمديح أعلامه يتقدمهم ابن الخياط بملكته الشعرية الخصبية، وللأسفة والحكمة أعلامها يتقدمهم أبو العلاء المعري مفخرة الشام الذي لا يماثله أديب سابق ولا لاحق في الأدب العربي شعراً ونثراً، وللتشيع أعلامه يتقدمهم كُشاجِم بلوغاته وأناته لفاجعة الحسين، وللغزل أعلامه يتقدمهم عبدالمحسن الصوري الذي نوه به ابن خفاجة دُرَّة الأندلس طويلاً في ديوانه، وللنثر أعلامه يتقدمهم أبو فراس الحمداني بروميَّاته التي جسَّد فيها الفروسية العربية بكل ما لها من فتوة وصلابة عاتية. ويتوالى أعلام في شعر الطبيعة والزهد والتصوف والمدائح النبوية. ومع كل علم من الشعراء جميعاً ما يميز به من الخصائص وروائع الأشعار. وبلغ عدد من ترجمت لهم من أعلام الشعراء في الشام خمسة وثلاثين شاعراً فذاً. وذكرت بينهم في كل غرض من أغراض الشعر شاعراً مجيداً من الشعراء في أيام العثمانيين، ولم أترجم لعشرات من شعرائها ترجمت لهم كتب الطبقات لأنه لم يكن لأحدهم دور واضح في تطور الشعر بالشام، وأنا لا أكتب دائرة معارف لشعرائها، وإنما أكتب تاريخ شعرها ومن تطورا به وتركوا فيه بصمات واضحة جعلت لهم حظاً كثيراً أو قليلاً من الشهرة والمجد الأدبي. وفسحتُ لدراسة الشعر الشعبي وترجمت لأهم أعلام الزجالين بالشام: أبي العلاء بن مقاتل مع عرض أروع أزجاله.

وترقى الرسائل الديوانية بالشام في عهد الدولة الأموية وتوضع رسومها وتقاليدها، حتى إذا انتهى عهدهم ولم يعد لديوان الإنشاء عمل بعدهم تراجعت هذه الرسائل وما طوى فيها من رقى إلى أن أخذت الدول منذ القرن السادس تتعاقب في الشام وأخذت تعنى بهذا

الديوان وتختار له كتاباً بلغاء، حينئذ ازدهرت كتابة الرسائل الديوانية في زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية. ومنذ العتّابي في أوائل القرن الثالث تنشط كتابة الرسائل الشخصية، وللبغاء كاتب سيف الدولة فيها رسائل بديعة، وما يلبث أبو العلاء أن يهدى إلى قراء العربية رسائله الشخصية الفذة، وتكثر تلك الرسائل بعده - طوال العصر - شاكرةً أو مهنتة أو معاتبه أو معزية، وهي - مثل الرسائل الديوانية تعتمد دائماً على السجع والمحسنات البديعية. ويكثر الكتاب من صنع المقامات غير أنها لا تعتمد على أديب متسول وحيله الكثيرة وما يطوى فيها من حركة درامية كما كان الشأن عند الحريري في مقاماته، وإنما تعتمد غالباً على الوصف أو المناظرة بين أشخاص أو بين أزهار أو ثمار، وهي بذلك أشبه برسائل مطولة. وتتكاثر كتب المواعظ، ومن أروعها كتاب الفصول والغايات لأبي العلاء، وجميعه تسبيحٌ وتحميدٌ وتمجيدٌ في الله العليّ العظيم، ويجرى ابن غانم على لسان الطيور والأزهار حكماً بديعة.

ولأدباء الشام أعمال نثرية رائعة، في مقدمتها رسالة الغفران لأبي العلاء، وقسمها الأول يصور أهوال المحشر والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار، وقد ألهم هذا القسم - بشهادة المستشرقين - دانتى الشاعر الإيطالى كتابه «الكوميديا الإلهية». ومن الأعمال النثرية القيمة رسالة النسر والبلبل لابن حسان الدمشقى وفيها يسأل النسر البلبل عن السر في جمال صوته وسحره، ويدور بينها حوار بديع. ومن تلك الأعمال كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وهو أشبه بترجمة شخصية يصف فيها زيارته لمصر أيام الفاطميين وتنقلاته بين حملة الصليب لزمه، ومنها كتاب نسيم الصبا لابن حبيب في وصف الطبيعة والأخلاق الاجتماعية، وكتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عَرَبْشاه، وفيه يتناول كثيراً من شئون الحياة والسياسة والتربية.

وواضح أننى عرضت في صحف هذا الجزء تاريخ الأدب العربى فى الشام طوال عصر الدول والإمارات مع بيان تاريخها منذ الفتح العربى وبالمثل صورة مجتمعتها والنشاط الثقافى والعلمى بها مسترشداً بمصادر ومراجع كثيرة، ولا أزعّم أننى صوّرت ذلك كله تصويراً تاماً، وإنما حاولت بقدر ما استطعت. والله ولىّ الهدى والتوفيق.

القاهرة فى ٢٠ من مارس سنة ١٩٩٠م

شوقى ضيف

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

فتح العرب للشام والحقب^(١) الأولى

(١) فتح العرب للشام

تقع الشام في قلب الشرق الأوسط وَسَطَ العالم القديم على أبواب آسيا الغربية وشواطئ البحر المتوسط ، وهي سهل ساحلي يمتد من خليج إسكندرونة في تركيا شمالا إلى طورسيناء جنوبا ، ومن البحر المتوسط غربا إلى بادية الشام شرقا ، والشام بذلك تشمل سوريا الحالية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن . وتجري فيها أنهار صغيرة أهمها العاصي المتجه إلى الشمال في سوريا ، والليطاني المتجه إلى الجنوب ، وبردى المتجه إلى الشرق مكونا بساتين دمشق المسماة بالغوطة ، ونهر الأردن الذي يصب في البحر الميت ، وفي أطراف الأردن الشمالية بحيرة طبرية . وبجنوبي دمشق هضبة حوران . وفي شمالي الهضبة الشرق منطقة اللجأ وفي جنوبيها الشرقى جبل الدروز . وتنساب الشام شرق حوران والأردن في بادية الشام المتممة لصحراء العرب . ومن قديم يُزرعُ بها القمح والزيتون والتين والفواكه ، وبها في الشمال أشجار الثقل المختلفة وهياً ذلك أهلها لكي يعرفوا الاستقرار من أعتق الأزمنة ، كما هياً البلاد لاندفاع بدو الجزيرة العربية إليها ، إذ تفيض عسلا ولبنا . وقد اندفعوا إليها في شكل هجرات كبيرة ، لعل أقدمها هجرة الأموريين إلى شماليها حوالي منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، وتلتها - وربما صحبتها - هجرة الكنعانيين أو الفينيقيين إلى السهل الساحلي . وقد استولى تحوتمس فرعون مصر حوالي سنة ١٤٤٠ ق . م على جزء كبير من الشام ، وظل الأموريون والفينيقيون خاضعين لمصر نحو قرن إلى أن شغلت عن ممتلكاتها في الشام لعهد

تغرى بردى والمغرب (قسم القسطاط) لابن سعيد وتاريخ ابن خلدون وتاريخ الدولة العربية وسقوطها لقلهوزن وتاريخ العرب - مطول لفيليب حتى (الترجمة العربية) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (نشر دار العلم للملايين) .

(١) انظر في تاريخ الشام القديم وزمن الدولة الأموية والولاة العباسيين كتاب تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتى (الترجمة العربية نشر دار الثقافة بيروت) وراجع في فتوحها وتاريخها الإسلامي تاريخ الطبرى وابن الأثير ، ومروج الذهب للمسعودى والنجوم الزاهرة لابن

إخناثون بسبب ثورته الدينية المعروفة . وتقد على الشام هجرة كبيرة من الجزيرة العربية هي هجرة الآراميين إلى الشام الأوسط ومنطقة دمشق وهجرة العبرانيين إلى فلسطين .

ولم يكوّن الفينيقيون لأنفسهم دولة في السهل الساحلي بل ظلوا جماعات صغيرة لكل جماعة أميرها في طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعسقلان وغزة ، وكانوا شعبا بحريا تجاريا ، وازدهرت تجارتهم بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد ، وكونوا لهم مستعمرات في إسبانيا ومراكز تجارية في كورسيكا وسردينيا وصقلية وكريت وساموس في اليونان . وقضى على النشاط التجارى لهذا الشعب الفتح الأشورى في القرن الثامن قبل الميلاد . وكون العبرانيون لأنفسهم مملكة أورشليم في القرن العاشر ق . م . وفيه بلغت ذروتها لعهد داود وسليمان ، ثم أخذت في الضعف حتى قضى عليها الأشوريون في القرن الثامن ق . م . ودمر بختنصر أورشليم في القرن السادس ق . م . وجلاهم عنها إلى بابل ، حتى إذا سقطت دولة بابل سنة ٥٣٩ ق . م . أذن كورش لمن يريد منهم العودة إلى أورشليم أن يعود . وظل الشام منذ هذا التاريخ تابعا للدولة الفارسية إلى أن فتحه الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٤ ق . م . وتولت بعده شثونه دولة السلوقيين اليونانية حتى انتزعه منها الرومان في القرن الأول ق . م . ولا انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية كان الشام من نصيب الامبراطورية الشرقية وظل تابعا لبيزنطة حتى استخلصه العرب منها .

وقد استطاع العرب الشماليون أن يقيموا مملكتين أو إمارتين لهم في أطراف الشام : إمارة النبط في شرق الأردن أقاموها منذ القرن الثالث ق . م وكان لها عاصمتان : بطراً في الجنوب بشرق الأردن وبُصرى في الشمال بالقرب من دمشق ، وكانت تتكلم العربية في أحاديثها اليومية بينما كانت تكتب نقوشها بالخط الآرامي ، وقضى الرومان على استقلالها سنة ١٠٦ للميلاد وضموها إلى دولتهم الرومانية . والمملكة الثانية مملكة تدمر شمالي بادية الشام ، وبلغت أوجها في القرنين الثاني والثالث للميلاد وخاصة في عهد أميرها أذينة ، وقد نصبه الرومان ملكا على سوريا جميعها وعادوا في عهد زوجته الزباء ، فقضوا عليها وعلى الإمارة في سنة ٢٧٣ للميلاد . ولم تلبث قبيلة عربية أن شقت طريقها إلى منطقة حوران جنوبي دمشق ، وهي قبيلة الغساسنة واستطاعت أن تقيم لها إمارة ، ولم تكن لها عاصمة مستقرة ، فقد كانت تنتقل من مكان إلى آخر ، فرة تتخذ عاصمتها في الجولان ومرة في جلق أو الجابية ، وكانت موالية لبيزنطة وتحارب في صفوفها ضد إيران وعرب الحيرة . ومن أهم أمراءها الحارث بن جبلة وهزيمته للمنذر صاحب الحيرة يوم حليلة بالقرب من قنشرين سنة ٥٥٤ مشهورة وفيها نحر المنذر صريعا . وما نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادي

حتى تتمزق وحدة هذه الإمارة ، ويتوزع أجزاءها غير أمير . ونستطيع أن نميز بينهم النعمان بن الحارث ممدوح النابغة وأخاه عمرو ممدوح حسان ، ولحق منهم الفتوح الإسلامية جبلة بن الأيهم وأسلم ، ثم تنصر ولحق ببيزنطة .

وحين دخلت الجزيرة العربية جميعها في دين الله الخفيف وانضوت تحت لوائه أحست دولة بيزنطة في الشام ودولة الفرس في العراق بأنها قوة ينبغي أن يُدْرَأَ خطرهما . وهو ماجعل أبا بكر الصديق يبادر بتجهيز الجيوش لتجاهد في سبيل الله ونشر دعوة الإسلام الدولتين الكبيرتين قبل أن تتآزرا على حرب الإسلام والمسلمين في الجزيرة شرقا وشمالا . وكان الفساد قد استشرى في حكم الدولتين واستشرى معه ظلم الرعية والبغي الأثيم . واستولى المسلمون من الفرس سريعا على جنوبي العراق ، وتوالت انتصاراتهم عليهم ، وبادر الصديق فسير في سنة اثنتي عشرة للهجرة جيشين لحرب البيزنطيين أو الروم في الشام : جيشا بقيادة يزيد بن أبي سفيان إلى البلقاء في شرق الأردن ، وجيشا بقيادة عمرو بن العاص إلى الجنوب الشرقي من فلسطين ، وكتب إلى خالد بن الوليد في العراق أن يلحق بجيشي الشام ، فلحق بهما وتولى قيادتهما ، وفتح بصرى شمالى البلقاء . ونازل الروم في أجنادين بفلسطين بين بلدتي الرملة وبيت جبرين الحاليتين ، وهي أول معركة كبرى بين العرب والروم ، وفيها سحقهم سحقا ذريعا ، وتقدم إلى الشمال حتى دمشق وظل محاصرا لها حتى استسلمت . وجمع الروم صفوفهم في اليرموك أحد روافد نهر الأردن فدمرهم خالد وجنوده ولم تقم لهم بعد ذلك في الشام قائمة وفتحت بلدانها جميعا أبوابها للعرب المنتصرين . وبذلك استولى العرب على الشام في نحو ستين .

وخرج عمر بن الخطاب في سنة ١٦ إلى الجابية - جنوبي دمشق على مسيرة يوم منها - وهي إحدى عواصم الغساسنة كما مر آنفا ، وبها عقد مؤتمرا ضمّ ولاية الشام وقوادها لتنظيم الإدارة في ديارها ، وفتحت له القدس أبوابها ، وأمن عمر النصارى بها ورهبانها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وحرمتهم الدينية ، والتمسوا منه أن يُخلى القدس من اليهود وأجاب ملتمسهم ولم يبق بها يهودى . وقسم الشام إلى أربعة أجناد : جند الأردن وجند فلسطين وجند دمشق وجند حمص ، وزيد فيما بعد لعهد الأمويين جند قنسرين والعواصم والثغور . واشتهرت سنة ١٨ للهجرة باسم سنة طاعون عمواس ، وكانت بلدة بين نابلس والرملة الحاليتين ، وفيه توفي أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ ابن جبل ويزيد بن أبي سفيان والى دمشق ، وولاها عمر بن الخطاب بعده أخاه معاوية . وامتد لواء ولايته لها في عهد عثمان حتى شمل الشام ، وعمل على الاستعانة بيدو الشام في

شئون الإدارة مما جعلهم يلتفتون حوله ، وظهر ذلك سريعا حين تولى الخلافة على بن أبي طالب ، وعزله ، فإنه سرعان ما طالب بدم عثمان وناصره بدو الشام .
وتطورت الظروف سريعا إلى أن نشبت حرب صيفين بين معاوية وبين علي بن أبي طالب كما هو معروف ، حتى إذا أيقن معاوية بالهزيمة أمر جنده - استجابة لمشورة عمرو بن العاص - أن يرفعوا المصاحف على أسنة رماحهم داعين إلى الاحتكام إلى كتاب الله . ورضى علي وأقيم حكمان للفصل بين الطرفين : أما جند على العراقيون ، فاختاروا أبا موسى الأشعري ، واختار معاوية وجند الشام عمرو بن العاص ، ويروى الجاحظ أن معاوية قال له : « ياعمرو إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبي موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وقد ضُمنَّ إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي فأجد الحزَّ وطبَّق المَفْصِل ، ولاتلقه برأيك كله » . وصدق حَدْس معاوية فقد استطاع عمرو أن يقنع أبا موسى بعزل علي عن الخلافة لوقف الحرب وحقن دماء المسلمين . وأعلن الحكم ، وانقسم جيش علي : فرقة معه وفرقة سَمَّتْ أنفسها الخوارج ، وهو أول ظهورهم في التاريخ الإسلامي وحاربهم ونكَّل بهم ، ولم يلبث أن اغتاله خارجي أثيم . وبذلك خلا الجو لمعاوية وخاصة حين أعلن الحسن بن علي تنازله عن الخلافة له . وقد بايعه جنده وأمرأؤه بالخلافة في بيت المقدس واتخذ دمشق حاضرة لخلافته .

(ب) زمن الدولة الأموية

أسس معاوية في الشام الدولة الأموية وتوزعها فرعان : فرع سفياني نسبة إلى أبي سفيان ، معاوية على رأسه وابنه يزيد ، وفرع مرواني من البيت الأموي نسبة إلى مروان بن الحكم ومن خلفه من أبنائه وأحفاده . وكان معاوية بعيد النظر سيوسا حازما ، وكان له بصير بالشخصيات من حوله ، فاستعان بطائفة من صفوة الحكام في مقدمتهم عمرو بن العاص في مصر ، والمغيرة بن شعبة الذي ولاه الكوفة ، وزيايد بن أبيه الذي اختاره للبصرة وإيران حتى إذا توفى المغيرة ضم إليه الكوفة وقد استطاع زياد أن يقضى على معارضة علي في شرقي الدولة وأن ينشر في ربوعه الأمن . ووجه معاوية حملات مختلفة إلى بيزنطة واستطاع حصار القسطنطينية مرتين ووجه حملة بحرية إلى قبرس ، وكانت دمشق قاعدة الخلافة في زمنه وكان يستعين بأهل الشام في شؤون الحكم وعيها الرخاء . وشمل المسيحيين بتسامح واسع واتخذ لنفسه مستشارا ماليا منهم هو سرجيوس ، إذ وكل إليه فيما يقال الشؤون المالية . ويبدو أنه كان حاكما لدمشق قبل فتحها . على كل حال استعان به

معاوية في الشؤون المالية لدمشق ، وظلت أسرته بعده في خدمة الأمويين فكان ابنه يشرف على الخراج لعهد عبد الملك ، وبالمثل استعان الأمويون بحفيده ، وفي عهده توغل عقبة بن نافع - ابن نخالة عمرو بن العاص - في البلاد المغربية ، وأسس في وسطها القيروان بتونس ، وواصل فتوحه في عهد معاوية وابنه يزيد حتى أشرف على المحيط الأطلسي .

ولما خلف معاوية ابنه يزيد أبي البيعة له عبد الله بن الزبير ولاذ بالحرم المكي ، كما أباهما الحسين ابن علي واتجه إلى العراق ، فلقبته طلائع جيش لعبيد الله بن زياد والى العراق قبيل دخوله الكوفة في «كربلاء» غربي الفرات ولما أبى الاستسلام نازلوه واستشهد الحسين ومن كان معه من أهله وأنصاره مما كان له أكبر الأثر في التطور السريع للشيعة ، ولا يخلو ضريحه طوال العام من حُجَّاجهم إليه حتى اليوم . وكانت المدينة قد انضمت إلى ابن الزبير فأرسل يزيد إليها جيشا بقيادة مسلم بن عقبة فنكل . بها وفي طريقه إلى مكة لحرب ابن الزبير توفي وخلفه حصين بن نمير السكوني ، فمضى حتى حاصر ابن الزبير بمكة وجاءه نعي يزيد بن معاوية ، ففكَّ عنها الحصار وعاد بجنده إلى الشام . وخلف يزيد ابنه معاوية وتوفي بعد أربعين يوما من خلافته . واضطربت العراق ، واضطر واليها عبيد الله بن زياد إلى مبارحتها ، وانتهز الفرصة مروان بن الحكم واعتلى عرش الخلافة يؤيده بدو الشام من اليمنية وأبى بدوها من القيسية مبايعته وهزمهم في موقعة مرج راهط ، وتبعته مصر ، أما العراق فظل الاضطراب سائداً فيها ، وبايع قسم منها ابن الزبير وقسم تحرك للطلب بدم الحسين وكان عبيد الله بن زياد فكر في العودة إلى العراق على رأس جيش فقضى عليه هذا القسم ، وحاول المختار الثقفي والى الكوفة أن يجمعه تحت لوائه وقضى عليه مصعب بن الزبير والى أخيه عبد الله على البصرة .

وكان مروان بن الحكم قد توفي وخلفه ابنه عبد الملك وسر سرورا عظيما لما حاق بالمختار الثقفي وجنوده على يد مصعب ، وأخذ يتحين الفرص للقضاء عليه في العراق وعلى أخيه عبد الله بن الزبير في مكة والحجاز ، أما مصعب فذهب إليه عبد الملك في سنة ٧١ للهجرة على رأس جيش ضخيم ، وقضى عليه ، وبايعه العراقيون . وأما عبد الله بن الزبير فأرسل إليه الحجاج في جيش كثيف ، وما زال به حتى تفرق عنه أصحابه ، وظل يستبسل في قتال القوم حتى خرَّ صريعا . وقد عُني ببناء المسجد الأقصى وتعريب إدارة الدولة واستطاع أخوه عبد العزيز واليه على مصر أن يقضى نهائيا على المعارضة في المغرب .

ويُعدّ زمن الوليد بن عبد الملك أزهى أيام مروانيين لفتوحاته العظيمة شرقا وغربا ، أما في

الشرق فاستطاع محمد بن القاسم فتح السند واستطاع قتيبة بن مسلم أن يمتد بانتصاراته إلى الإقليم المسمى الآن باسم أوزبكستان وعاصمته حينذاك سمرقند . وأما في الغرب فقد استطاع موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد أن يقضيا على الدولة القوطية في إسبانيا ، وأن يبلغا بفتوحها هناك أقصى الشما . وهذه الفتوح كانت تعود على الدولة بأموال عظيمة مم هياً لرخاء واسع في ديار الشام ، كما هياً للوليد نفسه أن يهتم في دمشق بالعمران وأن يقيم بها الجامع الأموى العظيم ويقال إنه عمل به من البيزنطيين وخدمهم ألف ومائتا عامل سوى من عمل به من الفرس وأهل الشام وقد زُيّنت جدرانها وسقفها بالرخام المطعم والفُسَيْفَسَاء التي كانت تمثل مدنا وأشجارا من كل نوع سوى ما كان فيه من أعمدة وتزاويق عجيبة .

وخلف الوليد أخوه سليمان واتخذ بلدة الرملة بفلسطين حاضرة له . وكان من سوء تدبيره أن نكّل بقواد الوليد العظام ، فقتل قتيبة ولم يعرف مصير موسى بن نصير ولا محمد بن القاسم ، وحسنته الوحيدة انه استخلف بعده ابن عمه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، وقد ألغى سبباً على بن أبي طالب على المنابر وعمل على استمالة الشيعة والخوارج والنصارى وخفف من ضرائب الجزية المفروضة على الأخيرين في قبرس وأيلة (العقبة) ونجران ومصر ، وسوى بين العرب والموالى في الضرائب وأعفى منها المشتركين منهم في حرب خراسان مع فرض أعطيات لهم ، غير أن حكمه كان قصيرا من سنة ٩٩ إلى ١٠١ . ولم يأخذ خلفاؤه بإصلاحاته ، وعجل ذلك باضمحلل الدولة . وأولهم بعده يزيد بن عبد الملك الذى لم يأخذ بسيرته وإصلاحاته وانغمس في الملاهى ، وتلاه بعد نحو أربع سنوات أخوه هشام الذى اتخذ مقره في الرصافة على الفرات ، وفي عهده ثار زيد بن علي بن الحسين في الكوفة سنة ١٢١ وقتل وصُلب ، واستغل ذلك دعاة العباسيين مما مهد السبيل لقيام خلافتهم بعد نحو عشر سنوات . ومضى عرب الأندلس بهزيمتهم جنوبى فرنسا سنة ١١٤ للهجرة أمام شارل مارتل .

وتوفى هشام سنة ١٢٤ وخلفه عهد تضعضعت فيه الدولة الأموية وآذنت شمسها بالمغيب ، فقد خلفه ابن أخيه الوليد بن يزيد وكان شاعرا ماجنا فلقى مصرعه سريعا ، وجاء بعده يزيد بن الوليد وسرعان ماتوفى بعد خلافته بنحو خمسة أشهر وتلاه أخوه إبراهيم ولم يرضه الناس ولا الأسرة الأموية ، وتحولت مقاليد الخلافة إلى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وكأنه لم يعد في أسرة عبد الملك من يصلح لها . وكان محاربا على الهمة ، وأخطأ بنقله عاصمة الخلافة إلى حرّان ، فانفض عنه بدو الشام ، ونشبت فتن كثيرة أضعفت قواه ، بعضها في الشام وبعضها في

العراق حيث الخوارج والشيعة . ولم تكد هذه الفتن تهدأ حتى تحرك العباسيون براياتهم السود من خراسان ، وأخذت المدن الإيرانية تسقط في أيديهم ودخلوا العراق واسترلوا على الكوفة ومضوا إلى شمالى العراق وهزموا مروان عند الزاب الأكبر ، فأخلى الجزيرة واتجه إلى الشام وتخلّى عنه أهلها ، فالتجأ إلى مصر ، ولقى مصرعه بها في بوضير . وكان السفاح قد أعلن الخلافة العباسية في الكوفة وطورد الأمويون في كل مكان وأيدوا بوحشية ، ونُبِشت قبور خلفائهم - عدا معاوية وعمر بن عبدالعزيز - وأذريت عظامهم ورفاتهم في الهواء ، ونجا من هذا البطش والتكال عبد الرحمن الداخل أحد حفدة هشام بن عبد الملك ، إذ فرّ إلى الأندلس وأسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثة قرون .

(ج) زمن الولاة العباسيين

فقدت الشام - بسقوط الدولة الأموية - السيادة المطلقة في الإسلام وفقدتها العرب معهم تدريجاً . إذ أخذ الاعاجم يشغلون المناصب العليا في الدولة العباسية ، وكان العباسيون يعرفون أن دولتهم إنما قامت على أسنة رماحهم ، فقربوهم منهم وفسحوا لهم في الوزارة وغير الوزارة . وكان لذلك صداه السيئ في نفوس أهل الشام ، مما هباً بعد نحو عشرين عاماً لثورة القيسية في قيسرين بزعامة أموى هو أبو محمد السفينى ، وسرعان ما قضى عليها العباسيون وفرّ السفينى إلى الحجاز ولقى حتفه هناك ، ولم يصدق أتباعه وفاته فظلوا يترقبون عودته ليجدد للشام مجده الغابر .

ونمضى إلى سنة ١٩٥ في عهد الخليفة الأمين فيظهر في دمشق سفينى جديد هو على بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفينان ، ويطرد عامل الأمين عن دمشق ، ويبايعه الدمشقيون بالخلافة . وشغل عنه الأمين بحرب أخيه المأمون مدة . ولم يلبث أن قضى على ثورته . أعوان الأمين واختفى بالميزة بالقرب من دمشق وأقام بها أياماً ومات . وفي سنة ٢٢٧ لعهد المعتصم ثار بفلسطين المبرقع أبو حرب اليماني وزعم أنه السفينى المنتظر ودعا أولاً إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن قويت شوكته فادّعى النبوة ، وتبعه قوم من فلاحى القرى وقوى أمره وسار إليه أحد قواد المعتصم في ألف فارس وأسره وحبسه ومات في حبسه .

وكان أول من تولى الشام للسفاح عمه عبد الله بن على بعد قضائه على مروان بن محمد في موقعة الزاب حتى إذا فرّ مروان إلى الشام مضى يتبعه إلى دمشق ففتحها وهدم سورها وقتل من الأمويين ثمانين رجلاً في مذبح مشهورة ببلدة الرملة . وولاه السفاح دمشق ، ولما ولى الخلافة بعده

أبو جعفر المنصور ، خرج عليه عبد الله ودعا لنفسه فهزمه أبو مسلم الخراساني ، وحبس المنصور ومات في حبسه . وتولى أمر الشام ودمشق بعد عبد الله كثير من الولاة وكان بعضهم من الأعاجم مؤيدى الدولة . واتبع العباسيون سياسة غير حكيمة أن لا يبقوا والياً لهم في بلد إلا مدة قصيرة . وكان هذا سبباً في أن لا يُعنى الولاة بالنهوض ببلدانهم من جهة ، كما كان سبباً في أن يحاولوا الإثراء سريعاً قبل أن يُعزلوا من مناصبهم ، مما كان يدفعهم في كثير من الأحيان إلى الزيادة في الضرائب ، كما كان يدفع الناس إلى الثورة عليهم ، وسرعان ما كان يقضى على ثوراتهم كما حدث في حلب سنة ١٦٢ وفي حمص سنة ١٩٤ .

ويبدو أن القبائل القيسية واليمينية لم تتعظ بما أصابها من فقدان موطنها لاستقلاله الذاتي ، فقد اندلعت بينهما نار العصبية القديمة وأخذوا يمدونها بحطب جزل طوال العقد الثامن من القرن الثاني ، واغتنمت السوق بدمشق الفرصة فنهبت ما استطاعت أيديها نهبه ، وتطاحن الفريقان وسُفكت دماء المئات منهما . وأخيراً أرسل اليهما هرون الرشيد وزيره جعفرًا البرمكي ، فأطفأ نار العصبية المحتدمة بين الطرفين بتجريدتهما من السلاح وعاد إلى دمشق الهدوء والسلام . وفي سنة ٢٢٧ يولى المعتصم موسى بن إبراهيم الرافقي دمشق فتشور عليه القيسية ويقتل منها خمسة عشر نفساً ، فتشتد ثورتها وتحاصر دمشق ، ويتوفى المعتصم فيرسل الواثق خلفاً له أحد قواده فيهزم القيسية ويقتل منها ألفاً وخمسمائة ، وتهدأ الثورة ، ويعود الأمن إلى دمشق .

وكان الخلفاء العباسيون يرحلون إلى الشام أحياناً ، لزيارة بيت المقدس أو للحج منه ، وأكثر رحلاتهم إنما كانت لحرب البيزنطيين ، والسقوط عليهم من ثغوره . ومما يذكر لهم أنهم أقاموا في حدوده الشمالية كثيراً من الثغور للدفاع منها إلى آسيا الصغرى . وكانت جيوشهم مائتاً ذاهبة إلى شمالي الشام آبية منه ، مما عاد عليه بكثير من الرخاء وانتعاش التجارة . واشتهر المهدي والرشيد بنضالهما لبيزنطة وما كان من فتح هرقله وضرب البيزنطيين ضربات قاصمة . وأخذ المأمون منذ سنة ٢١٥ يقود حملات عنيفة لمدة ثلاث سنوات متوالية استولى في أثناءها على لؤلؤة أقوى وأمنع الحصون البيزنطية بالقرب من طرسوس ، مما اضطر تيوفيل إمبراطور بيزنطة إلى التماس الصلح . وفي سنة ٢٢٣ دق المعتصم وقواده أعناق البيزنطيين دقاً وأوطئوهم ذلاً وصغاراً إذ هدموا أنقرة وحرقوا عمورية أمنع بلادهم في آسيا الصغرى . وظل قواده من أمثال محمد بن يوسف الثغرى وابنه يوسف يكيلون لهم ضربات ساحقة . ويظل غزو البيزنطيين صيفاً في أيام الخليفة المتوكل ، ويغيرون على بعض الثغور في شمالي الشام . وينكل بهم على بن يحيى الأرمني والفارس المغوار عمر

ابن عبدالله الأقطع ، ويتم فتح صقلية ، ويدمر أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول البيزنطيين . وزار المتوكل الشام في آخر سنة ٢٤٣ ودخل دمشق وأعجبته ، وبني له قصرًا بالغوطة وعزم على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها . ويفطن قواده من الترك إلى مأربه ، وأنه يريد التخلص منهم ، فطالبوا برواتبهم حتى يضطروه إلى العودة إلى سامراء عاصمته في العراق . ونزل على إرادتهم ، وبارح دمشق سريعاً . وربما كان من أهم ما خلفه عصر الولاة العباسيين بالشام كثرة العناصر الفارسية التي دخلته بين ولاة وقضاة وعلماء وفقهاء مختلفين .

(د) الطولونيون - القرامطة

١- الطولونيون^(١)

كان أحمد بن طولون تركي الأصل خدم العباسيين وولى مصر فأنشأ بها الدولة الطولونية محققاً لها نوعاً من الاستقلال الذاتي ، وكان قد ولى إمرة الثغور وجاهد في سبيل الله . ويقول مؤرخوه إنه نشأ يُعنى بالفقهِ مع كثرة الدرس وطلب العلم ، وكان يقول : ينبغي للرئيس أن يجعل اقتصاده على نفسه وسماحته على من يقصده ويشتمل عليه ، فإنه يملكهم ملكاً لا يزول به عن قلوبهم ، وقد غم الرخاء مصر منذ وليها في سنة ٢٥٤ ويقال إنه كان يتصدق في كل يوم بمائة دينار غير ما كان يرسله إلى الشام والعراق والحجاز . ومنذ توليه مصر وضع نصب عينيه الاستيلاء على الشام ، ولم يكن ذلك غائباً عن فكر الموفق القائم على تدبير دولة أخيه المعتمد ، غير أنه كان مشغولاً بثورة الزنج والقضاء عليها ، وانتهر ابن طولون الفرصة بعد موت والي دمشق سنة ٢٦٤ وأتاب عنه بها مولاة لؤلؤاً ولم يلبث في سنة ٢٦٨ أن أظهر الخلاف عليه وضرب نقوداً باسمه وكاتب الموفق ليرسل إليه جيشاً يفتح به مصر . وخشى ابن طولون أن يهزم الموفق بتلبيته ، فأرسل إلى الخليفة المعتمد وكان كالمحجور عليه يرغبه في الرحيل إليه بمصر ، وتوجه إلى سوريا كي يكون في استقباله . وعزم المعتمد على اللحاق به وتنبه الموفق ، فحال بينه وبين الرحيل عن العراق . ومضى ابن طولون يغاضب الموفق فقطع اسمه من الخطبة يوم الجمعة بمصر والشام إذ كان يُذكر فيها ولياً

(١) الإسلام وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٠.

(١) راجع في هذه الدولة كتب التاريخ السالفة في أول الفصل وسيرة أحمد بن طولون للبلوي ودائرة المعارف

للعهد ، ولم يردّ على ذلك الموفق إذ كان يميل معه إلى السلام . ولذلك لم يرسل إلى لؤلؤ جيشاً لغزو مصر . وعادت الشام إلى ابن طولون سريعاً .

وكان عهد ابن طولون في الشام عهد رخاء وأمن ، ويقال إنه أول دخول له في دمشق وقع بها حريق ، فأمر بأن يعطى لكل من احترق له شيء من المال ما يعوّضه ، ثم أمر بمال عظيم ففرّق في فقراء دمشق والغوطة . وتوفي سنة ٢٧٠ فخلفه ابنه خمارويه ، وثار عليه واليه على دمشق وولاية آخرون هناك . وأيدهم الموفق بجيش ، فمضى خمارويه بالهزيمة ، وتتابعت هزيمته في سنتي ٢٧١ و٢٧٢ . وأخذ نجمه في الصعود لسنة ٢٧٣ إذ كتب إلى الموفق في الصلح فأجابته ، وكتب له بولايته على مصر والشام والثغور لمدة ثلاثين سنة . وسرّ خمارويه سروراً عظيماً ، وأمر بإعادة الدعاء للموفق في خطبة الجمعة ، وكان يتردد على الشام بجيشه الضخم كثيراً ، مما كان يعود على أهلها بروج واسع في التجارة . وبدمشق قتله خادم له في قصره سنة ٢٨٢ ويقال إن هذا الخادم كان أولع بجارية له فتهدها خمارويه بالقتل فانفقت مع الخادم على قتله . وسرعان ما أخذت شمس الدولة الطولونية في الغروب ، وولى بعده ابنه « أبو العساكر جيش » وعكف على الشرب واللهو فنفر القواد - ونفرت الناس - منه . وخلعه أخوه هرون بعد ولايته بتسعة أشهر ، وكان لا يزال صبياً ضعيفاً ، فأخذت الدولة في التضعف ، وعاث القرامطة فساداً في الشام ، ولم يستطع قواده وجنوده أن يردوهم عن دمشق وغيرها فاستغاث أهل الشام بجيوش الخليفة المكنفي وأغااثهم . ووضح أنه لم يعد يوجد أي مسوغ للإبقاء على الأمير الطولوني المستضعف ، وخلفه عمه شيبان وكان لا يقل عنه ضعفاً ، ومنه تسلم مصر محمد بن سليمان سنة ٢٩٢ .

٢ - القرامطة (١)

كان أول ظهور القرامطة في العراق سنة ٢٧٧ ، وهي حركة سياسية دينية خطيرة تحدثنا عنها بالتفصيل في كتابنا العصر العباسي الثاني ، وأوضحنا كيف بدأت بإيحاء من عبد الله بن ميمون

ص ١٢٦ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان
ص ٢٢٩ وكتابنا العصر العباسي الثاني ص ٣٣ وما بعدها .

(١) انظر في القرامطة كتب التاريخ وخاصة الطبري ،
وكتب الملل والنحل وخاصة الفرق بين الفرق للبغدادي ،
ودراسات في العصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز الدوري

القدّاح منظم الدعوة الإسماعيلية الشيعية من مركزه في « سَلْمِيَّة » بالقرب من اللاذقية . وكيف أنه أرسل دعواته إلى العراق وخاصة الكوفة وسوادها وعلى رأسهم الحسين الأهوازي ، وقد التقى في لسواد بنبطنى يلقب بقرمط ووجد فيه أمنيته من التحمس الشديد للدعوة . ولما دنا أجله عهد إليه بها فنظمها . وتبعه كثيرون مكونين فرقة القرامطة نسبة إليه ، وسرعان ما تحولت الفرقة إلى فرقة مارقة تُحلُّ أتباعها من الفرائض الدينية وتفرض عليهم نظاما اشتراكيا في الأموال . وانضم إلى قرمط قليل من الطبقة الكادحة لا في السواد والريف فقط بل أيضا في المدن ، ومن أهم أتباعه الحسين بن بهرام الجنابي الفارسي الذي نشر الدعوة في البحرين والأحساء . ويخلفه في سنة ٢٨٩ زكرويه القرمطي وكان أكثر نشاطا من قرمط ، فرأى أن يعنى بنشر الدعوة بين البدو في جنوبي العراق ولم يتبعه إلا القليل ، حينئذ أرسل أولاده يحيى والحسين ومحمدا إلى عشائر قبيلة كلب في بادية الشام وزعموا لها أنهم من سلالة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتبعهم كثيرون وخاصة بني العليّص . وكانوا قد جعلوا زعامتهم لأخيهم يحيى فبايعه البدو وكانت له عضد ناقصة فكشفها لهم وقال إن هذه آيته . وآية له ثانية هي ناقته ، وزعم أنهم إذا تبعوها في لقاء عدو كُتِب لهم النصر المبين . وساق جموعه في الشام يعيشون ويفسدون ، وحاصر بهم دمشق فقتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا به خليفة له ، وأظهر لهم شامة في وجهه المثلث وقال إنها آيته ، ولذلك لُقّب صاحب الشامة . وخافه أهل دمشق فصالحوه على خراج يؤدونه إليه ، وتغلب على حمص وخطب على منابرها بأنه المهدي المنتظر ، وهاجمت جموعه بعلبك وحماة والمعرة تقتل وتنهب . وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية كما مر بنا ، وكانت تعاني ضعفا شديدا ، فلم تستطع أن تنقذ الشام من القرامطة وما أحدثوه بها من الفوضى والدمار ، مما جعل أهل الشام يستغيثون منهم بالخليفة المكتفي ، ولبي استغاثتهم فأرسل إليهم محمد بن سليمان على رأس جيش كثيف ، فواقع القرامطة بالقرب من حماة في المحرم سنة ٢٩١ وأنزل بهم هزيمة ساحقة ، وفرّ كثيرون منهم إلى البوادي . أما الحسين بن زكرويه فاتجه إلى الفرات ، وأسر هناك وصُلب ببغداد مع عشرات من القرامطة . وكان أخوه محمد لا يزال حيا بين بدو الشام ، فأخذ في جمعهم حوله ، حتى إذا كانت سنة ٢٩٣ أغار بهم على دمشق وحارب أهلها ودخلها وأعمل فيها القتل والنهب ، ثم صار إلى طبرية فانتصر على أهلها ودخلها وفتك بكثير من رجالها ونساءها وعاد إلى البادية . وفي نفس السنة أرسل زكرويه داعية له يسمى أبا غانم إلى بادية الشام ، وتبعه كثيرون ونهب بهم بُصري وأذرعات ، وتعقبت جنود الخلافة ولم يلبث أحد أتباعه أن قتله . وبذلك تنتهي حركة

زكرويه وأولاده ودعاته في الشام ، وكانت قد أصبحت منذ انتصار محمد بن سليمان على صاحب الشامة تابعة لبغداد ، ترسل إليها ولاية مختلفين .

(هـ) الإخشيديون - الحمدانيون (سيف الدولة)

١ - الإخشيديون (١)

الإخشيد هو محمد بن طُغج ولى مصر فأسس بها الدولة الإخشيدية سنة ٣٢٣ وما تُقبل سنة ٣٢٨ للهجرة حتى تحدّث محمد بن رائق صاحب دمشق نفسه بالاستيلاء على مصر ، ويلتقى به الإخشيد في الفرما ، ويتم بينهما الصلح . وسرعان ما ينقضه ابن رائق ويتهياً للإخشيد لقتاله ، ويلتقيان ثانية في العريش وتحدث بينهما وقعة عظيمة . ويصطلحان على أن تكون للإخشيد الرملة وجنوبها في فلسطين ، أما شمالها من بلاد الشام جميعاً فتكون لابن رائق . وحدث في سنة ٣٣٠ أن قتل الحمدانيون محمد بن رائق وانتزح الفرصة للإخشيد وجهاز الجيوش إلى الشام واستولى عليها ، ودخل دمشق وأصلح أمورها وأقام بها مدة ، ثم عاد منها إلى الفسطاط في السنة التالية . ووقعت بينه وبين سيف الدولة الحمداني أمير حلب وحشة امتدت من سنة ثلاث وثلاثين إلى أول سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، واصطلحا على أن تكون لسيف الدولة حلب وحمص وأنطاكية وتظل بقية بلاد الشام للإخشيد . وسرعان ما توفي بدمشق سنة ٣٣٤ مستخلفاً بعده على مصر والشام ابنه أنوجور وعاهداً إلى مولاه كافور الإخشيدى بتدبير أمور مملكته . وفي أوائل إمارة أنوجور لسنة ٣٣٥ استولى سيف الدولة الحمداني على دمشق ، فحشد له أنوجور عسكرياً ضخماً ولقيه في مدينة الرملة ، ونشبت بينهما وقعة طاحنة انكسر فيها جند سيف الدولة وسار المصريون وراءهم إلى حلب . واستقر الأمر على الصلح وأن يظل لسيف الدولة ما بيده من حلب وحمص وأنطاكية ، أما دمشق وبقية الشام فتظل لأنوجور . وينزل المتنبى مصر في أيامه سنة ٣٤٦ ويتوفى أنوجور سنة ٣٤٩ قبل مبارحة المتنبى لها ويخلفه أخوه على ويظل كافور قائماً بتدبير الدولة وتصريف شئونها . وفي سنة ٣٥٢ قدم قرامطة البحرين إلى الشام وعاثوا فيها فساداً ولم يستطع جند مصر دفعهم عنها لاضطراب أعمال الديار المصرية بسبب عظم الغلاء وكثرة الفتن ، وفسد في أثناء ذلك ما بين على

خلكان وخطط المقرئى ٦١٧/١ ومصر في عصر الإخشيديين للدكتورة سيدة كاشف.

(١) انظر في الإخشيديين كتب التاريخ المذكورة في أول الفصل وخاصة النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى، وانظر ترجمة الإخشيد وكافور في ابن

ابن الإخشيد وكافور ولم يلبث على أن توفي سنة ٣٥٥ وتولى أمر الدولة في مصر والشام بعده كافور الحبشي باتفاق من أعيان مصر وجندها . وكان الإخشيد اشتراه من بعض رؤساء مصر وأعتقه ورقاه حتى جعله من كبار قواده لما رأى فيه من الحزم وحسن التدبير ، وكان شجاعاً مقداماً . وظلت ولايته على مصر والشام إلى وفاته في جمادى الأولى سنة ٣٥٧ وتولّى بعده على بن أحمد بن الإخشيد، وكان صبيها، واضطربت أحوال الشام في عهده اضطراباً شديداً بسبب غارات القرامطة المتكررة وما كان يصحبها من الفوضى والنهب والسلب. وسرعان ما سقطت مصر في يد الفاطميين لسنة ٣٥٨ وبذلك انقرضت دولة الإخشيديين.

٢ - الحمدانيون^(١) (سيف الدولة)

منذ أواخر القرن الثالث الهجري أخذ يتألق اسم أسرة تغلبية عربية هي الأسرة الحمدانية ، وقد استطاع مؤسسها حمدان في سنة ٢٧٧ أن يستولى على قلعة ماردين في الموصل ، وأخذت أسماء أبنائه وأحفاده تلمع في أحداث الخلافة المضطربة ، ولمع من بنيه مبكراً اسم أبي الهيجاء لاستيلائه على مدينة الموصل سنة ٢٩٣ وظلت في يده ويد ابنه ناصر الدولة وحفيده أبي تغلب المتوفى سنة ٣٦٩ . وقد استطاع ابنه على الملقب بسيف الدولة أن يستولى من الدولة الإخشيدية على حلب وحمص واللاذقية وأنطاكية وأسس فيها جميعاً إمارة مستقلة منذ سنة ٣٣٣ للهجرة متخذاً حلب عاصمة له . وحاول الاستيلاء على دمشق من الإخشيد - كما مر بنا - غير أن المصريين ردوه على أعقابهم فاكتفى بإمارته . وندب نفسه لمهمة عظيمة طالما هيأ نفسه لها منذ شبابه ، وهي النهوض بعبء الحرب ضد الروم البيزنطيين . وكان أول لقاء له معهم في سنة ٣٣٦ إذ أغاروا على أطراف الشام ونهبوا وسبوا فلحق بهم وأذاقهم نكالا شديداً ، وردّ منهم كل ما سلبوه من أهل الشام . ويُكتَبُ له منذ السنة التالية مجد حربي عظيم ضد الروم ، ويسجله له لوحات شعرية ناطقة المتنبي الذي نزل بلاطه حينئذ ، ولزمه حتى سنة ٣٤٦ يسجل ويصور ملاحمه الحربية الساحقة للروم سحراً ذريعاً .

سامى الدهان) وراجع البيهقي للتعالي ١٥/١ وما بعدها ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع في الحمدانيين وسيف الدولة

(١) انظر في الأسرة الحمدانية وسيف الدولة كتب التاريخ السالفة والجزء الأول من زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم (طبع المعهد الفرنسي بدمشق - تحقيق الدكتور محمد

ومضى البطل الحمداني يدير مع الروم معارك باسلة كان ينصبُّ عليهم فيها سنويا كإعصار محرق مدمر ، وشاعره المتنبي من ورائه يتغنى بانتصاراته وبخوارقه البطولية حين تلم به كارثة ، إذ يتخلص منها في شجاعة نادرة . ومن أعظم بطولاته أنه كان يبني الحصون في أثناء نزاله للروم على نحو ما صنع بحصن مرّعش في سنة ٣٤١ وهو يكيل لهم ضربات قاصمة . وقد أنزل بهم صواعق الموت التي لا تبقى ولا تندر في سنة ٣٤٢ وأسر قسطنطين بن الدمستق وساقه بين يديه في دخوله حلب مظفراً منصوراً . وفي سنة ٣٤٣ جمع الروم له حشوداً هائلة من الترك والروس والبلغار والخزر بقيادة الدمستق ، وسرعان ما أخذ يدق أعناقهم دقا ، وهرب الدمستق على وجهه لايلى ، وأسر صهره بينما كان البطارقة يقتلون ويؤسرون ، وأخذ سيف الدولة عسكرهم بكل ما فيه . وسيف الدولة في أثناء هذه المعركة ووطيسها المستعري ببنى حصن الحدث شمالي مرعش والمسلمون يكبرون ويهتلون . وفي سنة ٣٤٥ أنزل بهم ضربات مدمرة . وكان ماينى يمد يد المساعدة لأخيه ناصر الدولة في نزاله للروم شمالي الموصل وكثيراً ما نازلهم هناك وفي شمالي الجزيرة . وما تقبل سنة ٣٤٦ حتى يكفهرّ الجوبين المتنبي وبين البطل العربي . ويرحل عنه وكأنما رحل معه مجده الحربي فقد واقع الروم في السنوات ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ولم يُنزل بهم ما تعود من التنكيل الشديد .

ولم يلبث البطل العظيم أن أصابه في سنة ٣٥٢ فالج في يده ورجله ورغم هذا الفالج النصفى نهض البطل من فراشه وصدّق بقوة هجوما للروم على حصن من حصون حلب . وفي سنة ٣٥٦ لبّى البطل نداء ربه ، وكان قد أوصى بأن يوضع خده في لحده على كَبِنَةٍ بقدر الكف جمعها مما علق بثيابه ودروعه وسلاحه من غبار غزواته للروم . ونفّدت وصيته . وكان يرعى العلوم والآداب أعظم رعاية . ولمع في بلاطه أكبر تلامذة أرسطو حتى زمنه : الفارابي المعلم الثاني . ولمع كثير من الشعراء والكتاب يتقدمهم المتنبي ، وعقد لهم الثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر » فصولا طويلة في الجزء الأول منه ، وفيه وفي أسرته يقول : « كان بنو حمدان ملوكا وأمراء أوجههم للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرّجاحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسط قلاذتهم ، وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحط الرّحال ، وموسم الأدباء ، ونخلة الشعراء » . وخلفه ابنه سعد الدولة ، وكان ابن عمه أبو فراس الشاعر المشهور عامل أبيه على حمص قد ظلم وأكثر من الظلم وكثرت الشكوى منه ، فقاتله وخرّ أبو فراس في ميدان الحرب صريعا . وفي نفس السنة علم باستعداد الروم لحربه ، فأسل إليهم قرغويه الحاجب وأسر وأفلت منهم وهزم أصحابه وخرّب نقفور كثيراً من بلدان الشام وأعمل النهب

والسلب . وعصى قرغويه سعد الدولة واستولى على حلب في أول سنة ٣٥٨ ولم يلبث نقفور أن استولى على انطاكية ، وظلت في أيدي الروم إلى أن فتحها السلاجقة سنة ٤٧٧ وأمضى معه قرغويه صلحا ذليلا ، واصطلح مع سعد الدولة الذي ظل أميرًا لحلب حتى توفي سنة ٣٨١ فخلفه ابنه سعيد الدولة ، وقد عقد مثل أبيه حلفا بينه وبين الروم ضد الفاطميين الخطر المشترك للطرفين ، وتوفي سنة ٣٩٢ . وخلفه ولدان له ، ولعب بهما لؤلؤ مولى جددهما واستولى على الأمور إلى أن توفي وقام مكانه ابنه منصور . وحاول ابن لسعد الدولة يسمى أبا الهيجاء أن يسترد إمارة آبائه ولم يلبث أن فرّ إلى بلاد الروم في مطلع القرن الخامس الهجري ، وبذلك انتهت إمارة الحمدانيين بحلب وشمال الشام ، ولم تكن إمارة لهم حقا إلا في عهد سيف الدولة المجيد

٢

الفاطميون - بنو مرداس - السلاجقة - الصليبيون - آل زنكى (نور الدين)

(١) الفاطميون^(١)

دولة شيعية إسماعيلية تأسست في تونس وتحوّلت إلى مصر بعد فتح قائدها جوهر لها سنة ٣٥٨ ، ولم يلبث أن أرسل إلى الشام جعفر بن فلاح على رأس جيش للاستيلاء عليها . ولم يلق مقاومة تذكر ، ودخل دمشق وخطب بها للمعز الخليفة الفاطمي في المحرم سنة ٣٥٩ ، وفي السنة التالية أعلن المؤذنون في الشام - بأمره - « حياً على خير العمل » شارة الأذان الشيعي . وأخذ القرامطة يغيرون على دمشق ومدن الشام وكان يردهم جعفر بن فلاح ، ولم يلبث كبيرهم في البحرين الحسين بن أحمد - كما مر بنا في الحديث عن الجزيرة العربية بعصر الدول والإمارات - أن قطع علاقته بالفاطميين في مصر وأعلن خضوعه للخلافة العباسية ، وسأل الخليفة المطيع بالله العباسي على لسان عز الدولة البويهى أن يوليه مصر والشام ويعطيه مالا وسلاحا لحرب المعز لدين الله ، وأمدّه عز الدولة بالسلاح والمال في سنة ٣٦٠ وقيل بل في سنة ٣٦٢ فسار إلى الشام وملكها ولعن المعز الفاطمي وأباه على منبر دمشق ، وأقام الدعوة للعباسيين ، وسار إلى القاهرة بعساكره وحصلت - بالقرب منها - بينه وبين المعز مناوشات ، وتقهقر المعز ، وأغرى قواده بالمال فخرجوا

الوزارة لابن الصيرفي وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي (طبع ليدين) في السنوات ٣٦٣-٥٥٥ واتعاط الحنفا بأخبار الخلفاء للمقرئزي وكتابه المخطوط ٢١/٢ والفاطميون في مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن.

(١) انظر في الفاطميين بالشام كتب التاريخ العامة: ابن الأثير وابن خلدون وابن تغري بردى وابن خلكان في تراجم الخلفاء وجوهر الصقلي والمغرب لابن ربيع (قسم القاهرة) وتاريخ مصر لابن ميسر والإشارة إلى من نال

عليه وانضموا إلى المعز ، فعاد إلى الرملة بالشام ومنها إلى البحرين . وكان ذلك أول اضطراب شديد حدث في الشام لعهد الفاطميين وانتشرت في أثنائه وبعده الفوضى في دمشق واشتعلت النار في كثير من أحيائها .

وظل الفاطميون مسيطرين على الشام نحو قرن ، قلما وجدت فيه أمنا وسلاما بسبب كثرة الولاة الذين كانوا يولونهم عليها ، فكان هم الوالي أن يثرى بسرعة على حساب أهلها وما يفرض عليهم من الضرائب ، وقد وليها لهم نحو خمسين والياً ، وكثيراً ما كان يتولاها اثنان أو أكثر في العام الواحد . وبسبب ظلم الولاة وكثرة الضرائب كانت تنشأ أحيانا ثورات محدودة لبعض العيارين بها كثورة قسام الحارثي سنة ٣٧٧ لعهد العزيز الفاطمي . وخلف العزيز ابنه الحاكم بهوسه وشذوذه النفسى ودعواه الألوهية مما صورناه في قسم مصر ، وكان من أهم من أغراه بدعوى الألوهية رجل يعرف بالدرزى أمره الحاكم أن يخرج إلى الشام وينشر تلك الدعوة في الجبال ، فنزل هناك وتبعه كثيرون من جبل حوران في سوريا المعروف باسم جبل الدروز ، وانتشرت الدعوة بين سكان الإقليم الجبلي بلبنان ، ولاتزال في المنطقتين إلى اليوم ، وسقطت منها أسراب إلى جبال فلسطين وإلى الجبال في أعلى الشام على نهر العاصي وقرب أنطاكية . ومن المؤكد أن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية هي التي دفعت الحاكم ودعائه إلى ربوبيته إذ كانت تردّد - كما مر بنا في قسم مصر - أن الخلفاء تجسّد للذات العلية . وكان طبيعياً في عهد هذا الخليفة الشاذ المحبول أن تضطرب شئون الحكم في الشام . وكان أبوه وجده يستعينون ببدا الجزيرة العربية الشماليين من طيى ورؤسائهم بنى الجراح ، ونرى حينئذ حسان بن المفرج بن دغفل لا يكتفى بإقطاع الفاطميين لأبيه مدينة الرملة ، بل يستولى على أكثر الشام ، ويحاول أن يخلع الحاكم ، ويولى مكانه أبا الفتوح أمير مكة الحسنى ، ويقدم عليه أبا الفتوح ، غير أن الحاكم يغرى ابن المفرج بالأموال فينفض يده من أبي الفتوح ويعود إلى إمارته .

(ب) بنو (١) مرداس

كانت حلب قد دخلت في حكم الفاطميين منذ سنة ٤٠٦ ولانمضى طويلاً في سنة ٤١٥ حتى يستقل بها صالح بن مرداس الكلابي ويضع في سنة ٤٢٠ يده في يد حسان بن المفرج الطائى ويجمعان الجموع ويستوليان على الأعمال في الشام وينتهيان إلى غزة ، ويلتقى بهما جيش فاطمى ،

(١) انظر في بنى مرداس كتب التاريخ العام وزبدة الحلب

من تاريخ حلب : الجزءين : الأول والثانى .

فينهزم حسان ويقتل في المعركة صالح وابنه الأصغر ، ويخلفه ابنه شبل الدولة نصر . وطمع صاحب أنطاكية في حلب ، وجمع لها الجموع وأحاط بها وقاتل أهلها ، ولم يلبث نصر أن خرج إليه وفتك بمعظم جنوده وفر على وجهه وغنم منه نصر عسكره وأموالا عظيمة . وتوفي نصر سنة ٤٢٩ وخلفه أخوه ثمال وخضع للفاطميين وتوفي سنة ٤٥٤ . ونشب خلاف بعده على حكم البلدة بين أخيه عطية وبين محمود بن نصر واصطالحا . وتخلص حلب لمحمود منذ سنة ٤٥٧ ، ويواقع الروم ويهزمهم ويراسل ألب أرسلان السجلقوق ويستقر بينهما الأمر على إعادة الدعوة العباسية والخضوع للسلاجقة . وفي أيامه قاد ألب أرسلان حملة مظفرة ضد دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها « رومانوس ديوجين » سنة ٤٦٢ وفدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، على نحو ما مر بنا في حديثنا عن السياسة بالعراق في الجزء السابق من عصر الدول والإمارات . وظل محمود أميراً لحلب حتى سنة ٤٦٧ وأعاد بها ذكرى الحركة الأدبية التي أحدثها بها سيف الدولة ، فالتف حوله كثير من الأدباء والشعراء ، وخلفه ابنه نصر وكان محبوبا من الحلبيين غير أن الموت اختطفه سريعا بعد نحو عام من ولايته ، وجاء في إثره أخوه سابق حتى نهاية سنة ٤٧٢ إذ سلم البلدة لمسلم بن قريش العقيلي صاحب الجزيرة فبقيت معه نحو خمسة أعوام وتسلمها منه السلاجقة .

(ج) السلاجقة^(١)

مر بنا في حديثنا عن العراق بالجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي حديث مفصل عن السلاجقة واستيلائهم على دفة الحكم في خراسان وإيران والعراق ، وقد أنزل ألب أرسلان بإمبراطور بيزنطة هزيمة ساحقة كانت إرهابا قويا لزوال الحكم البيزنطي من آسيا الصغرى كما حدث فعلا . وكان طبيعيا أن يفكر ألب أرسلان وابنه ملكشاه في الاستيلاء على الشام ، وسرعان ما ظهر في سنة ٤٦٣ أتسز بن أوق الخوارزمي في فلسطين واستولى على الرملة وبيت المقدس ، وفي سنة ٤٦٨ استولى على دمشق ، وبذلك أصبح أكثر الشام تابعا للسلاجقة . حتى إذا كانت سنة ٤٧٢ تسلم تُتَشُّ بن ألب أرسلان من أتسز دمشق وأصبح نائبا فيها لأخيه ملكشاه ، وافتتح في سنة ٤٧٤ أَنْطَرطوس على ساحل البحر المتوسط ، وهي أول أعمال حمص ، ولم يلبث أن استولى على

وفيمن وليها بعده حتى استيلاء نور الدين عليها ابن خلكان

(١) راجع في سلاجقة الشام كتب التاريخ العام وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي وانظر في أتسز تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٣١/٢ وفي تنش ابن عساكر ٣٤٠/٣ وفيه

حمص نفسها . وظل ساحل الشام جنوبي صور تابعا لمصر . واستقل جلال الملك بن عمار قاضي طرابلس بها سنة ٤٧٠ وكان قد أقره عليها ملكشاه السلجوقي وظلت معه حتى أخذها الصليبيون سنة ٥٠٢ . وفي هذه الأثناء استولى على بن منقذ من الروم على حصن شيزر شمالي الشام سنة ٤٧٤ وظلت في يده ويد أبنائه إلى أن هدمتها زلزلة شديدة سنة ٥٥٢ . وكان سليمان بن قُتلمش استولى على أنطاكية سنة ٤٧٧ فحاربه تُتُش وخرَّ صريعا في الحرب سنة ٤٧٩ . وبذلك صارت إلى تُتُش واستولى على حلب سنة ٤٨٧ ، وقتل بالرى في حرب مع ابن أخيه بركياروق سنة ٤٨٨ . وخلفه على حلب ابنه رضوان ، ومن نوابه أخذ الصليبيون أنطاكية سنة ٤٩٢ وخلفه على دمشق ابنه دُقاق .

وتوفي دقاق سنة ٤٩٧ فخلفه عليها أتابكه « طُغْتِكِين » وأسس بها دولة البوريين وله في جهاد الصليبيين يد بيضاء وكان شجاعا عادلا في الرعية توفي سنة ٥٢٢ فخلفه ابنه بوري حتى وفاته سنة ٥٢٦ وكان قد قتل جماعة كثيرة من الإسماعيلية فسَلَطُوا عليه رجلين ضرباه بالسكاكين وظلت جراحه تبتقض وتندمل إلى وفاته . وخلفه ابنه إسماعيل ، وكان ظلما سيئ السيرة مجبا لسفك الدماء توفي سنة ٥٢٩ وكان أسوأ منه أخوه محمود الذي ولى بعده فقتله أمراؤه سنة ٥٣٣ وخلفه عاما واحداً أخوه محمد ، وتوفي فخلفه ابنه مجير الدين آبق . وكان باغيا ظلما ، وكان يضع يده في يد الصليبيين ضد نور الدين صاحب حلب غير مراعى إلا ولا عهدا . واستجار منه أهل دمشق مرارا بنور الدين حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ اضطر إلى تسليمها إليه وخرج منها ذليلا صاغرا . وكان تُتُش ولى تركمانيا يسمى أرتق بيت المقدس فاستقل به مؤسسا دولة الملوك الأرتقية ، وتوفي سنة ٤٨٤ فخلفه عليها ولداه سُكْمَان وإيلغازى ، ومنها أخذها الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٩١ وتوجها إلى بلاد الجزيرة وملكا - كما يقول ابن خلكان - ديار بكر .

(د) الصليبيون^(١)

كانت الدولة الفاطمية قد أخذت في التدهور منذ عهد الحاكم بسبب ما غرق الخلفاء الفاطميون فيه من ترف وما أصاب الحياة الاقتصادية من سوء حتى لقد عظمت المجاعة في عهد المستنصر (٤٢٧-٤٨٧ هـ)، وحاول بدر الجمالى أن يتلافى الأمور، فعمل على

واللغات الأجنبية وراجع تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان

(١) انظر في الصليبيين كتب التاريخ العام لابن الأثير وابن

تغرى بردى وابن خلدون وما كتب عنهم حديثا في العربية

إصلاحها ، ولكن الشام كانت قد أفلتت منه لإساحتها الجنوبية . وكان المظنون أن يرث السلاجقة تلك الدولة المنهارة ، غير أنهم اتبعوا في حكمهم نظاما سرعان ماضعضع دولتهم إذ اتخذوا فيها نظام الأتابكة ، وهو أن يكون مع كل حاكم لبلد أتابك أو بعبارة أخرى قائد يدير أمرها ، ولم يلبث نفوذ هؤلاء الأتابكة أن ازداد وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين . وبذلك تفككت سريعا أوصال دولتهم الضخمة وتحولت إلى دويلات على نحو ما مر بنا آنفا من دولة البوريين في دمشق والدولة الأرتقية في بيت المقدس ، حتى إذا قدم الصليبيون في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري لم يجدوا أمامهم قوة تدفعهم دفعا إلى البحر المتوسط وماوراءه فلا السلجوقيون محتفظون بقوتهم القديمة التي أزالوا بها بيزنطة ودفعوها من آسيا إلى أوروبا ولا الفاطميون محتفظون بشيء من القوة يستطيعون أن يدفعوا به عن بلدانهم الساحلية في الشام هذا الوباء الصليبي الجارف .

ويظهر الجيش الصليبي أمام أسوار أنطاكية سنة ٤٩١ للهجرة ويظل محاصرا لها حتى يستولى عليها سنة ٤٩٢ مؤسسا بها إمارة ، بينما يتسلل بلدوين إلى الرها في سنة ٤٩١ ويستولى عليها دون مقاومة تذكر ويؤسس بها إمارة هي الأخرى . واجتاز الصليبيون جبال النصيرية محاذين الساحل واستولوا سنة ٤٩٢ على بيت المقدس متخذين منه إمارة ثالثة جعلوا جودفري رئيسا لها ، ولم يلبث أن رقى عرشها بعده بلدوين الأول وعهدوا إلى الكونت ريموندى تولوز حصار طرابلس والاستيلاء عليها وظلت تقاومه سنين عددا حتى سقطت سنة ٥٠٢ واتخذوا منها إمارة رابعة لهم . وأخذ بلدوين في نفس السنة ينشط في غزو مدن الساحل : عكا وقيسارية وصيداء وبيروت وقاومته مقاومة صلبة . وخلفه أخوه بلدوين الثاني الذى استولى على صور سنة ٥١٨ ولم يفلح في الاستيلاء على دمشق وظلت أيدي الصليبيين أقصر من أن تصل إلى بلدان الشام الداخلية مثل بعلبك ودمشق وحمص وحماة وحلب .

(هـ) آل زنكى (نور الدين)

لم يلبث أن تنبه أتابك عظيم من أتابكة السلجوقيين هو زنكى عماد الدين التركمانى أمير حلب

من للمتظم والمختصر في أخبار البشر لأبي القدا والكواكب
الدرية في السيرة النورية لابن قاضى شهبه (طبع بيروت)
وابن خلكان ٢/٣٢٧ ، ٥/١٨٤ .

(١) انظر في آل زنكى ونور الدين التاريخ الباهر في الدولة
الأتابكية لابن الأثير وكذلك كتابه الكامل والجزء الخامس
لابن خلدون والجزء السادس من التجوم الزاهرة والعاشر

إلى أن الداء إنما يكمن في تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لحملة الصليب شيئا ودولا ، فصمم أن يجمع قوتها وكلمتها تحت لوائه ، وكان قد ركز لواءه على الموصل أولا ، فضم إليه حلب ومدن شمالى الشام مثل حماة وحمص وبعلبك . ومضى ينازل الصليبيين واستولى منهم على معرة النعمان وكفر طاب . ولم يلبث أن ضربهم ضربة قاصمة باستيلائه على مدينة الرها سنة ٥٣٩ للهجرة . وبذلك محار هذه الإمارة التي أقامها الصليبيون في بلب الدولة السلجوقية . ولم تكدمصى سستان على ما حقق من هذا المجد البطولى حتى عمتدت إلى جثمانه الطاهر أيد آئمة في الظلام سفكت دمه الزكى .

وكان قد أوصى عماد الدين زنكى لابنه غازى بالموصل ولابنه نور الدين محمود بحلب ، واقتنى البطل الشاب نور الدين جهاد أبيه للصليبيين ، ونازلهم تواسنة ٥٤٢ وأخذ منهم حصن أرتاح من أعمال حلب ، وأبطل في إمارته أذان الدولة الفاطمية بحى على خير العمل . وفى سنة ٥٤٤ هزم حملة الصليب هزيمة ساحقة إذ قتل منهم ألفاً وخمسمائة وفتح حصن فامية ، واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ كما مر بنا . وفى سنة ٥٥٢ ملك حصن شيرز بعد أن نقضه زلزال شديد . وفى سنة ٥٦٠ فتح بانياس عنوة . وكان بعيد النظر بعدا جعله يرى أن المفتاح الحقيقى للنصر على حملة الصليب هو مصر بإمكاناتها في المال والرجال ولكن ماذا يصنع وبها دولة منهارة ، وأحس أن حملة الصليب يشعرون أنها لقمة سائغة وخاف عليها منهم خوفا شديدا . ولم تلبث أن واته فرصة عظيمة فإن وزيرها ضرغاما وشاور تجاربا ، ولجأ إليه شاور مستغيثا ، فأجده بأمرين أيوبيين : شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ومحدثهما بما في نفسه من تخليص مصر من دولتها المريضة . وتتطور الظروف وتصبح مصر خالصة لصلاح الدين ويؤسس بها الدولة الأيوبية ومؤسسها الحقيقى ومنشئها إنما هو نور الدين . وكان ماينى ينازل حملة الصليب ، وفتح حصون «مرعش وإعزاز وحارم» وغير ذلك مما تزيد عدته على خمسين حصنا . وكان ملكا عادلا عابدا زاهدا ورعا ، بنى كثيرا من المدارس في بلدان الشام الكبار وكثيرا من الجوامع وبيمارستان دمشق وبها توفي سنة ٥٦٩ وخلفه ابنه وكان صبيا وبقي على حلب حتى توفي سنة ٥٧٧ ودخلت في حوزة صلاح الدين وحكمه .

الأيوبيون (صلاح الدين) - المماليك - العثمانيون

(١) الأيوبيون^(١) (صلاح الدين)

استقرت أمور الحكم وشئون الدولة في مصر بيد صلاح الدين سنة ٥٦٧ للهجرة، فعاد بمصر إلى الخلافة العباسية، وسار في نفس السنة لحرب حملة الصليب فحاصر الشوبك ورفع الحصار عنها، وعاد إليها في السنة التالية ثم تركها إلى مصر. وتوفي نور الدين كما ذكرنا وأخذ يفكر جادا في جمع كلمة البلدان المجاورة للصليبيين حتى يقضى عليهم قضاء مبرما. وخرج من مصر في سنة ٥٧٠ فاستولى على حمص وحماة والمعرة وكفرطاب، ويولَّى على حماة أخاه تقي الدين وعلى بعلبك ابن أخيه قُرخشاه ويستولى على منبج وإعزاز ويواقع الصليبيين في السنوات : ٥٧٣ و٥٧٤ و٥٧٥ وينصره الله عليهم نصرا عظيما. ويستولى على الموصل، وتبلغه وفاة إسماعيل بن نور الدين. ويخرج إلى الشام سنة ٥٧٨ في جيش جرار لجهاد حملة الصليب، وهي آخر مرة يفارق فيها مصر لحربهم ويظل ينازلهم عشر سنوات طوالا، وتتبعه حلب ويولى عليها ابنه الملك الظاهر. وفي سنة ٥٨٢ يقسم البلاد بين أبنائه وأمله فيعطى مصر ابنه العزيز عثمان وكان قد أعطى الظاهر حلب، ويعطى للأفضل ابنه دمشق ويعطى حماة والمعرة ومنبج لابن أخيه تقي الدين عمر، وسيتوالى هذا التوزيع. وهو من أكبر أغلاط صلاح الدين فإن بساطا قد يتسع لنوم عشرة من الرجال ولكن مملكة ضخمة لا تتسع لسلطان حاكمين، ولذلك لم تكد تمضى سنة على وفاته حتى دب الخلاف بين أبنائه ثم بين أمراء أسرته. ويَغْفِر له ذلك بلاؤه العظيم في حرب حملة الصليب المعتدين. ويقود صلاح الدين في سنة ٥٨٣ جحافل جرارة ويتجه بها نحو طبرية، وتتجمع له حشود الصليبيين بقيادة جاي لوزيجنان ملك بيت المقدس وتلتقى سرية له في حيفا بجاعة من الداوية والإسبتارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين فلا تبقى منهم باقية، ويلتقى الجمعان في سهل حطّين إلى الغرب من بحيرة طبرية، وتُدَقُّ أعناق حملة الصليب دقا شديدا ويفرّ على وجهه ريمونك

صلاح الدين لابن شداد، وابن خلكان في تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة الأيوبية. وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ما كتب عن صلاح الدين في العربية حديثا وفي اللغات الأجنبية.

(١) انظر في الأيوبيين وصلاح الدين كتب التاريخ العام: ابن الأثير وابن خلدون وخطط المقرئ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ومفرج الكروب لابن واصل والروضتين وذيل الروضتين لأبي شامة والفيح القسى في الفتح القدسي والبرق الشامي للعباد الأصبهاني وسيرة

صاحب طرابلس ويستولى المسلمون على الصليب الأعظم صليب الصلبوت ، ويؤسر ملك بيت المقدس وغيره من زعمائهم أمثال مقدم الداوية وريجنالد صاحب الكرك وكان قد أعد أسطولا وحاول غزو مكة والمدينة فقتله صلاح الدين بنفسه وعفا عن الباقيين . وبلغ من كثرة القتلى والأسرى أن قال أبو شامة: «من شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن شاهد الأسرى قال: ما هناك قتيل» ومما يدل على كثرة أسراهم أن الأسير منهم كان يباع بثلاثة دنانير.

وحاصر صلاح الدين بيت المقدس بعد نحو ثلاثة أشهر ، واستسلم له من فيه من حملة الصليب وأزيلت كل آثارهم من القدس ، وفتحت البلدان والقلاع في فلسطين وجنوبي لبنان أبوابها للبطل العظيم ، فاستولى على نابلس وحيفا وعكا وبيروت وصيداء والرملة وبيت جبريل (بئر سبع) وعسقلان وغزة وصفد والكرك والشوبك واللاذقية . وأحيا سقوط القدس في يد صلاح الدين فكرة الحرب الصليبية من جديد ، فحمل الصليب فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وحاصر الأخيران عكا وسقطت في أيديهما وعاد فيليب إلى فرنسا وظل ريتشارد يقود الجيوش الصليبية حتى سنة ٥٨٨ وعقد صلحا مع صلاح الدين لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر على أن تظل حملة الصليب المدن الساحلية من صور إلى يافا . وبعد نحو ستة أشهر توفي صلاح الدين بدمشق وبكاه المسلمون بدموع غزار في كل مكان . وكان صلاح الدين عادلا ورعا عالما تقيا ، حطَّ عن ظهور أهل الشام ما كان يهبطهم من الضرائب وملاها بالمدارس والخانقاهات والبيمارستانات وكانت سماحته ونبله في معاملة حملة الصليب مضرب الأمثال ، وكان إلى ذلك بطلا مغوارا وغيثا مدرارا .

وذكرنا آنفا أنه قسم البلاد بين أبنائه وأهل بيته ، فكانت دمشق للأفضل ومصر للعزیز وحلب للظاهر ، والديار الفراتية لأخيه العادل وبعليك لبرام شاه وحمص لشيركوه الثاني . وكان ذلك نذير شؤم فإن العادل أخذ يجرِّض أبناء صلاح الدين بعضهم على بعض واستطاع التخلص منهم ، وخلصت له البلاد من مصر إلى الفرات منذ سنة ٥٩٦ ماعدا حلب فإنها ظلت مع الظاهر وأبنائه حتى الغزو المغولي . وصنع صنيع أخيه فجعل مصر للسلطان الكامل ودمشق للسلطان للعظيم والجزيرة الفراتية لثلاثة من أولاده على التعاقب هم الأوحـد والفائز والأشرف موسى . ويغزو حملة الصليب مصر في سنتي ٦٠٩ و٦١٥ وينكل بهم السلطان الكامل على نحو ما صورنا ذلك في قسم مصر . ونمضي إلى سنة ٦٢٦ وإذا فردريك الثاني ملك صقلية يأتي على رأس حملة إلى فلسطين

وتصلاذف أن كان الكامل مشغولا بصراع مع داود ابن أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق فارتضى أن يتنازل لفرديك عن القدس فى مقابل عونه له ضد ابن أخيه وكان قد استعان بأخيه الملك الأشرف موسى ضده أيضا وحاصراه وتسليما منه دمشق وأعطاهما الكامل لأخيه وعوض داود الشوبك بدلا منها .

وبمجرد أن تسلّم فرديك القدس قامت قيامة الناس فلم يقم بها سوى ليلتين وعاد إلى يافا مذموما مدحورا . وتوفى الأشرف موسى صاحب دمشق سنة ٦٣٥ ولم يلبث أخوه الكامل أن توفى على أثره فى نفس السنة بدمشق ، وكان ابنه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب نائبا له على الشرق وإقليم ديار بكر ، وكان ابنه العادل الصغير نائبا له على مصر فرأى أمراؤه أن يضيفوا إليه ملك الشام ، ولم يُرض ذلك الملك الصالح فنحى أخاه فى سنة ٦٣٧ عن ملك مصر وانتهز عمه إسماعيل صاحب بعلبك الفرصة واستولى فى نفس السنة على دمشق ونشب صراع بينه وبين الملك الصالح واستعان ضده بحملة الصليب وعقد بينه وبينهم تحالفا أثار سخط العالم الإسلامى ، وهزم الملك الصالح الحليفين فى غزة سنة ٦٤٣ ودخلت دمشق فى حوزته .

وبذلك أعاد الملك الصالح توحيد مملكة صلاح الدين من النيل إلى الفرات ، ولم ينعم بذلك طويلا إذ نزل به مرض شديد سنة ٦٤٧ وكان بدمشق وسمع بنزول لويس التاسع بدمياط ، فأسرع لمنازلته وهو مريض محمول على محفة لشدة مرضه ، واتجه تَوًّا للقاء العدو بالمنصورة شمالى الدلتا فى الطريق إلى دمياط ، وهناك لَبَّى نداء ربه مجاهدا مدافعا عن الإسلام والمسلمين . وكتمت زوجته شجرة الدر موته حتى قدم ابنه المعظم توران شاه من الجزيرة وأدار المعركة ضد لويس - كما مر بنا فى قسم مصر - وسحق جيشه سحقا ذريعا ، وكبله بالسلاسل والأغلال ، إلى أن فدا نفسه وخرج من مصر . وسوّلت له شياطينه أن يذهب إلى حملة الصليب فى الساحل الشامى لعله يسترد كرامته التى أهدرت بمصر وبقى بين حملة الصليب نحو أربع سنوات لم تسفر عن شىء ، فعاد إلى فرنسا كاسفا مقهورا . أما توران شاه فجراه ممالك أيه جزاء سنار إذ سفكوا دمه الطاهر . ورقيت إلى العرش شجرة الدر ثم تنازلت عنه للمعز أيك مملوك أيه فأسس دولة المماليك . أما دمشق فاستولى عليها الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب . وكان آخر من حكمها من الأيوبيين .

(ب) المماليك^(١)

تأسست في مصر بعد مقتل توران شاه سنة ٦٤٨ دولة المماليك ، وعدَّهم الحكام الأيوبيون في الشام مغتصبين للحكم من أصحابه الشرعيين ، وأعدوا بزعامة الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب جيشا لحربهم ، ولقيه المعز أيبك التركماني في غزة سنة ٦٤٨ وهزمه . وظلت العلاقات سيئة بين الطرفين حتى أصلح الخليفة العباسي بينهما لسنة ٦٥١ على أن يكون للمالِك نهر الأردن و نابلس والقدس وغزة والساحل ، وللأيوبيين بقية الشام ، وقد دفعها إلى هذا الصلح اشتداد خطر التتار . وحاول الناصر يوسف أن يسترضى قائد هذا الوباء هولاء سنة ٦٥٥ فأرسل إليه بهدية ، ولم يلبث هولاء أن اندفع بسيول التتار إلى بغداد سنة ٦٥٦ فأجرى الدماء فيها أنهارا وخرَّبها وأحاطها أنقاضا ، ودخل هولاء في السنة التالية ديار بكر ومَلَك حَرَّان وبلاد الجزيرة ، وتحقق الناصر أنه سيقصد حلب فتركها إلى شمالي دمشق ، وفي شهر صفر سنة ٦٥٨ استولى التتار على حلب معملين فيها النهب والسلب ، وتقدموا في ربيع الأول إلى دمشق واستولوا عليها ، وفرَّ الناصر يوسف وأسرته التتار ، وبقي معهم في ذلِّ وهوان مابعده هوان .

ومضى التتار يتقدمون في ديار الشام حتى عين جالوت بين نابلس ونيسان ، وإذا الموت والتشريد ينتظرهم على يد المصريين والبطلين العظمين المملوكين : قطز سلطان مصر والظاهر بيبرس قائده ، وقد أحرقوا بهم ونازلوهم حتى أفنؤهم قتلا . وتبع بيبرس فلولهم إلى حلب وأطراف الشام . وأصبحت جميع الديار الشامية في قبضة الممالِك ماعدا حماة فإن أميرها الأيوبي الملك المنصور ناصر الدين محمد سليل عمر بن شاهنشاه كان قد وضع يده في يد قطز وبيبرس في حربها للتتار وظل على حماة حتى سنة ٦٨٣ وولاه قلاوون ابنه تقي الدين واستولى عليها الناصر بن قلاوون سنة ٦٩٨ ثم ردها إلى الملك الصالح المؤيد أبي الفدا إسماعيل سنة ٧١٠ وظلت معه حتى سنة ٧٣٢ ووليها بعده ابنه الأفضل ثم أصبحت للممالِك يولون عليها من يشاءون مثلها مثل بقية بلدان الشام .

وعنى الظاهر بيبرس حين أصبحت مقاليد الأمور بيده منذ سنة ٦٥٩ بالإعداد لحرب من تبقى من حملة الصليب في ساحل الشام وأخذ يغير عليهم وينازلهم ، حتى إذا دخلت سنة ٦٦٤ خرج

وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات وسيرة الملك المنصور (قلاوون) طبع القاهرة والتبر المسبوك في ذيل السلوك للسغاوى وآخرة الممالِك لابن زنبيل وبروكلمان ص ٣٦٥ .

(١) انظر في الممالِك النجوم الزاهرة وغيره من كتب التاريخ العام والسلوك للمقرئ والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا واليداية والنهاية وبدائع الزهور لابن إياس

إليهم على رأس جيش جرار واستولى على قيسارية ويافا وأرسوف وكان بها حامية من الإِسْتَارِيَّة الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين . وفي العام التالي استولى على صَفد وتبْنين والرملة في فلسطين . وتوالى هجومه عليهم واستولى على الشَّقِيف وطبرية وبَغْرَاس والقُصَيْر وحصن الأكراد والقرين من حصون صفد وكان به حامية من الفرسان التوتون . وأعظم أمجاده الحربية ضد حملة الصليب أخذُه أنطاكية سنة ٦٦٧ ويقال إن أسراها بلغوا مائة ألف وأن الغلام من أهلها كان يباع باثنى عشر درهما والجارية بخمسة . والمهم أنه محا هذه الولاية التي أقامها حملة الصليب في أول دخولهم للشام . وبدأ في الأفق من حينئذ أن خروج حملة الصليب نهائيا من الشام أصبح قاب قوسين أو أدنى ، وقد استولى منهم قلاوون في سنة ٦٨٦ على اللاذقية ولم يلبث ان استولى على طرابلس في سنة ٦٨٨ وبذلك أزال آخر إمارة أو ولاية لحملة الصليب ، وسرعان ما سلمت بيروت وجبله . حتى إذا تولى بعده ابنه السلطان خليل جهز جيشا ضخما للاستيلاء على عكا واستولى عليها سنة ٦٩٠ وتبعها صور وصيداء وحيفا وأنطَرطوس ، وخرج من بقي من الصليبيين إلى البحر المتوسط وما وراءه يحملون الذل والضعفة والهوان والصغار .

وقد قسم المماليك الشام إلى ست نيابات كبرى هي : دمشق وحلب وحماة في سوريا وطرابلس في لبنان وصفد في فلسطين والكرك في شرقي الأردن . وكانت دمشق أهم هذه النيابات ، وكان حاكمها يعد نائب السلطان المملوكي في الشام مما أتاح له مكانة خاصة . وجعل نفرا منهم غير قليل يطمح إلى أن يكون هو السلطان التالي للسلطان القائم بمصر ، ولعل ذلك ماجعل سلاطين مصر يكثر من عزلهم ، حتى ليتولى دمشق في زمنهم الذي امتد نحو مائتين وخمسة وسبعين عاما أربعة وسبعون نائبا . وقد درسهم (قبيت) وتبين له كما ذكر في كتابه مساجد القاهرة ص ٥٦ : أن اثنين منهم هما لاجين (٦٩٦-٦٩٨) والمؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤هـ) رقايا إلى السلطنة ، وسبعة وعشرين منهم ثاروا على السلطان فرمهم خارج الحدود اثنان وسجن خمسة وأعدم خمسة وعُفي عن خمسة . وكان لنائب دمشق من الدواوين مثل ما لسلطان مصر وكثيرا ما كان ينقل رئيس ديوان في القاهرة إلى دمشق وبالعكس ، وكثر ذلك في كتاب السر والإنشاء . وبذلك كله كانت دمشق تعد المدينة الثانية في دولة المماليك مما عاد عليها بغير قليل من الازدهار . وأمر الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٣ أن يتولى القضاء أربعة يمثلون مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وعم ذلك في دمشق والمدن الكبرى بمملكته في مصر والشام . وظل هذا النظام قائما طوال زمن المماليك .

وظل التتار يثنون من عار الهزيمة الفاضحة في عين جالوت ، وظلوا يحاولون غسل هذا ا بغارات فاشلة على أطراف الشام ، وكسرتهم جيوش الظاهر بيبرس مرارا ، من ذلك كسرتهم حمص سنة ٦٥٩ ، وأغاروا على البيرة سنة ٦٦٤ وعلموا بتحريك بيبرس فولوا مدبرين . وفي ٦٦٨ أغاروا على نهر الساجور بمنبج ، وسرعان ما انهزموا ، وعاودوا الهجوم على عينتاب و سنة ٦٧٠ وساعدهم حملة الصليب فحقت بهم الهزيمة جميعا . وظلوا يعاودون المناوشة وهاج البيرة في سنة ٦٧١ وأشرفوا على أخذها فعبر إليهم الظاهر الفرات وقتل منهم مقتلة عظيمة ، و الشعراء طويلا بهذا النصر المبين ، ونكل بهم في سنة ٦٧٥ تنكيلا شديدا . وظل التتار يعاود هذه الغارات والمناوشات في عهد قلاوون ويبيءون منها بالهزيمة ، وقد استولى منهم ابنه السلج خليل على قلعة الروم غربى الفرات سنة ٦٩٢ . وتولى شتون التتار غازان وكان قد دخل في الإس مع جنوده . ومع ذلك أعد في سنة ٦٩٩ حملة لغزو الشام ولقيه محمد الناصر بن قلاوون حمص وحماة ودارت الدوائر على الناصر ، واستولى جيش غازان على دمشق وغيرها من م الشام وعاثوا فيها فسادا . وعاد الناصر إلى مصر وجهاز جيشا جرارا التقى به مع التتار قرب دمن سنة ٧٠٢ وسحقهم سحقا ذريعا ، بحيث لم يعودوا يفكرون في غزو الشام وإن هم فكروا ارتا إلى صوابهم سريعا .

ونمضى إلى سنة ٨٠٣ فيقدم تيمورلنك بجموعه غازيا الشام ، ويلقاه جيش المماليك ، فيهز ويقتمح حلب ويعمل فيها السيف والسلب والنهب ، ويتقدم إلى دمشق وينزل بالسلطان فرج طريقه إليها هزيمة نكراء . وترضى دمشق بالتسليم وينهبها جنوده التتار ويشعلون فيها النيران وتا على جامعها الأموى وعلى كثير من آثارها ، ويقتلون مالا يكاد يحصى من أهلها نساء ورج وأطفالا : كارثة لم يُصب دمشق مثيل لها لا من قبل ولا من بعد . وضاعفها أن تيمور جمع رجا الفن والهندسة والمعمار وصناع الزجاج والصلب وأخذهم معه إلى عاصمته سمرقند .

وتتحدث كتب التاريخ عن ثورات وفتن حدثت في الشام لعهد المماليك ، غير أن أكثرها إن تكن كلها ، إنما كانت صراعا على السلطة بين السلاطين ونوابهم في الشام . ومن هذا الصر ماحدث من تحول الملك من المماليك البحرية إلى المماليك البرجية الجراكسة على يد برفوق ٧٨٤ . وقد عانت الشام - كما عانت مصر - من النزاع المستمر بين أمراء المماليك ، حتى كا يقتتلون كل مع أنصاره في شوارع دمشق والقاهرة . وكثر ذلك في القرن الأخير من حد

المماليك ، وأخذت دولتهم في الضعف تدريجاً حتى لفظت أنفاسها الأخيرة في معاركها مع السلطان سليم العثماني على أبواب الشام في مرج دابق .

(ج) العثمانيون^(١)

قضى سليم الأول العثماني على دولة المماليك في الشام ومصر بعد هزيمته لقانصوه الغوري في موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ للهجرة . وبعد أربعة أيام من الموقعة دخل حلب ولقيه أهلها بترحاب شديد وأوقدوا له الشموع وتعالّت أصواتهم له بالدعاء ، وخطبوا له على منابرها . وفتحت له مدن الشام أبوابها ، فاستولى على دمشق وقصده فيها أمراء لبنان وخاصة من بني مَعْن الدروز النازلين بجبالها مما جعل سلبها ومن خلفوه من سلاطين آل عثمان يعترفون لهم بالإمارة في لبنان . ومضى سليم يستولى على بقية مدن الشام . وفتح مصر وظل بها ثمانية أشهر وعاد منها إلى دمشق ، ورأى بوضوح تدهور الأوضاع الاقتصادية في تلك الديار بسبب اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح والنفوذ منه إلى الهند ونقل توابلها وتجاراتها منه مما أضر إضراراً شديداً بطريق البضاعة الهندية القديم خلال حلب والشام . وكانت حروب الصليبيين والتتار التي حوّلت الشام إلى ساحة حرب كبيرة لمدة قرنين من الزمان قد أحالت أجزاء كثيرة من مدنها إلى خرائب وخاصة مدن الساحل . وكأنما توسّم أهل الشام أن العثمانيين سيعيدون إلى طريق التجارة الهندية ازدهاره الماضي ، ولذلك رحبوا بسليم والعثمانيين ، وتلاشى هذا الحلم مع الأيام . وكان قد فرّ إلى سليم من المماليك مملوك خائن هو الغزالي الذين زين له فتح الشام ومصر فكافأه بتوليته على الشام ما عدا حلب إذ جعلها لبعض الباشوات العثمانيين . وبمجرد أن توفي سليم الأول سنة ٩٢٦ أعلن الغزالي استقلاله بالشام ولقب نفسه بالملك الأشرف ، وسرعان ما هزمته الجيوش العثمانية وخرّ صريعاً عند أبواب دمشق . ورأى العثمانيون أن تتوزع الشام ثلاث نيابات على رأس كل نيابة باشا : أولاها نيابة حلب وتشمل سوريا الشمالية ، وثانيها نيابة طرابلس وتشمل أربعة سناجق أو ألوية هي : حمص وحماة وسلمية وجبله ، وثالثتها نيابة دمشق وتشمل عشرة سناجق أهمها بيروت وصيداء ونابلس وبيت المقدس وغزة . وفي سنة ١٠٧٣ خصوا صيداء بنيابة مستقلة تشمل ساحل الشام ما عدا نيابة طرابلس في لبنان .

لساطع المصري ، ومقدمة تاريخ العرب الحديث لعبدالكريم غرايبة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ١٤٤٨ ، وتاريخ العرب (مطول) لفيليبه حتى .

(١) انظر في العثمانيين بالشام بدائع الزهور لابن إياس ، وآخرة المماليك لابن زنبل وتاريخ الجبرقي والخطيب التوفيقية لعل مبارك والبلاد العربية والدولة العثمانية

وكان يساعد الوالى فى الإدارة ديوانان : ديوان كبير مؤلف من البردار أو رئيس العسكر والدفتردار أو مدير الخزانة والروزنامجى أو حافظ السجلات وقاضى القضاة وأمير الحج ورؤساء المذاهب الفقهية الأربعة . وبجانب هذا الديوان ديوان صغير خاص بنائب الوالى ومعه دفتردار وروزنامجى .. وُمنح أصحاب السناجق أو الألوية لقب بك . وكثير من الولاة كانوا يختارون من الإنكشارية وهم شُبان أوربيون من أجناس مختلفة كانوا يُربون تربية إسلامية عسكرية ، وكان هم الوالى منهم أن يجمع لنفسه فى مدة ولايته القليلة ما يستطيع من الأموال مما جعلهم يرهقون أهل المدن بالضرائب ، وقلما كان حكم الوالى يتجاوز المدينة وضواحيها . أما داخل البلاد فقد تُرك للإقطاعيين من سكان الشام ومن وراءهم من بدو الجزيرة ، وكان عددهم قد تزايد زيادة كبيرة منذ زمن المالك ، وكان أكثرهم من الدرروز مثل آل معن وآل أرسلان والشهابيين ومن التركمانيين مثل آل عساف ومن البدو مثل آل فضل . وفى كل مكان نجد هؤلاء الإقطاعيين مثل آل حرفوش بعلبك وآل فريح فى البقاع وآل جبار فى سلمية ، ولم يكونوا يؤدون للعثمانيين أو الباب العالى إلا ضرائب محدودة ، وخاصة أن الموارد كانت قد تضاءلت إذ تدهورت التجارة وتدهورت أيضا الزراعة . ويدل على فساد الحكم العثمانى واضطرابه فى الشام كثرة من كانوا يولون ويعزلون من الولاة ، حتى ليولّى على دمشق فى مائة وثمانين عاما مائة وثلاثة وثلاثون باشا أو واليا ، مما جعل فخر الدين من آل معن الدرروز (٩٩٠-١٠٢٣هـ) يسيطر على أكثر أرجاء الشام من أنطاكية إلى صفد لنحو نصف قرن ، وأذن لفلورنسا بإقامة قنصلية لها فى بلاده ولم ير بأسا من الإذن لفرنسا بفتح فندق فى صيداء وأذن للمبشرين المسيحيين بالتبشير بين المسلمين والدرروز . وتنهت له أخيرا الدولة العثمانية فأرسلت إليه جيشا لتأديبه ففر من البلاد راكبا البحر إلى صديقه فرديناند أمير توسكانيا . ونمضى إلى سنة ١١٦٤ هـ / ١٧٥٠ م فيسقط ضاهر العمر صاحب صفد سلطانه على عكا ويعلن استقلاله وعصيانه للباب العالى بفضل معونة على بك الكبير المملوك المشهور أيضا بعصيانه للعثمانيين ومحاولته الاستقلال عنهم بمصر . ومحاصر العثمانيون ضاهر العمر وتدركه المنية سنة ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م . ويليها بعده أحمد الجزار ويلعب دورا شبيها بدور ضاهر العمر ويحصن عكا . وعبثا يستطيع نابليون فتحها ويضطر إلى رفع حصاره عنها بعد ثلاثة أشهر ، إذ باء حصاره لها بالإخفاق الذريع سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م . وكانت الأحوال الاقتصادية فى الشام تتردى من سيئ إلى أسوأ طوال الحكم العثمانى ، وظل كابوسه جاثما على صدر البلاد طوال القرن التاسع عشر الميلادى بل طوال شطر كبير من العصر الحديث .

المجتمع^(١)

حين دخل العرب الشام وجدوا فيها أخلاطاً من أجناس شتى لموقعها على أبواب آسيا الغربية وفي قلب الشرق القديم ولكثرة من نزلوها من الكنعانيين الفينيقيين ومن الفلسطينيين الأوريين القدماء وكثرة المهاجرين إليها من البابليين والكلدانيين والحثيين والآشوريين والآراميين والعبرانيين واليونانيين والرومانيين ومن العرب أنفسهم : الغساسنة وغير الغساسنة . وهذا الخليط من الاجناس في الشام ربما هو الذى هبها من قديم لأن تكثر فيها الدويلات والمدن المستقلة بعضها عن بعض .

وأخذ الإسلام سريعاً يضم هذا الشتات الجنسى فى وحدة سياسية ، بل سرعان ما أصبح لواء الشام يضم العالم الإسلامى جميعه فى وحدة عربية منذ رقى إلى عرش الخلافة معاوية مؤسس الدولة الأموية ، إذ اتخذ دمشق حاضرة لهذا العالم ، واتخذ من أهلها عوناً فى الحكم وإدارة دفة الأمور فى هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف . وبذلك كانت كنوز هذه الإمبراطورية تتدفق إلى دمشق والشام وعاش أهلها طوال العصر الأموى فى رخاء لم يبلغه هذا الاقليم فى أى عصر من عصوره .

ومر بنا وصف سريع لجغرافيتها وأنها كثيرة الأنهار والوديان والعيون والزروع ، ومن قديم تنتج العنب والفواكه وصنوف الثقل من فستق وغير فستق إلى ماتنتج من قح وغير قح . ومن قديم أيضاً عني أهلها بالصناعات : صناعات الخزف الملون والخشب المحفور أثاثاً وغير أثاث والمعادن والأسلحة سيوفا وغير سيوف والزجاج الملون والقاشاني ونقش الفولاذ بالذهب والفضة ونسج الأقمشة والعمارة .

وحياة الشام بذلك كانت تقوم على إتقان كثير من الصناعات والزروع ، وأيضاً على المهارة فى التجارة ، وكانت نافذة كبرى لتبادل تجارات آسيا وأوروبا من قديم ، وظلت تجاراتها تكوّن مصدراً أساسياً لثروتها فى عهد الفينيقيين وبعدهم حتى احتلال العثمانيين لديارها ، فقد كانت من أعتق

فى الشام لمحمد كرد على فى الجزء الأول من محاضرات المجتمع العلمى العربى بدمشق .

(١) انظر فى مجتمع الشام كتب التاريخ العام وفتوح البلدان للبلاذرى وأدب الكتاب للصولى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى والجباية

الأزمة إلى نهاية زمن الممالك الباب الكبير لمرور توابل الهند وعروض آسيا إلى الغرب . ومهراً في التجارة ومعرفة أسرارها والقدرة على إغراء الأسواق التجارية ومعرفة متطلباتها من لبنان جز الجزيرة العربية ونباتات العطور والعقاقير ، مما أتاح لكثير من تجارها على مر الأزمنة الثراء الطام وتحف الشام في الشرق بوادي الجزيرة العربية ، وكان لذلك أثره البعيد في تكوين مسأ فأكثرهم نزحوا إليها قديماً من الجزيرة على نحو ما هو معروف عن الكنعانيين والآراميين والعبرانيين . وقد ظلت أبوابها الشرقية مفتوحة على مصاريعها لبدو الجزيرة ، مما جعل الغساسنة يقيمون الحدود بينها وبين الجزيرة دولتهم الغسانية . ولا يقفون هم ومن كانوا وراءهم من البدو عند الحد بل يتغلغلون إلى داخل الشام ، حتى يمكن أن يقال إنه قد أخذ في التعرب قبل الإسلام . بدو الجزيرة طوال الأزمنة الإسلامية يكوّنون شطراً مهماً في سكان الشام ، وكان الشطر الثالث وهو الأكبر ، متحضراً ويقوم في المدن . وبذلك كان سكان الشام ينقسمون طوال الإسلام إلى بدو وحضر . وكان البدو يعتمدون على الأغنام والأنعام ، بينما كان الحضر يعتمد على الزراعة والصناعة والتجارة . وكان حكام مصر والشام يقربون زعماء البدو ، ولكي يد عن الشام شرم كانوا أحياناً يُقطعونهم بعض مدن فلسطين على نحو ما هو معروف من إيا الفاطميين للمفرج بن دغفل مدينة الرملة .

على كل حال كان اعتماد الشام في حياتها الاقتصادية طوال الحقب الإسلامية على مس الحضر وما يؤدونه للدولة من الخراج والعشور والجوالي أو الجزية ، وكانت ضريبة محدودة زادت عن دينارين ، وكانت تؤخذ من أهل الكتاب : النصارى واليهود نظير عدم انتظامهم الجيش العربي . وهي بذلك كانت ضريبة دفاع ولم تكن تؤخذ إلا من القادرين ، أما الأطفال والشيوخ والقساوسة والرهبان فلا تؤخذ منهم البتة .

و حين عقد عمر بن الخطاب مؤتمر الجابية سنة ١٦ للهجرة أوصى عماله أن يرفقوا بالرعيين تؤدي من ضرائب للدولة ، وبلغ خراج الشام على عهده - كما يقول الصولي - خمسمائة دينار . وبمجرد أن أصبحت الخلافة خالصة لمعاوية جعل خراج كل من دمشق وقنسرين أربع وخمسين ألف دينار ، وخراج كل من فلسطين والأردن مائة وثمانين ألفاً . وأخذ يهب أصفياته إقطاعات واسعة ، وتارة يكون الإقطاع تملك ، وتارة يكون إقطاع استئجار وكان عثمان بن عفان أول من سنَّ هذه السنة في الإسلام .

وجاءت معاوية كنوز الأرض فكان يكثر من توزيعها على الشخصيات المهمة في هر

والأنصار وعلى زعماء القبائل في الجزيرة العربية والعراق ، وعُنى عناية واسعة بأهله ونفقته . وبنى لنفسه داراً كبيرة في دمشق سماها « الخضراء » ودورا أخرى في مكة ، وسنَّ للخلفاء الأمويين من بعده البذخ . ويروى أنه كان يستقبل من عماله هدايا العيدين الفارسيين : عيد النيروز وعيد المهرجان ، ولا بد أن كانت تقدم له الهدايا في أعياد النصارى لما انعقد بينه وبينهم من علاقة وثيقة ، ولما منحهم من الإشراف على الشؤون الما للدولة ، وخاصة سرجيوس وأسرته ، وأيضا لابد أن كانت تقدم ل الهدايا في الأعياد الإسلامية .

ويبدو أن الدولة ظلت تنعم برخاء واسع بعد معاوية ، مما دفع الوليد بن عبد الملك إلى تشييد الجامع الأموى بصورة هندسية بالغة الفخامة في زخرفته وتصويره ، وقد استقدم - كما مرَّ بنا - لصنع الفُسَيْفَسَاءِ في جُدْرِهِ وفصوصه اثني عشر ألف عامل من بيزنطة ، غير من استقدمهم في تشييده ونقشه من مصر وفارس ، وقد مُثِّلَتْ فيه أشجار وقرعت أغصان منظومة بالفصوص المذهبة ، ويقال إنه أنفق فيه خراج الشام سنتين وكان خراجها على عهده مليون دينار ومائتي ألف ، وفي رواية أنه أنفق عليه أحد عشر مليوناً من الدنانير ومائتي ألف . وعُدَّ الجامع عجيبة من عجائب الدنيا ، وبه حظيت دمشق بمجد وشهرة عظيمين . ويبدو أن الوليد زاد ، بسبب هذه النفقة الباهظة على جامعهِ ، الضرائب على أهل الشام ، أو لعل أخاه سليمان الذي خلفه هو الذي صنع ذلك . ويخلفه عمر بن عبد العزيز فيأمر عماله أن يأخذوا أهل الكتاب من النصارى واليهود بالرفق وأن تُمنَعَ السخرة منعا باتا كما يمنع أخذ الضرائب على الجسور والمعابر وأن يكتب في المعادن بالمصدقة ولا يؤخذ منها العشر . وأمر أمرا صارما أن تُرفعَ الجزية عن أسلموا من الموالى بحيث يسوى بينهم وبين المسلمين في الخراج والعشور . ويتوقى عمر فيعود العمال إلى الضرائب الاستثنائية ظلما وعدوانا . ولا بد أن نذكر للأمويين أن الشام كانت تحظى برخاء غير قليل في أيامهم ، ويشهد بذلك ما شادوه في دمشق والبادى من قصور ، وقد أصبحت دمشق بفضلهم عاصمة ومدينة عربية كبرى .

وكان المجتمع الشامي في دمشق وغير دمشق يتألف من ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا ، والطبقة الأولى تشمل الحكام وكبار الموظفين في الدواوين وأصحاب الثراء الطائل من التجار والإقطاعيين . وتشمل الطبقة الوسطى العلماء وأوساط الزراع والتجار والصناع ، أما الطبقة الدنيا فهي طبقة العامة من صغار الفلاحين والعمال . وكان يتبع هذه الطبقة الرقيق الذي يؤسر في الحروب أو يبيعه النخاسون ، وكان أخلاطا من البيزنطيين والأوربيين والإفريقيين . وظلت هذه

الصورة لطبقات المجتمع الشامي متصلة طوال الحقب التالية ، مع ما حدث للشام من تحول الخلافة منها إلى بغداد ، ومن مشرفة على الدولة الإسلامية الكبرى إلى ولاية منذ أن استولى العباسيون على أداة الحكم . وكان من أهم أعمالهم فيها إنشاء المراكز العسكرية على حدودها مع الروم المعروفة باسم العواصم والثغور ، وكانت جيوشهم مائتة تخرج منها لحرب الروم . محدثة فيها غير قليل من الرواج التجاري .

وكان العباسيون في القرن الأول من خلافتهم يأخذونها بغير قليل من الرفق واللين . ويروى أن بعض ولاية الخراج بها لعهد هرون الرشيد شدد في استخراج الأموال من أهلها فسخط عليه الرشيد سخطا شديدا وأنزل به عقابا صارما ، قائلا له : وليت الشام وهي جنات وعيون وجعلتها أجرد من الصخر وأوحش من القفر . وحين ضمها ابن طولون إلى دولته في مصر أخذت تنتعش وخاصة في عهد خمارويه لكثرة ما كان يُجرى على الناس في رعيته بمصر والشام من الأموال ولما كان ينفقه على جيشه بها من الارزاق ، وقد بنى لنفسه بالقرب من دمشق قصرًا فخا . وعنى الإخشيد بالشام ، كما عنى بها كافور . وكانا يكثران من الخلع والهبات على أهلها ، وكانت حلب والثغور بيد الحمدانيين وفرضوا فيها ضرائب ثقيلة (١) .

وتتبع بقية الشام مصر أيام الفاطميين حقا متصلة . وعلى الرغم من أن المقدسي يقول إن ضرائب العروض والسلع التجارية فيها هينة لزمه في أواخر القرن الرابع الهجري فإن من المؤكد أن الضرائب زادت واضطربت تبعا لكثرة الولاة الفاطميين وعمل كل منهم على جمع كل ما يستطيع من الأموال لنفسه ، فكانت تدخل على الضرائب والجبايات زيادات ترهق الشعب الشامي إرهاقا شديدا . وبلغ هذا الإرهاق غايته في ولاية المعلى بن حيدرة الكتامي لها سنة ٤٦١ ، حتى هجر الفلاحون مزارعهم في الغوطة بدمشق وغير الغوطة ، وعظم شغب العامة سخطا على هذا الظلم الصارخ وشبت النار حينئذ في الجامع الأموي العظيم ، وكادت أن تذهب بيئاته ورونقه لولا أن تداركه الناس . ولعل أحدا لم يصور ما كان يقع على أهل الشام من ظلم فادح في جمع الضرائب دون أن تُستخدَمَ في مصالح الرعية كما صور ذلك أبو العلاء ساخطا بمثل قوله :

وأرى ملوكا لا تحوط رعيّةً فعلامٌ تُؤنّضُ جزيةً ومكوسُ

وما نصل إلى سنة ٤٦٨ حتى تتحول دمشق إلى السلاجقة ، وينحسر الحكم الفاطمي إلى

(١) اضطرت الحمدانيين إلى ذلك حروبهم مع بيزنطة .
والثغور وإنما كانت ثلاثمائة وستين ألف دينار .

ويقول المقدسي إن الضرائب كانت ثقيلة حينئذ على العواصم

الجنوب . ومانكاد نشرف على نهاية القرن الخامس حتى تأتي جحافل الصليبيين وتستولى على ساحل الشام منذ سنة ٤٩٢ . ويتدارك طُغْتِكِين أتابك الدولة البورية نسخة من النسخ القرآنية التي وزعها عثمان في الأمصار كانت بطبرية فينقلها إلى دمشق ، وكان ذلك عملا جليلا زاد دمشق مجدا وجلالا ، وخلص له الأمر بها . ومن أهم ما قام به بناء مارستان وخانقاه وأول مدرسة أنشئت بها . وتصبح الشام ساحة حرب كبرى أيام الصليبيين ، ولا يقر لأهلها قرار .

وأخذ حكام الشام من الأرتقيين أصحاب دمشق وغيرهم يضيفون بعض ضرائب استثنائية للجهاد الصليبيين والإنفاق عليه . وكان طغتكين عادلا ، ولكن أبناءه أخذوا يرهقون الدمشقيين بالضرائب الاستثنائية وصنع صنيعهم حكام المدن الأخرى ، حتى إذا نهض عماد الدين زنكى واستولى على شمال الشام ، وكان قد أصبح خرابا من ظلم الولاة ومن حرب الصليبيين ، نشرفه العدل وفتح الرها وامتلات كل هذه البقاع أهلا وسكانا .

وخلف عماد الدين زنكى ابنه نور الدين محمود، وحين خضعت له دمشق وحماة وبلبك وغيرها من المدن الشمالية أبطل كل ما كان بها من الضرائب الاستثنائية على الأسواق وما يباع فيها من الفواكه والبقول والحلوى والغنم والحب واللبن . وسار نفس هذه السيرة بعده صلاح الدين فألغى جميع المكوس والمغارم من ديار الشام وسامح الناس في أموال عظيمة . ووزع في عماله منشورا جاء فيه : إن أشقى الأمراء من سمّن كيسه ، وأهزل الخلق وأبعدهم من الله من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق . وعمّ الرخاء في عهده وعهد نور الدين ديار الشام لكثرة ما صبأ في حجور الناس من القناطير المقنطرة من أموال حملة الصليب المدحورين . وسار بعد صلاح الدين سيرته في حط المغارم عن كواهل الناس أخوه السلطان العادل ويقال إن مجموع ما خص دمشق من ذلك لعهده بلغ مائة ألف دينار . وقد عاد بعض هذه المغارم والمكوس في بعض بلدان الشام بأخرة من أيام الأيوبيين وخاصة في بعلبك ودمشق حين أظلمها حكم الصالح إسماعيل .

وقد يكون من المفارقات أن نعرف أنه على الرغم من الحروب التي كانت متصلة بين أهل الشام وحملة الصليب نشطت التجارة بينها نشاطا واسعا ، فتجار المسلمين ينزلون بلادهم وحصونهم وبالمثل ينزل حملة الصليب بلاد المسلمين حاملين لسلعهم ومشتريين سلعا جديدة . وكان الحرب شيء والتجارة شيء آخر ، ويعرض علينا أسامة بن منقذ في كتابه « الاعتبار » صورة لافتة من تواصل الحياة بين العرب المدنيين والصليبيين . ورأى ذلك ابن جبير رأى العيان ووصفه في رحلته المشهورة متعجبا قائلا : من أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفتيين : مسلمين

ونصارى ، وقد يلتقى الجمعان ويتقاتلون وتجارهم تختلف بينهم دون اعتراض ، وهكذا دائما أهل الحرب من الفتيين مشتغلون بحربهم ، والناس من ورائهم - كما يقول ابن جبير - في عافية : يتعاشون ويتبادلون السلع وعروض التجارة ، وكان حملة الصليب يرسلون ببعض هذه العروض في سفن لهم كانت تجوب البحر المتوسط والمحيط الأطلسي حتى السويد . وورثت الشام عنهم ذلك حين جلوا عنها فكانت تجاراتها تتغلغل في البلاد الأوربية .

ولم نعرض حتى الآن لما كان في المجتمع الشامي طوال هذه الحقب من فنون اللهو . وكان طبيعياً والشام دائما حاملة للسيف أن يشيع فيها مبكرا سباق الخيل واللعب بالصوالمجة والتنافس في إحسان الرماية . وكان أهلها يحارثون أحيانا بين الكباش والكلاب ، وكانوا يخرجون للصيد . وكانت أسواقهم تموج بالأقمشة الحريرية وبالطيب والعطور . وعنى خلفاؤها الأمويون مبكرين بالغناء وبدأ ذلك منذ عبد الملك بن مروان الذي استقبل ابن مسجح مغنى مكة وغناه الغناء المتقن على نحو ما أشرنا إلى ذلك في كتابنا الشعر والغناء في المدينة ومكة واستقبل أيضا بديحا واستمع إلى غنائه ، واستقبل ابنه الوليد بعده ابن سريج مغنى مكة . وتحول يزيد بن عبد الملك بقصره إلى مسرح لمغنى الحجاز من أمثال معبد وابن عائشة ، واشترى جاريتين من جوارى المدينة المغنيات ، وهما حبابة وسلامة القس ، ووصفه أبو حمزة الخارجي ، فقال إنه يشرب الخمر ويلبس الحلة قومت بألف دينار .. حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره . ونشأ ابنه الوليد في هذا الجو المشبع بالترف والخمر والغناء ، وكان شاعرا بارعا ، وله خمريات تكتظ بها ترجمته في كتاب الأغاني ، وحين استولى على مقاليد الخلافة بعد عمه هشام تحول بقصره إلى مقصف للخمر والعزف والغناء ، وندماؤه من حوله يشاركونه قصفة ولهو وطربه ، وكاد أن لا يترك مغنيا مشهورا في المدينة أو مكة إلا استقدمه وعقد له في قصره مجالس للطرب والسماع ، ويقول أبو الفرج في ترجمته إنه « كان يضرب بالعود ويوقع بالطبل ويمشى بالدُّف على مذهب أهل الحجاز » .

ولا ريب في أن شيئا من ذلك كان ينعكس على أهل الشام في دمشق وغير دمشق . إذ يوجد في كل زمن منحرفون ينغمسون في اللهو والخمر وشرب الدنان ، وكان يهين لهم ذلك في الشام كثرة ما يزرع فيها من كروم وكثرة ما كان بها من أديرة . وكانوا يشربون في الطبيعة بين الأزهار وغناء الطير وفي قاعات الأديرة والبيوت ، وكانوا يفرشون القاعات بالورود والزرجس والأقحوان والأزهار المختلفة . وكان يكثر في تلك المجالس سماع المغنين والمغنيات وهم يعزفون على آلات الطرب المختلفة . ويسوق ابن حجة الحموي في كتابه ثمرات الأوراق خبرا طويلا عن جماعة من

كتاب القرن الرابع الهجري كانوا قاصدين مصر . فنزلوا بدمشق في طريقهم ، والتقوا فيها بشاب أضافهم . فقبلوا الضيافة وأمضوا في منزله ليلة ماجنة أحضر لهم فيها نبيذاً على عشاءهم ، فشربوا ، وسرعان ماخرجت عليهم طائفة من الجوارى مابين عوادة وطنبورية وزامرة وصنّاجة ورقاصة ودقّافة وهن يلبسن فاخر الثياب والحليّ وسألهم في الصباح أتحبون الذهاب إلى بعض البساتين للتفرج أو الجلوس في المنزل واللعب بالشطرنج والنرد أو القراءة في الكتب . والخبر تداخله مبالغات تجعله أشبه بأسطورة ، لكنه على كل حال يدل على ماكان بدمشق من فنون هو .

ولا ريب في أن حرب أهل الشام بعد ذلك مع حملة الصليب أتاح لهم كثرة من الجوارى الأوربيات المسترقّات . ويبدو أنهم كن من عوامل شيوع البغاء ، إذ نقرأ في تراجم نور الدين وصلاح الدين والعاقل أنهم طهّروا البلاد من الفواحش والخمور والقمار . وكانت هناك دور النخاسين تحمل الجوارى من كل جنس وكل بلد . ويدل على كثرة الجوارى في الشام من بعض الوجوه أن نجد فقيها دمشقياً توفي سنة ٦٣٢ هـ هو عبدالسلام بن المطهر بن أبي عصرون يروى عنه أنه كان بيته نيف وعشرون جارية فما بالنّا بأهل الثراء وبالحكام وكبار الموظفين ذوى الرواتب الضخمة . ولم يقف المنحرفون بالمتجمع في هوهم حينئذ عند شرب الخمر . فقد أخذ يشيع بينهم شرب الحشيس ، ولذلك أمر الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٥ بهدم دور الحشيش والخمر جميعاً وإقامة الحدود بشدة على من يتعاطونها . ومن حين إلى آخر نسمع عند بعض السلاطين بمثل هذا الأمر ، ولكن المجّان كانوا يعودون إلى تعاطيها ولا يزدجرون . وظل الغناء مزدهراً طوال زمن المماليك ، ونجد مغنيا بدمشق يلزم واليها تنكز نائب الناصر محمد بن قلاوون ويختص به ويعلم جواريه الغناء ، وكان يعاصره شمس الدين الدمشقي محمد بن علي وكان يجيد العزف واللعب بالقانون وينظم الشعر ويلحّنه ويأخذه عنه الملحنون وأهل الملاهي .

وظلت الشام تعيش في رخاء إلى نهاية القرن الثامن الهجري إلا فترات كانت تدب فيها وخاصة في دمشق الفوضى بسبب ما كان يحدث فيها من نزاع بين الأمراء على السلطة كما حدث في السنوات ٧٥٣ و٧٦٢ و٧٩٠ و٧٩٦ و٨٠١ ولعل هذا كان أحد العوامل في انتصار تيمور لنك السريع على المدافعين عن حلب وما وراءها من البلدان إلى دمشق ، وقد عاث جنوده فيها - كما مرّ بنا - نهباً وسفكاً للدماء . وعلى الرغم من أن دمشق استسلمت له بميثاق أو عهد أخذه على نفسه أن لايمس أهلها بأذى لم يكد يدخلها مع جنده حتى نكث عهده وميثاقه فسبي جنوده النساء وشدوا الرجال والأولاد في جبال وأشعلوا النار في المنازل والدور والمساجد ثلاثة أيام فاحترقت المدينة ، وسقطت

سقوف الجامع الأموي وصارت دمشق أطلالا عافية أو بالية ، بعد أن كانت فردوسا من فراديس الجنان ، وهي طامة كبرى ظلت دمشق تعاني منها طويلا . وزاد تيمور لنك الطين بلة بتجريد دمشق - كما مرّ بنا من صفوة صناعاتها ومهندسيها ، إذ أخذهم معه إلى عاصمته سمرقند . وحاول سلاطين المماليك بعد خروجه من دمشق لحرب السلاجقة في آسيا الصغرى أن يعيدوا لدمشق والشام شيئا من الرخاء بإلغاء المغارم والمكوس وكل ما كان يبهظهم من الضرائب الاستثنائية .

واشتغدت دمشق مبانيها وعمارتها بعد تيمور ، ولا بد أنها ظلت تعاني من خسائر الحريق وأنقاض عمائرها الباذخة فترة طويلة . وسرعان ما نسمع أنه أصبح بها مائة حمام . وشاد حكامها فيها قصورا فخمة على مر السنين ، واتسع ذلك في بلدان الشام جميعا : من حلب شمالا إلى غزة جنوبا ، وبدأ ذلك منذ أوائل عهدها بالاسلام لزمن الأمويين ، فإن خلفاءهم وأمراءهم وبعض نسايم شادوا في دمشق لأنفسهم قصورا باذخة ، وامتد ذلك إلى حلب وغير حلب من مدن الشام وإلى البوادي . وظلت هذه العناية بتشيد القصور لحكام الشام على مر السنين ، ومرّ بنا أن خمارويه بنى لنفسه بجوار دمشق قصرا ، وتتابع بناء حكام دمشق وبلدان الشام للقصور ، سوى ما كانوا يبنون من المساجد والخانقاهات والمارستانات والمدارس . وتحدث المؤرخون طويلا عن قصر أنيق بدمشق بناه الظاهر بيبرس . وعنى الصليبيون ببناء الحصون كما عنى الأيوبيون والمماليك ببناء المساجد والمدارس والرباطات والمارستانات والقلاع والجسور وكان لكل ذلك أثر واسع في نشاط الحياة بالشام ورواج الصناعة والتجارة .

وترزح الشام - كما رزحت مصر - تحت حكم العثمانيين ، ويظلون بها أربعة قرون ، ويتقوض كل أمل لأهل الشام في تدارك الأمور ، وبدأ ذلك الغزالي نائب سليم بما أخذ يفرض على أهل الشام من ضرائب ثقيلة ، وزال حكمه ، كما مرّ بنا ، وظلت المكوس تزداد وظلت البلاد تتردى من سييء إلى أسوأ إذ دأب العثمانيون على التغيير السريع لحكامهم في البلاد ، ودأب الحكام على اعتصار خيراتها حتى آخر قطرة . وكانت الدولة العثمانية تدفع إلى استنزاف كل ما في ديار الشام من أموال وظلموا الناس أشد ظلم ، بل نهبهم أعسف نهب وابتزوا أموالهم أسوأ ابتزاز . وهيا ذلك لمظالم لاتطاق في المدن بين الصناع والتجار وفي القرى بين الزراع ، مما جعل بعض الفلاحين يفرون من قراهم إلى الجبال أو ينزلون عن ممتلكاتهم فيها إلى بعض ذوى الجاه مفضلين أن يعيشوا فقراء على معيشة الحرية التعسة المنتهكة . وانتكست بذلك الزراعة ، ولم تعد هناك عناية بإنتاج القطن

والحرير ، فانتكست أيضا الصناعة والتجارة . وزاد في انتكاس التجارة اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح واستعمارهم للهند وحملهم عروضها وتوابعها عن هذا الطريق مستغنين بذلك عن طريق الشام ومصر القديم . وبذلك فقدت الشام في أيام العثمانيين مورداً مالياً ضخماً كان على رأس مواردها التي أتاحت لحكامها بناء منشآتهم المعمارية الكثيرة من الأسوار والقلاع والحصون والقصور والمساجد والمدارس . وعم الكساد الشام طوال الحقب العثمانية . بل عم البؤس والظلم والخراب ، كما عمت الفوضى الإدارية ، وكلما تقدمنا دورة زمنية مع الحكم العثماني ازدادت الشام انتكاساً وفساداً وظل ذلك سائداً طوال زمن العثمانيين حتى القرن التاسع عشر بل حتى نهاية حكمهم .

٥

التشيع : الإسماعيلية والإمامية - النصرانية - الدرروز - الإسماعيلية النزارية أو الفداوية أو الحشاشين .

(١) الإسماعيلية والإمامية

مرّبنا - في كتاب العصر العباسي الثاني - أن عبد الله بن ميمون القداح اتخذ سلمية قرب حاة بالشام حوالي منتصف القرن الثالث الهجري مركزاً للدعوة الإسماعيلية التي كانت تجعل الإمامة بعد جعفر الصادق في ابنه إسماعيل لا في ابنه موسى الكاظم مخالفين بذلك فرقة الإمامية الاثني عشرية الشيعية . وانتقلت بعد إسماعيل في أئمة مستورين ، إلى أن فرّ المهدي بالله من سلمية إلى تونس وأسس هناك الدولة الفاطمية وصار إليها حكم مصر والشام منذ أواسط القرن الرابع الهجري . ونشط دعواتهم في الديار الشامية يدعون إلى عقيدتهم التي تقصر إمامة المسلمين على أبناء علي بن أبي طالب من السيدة فاطمة الزهراء ، زاعمة لهم العصمة وحق تأويل الذكر الحكيم ومعرفة أسرارها ، ولذلك سموا باسم الباطنية ، وزعموا أن الأئمة يتوالون في أدوار كل دور يتألف من سبعة منهم ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلي وإليه تنتقل قدرة الله وعنه تصدر النفوس الكلية للأئمة الستة قبله ، وأطلقوا اسم الذات العلية وكل صفات الله على أئمتهم .

وعرفت الشام بجانب العقيدة الإسماعيلية العقيدة الإمامية أو الاثنا عشرية التي يتوالى في الإمامة بها عندهم اثنا عشر إماماً يختمون بالإمام أبي القاسم محمد الذي اختفى وهو في الثامنة من

عمره حوالي سنة ٢٦٠ ويؤمنون بأنه لا يزال حيا باقيا وأنه لا بد من عودته يوما أو رجعت له يهدى الناس إلى طريق الرشاد ويعيد سنن الرسول ﷺ ويرد حق أسرته المسلوب ويملا الدنيا حقا وعدلا ، ويسمونه في أثناء غيبته الجسدية قائم الزمان وإمام الوقت . وهو بذلك كله المهدي المنتظر الذي ينقذ العالم من مفسده وشروبه . وعند الإمامية أن أئمتهم وحدهم يتميزون بمعرفة المعاني الباطنة أو المستترة وراء ظاهر النصوص القرآنية ، ولذلك يعد التأويل من أسس العقيدة الإمامية ، ويرون أئمتهم فوق الطبيعة البشرية ، ولذلك يعتقدون فيهم العصمة وأنهم مطهرون لا يستهويهم أى ضرب من ضروب المعاصي والآثام .

وإذا كان مركز العقيدة الإسماعيلية منذ أوائل هذا العصر في القرن الرابع مصر فإن مركز العقيدة الإمامية كان العراق وإيران . وكان قرب معتنقيها من الشام سببا في أن يدخلها كثيرون منه منذ وقت مبكر وكانوا ينبئون في حلب وأيضا بين بعلبك وصفد ، ويسمون باسم المتواليه الإمامية ومنهم أمراء حروفوش . ونقف لتحدث عن فرق شيعية غالية هي فرق النصيرية والدروز والإسماعيلية التزارية المسمون بالفداوية والحشاشين .

(ب) النَّصِيرِيَّةُ (١)

فرقة شيعية غالية غلوا مفرطاً ، ولم تكن تتبع الفرقة الإسماعيلية ، بل كانت تتبع الفرقة الإمامية الاثني عشرية ، أو قل إنها تفرعت منها ، وكانت تسكن في قرى بسفوح الجبال الممتدة من طرابلس إلى أنطاكية أنشأها فيها داعية يسمى محمد بن نصير النميري زعم لهم أنه مبعوث الإمام الحادي عشر حسن العسكري وأخذ ينشر فيهم عقيدته منفصلاً بها عن العقيدة الإمامية إذ جعل مبدأها أو محورها الأساسي ألوهية علي بن أبي طالب وأنه خالد في طبيعته الإلهية ومسكنه السحاب ، والرعد إنما هو صوته الهائل ، والبرق إنما هو ضحكته العالی ، ولا يلعنون ابن ملجم قاتله ، بل يقولون إنه خلص اللاهوت أو الجزء الإلهي من الناسوت أو الجسم المادي ، ويعظمون الخمر ويرونها من النور الإلهي ، ويحتفلون بالأعياد المسيحية ويزعمون أن سلمان الفارسي إنما كان رسولا لعلی بن أبي طالب ، ويحلفون بعلی قائلين : وحق علی العلیّ الأعلى ، كما يحلفون بالنور

ديارهم بالشام عن عقيدتهم وكتاب العقيدة والشريعة في الإسلام لجولدسهر ص ٢٢٠ وما بعدها وتاريخ النصيرية وديانتهم لدوسو طبع باريس .

(١) انظر في النصيرية فرق الشيعة للنونجني والملل والنحل للشهرستاني وصبح الأعشى ٣٥/١٣ ، ٢٤٩ والتعريف لابن فضل الله العمري ورحلة ابن بطوطة وحديثه فيها حين زار

قائلين وحق النور وما نشأ منه . وواضح أنه تختلط بعقيدتهم عناصر فارسية كعنصر النور وعناصر مسيحية كعنصر قداس الخمر والطعام وهو شبيه بالعشاء الرباني ، ويروون عن الرسول ﷺ أنه قال لعلي : « لولا أن يقول الناس فيك ما قالوا في عيسى لقلت فيك مقالا » وهو حديث موضوع . ويقول النونختي في فرق الشيعة وابن فضل الله في التعريف إنهم يجلبون المحارم ، ولهم كتاب مقدس يخفونه عن الناس كما يخفون عقيدتهم ولا يبشرون لأحد منهم أن يذيع شيئا من مبادئها وأسرارها المصونة عندهم . ويقول الشهرستاني إنهم يقولون بأن عليا كان موجودا قبل خلق السموات والأرض ، وأن الإله ظهر بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه . ولكل ما سبق قال جولد تسيهر : « تغلب على تلك الفرقة أفكار وعقائد وثنية » ويقول « إن إسلامها إسلام اسمي فحسب » . ونظن ظنا أن استيلاء الفاطميين على الشام ونشر دعواتهم لنحلهم الغالية المفرطة في الغلو هناك . ثم ما كان من انشغال الأيوبيين بحربهم لحملة الصليب ، كل ذلك كان سببا في اتساع حركتهم حتى إذا كان عهد الناصر بن قلاوون رأيناه يكتب في سنة ٧١٧ للهجرة إلى ولايته في الشام أن يأخذوا على أيديهم، ويأمرهم أن يعمروا في كل قرية من قرَاهم مسجدا وأن يحوا منها الخمر وكل ما يتصل بالآثام، وصدعت قرَاهم لأمره.

(ج) الدرور^(١)

الدرور فرقة شيعية تفرعت عن الفرقة الإسماعيلية الكبرى ، آمنت بأن التجسد الإلهي حل في الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) أسسها أو أنشأها بالشام داع إسماعيلي أعجمي من دعاة الحاكم يسمى محمد بن إسماعيل الدرزي ، وكان من غلاة الدعاة الباطنية يؤمن بالتناسخ ، فأغوى الحاكم على ادعاء هذا التجسد ، وصنّف له كتابا ذكر فيه أن روح الله مازالت تنتقل من رسول إلى رسول ، وبعد النبي ﷺ انتقلت إلى علي بن أبي طالب وتناسخت في الأئمة من أبنائه حتى انتهت إلى الحاكم ، فهو ليس بشرا ، إنما هو لاهوت تجسد في الناسوت . وعلمت الرعية في مصر بما يوسوس له الدرزي فصممت على قتله ، وأنقذه منها الحاكم وقال له اخرج إلى الشام وانشر دعوتك في الجبال فإن أهلها سريعو الانقياد ، فخرج إلى الشام ونزل في قبيلة تنوخ بوادي التيم من

وجولد تسيهر ص ٢١٦

(١) راجع في الدرور صبح الأعشى ٢٤٨/١٣ وكتاب

طايفة الدرور : تاريخها وعقائدها للدكتور محمد كامل حسين

وديان قرية بانياس غربى دمشق ، وأخذ ينشر دعوته فى منازل تلك القبيلة بجبل حوران وأيضا فى القسم الجبلى من لبنان . وتوفى فقام بالدعوة بعده حمزة بن أحمد الهادى وكثر أتباعها وعُرفوا بالدروز نسبة إلى مؤسس الدعوة . وانتشارها على هذا النحو فى جبل لبنان وحوران بسوريا جعلها تديع بين قبائل وعشائر عربية ، وسقطت إلى الجنوب حتى جبل كَرَمَل بالقرب من صَفَد فى فلسطين ، وصعدت إلى الشمال حتى الجبل الأعلى بين حلب وأنطاكية . وأتاح لها ذلك أن تشيع بين عرب ذوى بأس وأهل شجاعة ، ومنذ وطئت أقدام الصليبيين الشام وضعوا أيديهم فى أيدي الدولة البوريّة صاحبة دمشق ثم فى أيدي عماد الدين زنكى ونور الدين وصلاح الدين ضد حملة الصليب . وظلوا يجاهدونهم فى زمن الأيوبيين والمماليك متعاونين أوثق تعاون مع سلاطين الدولتين فى طردهم من الشام . وأبلوا بلاء حسنا فى حرب التتار . ولعل ذلك هو الذى دفع الدولتين إلى مسالمتهم والإبقاء عليهم مع إقرارهم على إقطاعاتهم ، حتى يظلوا غُصّة فى حلوق أعداء الإسلام والعروبة .

ولديهم رسائل مقدسة لمؤسس دعوتهم محمد بن إسماعيل الدرزى وخليفته حمزة بن أحمد وتلميذه بهاء الدين . ويردد حمزة أن للحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لاتدركها الحواس ولا الأوهام ، ويقول إنه ليس له مكان وإن حل فى كل مكان . وحاول هو وأستاذه الدرزى وتلميذه بهاء الدين أن يقنعوا الناس من حولهم بأن الحاكم تجسّد إلهى وأنه يتشكل فى صورة بشرية هى الصورة الإنسية التى عاش بها مع الناس كأنه فرد مثلهم . وليس الحاكم أول صورة بشرية تشكل فيها الله بل هو آخر صورة تجسد فيها ، فقد تجسد قبله فى الأنبياء والأئمة مما يفسح عند الدروز لفكرة التناسخ . ويصور القلقشندى عقيدتهم قائلا : « إنهم يقولون بأن الألوهية انتهت إلى الحاكم وتديرت (سكنت) ناسوته كما يقولون برجعته وإنه يغيب ويظهر بهيئته ويقتل أعداءه قتل إبادة لامعاد بعده إذ ينكرون المعاد » . فلامعاد عندهم ولابعث ولاقيامه ، إذ القيامة فى رأيهم يوم رجعة الحاكم وظهوره فى صورته اناسوتية ، وحينئذ يوقع العذاب والثواب على الناس ، أما الثواب فارترفاع بالدرجة فى العلوم الدينية ، وأما العذاب فهب بالدرجة إذ يستمر الشخص ينتقل من جسد إلى جسد أو قل تستمر روحه تنتقل فى أجساد تهبط به فى الدين درجة بعد درجة .

وتُسقط شريعة الدروز الفروض الدينية وتوجب صيام الأيام التسعة الأولى من شهر ذى

الحجة ، ويقول القلقشندى إنهم يذهبون مذهب الطبائعية في قولهم إن الطبائع هي المولدة ، والموت بفناء الحرارة الغريزية كانطفاء السراج بفناء الزيت ، ويقول : إنهم زادوا في البسمة أيام الحاكم : باسم الحاكم الله الرحمن الرحيم ، ثم جعلوها باسم الله الحاكم الرحمن الرحيم . ولهم أدعية خاصة يتجهون بها إلى ربهم ، من ذلك ما نقله الدكتور محمد كامل حسين من رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد لحمزة بن أحمد من مثل : « سبحان مولانا جل ذكره عن إحاطة الأشياء به وعز سلطانه عن حكومة الألسن والأوهام عليه لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

على أنه ينبغي أن نعود فنذكر أن عقيدة الدروز أصابها بعض التعديل في فروعها بما يتلاءم والإسلام ومن أهم من عملوا على ذلك عبدالله التنوخي الملقب بالسيد المتوفى سنة ٨٨٤ وقد حاول العودة بهم إلى مذهب الجماعة .

(د) الإسماعيلية^(١) النزارية أو الفداوية أو الحشاشون

مررنا في الحديث عن التشيع بإيران في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي أن داعية من دعاة الحركة الإسماعيلية الفاطمية بإيران هو الحسن بن الصباح زار مصر لعهد المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧هـ) وسأله من الخليفة بعدك ؟ فقال له : ابني نزار ، فعاد إلى إيران يدعو للمستنصر وابنه نزار ، واستطاع مع طائفة من أتباعه أن يستولى على قلعة « الموت » الجبلية الشاهقة ، واتسعت دعوته حتى ضم إليه قلاعا وحصونا كثيرة بإيران وبعض بلدانها في قزوين وطبرستان . وكانت الأمور تتطور بالقاهرة فتوفى المستنصر ورأى الأفضل بن بدر الجمالي أن لا يولى نزارا بعده وإنما يولى أخاه المستعلى . وبذلك انقسمت الإسماعيلية الفاطمية قسمين : قسما عربيا في مصر والشام بيده مقاليد الحكم يدعو للمستعلى وقسما شرقيا في إيران يمثلها الحسن بن الصباح يدعو لنزار .

واستطاع الحسن بن الصباح أن يحول فرقته أو طائفة كبيرة منها إلى فرقة إرهابية مهمتها اغتيال خصوم الدعوة من حكام الأقاليم والدول ووزرائهم ومن العلماء والفقهاء المناوئين لها ، وكان ممن اغتالوه الوزير السلجوقي العظيم نظام الملك سنة ٤٨٤ . ومن أجل ذلك أطلق على اسم هذه الفرقة

(١) ٣٥٥ ، ٣٦٦ وكتاب طائفة الإسماعيلية : تاريخها . نظمها . عقائدها للدكتور محمد كامل حسين .

(١) انظر في هذه الفرقة وقلاعها بالشام ونشأتها صبح الأعشى ١٢١/١ و١٤٦/٤ و١٧٩ ورحلتى ابن جبير وابن بطوطة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٨٢ ،

اسم الفدائيين أو الفداوية كما غلب اسم الحشاشين لأنهم - فيما يظهر - كانوا يتعاطون الحشيش المخدر. وعمل الحسن بن الصباح على نشر الدعوة الإسماعيلية لافي أقاليم إيران فحسب ، بل أيضا في إقليم الشام ، فأرسل إليها دعائه ، وبادر بإرساله الحكيم المنجم أسعد إلى حلب في أيام حاكمها رضوان بن تثن السلجوقي (٤٨٨ - ٥٠٧ هـ) فنشر بها الدعوة وكثر أتباعه وأوعز إلى بعض الحشاشين معه باغتيال جناح الدولة صاحب حمص ، واغتيل سنة ٤٩٦ . ووفد على حلب داعية ثان للحسن بن الصباح هو أبو طاهر واستولى مع شيعته على حصن فامية من الصليبيين ثم استردوه منه . وأخذ الفدائيون من فرقة ابن الصباح يفدون على الموصل والشام واغتالوا في سنة ٥٢٠ صاحب الموصل آق سنقر . وفي نفس السنة وفد على دمشق نزارى من الموت ، وتقرب من طغتكين صاحبها ، وتنازل له عن قلعة بانياس فأخذ يدير دعوته منها ، وكثر أتباعه ، وأدخل المردغاني وزير بوري (٥٢٢ - ٥٢٦) في دعوته فعين أحد رجاله ، وهو أبو الوفا قاضيا لقضاة دمشق . وبعث أبو الوفاء سرا لبلدوين الثاني صاحب بيت المقدس أنه على استعداد لتمكينه من الاستيلاء على دمشق في نظير تنازله له عن صور ، وقدم حملة الصليب إلى دمشق سنة ٥٢٤ لتنفيذ المؤامرة وفطن بوري فقتل أبا الوفاء ووزيره المردغاني ، ورد الله حملة الصليب عن دمشق مدحورين .

وأخذ الإسماعيليون النزاريون في بانياس يمكنون لأنفسهم بالاستيلاء على طائفة من القلاع في السفوح الشرقية لجبال النصيرية بالقرب من طرابلس إلى الشمال بينها وبين حماة ، حتى إذا خلص الأمر لرشيد الدين سنان منذ سنة ٥٥٨ أخذ ينظم هذه الجماعة الإرهابية الخطيرة جاعلا من قلاعها وهي مصياف والرصافة وقدموس والخوابي والكهف والمينقة والعليقة ، مركزا للدعوة . ويُعد دوره في الدعوة بالشام كدور الحسن بن الصباح في إيران ، فقد ضاعف تحصينات قلاعها وزودها بالسلاح والعتاد ، وكان سنان مباينا لنور الدين ولم يحاول أن يساعده في حربه لحملة الصليب ، وفكر نور الدين في منازلته ولكنه توفي قبل تحقيق فكرته . وبالمثل كانت بين سنان وصلاح الدين مباينة ، وأرسل إليه بعض فدائييه أو حشاشيه مرتين ليغتالوه ونجى الله صلاح الدين من خناجرهم ، وجردهم في سنة ٥٧٢ جيشا جرارا حاصره قلاعهم وضيق عليهم ، فسألوه الصفرح عنهم ، فأجابهم إلى ذلك ليتفرغ سريعا لحرب حملة الصليب مؤملا أن يمدوا له يد العون في تلك الحرب ، وكانوا قد وعدوه أن يقفوا معه ضدهم ، فلم يتعرض صلاح الدين بعد ذلك لقلاعهم .

ونمضى معهم إلى أيام هجوم التتار على الشام فنجد داعيتهم أبا المعالى رضى الدين يرضخ لهم ويسلمهم بعض القلاع سنة ٦٥٨ بينا ظل الدروز يقاومون التتار - كما مرّ بنا - ولعل ذلك ما جعل الظاهر بيبرس بعد قضائه على التتار يفكر فى الاستيلاء على قلاعهم منذ سنة ٦٦٤ وسرعان ما أعلنوا له الطاعة وأنهم جزء من رعيته . وفى سنة ٦٦٩ عزل داعيتهم نجم الدين وولى مكانه داعية ثانيا يسمى صارم الدين ، غير أنه أعلن الثورة عليه ، وسرعان ما أخفقت ثورته . وأخذ الظاهر بيبرس يستولى على قلاعهم حتى سلمت له وخضعت جميعا ، ولم يعتمد إلى إجلائهم عن قلاعهم كما صنع هولاء حين استولى على قلعة ألموت وغيرها من قلاعهم بإيران ، بل أبقى عليهم ليفيد من سفاكيهم فى القضاء على خصومه . وظل سلاطين المماليك بعده يستخدمونهم لنفس الغاية .

ويسجل ذلك ابن بطوطة حين زار حصونهم لعهد الناصر بن قلاوون سنة ٧٢٧ إذ يقول : « وهذه الحصون لطائفة يقال لها الإسماعيلية ، ويقال لهم الفداوية ، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه ، وهم المرتبات ، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه ديتة ، فإن سلم بعد تأدية ما يراد منه فهى له ، وإن أصيب فهى لولده » . ويقول القلقشندى نقلا عن ابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة : « ولصاحب مصر بمشايعة الفداوية مزية يخافه بها عدوه ، لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يبالي أن يُقتل بعده ، ومن بعثه السلطان إلى عدو له فجب عن قتله قتله أهله إذا عاد إليهم ، وإن هرب تبعوه وقتلوه » . وبالقاهرة جامع منسوب إلى هذه الجماعة الإرهابية يسمى جامع الفداوية ، ويقال إن الفداوى الإرهابى الخطير الذى كان يعتمد عليه بيبرس هو « شيحة » المدفون بدمياط .

الزهد (١) والتصوف

الشام - من قديم - بلد دين سماوى ، بل دينين سماويين هما اليهودية والمسيحية ، مما جعل لها تأثيراً بعيداً في تاريخ العالم الروحى ، إذ عملت بقوة على نقله من دور الوثنية إلى دور الديانات السماوية ، وبدأ ذلك منذ أعتق الأزمنة ونقصد زمن إبراهيم الخليل عليه السلام الذى آمن بوحداية الله ، وحاول أن يحمل عليها قومه ، وتتابعت بعده الرسل تؤكد دعوته وتدعو إلى عبادة الله وإعلاء القيم الروحية ، حتى إذا كانت المسيحية وأدخلت فيها مصر نظام الرهبنة والمعيشة الخالصة لتعبد الله والنسك فى الأديرة والصوامع عَمَّت هذه الروح فى الشام واعتزل كثيرون منه - فى أيام الرومان الظالمة - الحياة اليومية العاملة إلى الرهبنة . وتعتنق كثرة السكان فى الشام الدين الحنيف ويقبلون على تعاليمه وعبادة الله الواحد الأحد حتى عبادته وعلى ما تدفع إليه من النسك والتقوى ، مقتدين بمن نزل بينهم من جلة الصحابة وبخاصة من أهل الصفة الذين كانوا يلازمون المسجد النبوى مقبلين على عبادة الله زاهدين فى الدنيا ومتاعها الزائل من أمثال بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ وأبى عبيدة فاتح الشام مع خالد بن الوليد ، وكان على غرارهما زهدا فى الدنيا معاذ بن جبل المتوفى مع أبى عبيدة فى سنة ١٨ للهجرة بطاعون عمواس ، ويؤثر عنه أنه كان يقول حين نزل به القضاء : « مرحبا بالموت ، مرحبا بزائر حبيب جاء على فاقة ، اللهم إنك تعلم أنى كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، وإنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكبرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظماً الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلقات الذكر » .

والسلوك للمقريزى والدرر لابن حجر والأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الجزء الخاص بمدينة دمشق (تحقيق د. سامى الدهان) ووفيات الأعيان وفوات الوفيات فى تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تغرى بردى والبدر الطالع للشوكانى وروض الرياحين لليافعى وخلاصة الأثر للمحجى وسلك الدرر للمرادى وتاريخ الجبرى وجولد تسيير ودائرة المعارف الإسلامية والجزء الرابع من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان

(١) انظر فى الزهد والتصوف بالشام كتب تراجم الصحابة ، وبخاصة من سميناهم ، وراجع فى معاذ تهذيب النووى وفى أبى الدرداء البيان والتبين للجاحظ : الجزء الثالث (انظر الفهرس) وانظر فى الأسماء التالية طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى والطبقات الكبرى للشعرانى والرسالة القشيرية (طبعة عبدالحميد محمود) وكشف المحجوب للهجويزى (الترجمة العربية) وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر وأحسن التقاسيم للمقدسى

وعلى شاكلة معاذ في الورع والتقوى من صحابة رسول الله ﷺ الذين هاجروا إلى الشام أبو الدرداء الأنصاري ، وهو أحد حفظة القرآن الكريم لعهد الرسول وأول من تقلد القضاء بدمشق إلى أن توفي سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ، وهو من أهل الصُّفَّة الأتقياء ، ويروى الجاحظ عنه أنه كان يقول « نعم صومعة المؤمن منزل يكفُّ فيه نفسه وبصره ، وإياكم والجلوس في الأسواق فإنها تلهي وتحمل على اللغو في الكلام » ويروى عنه أيضا قوله : « أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث : أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لا يُغفلُ عنه ، وضاحك ملء فيه ولا يدري ساخطُ ربه أم راض ، وأبكاني هول المطلع ^(١) ، وانقطاع العمل ، وموقفي بين يدي الله لا يُدري أيومرني إلى الجنة أم إلى النار » . وأخذ يتكاثر بعد جيل الصحابة في الشام العباد والأتقياء وولتقى بهم في كل طائفة : في القضاة والفقهاء والمحدثين وقراء الذكر الحكيم .

واتسع ذلك حتى شمل بعض الحكام على نحو ما هو معروف عن الخليفة عمر بن عبد العزيز وهو يمثل نموذج الحاكم المتقشف الزاهد الذي يخشى الله في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل ، ومرَّبنا أنه رفع المكوس وضرائب السدود والمعابر عن الناس وأنه سَوَّى بين المسلمين الجدد من الموالى والمسلمين من العرب فحطَّ عنهم - مثلهم الجزية - واكتفى بالزكاة . وكتب إليه أحد عماله : إن أهل الذمة قد أقبلوا على الإسلام حتى يتخلصوا من الجزية ، فأجابه : إن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه جاييا . ويفيض ابن سعد في ترجمته له بطبقاته في بيان زهده ورفضه لمتاع الجباة من رقيق يملكه ومن عطر يتطيب به . وعمل بكل جهده على نشر العدل في دولته ورفع المظالم عن الناس . وكان يجهد نفسه في النسك والتعبد حتى اصفرَّ لونه ونحل جسمه ، وأنكر منه بعض الزهاد ممن كانوا يلمون به ذلك فقال له : كيف بك لو رأيتني في قبري وقد سألت الحدقتان - بعد ثلاث ليال - على وجنتي وتقلَّصت الشفتان لكنت إذن أشد نكرا . وطبيعي أن يكون عمر من أسباب اتساع موجة الزهد في الشام . ونكتني بذكر بعض من تموج بهم كتب القراء والفقهاء والتاريخ من هؤلاء الزهاد العباد . من ذلك ما يقولونه عن شيبان الراعي المتوفى سنة ١٥٨ وكان من كبار الفقهاء الزهاد وكان من أكابر أهل دمشق وعكف على النسك ، وبلغ به ذلك أن ترك الدنيا واتخذ له صومعة في جبل لبنان فانقطع بها يتعبد الله .

ونسلم كثيرا عن عباد انقطعوا بهذا الجبل مؤثرين الإقامة به للتعبد ^(٢) ، ومنهم من كان يتعبد الله في جبال أنطاكية والمصيصة ، ومنهم من يتخذ الصوامع ، وظل ذلك متبعا حتى زمن ابن

(٢) راجع مقلمة أحسن التقاسيم للمقدسي .

(١) الاستشراف للآخرة

جبير^(١) . وكان منهم من لا يبعد عن دمشق إلى الجبال النائية مثل فهر بن جابر الطائي المتوفى عام ٢٢٠ فإنه لما بلغ الخمسين من عمره اعتزل الناس بجوار دمشق ، وأخلص نفسه للتقوى والنسك ، وله في الزهد كتاب سماه : « العروج في درج الكمال والخروج من درك الضلال » . وولتقى بمعاصره أبي سليمان الداراني عبدالرحمن بن أحمد بن عطية المتوفى سنة ٢١٥ وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان من واسط وتحول إلى الشام ونزل قرية دارياً غربي دمشق ، وكان إماماً حافظاً كبير الشأن في علوم الحقائق والورع أثنى عليه الأئمة ، وكان له الرياضات والسياحات ، ويقول الهجویری : « كان ريحانة القلوب ، اختلف بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة » . وتسلكه كتب الصوفية ، في تراجعهم . ولم يكن التصوف حتى زمنه استقل عن الزهد بأحواله ومقاماته ، فهو إلى أن يكون زاهداً أقرب منه إلى أن يكون متصوفاً . وحمل عنه نزعة النسكية تلميذان أو مريدان ، هما أحمد ابن عاصم الأنطاكي وابن أبي الحواري الدمشقي ، أما ابن عاصم فتوفى بعد أستاذه بخمس سنوات ، ويسلكه المتصوفة بين أوائلهم ويقولون إنه كان يجمع بين الأصول والفروع في الشريعة ، وكان يقول : « أنفع الفقر ما كنت به متجملاً وعنه راضياً » ويذكر بروكلمان له كتاباً في الزهد سماه « دواء القلوب ومعرفة هم النفس وآدابها » ويقول إن الغزالي ينقل عن هذا الكتاب كثيراً . وتلميذ الداراني الثاني أو مريده ابن أبي الحواري أحمد توفى سنة ٢٣٠ وكان من بيت زهد ، فأبوه من الورعين وكذلك ابنه عبدالله ، وذُكر عند الجنيد متصوف بغداد فقال : « ريحانة الشام » . وكان يعاصره الشيخ أبو عبيد وان عابداً تقياً صالحاً توفى سنة ٢٣٨ وقد وهب نفسه للغزو وجهاد أعداء الله .

ونلتقى في طرسوس دار حرب الروم بالشيخ أبي الحارث الفيض بن الخضر الأولاسي المتوفى سنة ٢٩٧ وكان أحد الزهاد العباد وله إشارات ولسان حلو وأقوال عالية ، وهو منسوب إلى أولاس في نواحي طرسوس ، وكان بها حصن يسمى حصن الزهاد ، وكانما اتخذوه رباطاً لحرب أعداء الإسلام . وهو شاهد على ما قلناه مراراً في كتاباتنا من أن زهادنا ومتصوفتنا كانوا دائماً يرون من تمام تصوفهم وزهدهم أن يجاهدوا العدو ويرابطوا له في الثغور ، حتى إذا كان نفير الحرب تقدموا الصفوف يقتلون أعداء الدين الحنيف ويستشهدون . وكان يعاصر الأولاسي أحمد بن يحيى

متى سُمّ المقام يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودي (شمال الموصل) فيلقى بهما المريدين المنقطعين إلى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء وينصرف إلى حيث شاء .

(١) يقول ابن جبیر في كلامه عن دمشق سنة ٥٧٨ كان الخير ينال على الغرباء من الخطباء والمعلمين لافي دمشق وحدها بل أيضا في القرى والضباع ، ومن سُمّ المقام فيها

المعروف باسم ابن الجلاء المتوفى سنة ٣٠٦ تلميذ ذى النون المصرى مؤسس التصوف الإسلامى كما سنذكر ذلك فى حديثنا بجزء مصر، وتلمذته لذى النون تجعله أول متصوف شامى بالمعنى الحقيقى. وكان ذوالنون يجمع بين الشريعة وفروضها وبين الحقيقة الصوفية الروحية ، فلا تعارض بين الشرع والتصوف ، بل هما متلاحمان ، وعنه أخذ ذلك ابن الجلاء كما أخذ بقية مبادئه الصوفية من التوكل والحب الإلهى . ويقول ابن تغرى بردى إنه أحد مشايخ الصوفية الكبار ، ويقول مریده وتلميذه الرقى محمد بن داود : « لقيت نيفا وثلاثمائة من المشايخ المشهورين ، فما لقيت أحدا بين يدى الله وهو يعلم أنه بين يديه أهيب من ابن الجلاء » . وعاش الرقى بعده فى الشام إذ توفى بعد سنة ٣٥٠ . ومن مریده وتلامذته فى الشام أبو عمرو الدمشقى المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يقول : « التصوف رؤية الكون بعين النقص بل غرض الطرف عن كل ناقص ليشاهد مَنْ هو منزّه عن كل نقص » يريد تعلق التصوف بالرؤية الإلهية التى يغض فيها المتصوف بصره عن كل ما يشاهده فى الكون أملا فى أن يفنى فى الذات الربانية ، وذكر مترجموه أن له كتابا فى الرد على القائلين بقدم الأرواح .

ومن كبار المشايخ فى الشام أحمد بن عطاء الروذبارى المتوفى سنة ٣٦٩ وهو ابن أخت أبى على الروذبارى شيخ الصوفية فى الفسطاط ، أما هو فكان شيخ الشام فى وقته ، وكان ممن جمع بين الحقيقة وعلم الشريعة . ودخل الشام محمد بن خفيف الشيرازى شيخ المشايخ المتوفى سنة ٣٧١ ويحكى أنه : « دخل مدينة صور وهو جائع عطشان وفى وسطه خرقة المتصوفة ، يقول : فدخلت المسجد ، فإذا شابان مستقبلا القبلة فسلمت عليهما فما أجابانى ، فقلت : ناشدتكما الله إلا رددتما علىّ السلام ، فرفع أحدهما رأسه من مرقعته الصوفية فنظر إلىّ وردّ السلام وقال لى : يا بن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا قليل ، فخذ من القليل الكثير ، فذهب جوعى وعطشى ونصبى (تعبى) فلما كان وقت العصر قلت له : عِظْنى ، فقال : يا بن خفيف : نحن أصحاب المصائب ليس لنا عظة . وربما كان أهم تلامذة أحمد بن عطاء الروذبارى ومریده محمد بن إبراهيم السوسى شيخ الصوفية بدمشق المتوفى سنة ٣٨٦ وكان زاهدا عابدا ماعقد على درهم ولادينار . وظل كثيرون من العباد والنسك يؤثرون جبال الشام وقيمون بين ربوعها ويذكر المقدسى الجغرافى المتوفى حوالى سنة ٣٧٥ أنه لقي فى جبل الجولان شرق الشام أبا إسحق البلوطى فى أربعين رجلا يقاتون البلوط ، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعير برى ويلبسون الصوف . وينبغى أن نذكر أن المتصوفة كانوا غالبا لا يستقرون فى أوطانهم ، بل يرحلون سائحين للقاء مشايخ

الصوفية ، ومعنى ذلك أن الشام كانت تستقبل كثيرين منهم . وكان يحدث كثيرا أن يتخذوها دار مقام كما صنع الداراني الواسطي وأحمد بن عطاء الروذباري ، وغيرهما كثيرون مثل الختلي نزيل الشام المتوفى سنة ٤٥٣ وهو أستاذ الهجويري الغزنوي الأفغاني ، وكانت أكثر إقامته بالديار الشامية . ومعنى ذلك أن الشام كانت دائما ساحة كبرى للنسك والتقوى والعبادة .

ومانصل إلى سنة ٤٨٨ حتى ينزل الإمام الغزالي الطوسي الصوامع النائية في مساجد بيت المقدس ، وكانت قد انتابته أزمة روحية من الخلافات العنيفة بين الفرق والملل وحتى بين الفقهاء في فروع الشريعة . وقد أوضحنا ذلك في حديثنا عن الزهد والتصوف بإيران في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي وكيف أخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة ، وحمل على فرقة الإسماعيلية الشيعية حملة عنيفة في كتابه « فضائح الباطنية » . وكان قد رأى في موطنه ضعف الوازع الديني عند طوائف الصوفية ، وأن جماعات منهم كانت تُسقط عن نفسها الفرائض الدينية ، بينما كان منهم من يؤمن بالحلول والاتحاد بالله والفناء فيه . وكل ذلك أشعل بينهم وبين الفقهاء حربا شعواء ، وأخذ الغزالي يفكر في كل ذلك على هدى ما كتبه أبو نصر السراج والقشيري في رسالته ، ورى أنه لا بد من الوصل بين التصوف والشرع ، فلا تصوف بدون الفرائض والنوافل ولا صلاة بدون عمل القلب والإخلاص وصدق السريرة ، وأخذ يؤلف موسوعته الرائعة « إحياء علوم الدين » بقصد تنمية الجوانب الروحية في الفرائض الشرعية وبيان الوسائل إلى ذلك بحيث تصل النفس إلى مبتغاه من محبة الله . وأتم الكتاب في دمشق . واستقبلته استقبالا عظيما لأن متصوفها لم يكونوا قد انحرفوا بتصوفهم إلى مزالقه التي وصفناها في إيران ، بل كانوا دائما يجمعون بين التصوف والشريعة ، إلا من دفعته السياحة إلى ديارهم من متصوفة إيران .

على كل حال كانت إقامة الغزالي بدمشق وبيت المقدس فاتحة التثام وثيق بين الفقهاء والمتصوفة ، وزاد هذا الالتئام توثقا نزول حملة الصليب بديار الشام ، ولعل ذلك ما جعل حكامها التابعين للدولة السلجوقية يأخذون في العناية ببناء الخانقاهات للمتصوفة ، من ذلك بناء دقاق بن تش لخانقاه الطواويس بدمشق . ودعم هذا التصوف السني عناية نور الدين ثم صلاح الدين وسلاطين الحكم الأيوبي ونسأؤهم وأمراؤهم ببناء الخانقاهات والرُّبُط في ديار الشام ووقف الرواتب والأموال التي تنفق على متصوفها عن سعة . وقد عدَّ ابن شداد في الجزء المنشور من كتابه الأعلام الخطيرة الخاص بدمشق خانقاهاتها وحدها فبلغت تسع عشرة وبالمثل عدرباطاتها فبلغت أيضا تسعة عشر رباطا . وكان لا يزال يخرج منها صفوف وجنود لجهاد حملة الصليب . وفي هذه

الأثناء ظهرت ببغداد طريقة صوفية سنية هي الطريقة القادرية لمؤسسها الشيخ عبدالقادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ واعتنقها كثيرون لافي العراق وحدها بل أيضا في الشام والبلدان العربية . وتبعها ظهور طريقة صوفية سنية ثانية هي الطريقة الرفاعية لمؤسسها الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ وانتظم فيها كثيرون في العراق والشام وشاعت سريعا في العالم العربي .

ومعنى ذلك أن التصوف السني الجامع بين علم الحقيقة أو علم التصوف وبين علم الشريعة أو علم الفقه وما يتصل به من السنة تداخلت عوامل كثيرة في أن يكون هو التصوف الشائع في الديار الشامية . وحاول التصوف الفلسفي القائم على أفكار الحلول والاتحاد بالله أن يتسرب إلى الشام عن طريق يحيى السهروردي الإيراني ، وكانت له فلسفة صوفية إشراقية ألمنا بها في حديثنا عنه في الفصل الرابع من قسم إيران ، وذكرنا هناك بأنه كان يؤمن بأن النبوات لا تنقطع وأن الحكيم الصوفي من أمثاله أفضل من الأنبياء ، وكفره فقهاء حلب وحملوا الملك الظاهر بن صلاح الدين على قتله ، فقتله سنة ٥٨٧ للهجرة .

وكان من أثر دخول الشعوذة على التصوف ، وخاصة في إيران ، ظهور فرقة بدمشق سنة ٦١٩ تسمى القلندرية وهم أتباع قلندر يوسف ، لا يتقشفون ولا يتنسكون ولا يصلون سوى الفرائض ، ويحلقون لحاهم وحواجبهم . وتسرب ثانية إلى الشام جدول صوفي فلسفي زاخر على لسان يحيى الدين بن عربي المولود بمرسية في الأندلس سنة ٥٦٠ وقد تلقى تعاليمه في إشبيلية وفارقها في الثلاثين من عمره إلى المشرق لحج بيت الله الحرام . وظل في مكة فترة ثم بارحها مطوفا في البلاد العربية ودخل الأناضول « وألقى عصاه بدمشق وبها توفي سنة ٦٣٨ » . وكان إماما في التصوف الفلسفي القائل بوحدة الوجود وصنّف كثيرا من الكتب أهمها الفتوحات المكية والفصوص ، وله غير ديوان ، ومن أهم دواوينه ترجمان الأشواق ، وكان شاعرا مبدعا كما كان كاتباً بارعا . وعلى الرغم من اتجاهه الفلسفي في التصوف استطاع أن ينجو من العامة والفقهاء ، فلم يحكموا عليه بالكفر أو الإلحاد كما حكموا على السهروردي ، بل لقد وجد بينهم مريدين كثيرين مماهيا فيما بعد لكي يظل التصوف الفلسفي - على قلة - حيا بجانب التصوف السني ، وكانت عباراته في كتاباته تحمل ظاهرا وباطنا ، ظاهرا مع السنة وباطنا مع التصوف الفلسفي ، وجعل ظاهرها كثيرين يبرئونه من تهمة الإلحاد على نحو ما مر بنا في مصر عند الشعراني .

وتُعنى دولة المماليك بالثانقات والربط وزوايا المتصوفة ، وترصد لها أموالا كثيرة ، مما كان سببا في ازدهار التصوف وازدياد طرقه بجانب طريقتي القادرية والرفاعية السالفتين ، فشاعت فيه

كما مر بنا آفا الطريقة القلندرية . ودخلته الطريقة المولوية ، ومؤسسها جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٣ وتبع هذه الطريقة كثيرون . ونزل الشام عفيف الدين التلمساني المتوفى سنة ٦٩٠ وكان صوفيا فلسفيا يؤمن بمذهب وحدة الوجود واحتمله فقهاء الشام فيما يبدو لحسن عشرته .

ولعل فقيها لم يحمل على الصوفية كما حمل ابن تيمية الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٨ . وكان يحمل على أصحاب التصوف الفلسفي . وهذا طبيعي . وحمل أيضا على أصحاب التصوف السني من أتباع الشيخ أحمد الرفاعي لما كانوا يأتون من أعمال شاذة كنفوذهم من النار المضطربة ، وأكلهم الحيات وهي حية ، ولبسهم أطواق الحديد الثقيلة في أيديهم ، ولفهم شعورهم وتليدها . وثار عليهم ثورة عنيفة بدمشق واجتمع الناس إليه ، فذهب بهم إلى نائب السلطان وعرفه ماتصنعه هذه الطائفة من بدع عجيبة ، فأمرهم بالكف عنها . أما أصحاب التصوف الفلسفي وما يتصل به من القول بالحلول ووحدة الوجود فقد أشعل ابن تيمية ضدهم نارا حامية ظل يُذكيها بوقود جزل يزيد لها واضطرابا ، واصطلى النار الباجريقي محمد بن عبدالرحمن ، وكان قد تزهد وتصوف فصحبه جماعة من الأراذل ، فهوّن لهم أمر الشرائع وأراهم بوارق شيطانية ، وكان يقول لهم : إن الرسل طوّلت على الأمم الطريق إلى الله تعالى » وزعم أنه وصل في سلوكه إلى السماء الرابعة ، وحُكِمَ عليه بإراقة دمه فاختنق إلى أن مات سنة ٧٢٤ . ودعا إلى مقالاته بعده متصوف من متصوفة خانقاه السميساطية بدمشق يسمى عثمان بن عبد الله الدوكالي ، وشاع أمره فقُبض عليه ، وكان ممن شهد عليه فقيهان كبيران هما المزّي والذهبي ، فحُكِمَ عليه بالقتل سنة ٧٤١ .

وشاعت في الشام لأواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجري الطريقة النقشبندية ، ومؤسسها محمد النقشبندی المتوفى سنة ٧٩١ . وأخذت تشيع معها لأواخر زمن المماليك الطريقة البكتاشية التي تدين بالنظريات الحلولية ولا تقم وزنا للسنن والفرائض الدينية وتقدرس عليا والأئمة من بعده . ومنذ القرن الثامن الهجري نحس بوضوح أن العامة تخضع لمشايخ الطرق الصوفية بأكثر مما تخضع للفقهاء وعلماء الدين ربما بسبب خضوعهم للحكام بخلاف مشايخ الطرق الصوفية فإنه لم يكن لهم أي تعلق بالدنيا وكانوا يكتفون بما يجري على خانقاهاتهم من أموال ولم يكن الشيخ يمدُّ يده للحاكم يأخذ منه مالا . وكانوا كثيرا ما يحملون على الحكام إذا رأوهم انحرفوا عن الطريق السوي . وتحول كثير من أتباعهم إلى دراويش يطوفون في العالم الإسلامي ، وكان لهم أثر غير قليل في حفاظ العامة على الروح الإسلامية .

ونمضى إلى زمن العثمانيين فتشط الطرق الصوفية لاهتمامهم بها ورعايتهم لها ، وتشيع معها

الطريقة الخلوئية ، ويعظم أمر الدراويش ويكثر في العالم الإسلامي . ومما لا شك فيه أنه كانت تكثر الطرق الصوفية المخلصة التي تعنى بالنسك والعبادة ، وإن كان من الحق أنه أساء إلى هذه الطرق الدراويش المتسولون الذين كانوا يتكفون الناس . وهم دراويش رُحّل كانوا يعيشون معيشة مطلقة ، وقد يتحللون فيها من القرائض الشرعية . وبدون ريب كان بينهم من يتخذ الدروشة خداعا للناس ووسيلة إلى البطالة . ومع ذلك لانعدم أن نجد من حين إلى حين صوفيا حقيقيا يحاول النفوذ إلى معرفة أسرار الكون وخفاياه والتخلص من عالم الحس المادي للفناء في عالم الحقيقة والحب الإلهي ، على نحو ما نجد عند عبد الغني النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ للهجرة وقد تقلب بين الطرق الصوفية وعكف على دراسة أئمة التصوف الفلسفي وغير الفلسفي ، ولقى كثيرا من شيوخ الصوفية في لبنان وفلسطين ومدن الشام والحجاز ومصر ، وكان شاعرا كما كان ناثرا .

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

ظهرت الشام على مسرح الحضارة العالمية منذ أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد ، وهياها لذلك موقعها بين حضارتى وادى النيل ووادى دجلة والفرات ، مما جعلها تنتقل سريعا من عالم البداوة والرعى إلى عالم الزراعة والاستقرار ، وكان مما أسرع بها إلى هذه الغاية وقوعها في مفترق طريق العالم على الحافة الشرقية للبحر المتوسط ، مما أتاح لها أن تكون دولة بحرية على الأقل في شواطئها فتشارك في الملاحة والتجارة على نحو ما هو معروف عن الفينيقيين وإتقانهم لفنى التجارة والملاحة ، وقد استطاعوا أن يشتقوا من حلال الحروف الهيروغليفية المصرية أبجدية لهم ، هى أم الأبجديتين اليونانية والرومانية اللاتينية . وقد أخذت الشام تعيش عصرا هيلينيا منذ دخلها الإسكندر المقدونى ، ومضت تتعمق الثقافة الهيلينية فى زمن خلفائه السلوقيين اليونانيين وزمن الرومان ، واستطاع كثيرون من أهلها أن يتقنوا اليونانية وأن يسهموا فى تراث اليونان الفكرى والأدبى ، وبخاصة سكان الثغور من غزة جنوبا إلى أنطاكية شمالا . ولعلت أسماء كثيرين من أبناء هذه الثغور فى مجال المشاركة الفلسفية وبخاصة فى صور وصيداء ، سماهم وتحدث عن نشاطهم الفكرى فيليب حتى وخاصة فى مجال الفلسفة الرواقية والأفلاطونية الحديثة ، إذ ذكر أنه كان فى بيروت مدرسة تعنى بدراسة القانون الرومانى منذ أوائل القرن الثالث الميلادى ، ويستظهر أن تكون اللاتينية لغة التعليم بتلك المدرسة ، وإن كانت قد عادت مع أوائل القرن الخامس وسيطرة القسطنطينية عليها إلى اللغة اليونانية . وبالمثل شارك أبناء الثغور الشامية فى الأدب اليونانى ولمع فى صيداء اسم غير شاعر كان ينظم باليونانية .

وكل ذلك كان يصل الشام فكريا وفلسفيا وأديبا ولغويا بالثقافة اليونانية ، وإذا كانت قد اشتقت أبجديتها من الأبجدية الفرعونية ، فإن مصر أثرت فيها تأثيرا بعيدا فى عصرها المسيحى ، إذ

أخذت عنها الرهينة التي أسسها أحد قساوستها في أواسط القرن الرابع للميلاد ، وكانت أول بلدة شامية استجابت إليها غزاة لقرها من مصر ، ومنها انتقلت إلى كل بلدان الشام حتى أنطاكية ، وكانت طوال العصر الهيليني تُعدّ ثلاثة المدن في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية والإسكندرية .

ومما يدل بوضوح على مدى تأثير الهيلينية في الشام أن نراها تتعمق باديتها أيام الرومان إلى دولة تدمر النبطية حين بلغت الذروة الطامحة إليها في عهد أذينة . وحين خلفته في الحكم أرملة زنوبيا اتخذت لونيغينوس الذي علمها اليونانية مستشاراً لها ، ويظن أنه كان حمصى الموطن ، وقد أعدمه الرومان بعد قضائهم على زنوبيا سنة ٢٧٣ م . وهو يوضع في سلسلة النقاد المتأخرين من اليونان لما خلف من أفكار نقدية وبلاغية كثيرة .

وكل ذلك معناه أن الشام حين فتحها المسلمون كان بها تراث يونانى ومسيحى^(١) يعدها للمشاركة سريعاً في نشاطها العلمى والأدبى بمجرد دخول الإسلام في ربوعها الذى كان يدفع أتباعه دفعا إلى التزود بالعلم والمعرفة . وقد دخل أهل الشام في دين الله أفواجا ، وكان من حولهم الصحابة الفاتحون لديارهم ، وعنى كثيرون منهم بإقراء من أسلموا القرآن وعرض أحاديث الرسول عليهم ، حتى يفقهوا فقها حسنا تعاليم دينهم الخفيف . وكانوا مايزالون يفتونهم في المسائل حتى يتبينوا الحلال فيتبعوه والحرام فينبذوه . وكان من حسن حظ أهل دمشق خاصة أن نزل بين ظهرانيهم أبو الدرداء أحد حفظة القرآن لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما مر بنا ، وكان أول من تقلد القضاء بدمشق حتى توفى ، وحبس وقت فراغه على إقراء الناس القرآن ، وقد بلغ من أقرأهم ألفا وستائة ونيفا ، وكان يجعلهم عشرة عشرة وعلى كل عشرة عريف مقرئ ، وكان يقف في محراب الجامع يراقبهم ويرمقهم ببصره . وإذا غلط واحد من أى عشرة رجع إلى عريفه ، وإذا شك العريف فى شىء رجع إلى أبى الدرداء ، وأيضا يرجع إليه كل قارئ من العشرة إذا أحكم قراءة القرآن واستظهره جيدا^(٢) . وهذا العدد الضخم من حفظة القرآن فى دمشق لأول عهدا بالإسلام يوضح مدى إقبال أهلها على العلم بالإسلام ، وكان هناك كثيرون يفسرون لهم آيات منه كما كان هناك كثيرون يفتونهم ، ونهض بذلك من نزل ديارهم من الصحابة واتخذوها موطناً ، ثم

(٢) انظر ترجمته فى كتاب « غاية النهاية فى طبقات القراء » لابن الجزرى (نشرة برجستراسر) ٦٠٦/١ .

(١) انظر فى هذا التراث وكل ما ذكرت آنفا كتاب « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » لفيليب حقي - الجزء الأول - الترجمة العربية .

من حملوا عنهم علمهم من التابعين . وأصبحت دمشق سريعا حاضرة الخلافة الإسلامية منذ وليها معاوية ، وطبيعي أن يعنى الأمويون بمن يفقه الناس في شئون دينهم ، ومن يروى لهم حديث الرسول صلى الله عليه عليه وسلم من كبار الحفاظ ، ومن يفسر لهم بعض آي الذكر الحكيم ، ومن يعظهم ويبلغ تأثير وعظه شغاف قلوبهم . وكان هناك القضاة الذين يحكمون بين الناس بالحق ، ويفتونهم فيما يجد من شئونهم .

ومعروف أمر عمر بن عبد العزيز لواليه على المدينة أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم : أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته أو نحو هذا فاكتبه لي ، فإني خفت ادروس العلم وذهاب العلماء ، وكتب بمثل ذلك إلى الآفاق ، وتوفى سريعا قبل تمامه . وكان أول من صدر عن هذه الرغبة العظيمة ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وتدوينه للحديث أول تدوين عام له ، وأخذ تدوينه بعده يتسع في الشام وغير الشام .

وسجلت الشام مبكرة سبقا في قراءة القرآن وإتقانها ، فإن عريفا ممن كانوا يقومون على عشرة من حفظة القرآن بين يدي أبي الدرداء هو عبد الله بن عامر المتوفى سنة ١١٨ للهجرة استطاع أن يبلغ من إحكام قراءة الذكر الحكيم أن يكون له قراءة مستقلة ، وأن يكون أحد القراء السبعة المشهورين في الأمصار الإسلامية لزمانه وبعد زمانه . وما نلبث بأخرة من العصر الأموي وأوائل زمن الولاة في العصر أن نلتقى بفقيه مجتهد ، وبلغ من اجتهاده أن أصبح إماما في الفقه وصاحب مذهب مستقل هو الأوزاعي أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو المتوفى سنة ١٥٧ ببيروت مسقط رأسه . ومعنى ذلك أن الحركة العلمية التي بعثها الأمويون في الشام وقاموا عليها بما كانوا ينفقون على علماء الدين في كل بلد شامي من أموال آتت ثمارها ، فإذا الشام يصبح لها إمام فقيه يتدارس الفقهاء فقهه وكتبه في الأجيال التالية ، وكذلك يصبح لها قارئ من القراء السبعة يقرأ أهل الشام بقراءته حقا متعاقبة .

ونشطت الدولة الأموية لترجمة علوم الأوائل اليونانية وبعض الرسائل الأدبية الفارسية ، وسنلم بذلك في غير هذا الموضع ، إنما نهم الآن بمتابعة الحركة العلمية الدينية واللغوية ، ودائما توجد مع العناية بالقراءات عناية واسعة باللغة والنحو ويقوم عليها مؤدبون ، يعلمون الناس العربية في المساجد حتى لا يخطئوا في تلاوة الذكر الحكيم . ولم يقصر الخلفاء وأمراء البيت الأموي في تأديب أبنائهم وإحضار المعلمين لهم ، وفي كتب الأدب لهم وصايا لمؤدبي أبنائهم وكيف يهذبونهم ويقومون ألسنتهم . وكانوا ابتغاء دربتهم على العربية والنطق الفصيح يرسلون أحيانا بهم

إلى البادية ، حتى يتزودوا باللغة من يناييعها الأصلية ، وكان الوليد بن عبد الملك يلحن أحيانا ، ولاحظ ذلك أبوه فقال : « أضرَّ بالوليد حُبنا له فلم نوجِّهه إلى البادية »^(١) .
 وظل هذا النشاط في تعلم اللغة بجانب النشاط في تعلم الدراسات الدينية ، وأخذت تتوالى طبقات في زمن الولاة العباسيين تجعل همها التعليم في المدن وأيضا في القرى ، والدولة لا تقصّر ، بل دائما تُجرى عليهم الرواتب ، مما دفع إلى ظهور علماء في كل فرع من فروع الدراسات الدينية واللغوية .

ويُظنُّ الشام عهدَ الطولونيين ثم عهد الإخشيديين وتزيد إدرات الرواتب على العلماء ويترد النشاط العلمي في الشام . واهتم معاوية أول خليفة أموي بأخبار الأمم القديمة ، واستقدم لذلك من اليمن عبيد بن شربة الجرهمي ، وجعلها عبيد موضوعا لسمره وأحاديث معه ، وجمع كثيرا من هذه الأحاديث في كتاب له سماه « كتاب الملوك وأخبار الماضين » ، طبع له في حيدرآباد مع كتاب التيجان في ملوك حمير ويلقانا منذ القرن الرابع للهجرة مؤرخون مختلفون في الشام ، على نحو ما سيوضح ذلك في نهاية الفصل ..

وجدير بنا أن نقف قليلا عند حركة علمية وأدبية باهرة دفع إليها سيف الدولة الحمداني (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ) حين أظلم لواءه حلب وإقليمها ومادان لحكمه من أنطاكية وحماة وغيرها من بلاد الشام ، ومر بنا حديث عن بطولته الخارقة وكيف كان يقف درعا ، بل سدا منيعا للبلاد العربية أمام البيزنطيين وكيف نكل بهم وجموعهم مرارا وتكرارا . وبجانب هذه البطولة الخارقة كان راعيا عظيما للعلوم والآداب والفنون في زمنه ، مما جعل حلب عاصمته تصبح كعبة للقصاد من الفلاسفة أمثال الفارابي المعلم الثاني أكبر فلاسفة المسلمين حتى أيامه ، ومن اللغويين والنحاة أمثال أبي علي الفارسي وابن جنى وابن خالويه . وسراه عما قليل يرعى علماء الطب وأفذاذه ، كما يرعى بعض المنجمين . أما الشعراء فلم يجتمع بباب أحد من الأمراء - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه كما يقول الثعالبي ، وقد أفرد له ولشعرائه فصولا طويلة في الجزء الأول من كتابه اليتيمة أمثال النامي والبيغاء والأواء الدمشقي والخالديين والسري الرفاء وكشاجم وابن نباتة السعدي . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق شاعر في الشام والعراق وإيران إلا قدم إليه مدائح ، ويكفي أنه نزل عنده لمدة

(١) البيان والتبيين ٢/٢٠٥ .

تسع سنوات أعظم كوكب في سماء الشعر العربي لزمانه : المتنبي الذي ملأ الدنيا بوصفه لبطلوته وملاحمه مع الروم .

وتحكم الدولة الفاطمية الشام نحو قرن ، وفي أثنائه يتقلص حكمها عن حلب إذ لم تكد تستقر في يدها لأوائل القرن الخامس الهجري حتى استولى عليها بنومرداس كما مر بنا في الفصل الماضي ، ولا يبقى معها في العقد السابع من هذا القرن سوى صور وجنوبيها على شاطئ البحر المتوسط حتى غزة . ومن يرجع إلى كتب التراجم في تلك الفترة يجد هناك كثيرا من طبقات العلماء من محدثين وفقهاء وقراء ومفسرين ونحاة . وليس بين أيدينا نصوص توضح مدى الرواتب والأموال التي كان يبذلها الفاطميون ونوابهم وولاتهم لعلماء الشام . ولكن يكفي أن تكون الشام أنتجت في هذه الحقبة أبا العلاء أكبر مفكر متفلسف إسلامي . وأكبر من تحمل مؤلفاته وأشعاره كل فروع الثقافة لزمانه ، يكفي ذلك للدلالة على ما كانت تحظى به الحركة العلمية والفلسفية والشعرية من خصيب وازدهار رائع . وقد استقل بنومرداس بحلب ، ويصور ابن العديم في كتابه زبدة الحلب من تاريخ حلب رعايتهم للشعر والشعراء ، وكان الشعر فيها لا يزال حياً ناشطاً منذ سيف الدولة ، على الأقل من حيث استقبال الشعراء وبذل العطاء لهم . وكان جلال الملك ابن عمار قاضي طرابلس استقل بها لسنة ٤٧٠ وحاوّل أن يحدث بها حركة علمية شبيهة بما أحدث الفاطميون من دار العلم لعهد خليفتهم الحاكم ، فأنشأ بها داراً سماها بنفس الاسم ، وجعلها على غرارها في تنوع الدراسات بها وفي جلب الكتب الكثيرة إليها^(١) ، وكان من الممكن أن تحدث هذه الدار نشاطاً علمياً واسعاً في الشام ، غير أن حملة الصليب سرعان ما قدموا واستولوا على طرابلس سنة ٥٠٢ وأقاموا فيها إحدى إمارتهم ، وبذلك وُثِدَتْ حركتها العلمية وهي لا تزال ناشئة في المهدي . ويدخل أكثر الشام في حكم السلاجقة كما مر بنا في غير هذا الموضع ، وكان وزيرهم نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٥ رأى أن ينشئ مجموعة من المدارس في المدن الكبيرة لدولتهم في إيران والعراق لمحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر المذهب الشافعي والعقيدة الأشعرية الكلامية ، وعُرفت كل مدرسة من هذه المدارس باسم المدرسة النظامية . وكان السلاجقة كلما دان لهم بلد لم يلبثوا أن أسسوا فيه مدرسة ، وظلت المساجد بجانب مدارسهم ساحات كبيرة للعلم والمعرفة ، وهو ما جعل العلم العربي بجميع فروعها شعبياً ، فكل فرد من أفراد الشعب يحق له أن يجلس إلى أي حلقة من

(١) خطط الشام لمحمد كرد علي ٦٧/٦ وما بعدها

حلقات الشيوخ ، أما إذا انتظم في مدرسة فإنه كان يأخذ راتباً معيناً يكفل له الحياة . وكان السلاجقة يفسحون في بناء المدارس لقوادهم ولذوي الثراء . وأول مدرسة بنيت في دمشق المدرسة الصادرة^(١) بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله لدراسة الفقه الحنفي سنة ٤٩١ . وفي سنة ٥١٤ بنى أتاك العساكر الملقب بأمين الدولة أول مدرسة^(٢) للشافعية ، ثم بُنيت للأحناف المدرسة الطرخانية سنة ٥٢٥ وبعدها بقليل بنيت لهم المدرسة البلخية . وبنيت في هذه الأثناء أول مدرسة بحلب سنة ٥١٦ وهي المدرسة الزجاجية بناها حاكمها الأرتقي بدر الدولة أبو الربيع سليمان

ويُظنُّ الشامَّ لواء الزنكيين عماد الدين ونور الدين محمود وخليفته صلاح الدين ثم الأيوبيين ، وتتنفس الصعداء ، فبالرغم من أن هؤلاء الحكام كانوا في شغل مستمر بحروب حملة الصليب وهدم قلاعهم وحصونهم كانوا يبنون ويؤسسون المدارس لفقهاء المذاهب الأربعة ، ومضى على منوالهم الممالك بحيث تزدهر في الشام نهضة علمية رائعة . وكان يوقف على كل مدرسة أوقاف دائرة تكفل للمدرسين والمعيدون رواتب مجزية . وكان يلحق بالمدرسة مبان للطلاب ، يقدم لهم فيها الغذاء ، ويقومون فيها للراحة والنوم . وكانت تلحق أيضاً بالمدرسة خزانة كتب يختلف إليها الطلاب للقراءة والبحث ، وكان يقدم إليهم الورق وأدوات الكتابة . ويذكر ابن جبير في رحلته لسنة ٥٧٨ أنه رأى بدمشق عشرين مدرسة وبحلب خمس مدارس يقول : « ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين ، وبها قبره نُورَه الله ، وهي قصر من القصور الأنيقة » بناها سنة ٥٦٣ لأصحاب الفقه الحنفي . وقد أخذت المدارس تتكاثر كثرة مفرطة في دمشق وحلب وغيرهما من بلدان الشام . ولم يقف تشييدها عند السلاطين الأيوبيين ، فقد اشترك معهم فيها نساؤهم وقوادهم والأمراء من بينهم خاصة حكام البلدان الشامية ، كما اشترك بعض ذوى اليسار . وقد عدَّ ابن الشحنة منها في كتابه الدر المتخب في مدارس حلب نحو خمسين مدرسة في بلدة شامية واحدة أسست بين سنتي ٥١٦ و ٥٦٥ وجاء بعده ابن شداد ، فعُد لدمشق في سنة ٦٨٠ وهي سنة تأليفه للأعلاق الخطيرة أربعة وثلاثين مدرسة حنفية وأربعين مدرسة شافعية وثلاثة مالكية وعشرة خنبلية . ويعكس هذا العدد حقيقة كبرى هي مدى شيوع هذه المذاهب في الشام فأكثرها انتشاراً

قبلها مدرسة سميت الجاروخية وانظر في حديثنا عن المدارس المصدرين السالفين .

(١) الأعلاق الخطيرة لابن شداد : تاريخ مدينة دمشق ص ١٩٩ والدارس في تاريخ المدارس للنعمي ٤٢٩/١ .
(٢) سميت الأمينية نسبة إلى مؤسسها ، ويقال إنه بنيت

فيه المذهب الشافعي ثم المذهب الحنفي ثم المذهب الحنبلي ثم المذهب المالكي . ولم يُبين للمذهبيين الأخيرين مدارس إلا في عهد الأيوبيين منذ صلاح الدين . وكان بيت المقدس يكتظ هو الآخر بمدارس المذاهب الأربعة ، وعلى شاكلته كثير من مدن الشام الكبرى ، وفي ذلك يقول ابن خلكان عن نور الدين محمود إنه « بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبلعبك ومنبج »^(١) . وبجانب مدارس المذاهب الفقهية عنوا بتأسيس مدارس الحديث النبوي ، من ذلك دار الحديث النورية التي أسسها نور الدين محمود بدمشق ، وولّى مشيختها الحافظ المؤرخ الكبير ابن عساكر . وبنى الأشرف موسى الأيوبي صاحب دمشق دار حديث بها ثانية سنة ٦٣٠ وألحق بها خزانة كتب ومسكناً لشيخها ، ووقف عليها أوقافاً كافية ، وأسند مشيختها إلى ابن الصلاح الحافظ المحدث المشهور ، وفيما بعد أسندت إلى الإمام الشافعي : النوى .

وبدون ريب بعثت هذه المدارس الكثيرة كثرة مفرطة بالشام نهضة علمية باهرة ، فكثرت العلماء في كل علم حتى ليروى العماد الكاتب في كتابه « الفتح القدسي » أنه وُزِعَ في إحدى المناسبات على علماء دمشق ستمائة دينار فخصّ كل عالم دينار واحد^(٢) ، أى أنه كان بها حينئذ ستمائة عالم غير من لم يشملهم التوزيع ومن لم يحضروه . ومابالنا إذن بما كان ينفقه نور الدين بل صلاح الدين بعده على العلماء والمدارس ، لا بد أنه كان يبلغ مئات الألوف من الدنانير . وساعد على هذه النهضة نور الدين وصلاح الدين وسلاطين أسرته ، ويروى ابن خلكان في ترجمة نور الدين إنه كان لا يزال يحتاج إلى الأموال الكثيرة في حربه لحملة الصليب فقال له بعض أصحابه إن في بلادك إذرارات وصدقات وصلات كثيرة على قراء الذكر الحكيم والفقهاء والصوفية ، ولو استعنت بها لكانت أصلح ، فغضب من ذلك غضباً شديداً وزجر صاحبه زجراً عنيفاً . وكان صلاح الدين على شاكلته في العناية بالفقهاء والقراء والصوفية ، وكان يجتلس من أوقاته ما يعطيه الفرصة لحضور مجالس العلماء مها بعدت الشقة كما حدث في ذهابه إلى الإسكندرية للاختلاف إلى حلقة السلفي الحافظ المشهور^(٣) واشتهر المعظم عيسى صاحب دمشق بتعمقه في الفقه وأنه ألف فيه كتاباً وأيضاً

(١) ابن خلكان في ترجمة نور الدين محمود ١٨٥/٥ .
 (٢) الفتح القدسي ص ٤٨١ .
 (٣) مع ابنه العزيز صاحب مصر بعده الحديث على السلفي أيضاً : انظر النجوم الزاهرة ١٢٧/٦ .

فإنه كان يتعمق في دراسة النحو^(١) . فسلطين بنى أيوب كانوا مثقفين^(٢) ، ولذلك حاولوا أن يدفعوا الحركة العلمية إلى الذروة .

ويعدُّ صاحب الأعلام الخطيرة لدمشق نحو ثلاثمائة مسجد غير الزوايا والخانقاهات ، وكثير منها كانت تُلقَى فيه المحاضرات والدروس . وظل هذا الحشد الهائل من الخانقاهات والمساجد والمدارس في زمن المماليك وأخذوا يضيفون كثيراً من الخانقاهات ومدارس الفقهاء وغيرهم من علماء الدين والعربية . وحقا كانت كثرة المماليك غير مثقفين ، وهم من هذه الناحية يختلفون عن سلطين بنى أيوب ، ومع ذلك عنوا عناية واسعة بالثقافة وبناء المدارس والمساجد والخانقاهات والإنفاق عليها عن سعة ، على أنه عُرف بعض متأخريهم بمدارسة العلم ورعاية العلماء والأدباء مثل السلطين : برقوق والمؤيد شيخ وقايتباي والغوري .

ومعنى ذلك أن الحركة العلمية ظلت مزدهرة طوال أيام المماليك ، غير أنه يلاحظ أن نفوذ الفقهاء ازداد في هذا العصر وازداد معه نفوذ المتصوفة وشاع معه الاعتقاد في كراماتهم والمبالغة في ذلك ، وبدون ريب كان بينهم كثيرون أجلاء على معرفة وفقه بصير بالشرع ، ولكن كان بينهم دخلاء مشعوذون جعلوا العامة يتعلقون بالأولياء ، ومنحوهم علم الغيب والقدرة على إنفاذ ما يريدونه المتوسلون بهم . ويقف المستشرقون عندما نزل بابن^(٣) تيمية من محن ، ويحاولون أن يتخذوا من ذلك دليلاً على جمود الفكر الديني حينئذ غير ملاحظين أن ابن تيمية نفسه كان إماماً حنبلياً يدين بمذهب ابن حنبل وهو أكثر المذاهب سلفية . ومع ذلك كان من أكثر فقهاء عصره تيمية فكرياً ، وقد حارب الصوفية في منازعاتهم الفلسفية وكل ما قالوا به في الحلول ووحدة الوجود ، وحارب الشيعة الإسماعيلية وما يزعمون لأئمتهم من العصمة وتمثيل العقل الكلي وما يتصل به من تجسد الإله

والنجوم الزاهرة ٢٧١/٩ والمنهل الصافي ٣٣٦/١ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢٢٨/٤ وتاريخ ابن الوردي ٢٨٤/٢ والدرر الكامنة ١٥٤/١ والقول الجلي في ترجمة الشيخ تقي الدين بن تيمية الحنبلي لصفي الدين الحنفي والكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية لمرعي الكرمي وابن تيمية للشيخ محمد أبوزهرة وابن تيمية للدكتور محمد يوسف موسى وأسبوع الفقه الإسلامي ومهرجان ابن تيمية طبع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

(١) مختصر مرآة الزمان ٤٢٦ وما بعدها

(٢) مما يذكر عن هؤلاء السلطين أنه كان لهم بعض مؤلفات ، فكما كان للمعظم عيسى كتاب في الفقه الحنفي كان للمنصور محمد الأيوبي صاحب حجة كتاب في تاريخها ومن زارها أو اتخذها مسكناً من الأعلام (مختصر مرآة الزمان ٤٢١) وكان الامجد الأيوبي صاحب بعلبك يحضر دروس الحافظ اليونيني ، وكانوا يعدون حضور مجلس العلماء شرفاً ما بعده شرف .

(٣) انظر في ترجمة ابن تيمية فوات الوفيات ٦٢/١

في الخليفة ، وخصهم بكتابه عن الباطنية . وجعله تحرره الفكرى يفتح باب الاجتهاد على مصاريعه ويفتى فتاوى حرة في كثير من مسائل الشرع . وجلب عليه ذلك سخط فئات كثيرة وخاصة من الفقهاء وعلماء الكلام الأشعرية ، إذ شملتهم هججاته . وهى هججيات صريحة جريئة ألّبت عليه كثيرين من الخصوم في بيئات مختلفة ، وبدأ ذلك بوضوح منذ سنة ٦٩٨ إذ جاءه إقبال من حجة عما في القرآن الكريم من آيات قد تفيد التشبيه على الذات العلية إذا فهمت على ظاهرها مثل : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) و (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) ومذهب المعتزلة والأشعرية تأويل مثل هذه الآيات ، وأن المراد في الآية الاستيلاء على العرش ، ومعنى كلمة يد في الآية القدرة . ومذهب الحنابلة ، وهو ما أجاب به ابن تيمية في رسالة مستقلة . أن واجباً أن تؤمن جاء في القرآن من هذه الصفات دون كيفية ودون تشبيه بالمخلوقات وأيضاً دون تأويلها فوق طاقة الإنسان . وسرعان ما اتهمه الفقهاء الأشاعرة بأنه يرى في الذات العلية رأى المجسمة أو المشبهة ، ورفعوا أمره إلى قاضى القضاة بدمشق فبرأه من التهمة . ونجاه الله من هذه المحنة .

ثم كانت التهمة الثانية لابن تيمية في سنة ٧٠٥ بسبب حملته على الطريقة الصوفية الرفاعية وما يؤمّه به أصحابها على الناس من النفوذ من النار وغير ذلك من كرامات يدعونها ، وشكّوه إلى نائب السلطنة بدمشق ، فأمرهم النائب أن يكفوا عن حيلهم وخذاعهم للناس كما مر بنا . وفي نفس السنة طُلب إلى القاهرة لمناظرة علمائها واجتمعوا له - وخاصة فقهاء الشافعية الأشاعرة - وأخذوا يناقشونه في إثبات الصفات على الله حسب ظاهرها القرآنى ، فالله استوى - كما يقول - حقيقة على العرش ونحو ذلك . وجادلهم ابن تيمية طويلاً موضحاً رأيه في الإيمان بهذه الصفات دون كيفية ودون إثبات تجسيد على الله ، غير أنهم حكموا عليه بالسجن وظل فيه عاماً وبضعة أشهر . ولبث في القاهرة يعلم ويعظ ، وسرعان ما أوقع به خصومه بدعوى حملته على أصحاب المنزعة الفلسفى في التصوف القائلين بالحلول ووحدة الوجود . وسُجن بالإسكندرية ، حتى إذا رقى عرش مصر الناصر بن قلاوون سنة ٧٠٩ ردّ إليه حريته وأكرمه إكراماً عظيماً . وفى سنة ٧١٢ عاد إلى دمشق وتفرغ للتأليف والإفتاء ، حتى إذا كانت سنة ٧١٨ وأفتى أن الحلف بالطلاق كالحلف بالله يكفر عنه وأن الطلاق بالثلاث يُعدُّ طلاقاً واحداً . حينئذ نارت نائرة الفقهاء ، حتى أجبروا السلطان على منعه من الفتوى بذلك ، وصدع السلطان لمشيئتهم . غير أنه عاد إلى الإفتاء بما ذكرنا فى سنة ٧٢٠ وعُقد بدمشق مجلس محاكمته ، وسُجن ولبث فى السجن خمسة أشهر وأياماً ثم رُدَّت إليه حريته . حتى إذا كانت سنة ٧٢٦ أفتى بأن الرحلة إلى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين

معصية من أشد المعاصي ، فاعتقل بسبب هذه الفتوى وجعل في قاعة حسنة بقلعة دمشق وأقام بها مشغولاً بالتصنيف والتأليف ، وبأخرة من أيام سجنه مُنع من الأوراق والدواة والقلم ، ولم يلبث أن توفي سنة ٧٢٨ .

وواضح أن محنة ابن تيمية وسجنه لم يكونا بسبب اجتهاده في مسائل الشرع وإنما بسبب تعرضه لمسألة عقيدية تتصل بصفات الله وأخرى تتصل بزيارة قبور الأنبياء والأولياء . وكان في الصفات يأخذ برأى السلف ويترك رأى الأشاعرة والمعتزلة أى أنه لم يكن اجتهادا منه ، أما مسألة الاجتهاد في الشرع فقد تركها العلماء له . ولسنا بصدد إحصاء آرائه الفقهية الجديدة . إنما حسبنا أن نشير إليها وأن نتخذ منها دليلا - كما مر بنا آنفا - على أن باب الاجتهاد ظل مفتوحا على مصاريعه طوال زمن الماليك حتى بين الحنابلة . واشتهر في كل مذهب فقهي مجتهدون جدد مثل النووي في المذهب الشافعي . ونفس آراء ابن تيمية ظلت حية عاملة بعده إلى أن استمدت منها الحركة الوهابية بواعثها بعد أربعمئة من السنين . وإذا كان قد تورط بعض فقهاء الشافعية في محاكمته بدمشق والقاهرة فإن ابن تغرى بردى يذكر أن كبيرهم في دمشق ابن الزملكاني ونظيره في مصر ابن دقيق العيد أثيا عليه ثناء عطرا وينقل عن ابن الزملكاني قوله عنه : « العلامة الأوحى الحافظ المجتهد الزاهد العابد القدوة إمام الأئمة ، وقدوة الأمة ، علامة العلماء ، وارث الأنبياء ، آخر المجتهدين ، أوحى علماء الدين .. محيى السنة ومن عظمت به لله علينا المنة » .

وعلى هذا النحو كانت الحياة العلمية نشطة مزدهرة في زمن الماليك ، وكانوا يشجعون العلماء والأدباء ، وطالما اقترحوا على بعض المؤلفين تأليف هذا الكتاب أو ذاك ، وكانت البلاد دائرة وقضايتها على المذاهب الأربعة يحكمون بين الناس بالعدل . فلما أظل لواء العثمانيين الشام أصابها ما أصاب مصر من انتكاس الحركتين العلمية والأدبية ، ومع ذلك ظلت جذوة منها متقدة في بعض المدارس والجوامع وبخاصة في الجامع الأموى بدمشق ، إذ ظلت فيه حلقات التدريس . ومررنا أن الحكم العثماني بالشام أخذ يسوء سوءا شديداً ، وأخذت المظالم فيه تزداد والضرائب تتضاعف ، وكان لذلك أثره في تدهور الحركتين العلمية والأدبية . وألغى العثمانيون نظام قضاة المذاهب الأربعة الذى وضعه الظاهر بيبرس وظل قائما طوال أيام الماليك ، حتى إذا حكموا البلاد استعاضوا عن هؤلاء القضاة بقاض عام واحد هو قاضى العسكر ، وألغوا استخدام العربية في دواوين الولاية ، واستخدموا مكانها التركية ، وكان لذلك تأثيره على الكتابة والكتاب ، فلم تعد تكتب رسائل ديوانية ولا مناشير وتقاليد بالعربية ، غير أن العربية كانت لغة الدين الحنيف ، فظلت

حية في ديار الشام هي والعلوم الدينية ، وأيضا العلوم اللغوية ، حتى ليلقانا من حين إلى حين .
نابغون في الدراسات الدينية وفي الشعر والنقد والتصوف والتاريخ .

٢

علوم الأوائل - علم الجغرافيا

(١) علوم الأوائل

مرّ بنا - في فاتحة الفصل - أن الشام شاركت في التراث اليوناني منذ انتشرت فيها الثقافة الهيلينية وبخاصة في ثغورها : صور وصيداء وبيروت وأنطاكية . وظلت هذه المشاركة مستمرة حين اعتنقت المسيحية . فكان كثيرون من سكان الأديرة ورهبانها يعرفون ما لليونان من تراث في الفكر الفلسفي والعلمي ، ومنهم من كان يحذق اليونانية ، وبذلك كانت الأديرة مراكز للثقافة الهيلينية قبل الفتح الإسلامي وبعده . وبالمثل ظلت أنطاكية وبعض الثغور الشامية تعنى بتلك الثقافة . ويلقانا في عهد معاوية طبيبان من الأطباء المتميزين في دمشق حينئذ هما ابن أنال ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه كان خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة^(١) ، وأبو الحكم وكان عالما بأنواع العلاج والأدوية^(٢) . وهما يرمزان إلى ما نقلوه من أن التراث العلمي اليوناني ، وبخاصة علم الطب ، ظل حيا في ديار الشام ، مما أتاح لخالد بن يزيد بن معاوية أن يتعلق به ، وقال مترجموه إنه كان يشغف بكتب الكيمياء والطب والنجوم ، كما قالوا إنه أحضر من الإسكندرية بعض الفلاسفة الحاذقين لليونانية والعربية وأمرهم أن يترجموا له كتباً في الكيمياء ، ويبدو أنه تعمقها حتى استطاع أن يؤلف فيها كتباً ورسائل ، يقول صاحب الفهرست : « رأيت من كتبه كتاب الحرارة وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته في الصنعة (الكيمياء) »^(٣) . ونمضي بعد خالد فنلتقى بالخليفة عمر بن عبد العزيز ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه نقل تدريس علوم الأوائل من الإسكندرية إلى أنطاكية وحران^(٤) وناقش ماكس مايرهوف هذا القول وأثبت بطلانه^(٥) ، إذ كانت أنطاكية وحران جميعاً من المراكز التي عنيت قديماً بدراسة التراث اليوناني . وربما دفع ابن أبي أصيبعة إلى هذا القول أنه رأى عمر يستقدم طبيبا من الإسكندرية هو عبد الملك بن

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ١٧١ .
(٢) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٥
(٣) الفهرست ص ٣٣٨ (٤) ابن أبي أصيبعة ١٧١
(٥) إنظر مقالة ماكس مايرهوف : من الإسكندرية إلى بغداد في كتاب التراث اليوناني للدكتور عبد الرحمن بدوي

أبجر ، ويتخذنه طبيبا^(١) له ، ويبدو أنه كان قد تعرف عليه في أثناء ولاية أبيه على مصر ، فلما ولى الخلافة استقدمه وأسلم على يديه ، وظل يعتمد عليه في صناعة الطب . وربما دفع ابن أبي أصيبعة إلى هذا القول أيضا أنه أمر بنقل كتاب القس أهرون الإسكندري في الطب إلى العربية ، ويبدو أنه كان قد نال شهرة في علم الطب لزمته ، ومع ذلك لم يترجمه أحد علماء أنطاكية لعمره ، وإنما ترجمه ماسرجويه^(٢) البصرى . ولو أنه فكر حقا في نقل التعليم - وخاصة تعليم الطب - إلى بلد بالشام لنقله إلى عاصمته دمشق كما صنع خالد بن يزيد بن معاوية .

على كل حال كان التراث اليوناني الفلسفي والعلمي معروفا - طوال زمن بني أمية - في أنطاكية وبعض مدن الشام وفي الأديرة ، وأخذت تؤلف بعض الكتب على ضوئه كما صنع خالد ابن يزيد بن معاوية ، كما أخذت تنقل منه إلى العربية بعض الرسائل والكتب . ويروى أن سالما رئيس ديوان الإنشاء لهشام بن عبد الملك ترجم بعض رسائل أرسططاليس إلى العربية^(٣) ، ويذكر بروكلمان أنه تُرجم - أيام الأمويين سنة ١٢٥ - كتاب مفتاح أسرار النجوم^(٤) . وكل ذلك يؤكد أن جو الشام كان مشبعا بالتراث اليوناني العلمي والفلسفي . وظل المعنيون بعلوم الأوائل يتنفسون في هذا الجو طوال زمن الولاة العباسيين . ويبدو أن دمشق ظلت تعنى بها وبخاصة الطب ، ومن أطبائها في القرن الثاني الحکم^(٥) بن أبي الحکم ، وكان أبوه طبيب معاوية وقد عُمر طويلا حتى لحق القرن الثالث ، وكان طبيبا مسيحيا عالما بأنواع العلاج والأدوية . وكان ابنه عيسى^(٦) - على غراره - طبيبا ، واستقدمته أم ولد للرشيد لعلاجها ، وله في الطب كناش كبير . ويبدو أنه أسس في دمشق مرصد كبير ، إذ نرى المأمون يطلب مراجعة جداول بطليموس الفلكية على أرصاد تمت في بغداد ودمشق ، وقد طلب أن تقاس إحدى درجات خط الزوال^(٧) ويعلق على ذلك بروكلمان بأن المسلمين استطاعوا ببحوثهم المستقلة أن يسبقوا معلمهم من الهنود والإغريق في وقت قصير .

وظلت الشام تشارك في حركة الترجمة للتراث اليوناني ، ومن كبار مترجميها عبد المسيح^(٨)

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٧
 (٧) بروكلمان ١٩٦/٤ ويذكر القفطى ص ٢٨١ منجا خيرا بالكواكب تولى الرصد للمأمون على جبل قاسيون بدمشق، انظر القفطى ص ٣٥٧
 (٨) انظر في عبد المسيح بروكلمان ٩٥/٤ ودى بور ص ٢٢ وعلوم اليونان لأوليري ص ٢٢٧

(١) ابن أبي أصيبعة ص ١٧١
 (٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ص ٨٠ ، ٣٢٤
 (٣) الفهرست ص ١٧١
 (٤) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٩٠/٤
 (٥) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٦

ابن عبد الله بن ناعمة الحمصي المتوفى لعهد المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) اشتهر بترجمته لكتاب الأغاليط لأرسطو وشرح يحيى النحوى على كتابه : السماع الطبيعى ، وترجم أيضا عن اليونانية كتابًا منسوبًا إلى أرسطو خطأ وهو المسمى أثولوجيا أوربوية ، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعات أفلوطين الإسكندرى ، ولذلك تشيع فيه نزعة أفلاطونية محدثة .

ونمضى إلى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، ويلمع اسم قسطنطين^(١) بن لوقا المولود ببلبك فى أوائل القرن ، وقد ترجم للخليفة المستعين (٢٤٨ - ٢٥١ هـ) كتابين : كتاب لثيودوسيوس وكتاب الحيل لهيرون . وذكر له الدوميللى ترجحات أخرى ، وترك مؤلفات كثيرة منها رسالة فى العمل بالكرة الفلكية ، والجامع فى الدخول إلى علم الطب ، ومقدمة إلى علم الرياضيات ، والمدخل إلى الهندسة ، والمدخل إلى علم المنطق ، إلى مؤلفات أخرى كثيرة تتناول فروع العلم والفلسفة ، توفى سنة ٣٠٠ للهجرة . وكان يعاصره مترجم كبير هو حيش^(٢) بن الحسن الأعمى الدمشقى وهو ابن أخت حنين بن إسحق وتلميذه ، وكان يترجم عن اليونانية والسريانية ، وساعد خاله فى كثير من تراجمه ، ومما ترجمه عهد بقراط وكتاب الحشائش لديسقوريدس ، وكل كتب جالينوس ، وله كتاب فى الأدوية المفردة وآخر فى الأغذية . ومن كبار أطباء دمشق سعيد^(٣) ابن يعقوب الدمشقى وقد ولاه على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر أمر مارستان بغداد سنة ٣٠٢ وله ترجحات كثيرة ، ترجم إيساغوجى (لفوفوريوس) والمقالات السبع الأولى من كتاب الجدل لأرسطو ، وعنى بترجمة الكتب الرياضية اليونانية وفى مقدمتها الجزء العاشر من أصول إقليدس وشرحه لبابوس ، ولا يوجد من هذا الشرح سوى ترجمته العربية ، وترجم أيضا كتباً لجالينوس . وهذه الأسماء التى ذكرناها إنما هى رمز لما ظل بديار الشام من نشاط لعلوم الأوائل والمتعلقين بها طوال القرون الثلاثة الأولى وحقبا من القرن الرابع ، وفيه يقود سيف الدولة - كما مر بنا - حركة أدبية وفلسفية علمية ناشطة فى عاصمته حلب ، مما جعل كثيرين من أعلام الفكر والعلم والأدب فى زمنه يلمون بحضرته ، وكثيرا ما كانوا يختارون الإقامة عنده ، وكان ممن اختار المقام ببلاطه فى حلب أكبر فيلسوف عربى فى زمنه الفارابى^(٤) ، وقد ظل عنده حتى لبي نداء ربه سنة

(٣) انظر فى سعيد ابن أبى أصيبعة ٢٨٢ وبروكلمان

١١٨/٤ والدوميللى ص ٢١١

(٤) راجع فى الفارابى وفلسفته ومراجعته كتابنا العصر

العباسى الثانى ص ١٤٠ وما بعدها

(١) انظر فى ترجمة قسطنطين القفطى ٢٦٢ وابن أبى أصيبعة

٣٢٩ وبروكلمان ٩٧/٤ والدوميللى ص ١٦٥ وما بعدها

(٢) راجع فى حيش القفطى ١٧٧ وابن أبى أصيبعة

٢٧٦ وبروكلمان ١١٧/٤ والدوميللى ص ١٤٣

٣٣٩ . وأحدث نزول الفارابي بحلب نشاطا فلسفياً وفكرياً ظل سنوات مقامه بها وامتد بعد وفاته ، ومعروف أنه عُني بمزج فلسفة أرسطو بالمذهب الأفلاطوني الجديد . ولعل مما يدل على اتساع النشاط الطبي والعلمي والفلسفي بالشام لتلك الأيام ما ذكره القفطى عن سيف الدولة من أنه كان إذا أكل الطعام وقف على مائدته أربعة وعشرون طبيباً ثم يقول : كان فيهم من يأخذ راتبين لأجل تعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة رواتب لتعاطيه ثلاثة علوم ، ويذكر أن طبيبه المسمى عيسى النفيسى كان يأخذ ثلاثة رواتب : راتبين بسبب إحسانه لعلمين وراتباً ثالثاً جزاء ترجمته من السريانية إلى العربية^(١) . وذكر القفطى بينهم في موضع آخر من كتابه ابن كشرايا^(٢) وكان طبيباً مشهوراً عيَّنه فيما بعد عضد الدولة البويهى بالبيمارستان المنسوب إليه ببغداد ، كما ذكر أيضاً بين من كانوا يحضرون مجالس سيف الدولة أبا القاسم^(٣) الرقى ، وكان من أصحاب التنجيم وعلم الهيئة والطب .

وهذا نشاط لعلماء الأوائل في بيئة واحدة من بيئات الشام أثناء القرن الرابع ، ويبدو أنه بقيت بقايا من هذا النشاط زمن الفاطميين بدمشق وشاطئ الشام وعند المرديسين بحلب والسلاجقة في حلب ودمشق ، يدل على ذلك ما يلقانا من أطباء مختلفين في تلك الديار مثل البيرودى^(٤) في القرن الخامس وظافر^(٥) بن جابر السكرى ومبشر^(٦) بن فاتك في نفس القرن ومثل ابن الصلاح^(٧) وابن البدوخ^(٨) في القرن السادس . ومن المؤكد أن نزول حملة الصليب بديار الشام أصاب هذه الحركة بغير قليل من العطل ، ومع ذلك فقد تحولوا تلامذة لأطباء العرب يتعلمون على أيديهم فنوناً من الجراحة والطب ، ورأى بعض أطباء العرب - كما روى أسامة بن منقذ - أحد أطباءهم يعالج بعض مرضاه علاجاً يدل على جهله بالطب ، فسخر منه سخريّة شديدة ، وسجل على الصليبيين عامة انحطاط الطب عندهم انحطاطاً مزريراً ، على نحو ما صور ذلك في كتابه « الاعتبار » .

وندخل في زمن الزنكيين ونور الدين محمود وصلاح الدين والأيوبيين ، ويعظم الاهتمام بالمرضى وبمن يعالجهم من الأطباء ، وتنشأ لهم بيمارستانات ، ينزلونها وتقدم لهم فيها الأدوية

(١) القفطى ص ٢٥٠	(٥) ابن أبى أصيبعة ص ٦١٤
(٢) القفطى ص ٤٠٣	(٦) القفطى ص ٢٦٩
(٣) القفطى ص ٤٢٩	(٧) القفطى ص ٤٢٨ وابن أبى أصيبعة ص ٦٣٨
(٤) ابن أبى أصيبعة ص ٦١٠	(٨) ابن أبى أصيبعة ص ٦٢٨

والأغذية حتى يتم شفاؤهم . ويذكر ابن جبير في رحلته بمارستانين رأهما بدمشق سنة ٥٧٨ : أحدهما قديم والثاني حديث ، ويقول إن الحديث أحفلها وأكبرها وجرايته (نفقته) في اليوم نحو خمسة عشر ديناراً ، وله قومة (موظفون) بأيديهم الأوراق المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك . والأطباء يكرّون إليه كل يوم ، ويتفقدون المرضى ، ويأمزون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق لكل إنسان منهم . ويقول إن المارستان القديم على هذا الرسم ولكن الاحتفال في الجديد أكثر ، ويذكر أن للمجانين المعتقلين ضرباً من العلاج وهم في سلاسل موثقون . ثم يقول : وهذان المارستانان مفخرة عظيمة من مفاخر الإسلام . ولم تكن المارستانات دور علاج فحسب ، بل أيضاً كانت مدارس يمرّن فيها شباب الأطباء ويتلقون فيها عن شيوخ الطب محاضرات متنوعة . وأخذت المارستانات تُبنى في ديار الشام حتى لالتقى بمارستانات في صرّخند بفلسطين . وجعل ذلك الطب يعود إلى نشاطه ، فيتكاثر الأطباء ويتكاثر المهتمون بعلوم الأوائل حتى ليعدون في كتاب ابن أبي أصيبعة بالعشرات . ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعاً إنما نقف عند مشهورهم ، ونبدأ بشمس^(١) الدين اللبودي المتوفى بدمشق سنة ٦٢١ وكان يَطبُّ في المارستان النوري الكبير بدمشق ، وكان له مجلس للاشتغال عليه بصناعة الطب وغيرها . وكان يعاصره الدُّخوار^(٢) مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدمشقي مولداً وداراً رئيس بمارستان دمشق الذي أسسه نور الدين محمود ، توفي سنة ٦٢٨ وأفراد ابن أبي أصيبعة له في طبقاته فصلاً طويلاً تحدث فيه عن حياته ، وله مؤلفات كثيرة ، وكان يتخذ داره مدرسة لتعليم الطب ، وقفها على هذه الغاية في حياته وبعد مماته . وكان أثره في تعليم الطب بدمشق واسعاً ، وثقفته على يديه جماعة كبيرة . وكان مما ساعد على ازدهار الدراسة لعلوم الأوائل ما ذكرناه في الفصل الماضي من أن أمراء البيت الأيوبي توزعوا بلدان الشام فيما بينهم ، وتحول كل أمير منهم في بلد إلى راع للعلوم والآداب بها ، ودفع ذلك إلى تنافس بينهم ، مما أكثر من العلماء في كل فروع العلم ، ونلتقى بمنصور بن فضل المشهور باسم رشيد^(٣) الدين الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ وُلد بصور ، ولذلك نسب إليها واشتغل بالطب على أساتذته ، وأقام بالقدس سنتين يعالج الناس في بمارستانها ، ثم انتقل إلى

(٣) راجع في رشيد الدين ابن أبي أصيبعة ص ٦٩٩

والدوميلي ص ٣٢٠

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٦٦٢

(٢) انظر في الدخوار ابن أبي أصيبعة ص ٧٢٨ وفوات

الوفيات ٥٦٣/١ والدوميلي ص ٣٢٠

دمشق وفوضت إليه رئاسة الطب والأطباء بها ، وكان بارعا في معرفة الأدوية المفردة وماهياتها واختلاف أسمائها وصفاتها وتحقيق خواصها وتأثيراتها كما يقول ابن أبي أصيبعة ، وبذلك كان صيدليا كما كان طبيبا . وينوه ابن أبي أصيبعة بكتابه في الأدوية المفردة وكيف كان يتعقبها ويسجلها إذ كان يصطحب معه مصورا ومعه الأصباغ واللِّيقُ (جمع ليقة) على اختلافها وتنوعها وكان يتوجه إلى مواضع النبات في الشام مثل جبل لبنان وغيره مما به نبات يختص به ، ويشاهد النبات ويحققه ، ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ، ويصوره . وسلك في تصوير النبات مسلكا فريدا ، ذلك أنه كان يريه للمصور في إبان بزوغه فيصوره ، ثم يريه له في وقت اكتمال نموه وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه له في وقت يبسه وذبوله فيصوره . وبذلك ينظر قارئ كتابه إلى النبات في أطوار نموه ، حتى تتحقق له معرفته بدقة . ولسوء الحظ سقط هذا الكتاب الرائع من يد الزمن .

ويتوفى نجم^(١) الدين اللبودي سنة ٦٦٦ وكان يتعمق بحوث الفلسفة والفلك وعلم الطب وروى له ابن أبي أصيبعة مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا شرح له على كتاب القانون في الطب لابن سينا ورسالة في مسائل فسيولوجية . ورعاه في الشطر الأول من حياته الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص . وتقلب في البلاد ثم استقر بدمشق ، وأسس بها مدرسة طبية وأخرى هندسية ، إذ كان رياضيا بارعا كما كان طبيبا ، وكانت له كتب في الحساب والجبر والمقابلة . وكان يعاصره ابن أبي أصيبعة^(٢) الطبيب صاحب طبقات الأطباء الذي يتكرر ذكره في الهوامش ، توفى سنة ٦٦٨ وقد ولد بدمشق وفي شبابه نزل القاهرة ، وشُغف بالطب وتلقاه على كبار الأطباء المصريين ، حتى برع فيه ، واشتغل في البيمارستان الناصري مدة ، ثم جذبته إليه أمير صرخند بفلسطين في الزمن الذي ذكرناه . زمن رعاية العلوم والآداب المتعددين من الأيوبيين ، وأقام بها حتى وفاته ، وكتابه الطبقات يحمل معارف واسعة عن المشتغلين بعلوم الأوائل : طب وغير طب حتى زمنه .

ونمضي إلى زمن الماليك ، ويظل الاهتمام بعلوم الأوائل مطردا ويلقانا أبو الفرج يعقوب بن إسحق المشهور باسم ابن القف^(٣) المتوفى بدمشق سنة ٦٨٥ وكان مسيحيا وهو تلميذ ابن

(١) انظر في اللبودي ابن أبي أصيبعة ص ٦٦٣ وخطوط الشام لكرد على ٤/٤٦ ، ٦/١٠٣ والدوميلي ص ٣٢١
 (٢) راجع في ابن أبي أصيبعة النجوم الزاهرة ٧/٢٢٩ وابن كثير ١٣/٢٥٧ والشذرات ٥/٣٢٧ والدوميلي ص ٣٢٢ ، ٣٢٦
 (٣) انظر ابن أبي أصيبعة ص ٧٦٧ والدوميلي ص ٣٢٢ ، ٣٢٦

أبي أصيبعة ، وكان طبيبا حاذقا ، واشتهر له كتابان : جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض ، والعمدة في صناعة الجراحة . وكان يعاصره ابن ^(١) السويدي إبراهيم بن طرخان شيخ الأطباء والصيادلة بدمشق المتوفى سنة ٦٩٠ وهو تلميذ الدخوار ، أخذ الطب عنه وله في الطب « التذكرة الهادية » وفي الصيدلة « الباهر في الجواهر » ذكر فيه كثيرين من العلماء الموثوق بهم في هذا الموضوع كالبيروني والرازي وأبي حنيفة الدينوري . ولا بد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء الذين ذكرناهم كان وراءهم عشرات في بلدان الشام المختلفة ، ويفيض ابن أبي أصيبعة في الحديث عنهم ، وأيضا لا بد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء كانوا دارسين للفلسفة اليونانية وفروع العلم المختلفة من رياضيات وفلك وتنجيم ، يصور ذلك أوضح تصوير ما يذكره لهم ابن أبي أصيبعة من مؤلفات تناول علوم الكيمياء والفيزيكا والرياضة والهيئة أو الفلك . وقد مضت الأجيال في زمن الممالك تنهل من موارد هذه العلوم واضعة نصب عيونها ممارسة الطب في الممارسات المنتشرة في بلدان الشام .

ومن نبغوا في الهندسة وعلم الفلك والرياضيات علاء الدين ^(٢) بن الشاطر الموقت في الجامع الأموي بدمشق وله كتاب في الزيج توفى سنة ٧٧٧ ومثله ابن ^(٣) الهائم الفرضي شهاب الدين المدرس بالقدس في المدرسة الصلاحية ، وله كتب مختلفة في الحساب والجبر ، توفى سنة ٨١٥ . وعنى كثيرون بالتأليف في علم المنطق . وألفت كتب كثيرة في ميادين الحرب والحركات العسكرية نكتفي بأن نذكر منها كتاب بغية القاصدين في العمل بالميادين لمحمد بن لاجين الطرابلسي الرماح المتوفى سنة ٧٨٠ ألفه لصاحب حلب .

ومع ما أصاب الحركة العلمية في الشام من تدهور في أيام العثمانيين ظل دائما بصيص من نورها يتراءى من حين إلى حين في الاهتمام بعلوم الأوائل وخاصة بالطب بلسم المرضي الشافي وأيضا بالفلك وفروعه ، واشتهرت حينئذ تذكرة ^(٤) داود الأنطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ للهجرة ، وهي مهمة في وصف الأدوية والعقاقير والأمراض مع أن مؤلفها كان ضريرا ، وله كتاب يسمى الكامل في الطب طبع مرارا .

والنفذرات ١٠٩/٧ وألدوميلى ص ٥٠٦ ، ٥١٣
(٤) راجع في دارد الأنطاكي البدر الطالع للشوكاني
٢٤٦/١ وخلاصة الأثر ٦٤٠/٢ وألدوميلى ص ٤١٧ .
٥١٣

(١) انظر في ابن السويدي فوات الوفيات ٥٤/١ والمنهل
الصافي ١٢٤/١ وألدوميلى ص ٣١٩
(٢) راجع في علاء الدين الشذرات ٢٥٢/٦ وألدوميلى
ص ٥٥٣
(٣) انظر الضوء اللامع للسخاوى ج ٢ رقم ٤٤٩

(ب) علم الجغرافيا

من أقدم المرويات الجغرافية عن أهل الشام رحلات تنسب إلى بعض الصحابة من أهلها أو من ولايتها ، من ذلك رحلة تنسب إلى تميم الدارى الفلسطينى الأصل المتوفى حوالى سنة ٤٠ للهجرة ، وهى رحلة بحرية قذفت به فيها عاصفة إلى جزيرة مهجورة فى البحر المتوسط . ومن ذلك أيضا رحلة تنسب إلى عبادة بن الصامت والى حمص المتوفى سنة ٣٤ للهجرة ، وهى رحلة برية إلى القسطنطينية . وذهب كراتشكوفسكى إلى أنها قصتان ملفقتان بل منحولتان^(١) . وتلقانا مرويات أخرى مشابهة ، وجميعها لاتدخل فى الجغرافيا بمعناها العلمى ، إذ يتأخر هذا المعنى إلى عصر الترجمة والاطلاع على مالدى الأمم الأجنبية من مصنفات جغرافية ، ونفس الكلمة التى سُمى بها العلم كلمة يونانية ، وأعجبهم من التراث اليونانى إلى أقصى حد كتاب المِجَسَطى لبطليموس ، وأخذت تنشأ على هديه مدرسة جغرافية عربية منذ أواخر القرن الثالث الهجرى . وإذا مضينا إلى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وجدنا القدس ينبج أهم جغرافى حتى زمنه ، ونقصد المقدسى^(٢) محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء البشارى ، وجدّه أبو بكر البناء هو الذى بنى سور عكا وأبوابها لأحمد بن طولون . وقد طاف بأرجاء العالم الإسلامى فيما عدا الهند وسجستان والأندلس ، ودوّن معلوماته فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » سنة ٣٧٥ وأعاد كتابته فى سنة ٣٧٨ وعلى النسخة الأخيرة اعتمد ياقوت فى معجمه الجغرافى . ويذكر فى مقدمة كتابه أنه اعتمد على ثلاثة مصادر : المشاهدة أو المعاينة بنفسه ، وما سمعه من الثقات ، وما وجدّه فى الكتب المصنفة ، واتبع فى وصفه لكل قطر منهجا ثابتا ذا ثلاث شعب : الشعبة الأولى تتناول أقسام القطر ومدنه ومواضعه العامرة ، والشعبة الثانية تتناول المناخ والزرع والطوائف والفرق واللغة والتجارة والأو . . . لقود والعادات والمياه والمعادن والأماكن المقدسة وأخلاق السكان والتبعية السياسية للقطر والحراج ، والشعبة الثالثة تتناول ذكر المسافات وطرق المواصلات . وهو يقدم معلومات مهمة عن العادات والمعتقدات والتجارة . ويبدأ القسم الأول

وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بورص ٨٢ والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لمبتز ٤/٢ وألدومبيل ص ٢٢٧ وكراتشكوفسكى ٢٠٨/١ - ٢١٥

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى (الترجمة العربية) ص ٥٣ وما بعدها
(٢) انظر فى المقدسى دائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان ٢٥٣/٤ وما بها من مراجع ومقدمة كتابه حتى ص ٤٤

في الكتاب بجزيرة العرب فالعراق فالجزيرة شماليه فالشام فمصر فالمغرب فبادية الشام . والقسم الثاني ، جعله للمشرق ، يبدأ ببلاد الهياطلة فخراسان فالديلم فأرمينيا ومعها أذربيجان فالجبال فخوزستان ففارس فكرمان فالسند ففازة فارس . وأضاف إلى كتابه خريطة مثل فيها الأقاليم وحدودها وخطوطها . ولم تصل إلينا خريطته ، ويقول إنه أوضح فيها الطرق المعروفة بالحمرة والرمال الذهبية بالصفرة والبحار المالحة بالخرصة ، والأنهار العذبة بالزرقة ، والجبال المشهورة بالغبرة . وكان يتحرى الثقات ويسألهم عن بلدانهم كما صنع بالأندلس ومثل سؤاله بساحل عدن لشيخ كان أعلم الناس بالبحر الصيني . والكتاب يعرض البلدان الإسلامية التي زارها بكل مشاهدتها حتى لكأنما يبصرها قارؤه بكل سكانها ومعتقداتها وعاداتها ، وهو لا يبارى في عرضه لهذه المشاهد . ويتضح السجع أو النثر المقفى في مقدمته الطويلة وفي مواضع مختلفة من الكتاب مما يدل على أنه كان يحاول أن يختار لكتابه لغة أدبية مصقولة . وكان يعاصره المطهر^(١) بن طاهر المقدسي ، وهو مثله لاتعرف سنة وفاته ، وله كتاب بدء الخلق والتاريخ كتبه سنة ٣٥٥ للهجرة وهو جمع غير منسق لمعارف كثيرة تتصل بالأديان والعقائد والتاريخ المتصل بالأنبياء والملوك والخلفاء حتى زمنه ، وبه فصل جغرافي كتبه عن صفة الأرض ومبلغ عمرانها وعدد أقاليمها وصفة البحار والأنهار وعجائب الأرض والخلق ، ويعرض للمساجد المشهورة . وولتقى في النصف الأول من القرن الخامس بأبي الحسن علي^(٢) بن محمد بن شجاع الربعي المالكي المتوفى سنة ٤٣٥ وله « كتاب الإعلام في فضائل الشام ودمشق وذكر ما فيها من الآثار والبقا الشريفة » .

ويصبح موضوع فضائل بلدان الشام أساسياً منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، حين استولى حملة الصليب على أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، إذ هبَّ الشاميون - والعرب معهم في كل مكان - يصرخون في وجوه حملة الصليب أن غادروا ترابنا الطاهر وأماكننا المقدسة . وأخذ الشعراء والعلماء يلوحون في وجوههم ، الشعراء بما يستطيعون أن يصوبوه من سهام الشعر ، والعلماء بما يكتبون عن فريضة الجهاد لأعداء الإسلام . وانتظم الجغرافيون معهم يكتبون عن فضائل بيت المقدس والشام ، وأول من تصدَّى لذلك من الجغرافيين المشرف^(٣) بن المرجي المقدسي الذي صنف بأخرة من القرن الخامس بعد استيلاء حملة الصليب على بيت المقدس سنة

(١) انظر في المطهر بروكلمان ٦٢/٣ وكراتشكوفسكي ٥٠٨/١ .

(٢) انظر في المشرف بروكلمان ٧٣/٦ وكراتشكوفسكي ٢٢٤/١ .

(٣) راجع في الربعي بروكلمان ٦٨/٦ وكراتشكوفسكي ٥٠٨/١ وما بعدها .

٤٩٢ كتابه : « فضائل البيت المقدس والشام » ليستثير حماسة الناس من حوله حتى يضرّبوا حملة الصليب الضربة القاضية ويطهروا أرض الشام الزكية من رجسهم . وفي نفس هذه اللحظة التاريخية ألف أبو بكر^(١) بن محمد بن أحمد الواسطي سنة ٥٠٠ للهجرة كتابا عن « فضائل بيت المقدس » . وأخذ يتوالى هذا النوع من الكتب حافزا لسحق الصليبيين . وألف أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر^(٢) المتوفى سنة ٦٧١ تاريخ مدينة دمشق عرض فيه أسماء الأنبياء والعلماء والصالحين في ثمانين مجلدا ، ومن ذكرهم من الأنبياء سليمان وشعيب . كل ذلك ليحيط مدينته بهالة قدسية كي يدافع عنها أبناؤها والعرب ضد حملة الصليب حتى الذمء الأخير . ويستولى صلاح الدين على بيت المقدس - كما مر بنا - سنة ٥٨٣ بعد أن حطم حملة الصليب ودمرهم في حطين تدميرا لم يكذب منيهم ولا يذر . وتكون لذلك فرحة مابعدا فرحة في نفوس المسلمين . ولا يكاد يمضي على ذلك ثلاثة عشر عاما حتى نجد ابن هذا الحافظ المؤرخ الكبير المسمى باهم القاسم^(٣) ، وكان يشتغل بالوعظ في دمشق ، يذهب بنفسه إلى بيت المقدس سنة ٥٩٦ ليقرأ على الناس هناك كتابه : « الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى » .

ويلقانا علي^(٤) الهروي السائح المتوفى بحلب سنة ٦١١ وكان قد أكثر من التجوال والترحال لزيارة أضرحة الأولياء في الشام وغير الشام ، وكان قد ألقى عصاتسياره بحلب وألف كتابه « الإشارات إلى معرفة الزيارات » وأصبح له نفوذ كبير عند الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب ، فشيّد له مدرسة بظاهر حلب ، وهي صورة من صور رعاية أمراء البيت الأيوبي في الشام لالعلماء بلدهم فحسب ، بل أيضا بمن ينزل بها من جلة العلماء ، حتى لينون لهم المدارس ليحاضروا فيها الطلاب . وولتقى بعثمان^(٥) النابلسي المتوفى حوالي سنة ٦٤٥ وله كتاب « لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية » وهو فيه يستمد من كتاب « قوانين الدواوين » لابن ممان وعين حاكما لمحافظة الفيوم فكتب عنها كتابا تاريخيا جغرافيا سماه « إظهار صنعة الحى القيوم في

(١) راجع كراتشكوفسكى ٦٩/١

(٢) انظر في الجغرافى المؤرخ الحافظ ابن عساكر معجم الأدباء ٧٣/١٣ وخريدة القصر (قسم شعراء الشام) ٢٧٤/١ والمتنظم ٢٦١/١٠ ومرآة الزمان ٣٣٦/٨ وتذكرة الحفاظ ١٣٢٨/٤ وعبر النهي ٢١٢/٤ ومرآة الجنان ٣٩٣/٣ وطبقات الشافعية للسبكي ٢١٥/٧ وابن خلكان ٣٠٩/٣ وشذرات الذهب ٢٣٩/٤ والنجوم الزاهرة ٧٧/٦

والبداية والنهاية ٢٩٤/١٢

(٣) انظر فى القاسم بن عساكر طبقات الشافعية ٣٥٢/٨ والنجوم الزاهرة ١٨٦/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٦٧/٤ والعبر ٣١٤ وشذرات الذهب ٣٤٧/٤ وكراتشكوفسكى ٥٠٩/٢ (٤) راجع فى الهروي ابن خلكان ٣٤٦/٣ والشذرات ٤٩/٥ وكراتشكوفسكى ٣٢٠/١ (٥) انظر عثمان النابلسى فى كراتشكوفسكى ٣٤٩/١

ترتيب بلاد الفيوم» ويؤلف^(١) ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤ - هو غير بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين - كتابا بديعا سماه الأعلام الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة نُشر منه جزآن عن دمشق وحلب ، وهو يعطى بيانات دقيقة عما في البلدين من المساجد والخانقاهات والمزارات والحمامات ، وقد رجعنا إليه مرارا في حديثنا عن الحركة العلمية .

وتأخذ الكتب الجغرافية المليئة بالعجائب والغرائب في الظهور . ونقرأ منها كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشمس^(٢) الدين محمد بن أبي طالب الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ وكان إماما لمسجد الربوة بدمشق ، والكتاب يفيض بمعلومات كثيرة تدخل في التاريخ الطبيعي وما يتصل به من نباتات البلدان شرقا وغربا وحيواناتها ومعادنها ، وللشام أو بعبارة أدق لسوريا وفلسطين نصيب جغرافي كبير ، وألحق به بعض الخرائط وفُقدت منه .

وكان حملة الصليب قد خرجوا نهائيا من الشام ، فكان من الطبيعي أن يعنى إبراهيم^(٣) بن الفركاح المتوفى سنة ٧٢٧ بتأليف كتابيه : «الإعلام بفضائل الشام» و«باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس» . ويلقانا أبو الفدا الملك المؤيد^(٤) إسماعيل الأيوبي صاحب حجة المتوفى سنة ٧٣٢ ويشتهر بكتابين في التاريخ والجغرافيا ، ويهمننا الثاني وعنوانه «تقوم البلدان» وهو كتاب جغرافي للعالم في زمنه ، وقد ظل أهم كتاب جغرافي عربي حتى العصر الحديث ، ودائما يذكر مصادره كأحدث الكتابات الجغرافية . ويؤلف شهاب^(٥) الدين القدسي المتوفى سنة ٧٦٥ كتابه «مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام» ، ويلقانا عمر^(٦) بن الوردى المتوفى سنة ٨٥٠ - وهو غير زين الدين بن الوردى المتوفى قبله بقرن - وله كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، وهو مع وصفه الجغرافي للبلاد والأرض والبحار يعنى بالقصص الغريبة ، وقد جلبنا منه قصصا طريفة في كتابنا «عجائب وأساطير» . ويؤلف عبد^(٧) الرحمن العليمي المتوفى لأوائل زمن العثمانيين سنة

-
- | | |
|---|--|
| (١) انظر في عز الدين بن شداد تاريخ ابن الفرات (طبع بيروت) ٣٣/٨ والبداية والنهاية ٣٠٥/١٣ وشذرات الذهب ٣٨٨/٥ وكراتشكوفسكى ٣٦٩/١ | (١) طبقات الشافعية ٤٠٣/٩ والبداية والنهاية ١٥٨/١٤ وتاريخ ابن الوردى ٢٩٧/٢ والنجوم الزاهرة ٢٩٢/٩ وكراتشكوفسكى ٣٨٩/١ |
| (٢) راجع شمس الدين الدمشقي في كراتشكوفسكى ٣٨٦/١ | (٥) انظر في شهاب الدين الدرر ٢٥٧/١ وكراتشكوفسكى ٥١١/٢ |
| (٣) انظر ابن الفركاح في الدرر ٣٥/١ والشذرات ٨٨/٦ وكراتشكوفسكى ٥١٠/٢ | (٦) راجع في عمر بن الوردى ابن إياس ٦٠/٢ وكراتشكوفسكى ٥٠٠/٢ ودائرة المعارف الإسلامية . |
| (٤) راجع الملك المؤيد في فوات الوفيات ٢٨/١ والدرر | (٧) انظر العليمي في كراتشكوفسكى ٥١٥/٢ |

٩٢٨ كتابه « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ». وتكثر أيام العثمانيين كتب الرحلات والفضائل وتقل قلة شديدة الكتب الجغرافية بمعناها الدقيق . وربما كان أكثر أهل الشام حينئذ نشاطا في الكتابة عن دمشق ومساجدها ومدارسها ومواضع أحيائها وضواحيها ومزاراتها ابن^(١) طولون الصالحى المتوفى سنة ٩٥٣ وله في ذلك رسائل متعددة ، وله أيضا وصف للطريق من الشام إلى مكة باسم « منازل الحج الشامي » . ويكثر وصف الرحلات إلى القسطنطينية ، وبدأها بدر^(٢) الدين محمد الغزى المتوفى سنة ٩٨٤ بكتابه « المطالع البدرية في المنازل الرومية » وتلاه محمد^(٣) بن أحمد سكيكر المتوفى سنة ٩٨٧ للهجرة بوصف رحلته من حماة إلى القسطنطينية في كتابه « زبدة الآثار فيما وقع لجامعه من الأسفار » . وولتقى برحلات متعددة إلى مصر ، مثل « حاوى الأظعان النجدية إلى الديار المصرية » لأحمد^(٤) بن داود الحموى المتوفى سنة ١٠١٦ ووصف محمد^(٥) بن أحمد بن حافظ الدين القدسي المتوفى سنة ١٠٥٥ زيارته لدمشق والقدس والقاهرة في كتابه « إسفار الأسفار في أبحار الأفكار » كتبه بلغة مسجوعة بها غير قليل من التكلف . ولعبد الغنى النابلسى الصوفى الذى سترجم له فيما بعد المتوفى سنة ١١٤٣ أربع رحلات إلى طرابلس وبعلبك والقدس ومصر . وربما كان أهم من جاءوا بعد ذلك في زمن العثمانيين أحمد^(٦) المنينى الطرابلسى المتوفى سنة ١١٧٢ ، وكان مدرسا بالجامع الأموى ، وله كتاب « الإنعام (أو الإعلام) بفضائل الشام وهو شارح السيرة المشهورة التى ألفها العتبي للسلطان محمود الغزنوى .

٣

علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة

أخذت الشام تُعنى بتعلم العربية منذ وضع فيها العرب أقدامهم حتى تحسن النطق بالذكر الحكيم ، وبمجرد أن تحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية

- | | |
|--|--|
| (١) انظر في ابن طولون ترجمة شخصية له طبعت بدمشق بعنوان : الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون وراجع الكواكب السائرة ٥٢/٢ وشذرات الذهب ٢٩٨/٨ وكراتشكوفسكى ٦٨١/٢ وما بعدها | (٣) راجع كراتشكوفسكى ٦٨٧/٢ |
| (٢) انظر كراتشكوفسكى ٦٨٥/٢ | (٤) انظر كراتشكوفسكى ٦٩٠/٢ |
| | (٥) راجع كراتشكوفسكى ٦٩٢/٢ |
| | (٦) انظر في المنينى سلك الدرر للمرادى ١٣٣/١ وكراتشكوفسكى ٧٥٧/٢ |

ازدادت الرغبة حتى عند المسيحيين في معرفة العربية لغة الحاكم وإدارته الجديدة ، وحقا كانت الشام قد أخذت في التعرب قبل الإسلام ، ولكن كان لا يزال بها كثيرون لا يعرفون العربية ، بل قل إن الكثرة كانت لا تعرفها ، وكان الذين اعتنقوا الإسلام شغوفين بالتزود منها ، ويمكن أن نتخذ مما ينسب إلى عبيد بن شَرِيَّة جليس معاوية ومحدثه بأخبار الأمم السالفة من أنه وضع للناس كتابا في الأمثال ^(١) رمزا لتلبية هذا الشغف عند أهل الشام ، ولبناه أيضا في أيام يزيد بن معاوية أخباري يسمى علاقة بن كريم الكلابي ، فوضع للناس كتابا ثانيا في الأمثال ^(٢) والحكم . وأخذ ينشأ حينئذ معلمون يعلمون الناس العربية ، كانوا يسمون باسم المؤدبين ، ولم تهتم الكتب بإعطاء بيانات عن كانوا يعلمون العامة منهم ، ولا شك أن كثرتهم كانت من قراء الذكر الحكيم ، حتى يحسن القارئ تلاوته ، أما من كانوا يعلمون الخاصة من أبناء الخلفاء وأمراء البيت الأموي فرؤدتنا المصادر ببعض أسمائهم ، ومنهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب ^(٣) أولاد عتبة بن أبي سفيان ، وهو أيضا مؤدب ^(٤) الوليد بن يزيد ، ويقال إنه هو الذي دفعه إلى المحون ، إذ كان زنديقا ماجنا . وكان معبد الجهني مؤدبا ^(٥) لسعيد بن عبد الملك ، واتخذ هشام بن عبد الملك في خلافة الزهري المحدث مؤدبا ^(٦) لأبنائه .

ومضت الشام طوال القرنين الثاني والثالث تُعنى بتعلم العربية وإتقان الناشئة لها وقيام أمثال من سميناهم على تعليمها من المؤدبين والمعلمين . ويبدو أنهم كانوا يعدون تلاميذهم إعدادا واسعا ، يدل على ذلك أن شاعرين ممن خرَّجوهما - تخرج أولها وهو أبو تمام في الربع الأخير من القرن الثاني وتخرج الثاني في أوائل القرن الثالث وهو البحترى - وضعا أُقيِم مجموعتين من اختيارات الشعر حتى زمنها ، وسمي كل منها مجموعته باسم الخِلاصة على نحو ما هو معروف . وكانت بغداد - مركز الخِلافة - تجذب إليها بعض هؤلاء المؤدبين ، وكان الخلفاء يتخذون منهم أحيانا مؤدبي أبنائهم ، مثل أحمد بن سعيد الدمشقي وكان مؤدبا لأبناء الخليفة المعتر واختص بتخريج عبد الله بن المعتر الشاعر المشهور . ويبدو أن علماء اللغة في الشام لم يستقلوا عن علماء النحو إلى حقب متطاولة ،

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٣/٧ ولسان الميزان لابن

حجر ٢١/٤

(٥) البيان والتبيين ٢٥١/١

(٦) بروكلمان (الطبعة العربية بدار المعارف) ٢٥٤/١ .

(١) الفهرست ص ١٣٢

(٢) الفهرست ص ١٣٢ ونسب ابن النديم كتابا في الأمثال لصحار العيدي معاصر معاوية .

(٣) البيان والتبيين ٢٥٢/١

بمعنى أن عالم اللغة والنحو كان واحداً ، وكان يؤلف في الميدانين معا ، وقد يكون شامياً أصيلاً وقد يكون من نزلاء الشام .

وأول نحوى ولغوى كبير نلتقى به في الشام الزجّاجي^(١) عبد الرحمن بن إسحق ، كان قد لزم الزجّاج العالم النحوى ببغداد ، فُنسب إليه ، ونزل الشام فأقام بحلب مدة ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها يعلم كتابه الجُمَل ، وهو كتاب بارع في تعليم الناشئة ، وظل يُدرّس بعده في مصر والمغرب والحجاز واليمن فضلاً عن الشام مدداً متطاولة لوضوح عبارته ودقة تبويبه . وله أمال تزخر بالمعارف اللغوية وهى منشورة ، وله في علل النحو كتاب نفيس سماه الإيضاح وهو أقدم كتاب تناول هذا الموضوع تناولاً مفصلاً دقيقاً ، نشره الدكتور مازن مبارك مع مقدمة لي تحليلية . وقد ترجمت للزجّاجي في كتابي « المدارس النحوية » وأوضحت أنه من مؤسسى المدرسة البغدادية التي تعتمد على الآراء النحوية البصرية وتضم إليها بعض الآراء النحوية الكوفية مع النفوذ إلى آراء جديدة . وخرج في سنة ٣٤٠ مع عامل الضياع الإخشيدية - إذ كانت الشام حينئذ تتبع الإخشيد - إلى طبرية فتوفى بها .

وكانت حلب قد أخذت تنافس بغداد في النهضة الفكرية ، إذ بعث فيها سيف الدولة - كما مرّ بنا في غير هذا الموضوع - حياة أدبية وعلمية باهرة بما جمع في بلاطه من الفلاسفة مثل الفارابى والمترجمين مثل عيسى النقيسى والأطباء مثل أبى القاسم الرقى . وكان للغة والنحو حظ وافر من العلماء ، إذ كان بحلب حينئذ أبو الطيب^(٢) عبد الواحد اللغوى ، وله كتاب مراتب النحويين وكتاب في الأضداد ، غير كتب لغوية أخرى . ونزل حلب ابن خالويه^(٣) اللغوى النحوى واتخذه سيف الدولة مؤدباً لأبنائه ، وله في اللغة كتاب الاشتقاق وكتاب المقصور والمدود وكتاب المذكر والمؤنث وله في النحو كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن العزيز وطبعته دار الكتب المصرية ، وله كتاب في القراءات منشور ، وعنى بدراسة لغة العامة لأيامه ، ومن أجل ذلك ألف كتابه « ليس » في كلام العرب ، وعقب عليه المحافظ المصرى مغلطاي في مواضع وسمى كتابه « الميس على ليس » ويريد بالميس الاختيال . وكان يتزع في آرائه مترع الكوفة وتوفى بحلب سنة ٣٧٠ .

النحويين وبغية الوعاة وبيروكلمان ٢٤٢/٢

(٣) انظر في ابن خالويه لإنباه الرواة ٣٢٤/٩ وابن خلكان

١٧٨/٢ ومعجم الأدياء ٢٠٠/٩ وتيعة الدهر ٨٨/٩

وطبقات الشافعية للسبكي ٢٦٩/٣

(١) انظر في الزجّاجي إنباه الرواة ١٦٠/٢ وابن خلكان

١٧٦/٣ وكتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص

٢٥٢ وبيروكلمان ١٧٣/٢

(٢) راجع في أبى الطيب مقلمة الناشر لكتابه مراتب

وبجانب ابن خالويه وأبي الطيب اللغوي كانت هناك طائفة من نخاة أقل شهرة مثل أحمد بن البازيار وأحمد السميساطي وعلي بن محمد العدوي وعبد^(١) الله بن عمرو الفياضي ، وكان معهم النامي الشاعر ، وكان سيف الدولة يعجب بشعره ، وبدأ حياته نحويًا في بلدته المصيصية ، ثم تحول شاعرا ، وكانت له إملاءات لغوية ونحوية بحلب والتف حوله كثيرون من التلاميذ . وكان كُشاجم على شاكلة النامي لغويا وشاعرا وله كتاب المصايد والمطارد وهو منشور ، وكان له كتاب في البيزرة وكتاب ثان في أدب النديم . ومثله كان الخالديان : عثمان وأخوه أبو بكر محمد ، ولها تصانيف في الشعر والشعراء مثل كتاب الحماسة وأخبار أبي تمام وأخبار ابن الرومي . ولمع حينئذ في سماء حلب كوكبان نحويان لغويان كبيران هما أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جني . وقد تحدثنا عن نشاطها اللغوي والنحوي في كتابنا « المدارس النحوية » وبهنا هنا أن نذكر أن ابن جني لزم المتنبي في بلاط سيف الدولة وبعد ذلك في بغداد وإيران وروى عنه ديوانه وشرحه شرحين ، صغير مختصر وكبير مطول وعلى أساسها بُنيت شروحه فيما بعد . وأهم من شرحه بعده من أهل الشام أبو العلاء المعري ، وله عليه شرحان : كبير ومتوسط وهما معجز أحمد واللامع العزيزي سماه بهذا الاسم لأنه قدمه إلى عزيز الدولة ثابت^(٢) بن شمال بن صالح بن مرداس سنة ٤٣٤ وربما كان يتولى المعرة حينذاك . وفي ذلك ما يشير إلى ما قلناه مرارا من أن حكام الإمارات والمدن كانوا رعاة للعلم والأدب ، ولعل فيه ما يشير أيضا إلى أن بني مرداس الذين خلفوا الحمدانيين وظلوا حكاما على إمارة حلب من سنة ٤١٥ إلى سنة ٤٦٧ أعادوا لها ذكرى الحركة الفكرية التي بعثها فيها سيف الدولة الحمداني وأسرته .

ولعل بلداً عربياً لم يظفر بما ظفرت به الشام في أبي العلاء الشاعر اللغوي العبقرى المولود سنة ٣٦٣ والمتوفى سنة ٤٤٩ للهجرة وقد استوعب كل تراث زمنه من العلوم اللغوية والشرعية وعلوم الأوائل واستظهر ذلك كله في أشعاره وفي رسائله وكتابه النثرية ، وكان للغة وغرائبها الحظ الأكبر ، وكان ليس هناك شاذة ولا شاردة لغوية إلا سلكها في أشعاره ورسائله . ولذلك كان يفرد دائما شروحا لغوية لأعماله ، وقد أفرد لديوانه سقط الزند شرحا سماه ضوء السقط وهو منشور ، وأفرد للزوميات شرحا سقط من يد الزمن ، ويقال إنه كان في مائة كراسة ، وأفرد للفصول والغايات وهي في الزهد والعظات شرحا ، أنشأه في غريبها وسماه « السادن » كان في

(١) سر كتاب (أبو الطيب المتنبي) لبلاشير (ترجمة) (٢) راجع إنباه الرواة ٦٥/١ وانظر معجم الأدباء

عشرين كراسة . ولعل في ذلك ما يشير إلى أنه كان ينبغي في نشر هذا الكتاب أفراد الشرح عن متنه ، وكان قد وضع في غايته شرحا سماه إقليد الغايات مقداره عشر كراريس كان ينبغي أيضا أن يُفردَ عنه شرح غاية أو قافية كل فصل من فصوله . وهذا نفسه يلاحظ في رسالته البديعة : رسالة الغفران ، فقد نشرت مع شرح يتخللها ويتنظم في تضاعيفها ، وكان ينبغي أن ينحى عنها ويوضع في هوامشها بحيث يكون لها هوامش من إملاء أبي العلاء وهوامش أخرى خاصة بالتحقيق . ومثلها رسالة الصاهل والشاحج التي كتبها على لسان فرس وبغل : فقد أتبعها بشرح سماه « لسان الصاهل والشاحج » . وقد نشرتها هي ورسالة الغفران الدكتورة بنت الشاطي ، ويقال إنه قدم رسالة الصاهل والشاحج لعزيز الدولة فاتك الذي كان واليا للفاطميين على حلب^(١) من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٣ وقدم رسالته السندية إلى والي حلب الذي خلف فاتكا : سند^(٢) الدولة بن عثمان الكُتامي . ولعل في الرسالتين ما يشير إلى أن ولاية الفاطميين في المدة القصيرة التي تبعت فيها حلب القاهرة من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ كانوا يرعون الأدباء والعلماء بها ، وبالمثل في البلدان الشامية الأخرى التي كانت تتبع القاهرة قبل استيلاء السلاجقة عليها وقبل استيلاء حملة الصليب . وعملُ أبي العلاء اللغوي لم يقتصر على ما أنتج من شعر ونثر فقد مرَّ بنا أنه شرح ديوان المتنبي وبالمثل شرح ديوان أبي تمام حبيب بن أوس وسماه ذكرى حبيب وشرح ديوان البحري وسماه عبث الوليد . وشرح من كتب اللغة فصيح ثعلب . وكان طلابه وتلاميذه الذين يتحلقون حوله يقرءون عليه كتب لغوية مختلفة ويثبتون على نسخهم تعليقاته ، من ذلك كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت وكتاب غريب الحديث لأبي عبيد . ويروى أنه ألف في النحو كتابا سماه النافع وكان في خمسة كراريس ولعله صنفه للناشئة . وفي الحق أنه كان إماما كبيرا في اللغة ، ويقول عنه تلميذه التبريزي : « ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري »^(٣) ويعدد الصفدي من رُزقوا السعادة في أشياء لم يأت بعدهم من نالها ويذكر منهم أبا العلاء في الاطلاع على اللغة . ويقول الذهبي : كان أبو العلاء عجبا في الاطلاع الباهر على اللغة وشواهدا^(٤) ويقول ابن فضل الله العمري : « كان أبو العلاء مطلقا على العلوم لا يخلو في علم من الأخذ بطرف ، متبحرا في اللغة ، متسع النطاق في العربية^(٥) » . وإذا عرفنا أن هذا الإمام اللغوي الكبير

(٤) تعريف القدماء ص ١٩٠

(٥) تعريف القدماء ص ٢٦٨

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣١

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣٤

(٣) أبو العلاء وما إليه للراجكوتي ص ٥٣

لم ينشأ في مدن الشام الثلاث الكبرى : حلب أو دمشق أو بيت المقدس ، وإنما نشأ في بلدة المعرة الصغيرة القريبة من حلب ، وأخذ العربية واللغة عن علماء منها كبنى كوثر^(١) ومن يجرى مجراهم من تلامذة ابن خالويه وطبقته ، إذا عرفنا ذلك اتضح لنا النشاط اللغوي والنحوي الكبير الذي كان مبثوثا لافي مدن الشام الكبرى فحسب ، بل أيضا في مدنها وبلداتها الصغرى .

وفي كتب التراجم نحاة مختلفون كانوا يدرسون اللغة والنحو ويعلمونها للناشئة ومن تجاوزوا سن الناشئة نذكر منهم في زمن أبي العلاء ، أحمد^(٢) بن عبد الرحمن الطرابلسي ويذكر مترجموه أنه كان لا يزال حيا يعلم ويدرس سنة ٤١٣ لطلابه بطرابلس إلى أن وافاه بها القدر . وكان يعاصره على^(٣) بن أبي الفتح بن جنى المتوفى سنة ٤٥٢ وكان يعلم العربية في صور وصيداء وولتقى من شراح المتنبي بالوأواء^(٤) الحلبي اللغوي المتوفى سنة ٥٥١ وهو غير الوأواء الدمشقي شاعر سيف الدولة ، كما نلتقى في شيزر بمهرف بن أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٦١٣ وله شرح^(٥) على ديوان المتنبي ، وتوفى معه في نفس السنة أبو اليمن التاج الكندي زيد^(٦) بن الحسن نحوي دمشقي المشهور . وتزدهر الدراسات اللغوية والنحوية في الشام أثناء القرن السابع الهجري ، ويلقانا أعلام ثلاثة كان لكل منهم شطر في هذا الازدهار ، أولهم يعيش^(٧) بن علي بن يعيش الحلبي الدار والمولد ، ولد بحلب سنة ٥٥٦ للهجرة وأكب في نشأته على تعلم العربية وأخذها عن نحاة موطنه ، ولم يكتف بذلك فقد رحل إلى بغداد ثم دمشق يأخذ عن شيوخها ، وعاد إلى حلب يعلم العربية حتى وفاته سنة ٦٤٣ وكان يقرأ على طلابه بعض كتب ابن جنى ويشرحها مثل اللمع والتصريف ، وأهم من شرحه عليها شرحه على كتاب المفصل للزمخشري وهو منشور في عشر مجلدات استقصى فيه آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين ، ويكثر من انتصاره للبصريين ، وقلما يستحسن آراء الكوفيين ، وكثيرا ما يؤثر آراء البغداديين من أمثال أبي علي الفارسي ، وهو بذلك يُسلك في المدرسة البغدادية التي كانت تجمع في مصنفاتها بين آراء النحاة البصريين والكوفيين وتنفيذ إلى آراء جديدة في هذه المسألة أوتلك ، وفي كتابنا « المدارس النحوية » توضيح كاف لمنهج ابن يعيش في النحو واختياره لآراء النحاة فيه من بصريين وكوفيين وبغداديين . .

(١) إنباه الرواة ٤٩/١

(٢) راجع ترجمة الطرابلسي في إنباه الرواة ٨٦/١

(٣) انظر إنباه الرواة ٣٨٥/٢

(٤) انظر في الوأواء الحلبي إنباه الرواة ١٨٦/٢

(٥) بروكلمان ٩٠/٢

(٦) ستذكر مصادر ترجمته بين القراء .

(٧) راجع في ترجمة ابن يعيش ابن خلكان ٤٦/٧ وابن

الوردى ١٧٦/٢ والشذرات ٢٢٨/٥ وبغية الوعاة ص ٤١٩

والعلم الثاني لم يكن شاميا بل كان مصرياً ، ومنذ العصر الأيوبي كان علماء الشام ومصر يتبادلون التدريس والتعليم في البلدين ، وكثيراً ما درّس وعلم جلة العلماء الحلبيين والدمشقيين والمقدسيين في مدارس القاهرة ومساجدها مثل يحيى بن معطى المتوفى بمصر سنة ٦٢٨ . وقد وضعناه بين نحاتها المصريين . وكثيراً ما نزل بيت المقدس ودمشق وحلب مصريون واستوطنوها وأمضوا حياتهم هناك يعلمون ويدرسون ويفيدون ، لا علماء النحو فحسب بل جميع العلماء من كل فرع من فروع العلم . وكان العلم المصرى النحوى الذى نزل الشام ابن الحاجب (١) عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ وهو مذكور بين النحاة في القسم المصرى . وبهنا هنا أن نعرف أنه حين أحس نضجه العلمى رحل إلى دمشق وكان مالكيًا ، فنزل بزواية المالكية في جامعها الأموى ، وأخذ يدرس لطلابه هناك كتابيه الرائعين في النحو والتصريف : الكافية والشافية ، وأملى شرحين لها . وتوالت بعده لتفاستها الشروح عليها بين عربية وفارسية حتى بلغت على الكافية - كما استقصاها بروكلمان - سبعة وستين شرحاً ، وعلى الشافية - ستة وعشرين . وظل ابن الحاجب طويلاً في دمشق وطلاب العربية مكثبون عليه حتى دخلت سنة ٦٣٩ وتحالف الملك الصالح إسماعيل مع حملة الصليب ضد ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب وتنازل لهم عن صفد وقلعة شقيف ، وجاء ابن الحاجب نبأ الكارثة ، وكان يخطب الجمعة في المسجد الأموى ، وكان إسماعيل قد ملك دمشق برهة ، وغلا الدم في عروقه فقطع اسم الملك إسماعيل من الخطبة معلناً بذلك احتجاجه على عمله المزرى ، وردّ عليه إسماعيل بإبعاده إلى موطنه ، فعاد إلى القاهرة وتركها إلى الإسكندرية وبها توفى سنة ٦٤٣ .

والعلم الثالث لم يكن مصرياً ولا شامياً ، بل كان أندلسياً ، وهو ابن (٢) مالك محمد بن عبد الله ، ولد ونشأ وعكف على دراسة اللغة والنحو في بلدته جيّان ، حتى إذا شعر باكتمال تكوينه العلمى رحل سنة ٦٣٠ وهو في الثلاثين من عمره إلى دمشق ، وظل مدة في حلب يأخذ عن ابن يعيش . ثم عاد إلى دمشق واستوطنها متولياً بها مشيخة المدرسة العادية ، ولم يلبث أن طار صيته في آفاق الشام ، فقصده الطلاب من كل فجٍّ ، وكان يحسن إلى أبعد حد نظم الشعر العلمى فنظم في النحو ألفيته المشهورة ، وتوالت بعده شروحها حتى بلغت تسعة وأربعين شرحاً ، غير ما على بعض شروحها من حواشٍ . وألف في النحو بجانبها كتابه التسهيل وله عشرة شروح ، وله في

(١) انظر في ابن الحاجب ابن خلكان ٢٤٨/٣ وابن فرحون ص ٣٧٢ وبروكلمان ٣٠٨/٥ والمدارس النحوية ص ٣٤٣ .
(٢) انظر في ابن مالك ومصادره كتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٩ وبروكلمان ٢٧٥/٥ - ٢٩٦ .

الصرف لامية الأفعال ولها أيضا عشرة شروح ، وتحفة المودود في المقصور والمدود ، وإيجاد التعريف في علم التصريف . وبلغت مصنفاته نحو ثلاثين مصنفا بين منظوم ومثور ، وأوضحت في كتاب المدارس النحوية منهجه في النحو وأنه كان منهجا بغداديا مع ميله لاستخدام بعض الرخص الكوفية ، وسنعود إلى الترجمة له ترجمة أكثر تفصيلا في السُّفر الخاص بالأندلس والمغرب إذ عداده حقا إنما هو في الأندلسيين .

وتظل دراسات اللغة والنحو في الشام بعد هؤلاء الأعلام الثلاثة مزدهرة ، ويظل التبادل فيها موصولا بين علماء الشام ومصر طوال أيام المماليك ونذكر من نخاة الشام ولغويها الذين تكوّنوا في موطنهم ثم نزلوا القاهرة ودرّسوا النحو واللغة فيها للطلاب بهاء^(١) الدين بن النحاس الحلبي المولود سنة ٦٢٧ سمع مواطنه ابن يعيش وتلقى عنه العلم ثم بارح حلب إلى القاهرة والتف الطلاب حوله وصار شيخ العربية بالديار المصرية حتى توفي سنة ٦٩٨ ويُنسَبُ له شرح على ديوان امرئ القيس نشره الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم مع مجموع شروح الديوان بدار المعارف . ومن هؤلاء اللغويين والنخاة المستوطنين لمصر ابن الصائغ^(٢) محمد بن الحسن المولود بدمشق سنة ٦٤٥ نزل القاهرة وأقام بها يقرئ الناس العربية وكان شاعرا كما كان لغويا ، وله شرح على مقصورة ابن دريد وشرح على ملححة الحريري ومختصر لصحاح الجوهري جرّده فيه من الشواهد ، توفي بالقاهرة سنة ٧٢٢ . ومن أهم هؤلاء النخاة المهاجرين من الشام إلى مصر وأشهرهم بهاء^(٣) الدين بن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن الحلبي الأصل والمولد ، وقد لزم شيوخ الفقه الشافعي والحديث والعربية بمصر يأخذ عنهم ، وخاصة النحوي الكبير أبا حيان ، وألف شرحه المشهور على الألفية ويمتاز بالوضوح ونصاعة العبارة ، ولذلك عُني به الشراح فشرحوه مرارا وله شرح على كتاب التسهيل لابن مالك ، وظل يشتغل بالتدريس في مدارس متعددة حتى توفي سنة ٧٦٩ . وإنما أردنا بذكر اللغويين والنحويين الشاميين النازلين بالقاهرة إلى أن ندل من جهة على أن التبادل العلمي بين القاهرة والشام في النحو ظل طوال زمن المماليك نشيطا ، وظلت دراساته حية قوية إلى أبعد حد ، وتتوالى أمامنا تراجم كثيرة طوال القرن التاسع الهجري نقرأ فيها أن هذا الشيخ أو ذلك كان بارعا في القراءات أو في الفقه وأصوله وأيضا في العربية ، ولم تكن توجد بلدة لافي الشام فحسب بل أيضا

(١) راجع ابن النحاس فوات الوفيات ٣٥٠/٢ وبقية الوعاة ص ٦ والشذرات ٤٤٢/٥

(٢) انظر في ابن الصائغ فوات الوفيات ٣٨٠/٢ والبداية

والنهاية ٩٨/١٤ والنجوم الزاهرة ٢٤٨/٩
(٣) راجع في ترجمة ابن عقيل الدرر الكامنة ٣٧٢/٢
والبقية ص ٢٨٤ وكتابنا المدارس النحوية ص ٣٥٥

في كل العالم العربي الا وهي تعنى بدراسة اللغة والنحو . وظل كثيرون من شيوخ العربية يضعون الشروح لطلابهم على كثير من متون النحو ومختصراته .

ونمضى إلى زمن العثمانيين وتظل دراسات العربية بالشام نشيطة ، إذ لا يستقيم لسان الناس وتلاوتهم للذكر الحكيم بدونها ، بل لقد ظلت جميع الدراسات العلمية وانبرى لها علماء في كل الفروع يدرسونها للطلاب دراسة مرتبة مفصلة ، وأخذ النحو نصيبه من ذلك فظهر فيه علماء نابهون في مقدمتهم الشيخ ياسين^(١) بن زين الدين العليمي المتوفى سنة ١٠٦١ للهجرة ، وله حاشية على شرح التصريح للشيخ خالد الأزهرى المصرى ، وهو شرح على التوضيح أو أوضح المسالك لابن هشام . والحاشية تدل بوضوح على أن الشيخ ياسين لم يكذب يترك كتابا من كتب النحو الكبرى التي تجمع آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين وأندلسيين ومصريين حتى زمنه من مثل مع الهوامع للسيوطى والمغنى لابن هشام وارتشاف الضرب (عسل النحو) لأبى حيان . بل لقد أمعن في قراءة النحو عند ابن يعيش ، وتجاوزه إلى من سبقوه ، من أئمة المذاهب النحوية ، بحيث تحول بحاشيته إلى ما يشبه موسوعة نحوية كبرى ، فإذا قلنا إن الدراسات النحوية واللغوية بالشام في زمن العثمانيين كانت لاتزال نشيطة تحفوق بغير قليل من الحيوية لم تكن مبالغين .

وإذا تركنا النحو واللغة إلى مباحث البلاغة والتقد وجدنا شعراء الشام متصلين اتصالا وثيقا بالتطور الذى حدث في الشعر لأول أيام بنى العباس وما اصططنه فيه الشعراء من المحسنات المعنوية واللفظية مما سمي فيما بعد باسم البديع ، ويلاحظ ذلك الجاحظ على العتّابي الشاعر الشامى لزمن الرشيد فيقول إنه كان يحتذى حذو بشار^(٢) زعيم المجددين في العصر العباسى الأول . وما يزال الشعراء العباسيون يعنون بتلك المحسنات حتى استطاع مسلم بن الوليد أن ينميا حتى ليتخذها كالمذهب له ، وما يلبث أبو تمام الشاعر الشامى أن يتناولها منه ويبلغ بها الغاية المنتظرة من تكوين هذا المذهب الجديد الذى كان يسميه مسلم باسم البديع وفيه يقول أبو الفرج الأصبهاني . (هو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف وتبعه فيه جماعة أشهرهم أبو تمام الطائي)^(٣) . وآثرنا في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربى » أن نسميه مذهب

(٣) انظر ترجمة مسلم بن الوليد الملحقه بديوانه نشر الدكتور سامى الدهان

(١) انظر فى الشيخ ياسين خلاصة الأثر للمجيب ٤/٩١١ وحاشيته طبعت بمصر مراراً
(٢) البيان والتبيين ١/٥١

التصنيع أى التنميق حتى يشمل البديع وألوانه الحسية المعروفة كما يشمل الزخرف المعنوى على نحو ماصورنا ذلك عند أبى تمام^(١) . على كل حال شاعر الشام أبو تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣٠ للهجرة هو الذى تلقى بسرعة البرق هذا المذهب الجديد عن مسلم بن الوليد قبل اكتماله وأعطاه صورته النهائية^(٢) . ومن ذلك نخلص إلى أن الشام إن كانت قد تأخرت فى صنع كتب البلاغة والنقد من الوجهة النظرية فإنها سبقت إلى الرقى ببلاغة الكلام نثرا وشعرا كما عند العتاتى الكاتب والشاعر البليغ وأبى تمام حامل لواء الشعر فى زمنه غير منازع .

ومان تقدم طويلا فى القرن الرابع الهجرى حتى نلتقى بأكبر حلقة نقدية أدبية طالما طمحت إليها أنظار الشعراء الشاميين ، ونقصند حلقة حلب التى تكونت حول سيف الدولة بطل القوى العربية المصارعة للبيزنطيين . وكان سيدا بالمعنى العربى الكامل شجاعا كريما نبىلا مثقفا شاعرا ، وهب نفسه لحرب البيزنطيين وسحقهم ، كما وهبها هى وماله لإحداث حركة أدبية تُنافس بها حلب بغداد إن لم تتفوق عليها ، وطارت شهرته فى إكرام العلماء والشعراء كل مظار ، وسرعان ماالتفت حوله وعاش فى كنفه من تحدثنا عنهم أنفا من الفلاسفة والأطباء وعلماء التنجيم واللغويين والنحاة وكثرة من الشعراء وكأنما لم يبق شاعر نابه فى إيران والعراق والموصل والشام إلا أقبل إلى هذه الندوة الفكرية التى عاش فيها المتنبى تسع سنوات طويلا ، وحوله من العلماء أمثال ابن جنى اللغوى والشعراء أمثال النامى والكتاب أمثال أبى بكر الخوارزمى ، وهم يدونون شعره ويتدارسونه ويتناقشون معه حوله . ولزمه ابن جنى - كما مر بنا - وشرح ديوانه شرحين : كبيرا وصغيرا ، وكان أبو على الفارسى يراه حجة فى اللغة لانظير له . وكان إذا سُئل عن لفظه فى شعره أو تعبيره ساق عليه الشواهد الكثيرة من أشعار العرب ، وتصادف أن أنشد سيف الدولة أولى قصائده^(٣) :

وقاؤكما كالأربع أشجاء طاسمة بأن تُسعدا والدمعُ أشفاه ساجمة

وكان ابن خالويه حاضرا فقال له : ياأبا الطيب إنما يقال شجاء ، توهمه فعلا ماضيا وهو صيغة تفضيل فقال له أبو الطيب : اسكتُ فما وصل الأمر إليك^(٤) . وكان ذلك سببا فى أن فسد

(١) فى البكاء . يقول لصاحبه : اسكبا معى الدمع فإنه أشفى للخليل كما أن الربيع أكثر شجرا للمحب إذا درس .
(٤) نزهة الألباء بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم (طبع ونشر دار نهضة مصر) ص ٢٩٨ .

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة - نشر

دار المعارف) ص ٢٣٩

(٢) الفن ومذاهبه ص ٢٤٧

(٣) يخاطب المتنبى بالبيت صاحبين له على عادة العرب .

أشجاء : أحزنه . طاسمه : دارسه . بأن تسعدا : بالمساعدة

ما بينهما طوال مقام المتنبي عند سيف الدولة . وظل ابن خالويه يكنُّ له الضغينة ، واستطاع أن يؤلِّب عليه أبا فراس وبعض من كانوا حول سيف الدولة ، مما جعل المتنبي يغادر حلب إلى غير مآب . والمهم أنه كان يعتقد من حين لآخر غبار من النقد اللغوي حول شعر المتنبي في حلقة سيف الدولة ، وصورٌ من هذا النقد كانت تعتقد بين شعراء الحلقة ، وكثيرا ما كانوا يتحاورون في سرقاتهم ممن سبقوهم من الشعراء ، وهم أثناء ذلك يتناشدون أشعارهم أو أشعار سابقهم مستحسنين تارة ومستهجنين أخرى . وجميعها صور من النقد الذي يصقل الملكة الأدبية ، وصورٌ ذلك أبو بكر الخوارزمي الكاتب المشهور وأحد من تزود بما كان في الحلقة من نقد خصب ، فقال : « ما فتق قلبي وشحد فهمي وصقل ذهني وأرهف حدَّ لساني وبلغ هذا المبلغ بي إلا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي وامتزجت بأجزاء نفسي ، وغصنُ الشباب رطب ورداء الحدائة قشيب » (١) .

ونلتقي بعد هذه الحلقة بأبي العلاء ، وقد تعددت وجوه نقده اللغوي ، فهو يضمها شروحه لدواوين أبي تمام وسمَّاه ديوان حبيب وديوان المتنبي وسمَّاه معجز أحمد - كما مر بنا - وراجع البحتری مرارًا ناقداً له ولذلك سمى شرحه لديوانه - كما أسلفنا - عبث الوليد وهو اسمه والبحتري لقبه ، واختار الاسم للكتاب لما فيه من تورية واضحة . وهو يتكلم في شروحه للشعراء الثلاثة عما في أشعارهم من غريب وما أخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم ، وأحيانا ينتصر لهم وأحيانا ينتقدهم مع التوجيه - ما استطاع - لما يُظنُّ أن أبا تمام والمتنبي أخطأ فيه . ولأبي العلاء في رسالة الغفران نقد كثير أجراه في القسم الأول على لسان صديقه ابن القارح حين أدخله الجنة وجعله يلقي الشعراء والرجاز ويعرض أثناء ذلك نقدا متنوعا لرواية الأشعار ولألفاظها العويصة وتراكيبها النحوية وبعض العيوب في أوزانها وقوافيها . وسوى من هذا النقد في الرسالة الدكتور أمجد الطرابلسي كتابا بعنوان : « النقد واللغة في رسالة الغفران » ويظل النقد نشيطاً في الشام حتى أيام العثمانيين إذ نجد يوسف البديعي (٢) المتوفى سنة ١٠٧٣ يؤلّف كتابين نقيسين في النقد والتاريخ الأدبي ، هما « هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام » و« الصبح المنبي في الكشف عن حيثية المتنبي » وهو يعرض في الكتابين سيرة الشاعرين عرضاً تفصيلياً كما يعرض آراء النقاد السابقين فيها ، ولا يكاد يترك خبراً مهما يتصل

(١) التيبة للثعالبي (بتحقيق محمد محي الدين (٢) انظر في البديعي خلاصة الأثر ٥١٠/٤ .

بشيرتها ولا رأيا نقديا يتصل بأشعارهما مما يحيل الكتابين إلى مبحثين تاريخيين نقديين بارعين للشاعرين .

واهتمت الشام بالدراسات البلاغية اهتمامًا واسعًا ، وكان أول كتاب صدر لها في هذه الدراسات كتاب ^(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ وسنترجم له بين الشعراء . والكتاب - كما يتضح من عنوانه - يناقش قضية الفصاحة ويقدم لها بحديث عن أحكام الأصوات ومخارجها ، ثم يصور الفرق بينها وبين البلاغة ، فيجعلها خاصة بالألفاظ ويجعل البلاغة عامة تشمل الألفاظ والمعاني . ويتناول صفات الفصاحة في الكلمة المفردة ثم في الكلام ، ويخوض في تحليلات دقيقة تتصل بفنون الفصاحة وما يرتبط بها من البلاغة والبدع ومحسناته . وولتقى بأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وسنترجم له بين الشعراء ، وله كتاب سماه البديع في نقد الشعر ، وهو فيه يعنى بالمحسنات البديعية ، وقد عرض منها في الكتاب خمسة وتسعين محسنًا . ويصنف الزمّلكاني ^(٢) الدمشقي عبد الواحد بن عبد الكريم المتوفى سنة ٦٥١ كتابًا بعنوان « التبيان في علم البيان » استضاء فيه كما قال في مقدمته بكتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر ، وقد عرض فيه مباحث كثيرة تتصل بعلم المعاني والبيان والبدع مع إقحام بعض المباحث النحوية والمنطقية . وولتقى سريعًا بيدر ^(٣) الدين بن محمد بن مالك الأندلسي العالم النحوي الذي تحدثنا عنه آنفا بين النحاة ، وله مثل أيه مباحث نحوية ، وعنى بتلخيص كتاب المفتاح للسكاكي في كتابه « المصباح في علوم المعاني والبيان والبدع » وقد أدخل ملخصه أو مختصره من تعقيدات كتاب المفتاح المنطقية والكلامية والفلسفية ، ولم يجعل البديع - مثل السكاكي - ذيلًا لعلمي المعاني والبيان ، بل جعله علمًا مستقلًا كما يتضح من عنوان كتابه . وقد أحصى من محسناته أربعة وخمسين محسنًا .

ولم يلبث الخطيب ^(٤) القزويني الدمشقي المتوفى سنة ٧٣٩ أن ألف تلخيصًا دقيقًا واضحًا

٩٨/٨ والنجوم الزاهرة ٢٧٣/٧ والشذرات ٣٩٨/٥ والبنية ص ٩٠٦ وانظر في تحليل كتابه « البلاغة : تطور وتاريخ » ص ٣١٥ .

(٤) انظر الخطيب في الدرر الكامنة لابن حجر ١٢٠/٤ والنجوم الزاهرة ٣١٨/٩ والشذرات ١٢٣/٦ وراجع في تحليل كتابه « البلاغة : تطور وتاريخ » ص ٣٣٥ وما بعدها .

(١) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابنا « البلاغة تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢ .

(٢) انظر في ترجمة الزمّلكاني السلوك للمقرئزي ٣٨٩/١ والسبكي ٣١٦/٨ والشذرات ٢٥٤/٥ وبنية الوعاة ص ٣١٦ وراجع في تحليل كتابه « البلاغة تطور وتاريخ » ص ٣١٤ .

(٣) راجع في ترجمة بدر الدين السلوك ٧٣٨/١ والسبكي

لكتاب المفتاح كُتب له أن يذيع بين علماء البلاغة وأن يكتبوا له كثيرا من الشروح بحيث أصبح محور الدراسة للبلاغة وفنونها شرقا وغربا منذ زمنه إلى اليوم . وعُنى ببسط قضايا علوم البلاغة : المعاني والبيان والبديع في كتاب ثان له سماه الإيضاح ، وله نفس الشهرة التي حظى بها تلخيصه . ويصنّف ابن قيم^(١) الجوزية الدمشقي المتوفى سنة ٧٥١ كتابه « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان » وفيه يتحدث عن الفصاحة والبلاغة وفنون البيان والمعاني والبديع . وتنقص الكتاب دقة الترتيب والتبويب . وكان يعاصره الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ وسنترجم له بين المؤرخين ، وعُنى بثلاثة فنون من فنون البديع : الجناس وله فيه كتاب جناس الجناس وهو مطبوع ، والتورية والاستخدام وله فيها كتاب فض الحتام في التورية والاستخدام وبنار الكتب المصرية مخطوطة منه . ونصبح في زمن تأليف البديعيات وشروحها وهي قصائد في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم يتضمن كل بيت فيها محسنا من محسنات البديع . وينظم ابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ بديعية في مائة واثنين وأربعين بيتا أحصى فيها محسنات البديع ، وقد بلغت عنده نحو مائة وأربعين محسنا وشرحها شرحا مفصلا سماه بحق خزانة الأدب ، إذ يشتمل على نظرات تحليلية نقدية وبلاغية كثيرة تتصل بالشعر والشعراء وخاصة في زمن الأيوبيين والمماليك ، بحيث يصبح مصدرا مها لمن يكتبون عن الأدبين المصري والشامي في تلك الحقبة ، مع منتخبات بديعية للشعراء والكتّاب تدل على ذوق أدبي مرهف ، وسنترجم له بين الكتّاب . وظل نشاط البديعيات متصلا أيام العثمانيين ، ولعبد الغني النابلسي الذي سنترجم له في غير هذا الموضوع بديعيتان^(٢) ومع كل بديعية شرح خاص بها .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذت الشام تُعنى بقراءة الذكر الحكيم منذ دخلها الإسلام مع الأفواج الأولى من الصحابة ، ومن أهم قرائها في الصدر الأول أبو الدرداء قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان إذا صلّى الغداة في جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه . ومرّ بنا ذكر ذلك وأنه كان

(١) ص ٣١٩
 (٢) انظر الحديث عنها في كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ
 ٣٦٤ وما بعدها

(١) راجع في ابن القيم الدرر الكامنة لابن حجر ٢١/٤
 والبدر الطالع ١/٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ١٠/٢٤٩ وطبقات
 الحنابلة للشطبي ص ٦١ وكتابنا « البلاغة : تطور وتاريخ »

يجعل الناس عشرة عشرة ويجعل على كل عشرة عريفا ، وعدّ يوما من يقرءون عنده فوجدهم ألفا وستائة ونيفا ، ولعل في ذلك ما يوضح إقبال الناس في الشام سريعا على قراءة الذكر الحكيم ، وظلوا يدوون به في مساجدها . وخلف أبا الدرداء في إقراء الناس بدمشق عبد^(١) الله بن عامر اليمنى العربى المتوفى سنة ١١٨ للهجرة وكان عريفا على عشرة عنده ممن يقرأون . ولم يكتف بأخذ القرآن وسماعه منه وعرضه عليه فقد أضاف إليه المغيرة بن أبي شهاب ، قرأ عليه القرآن ، وكان المغيرة قرأه على عثمان بن عفان . واستطاع أن يبلغ من إحكام قراءته ما جعل ابن مجاهد بعدُ يختاره بين القراء السبعة المقدمين ، إذ كان بحق إمام أهل الشام في القراءة ، ويقول ابن مجاهد في أوائل القرن الرابع : على قراءته أهل الشام والجزيرة ثم يعود ، فيقول : « والغالب على أهل الشام قراءة ابن عامر » ويقول ابن الجزرى في ترجمته : « لازال أهل الشام قاطبة على قراءة ابن عامر تلاوة وصلاة وتلقينا إلى قريب من سنة خمسمائة » .

وخلف ابن عامر على قراءته بدمشق يحيى^(٢) بن الحارث الدُّمارى الدمشقى إمام الجامع الأموى المتوفى سنة ١٤٥ وخلفه بالقيام على قراءة ابن عامر تلميذان بدمشق : أيوب^(٣) بن تميم الدمشقى المتوفى سنة ١٩٨ وعنه أخذها عبد^(٤) الله بن ذكوان إمام جامع دمشق وشيخ الاقراء بالشام المتوفى سنة ٢٤٢ والتلميذ الثانى عراقك^(٥) بن خالد شيخ أهل دمشق في زمنه المتوفى قبل المائتين ، وعنه وعن أيوب بن تميم أخذها هشام^(٦) بن عمار إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم المتوفى سنة ٢٤٥ . وبذلك أصبح لقراءة ابن عامر في الشام طريقان : طريق ابن ذكوان وطريق هشام بن عمار ، وهما تقابلان في كتاب السبعة لابن مجاهد : الأولى أخذها عن أحمد بن يوسف التغلبى ، والثانية أخذها عن أحمد بن محمد بن بكر . ولا بد أن نلاحظ أنه كان بالشام من اختار لنفسه قراءة غير قراءة ابن عامر حتى منذ القرن الثانى فقد نزل المدينة عتبة بن حباد الدمشقى ، قرأ الموطأ على الإمام مالك وأخذ عن نافع أحد القراء المشهورين قراءته^(٧) ، وبالمثل أخذها عنه أبو مسهر^(٨) الغسانى عبد الأعلى بن مسهر المتوفى سنة ٢١٨ . ويغلب أن يكون هناك آخرون قرءوا بقراءة ابن كثير قارئ مكة أو غيره من القراء السبعة .

- | | |
|---|----------------------|
| (١) راجع في ابن عامر وقراءته وأساتيده كتاب السبعة | (٤) ابن الجزرى ٤٠٤/١ |
| لابن مجاهد بتحقيق نشر دار المعارف ص ٨٥ ، ١٠١ | (٥) ابن الجزرى ٥١١/١ |
| وكتاب طبقات القراء لابن الجزرى ٤٢٣/١ | (٦) ابن الجزرى ٣٥٤/٢ |
| (٢) ابن الجزرى ٣٦٧/٢ | (٧) ابن الجزرى ٤٩٩/١ |
| (٣) ابن الجزرى ١٧٢/١ | (٨) ابن الجزرى ٣٥٥/١ |

ومر بنا ذكر ابن خالويه في بلاط سيف الدولة وكان قد تصدّر في حلب لإفادة الطلاب عشرات السنين ، ونظن أنه عرض عليهم - فيما عرض القراءات السبع ، إذ كان قد حملها عن ابن مجاهد كما ذكر ابن الجزرى ، وأيضا فإن له في توجيه تلك القراءات كتابا معروفا . ويشهد لما نقول أننا نجد بين تلاميذه الحلبيين قارئا كبيرا هو أبو الطيب عبد (١) المنعم بن غلبون الحلبي المتوفى سنة ٣٨٩ وله كتاب الإرشاد في القراءات السبع ، ومن أهم تلاميذه ابنه طاهر (٢) المتوفى سنة ٣٩٩ مؤلف التذكرة في القراءات الثمان وهو أستاذ أبي عمرو الداني صاحب كتاب التيسير المشهور في القراءات . وذكرنا في مقدمة الطبعة الأولى لكتاب السبعة أنه كان من بين ما اعتمدنا عليه في تحقيقه مخطوطة لكتاب الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي تلميذ ابن مجاهد تحفظ بها مكتبة جامعة القاهرة ومجلداتها الأولى بخط طاهر بن عبد المنعم بن غلبون . وربما كان أبوه حمل هذا الكتاب عن أبي علي الفارسي مباشرة حين مقامه بحلب ، كما مر بنا . ويصنف عبد (٣) الجبار الطرسوسى المتوفى سنة ٤٢٠ كتاب المجتبي في القراءات . وتلتقى بالحسن (٤) بن علي الأهوازي شيخ القراء بدمشق منذ سنة أربعائة حتى وفاته سنة ٤٤٦ وكان قد استوطنها منذ سنة ٣٩١ وكان يكثر من الحملة على الأشعري والأشعرية ، ومن أجله صنف ابن عساكر - فيما بعد - كتابه : تبين كذب المقترى فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري ، وكانت له مؤلفات كثيرة في القراءات والقرآن وعلومه .

وما يزال التأليف في القراءات والقرآن وعلومه مستمرا في الشام حتى تلتقى بابن (٥) الطحان عبد العزيز بن سلمة نزبل حلب المتوفى حول سنة ٥٦٠ وله تصانيف مفيدة في علوم القرآن منها كتاب الوقف والابتداء ، وكان على علم واسع بالقراءات . وتلتقى في أيام الأيوبيين بأبي اليمن (٦) الكندى زيد بن الحسن نزبل دمشق المتوفى سنة ٦١٣ وهو من المعمرين ويقال إنه قرأ القراءات العشر وهو

الزاهرة ٥/٥٦

(١) انظر في عبد المنعم بن غلبون طبقات القراء ٤٧٠/١

(٥) انظر في ابن الطحان ابن الجزرى ١/٣٩٥

وطبقات الشافعية للسيكى ٣/٣٣٨

(٦) راجع في أبي اليمن ابن الجزرى ١/٣٩٧ ومعجم

(٢) راجع في « طاهر » ابن الجزرى ١/٣٣٩

الأدباء ١١/١٧١ وخطط الشام ٧/٤٧ والبداية والنهاية

(٣) انظر في عبد الجبار ابن الجزرى ١/٣٥٧

١٣/٧١ وإنباه الرواة ٢/١٠ وابن خلكان ٢/٣٣٩

(٤) راجع في الأهوازي ابن الجزرى ١/٢٢٠ والنجوم

ابن عشر سنين وظل يقرأ القراءات ثلاثا وثمانين سنة . ومن تلاميذه علم^(١) الدين السخاوي على بن محمد شيخ مشايخ الإقراء بدمشق وقد ظل يقرئ الناس نيفا وأربعين سنة حتى توفي سنة ٦٤٣ وله مصنفات كثيرة في القراءات والتفسير منها شرح الشاطبية وهو أجل شروحها ، ومنها جمال القراء وكمال الإقراء . ومن تلاميذه الذين تصدروا القراءة في دمشق أبو الفتح^(٢) محمد بن علي ولي مشيخة القراءة بترية أم الصالح ، وأبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ تولى مشيخة الحديث الكبرى بالأشرفية ، وسنذكر مصادر ترجمته بين المؤرخين ، والقاضي عبد السلام الزواوي المتوفى سنة ٦٨١ وسنذكر مصادر ترجمته بين فقهاء المالكية ، تولى مشيخة الإقراء الكبرى بالترية الصالحية بعد وفاة شيخها أبي الفتح وإليه انتهت رئاسة الإقراء بالشام . ومن كبار القراء بالشام في القرن الثامن ابن^(٣) جبارة المقدسي ، درس القراءات بمصر وطاف بدمشق وحلب ثم استقر في بيت المقدس موطنه مدرسا للقراءات وعلوم العربية حتى توفي سنة ٧٢٨ . وكان يعاصره برهان^(٤) الدين الجعبري استوطن بلدة الخليل بجوار بيت المقدس حتى توفي سنة ٧٣٢ وكان يقرئ الناس بها وصنّف في القراءات كتاب نزهة البررة في القراءات العشرة . وولتقى بابن البارزي قاضي حجة ومفتي الشام المتوفى سنة ٧٣٨ وله شرح على الشاطبية وكتاب الشريعة في قراءات السبعة . وما نزال نقرأ عن مؤلفات شامية في القراءات حتى نصل إلى ابن^(٥) الجزري محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٣٣ وله كتاب النشر في القراءات العشر وهو منشور وكتاب غاية النهاية في طبقات القراء وهو مصدرنا الأساسي في الحديث عنهم . ومن كبار القراء والحفاظ بعده شمس الدين الرملي الدمشقي أحمد بن أحمد بن محمد ، ولد بالرملة ورحل إلى دمشق للقاء علمائها وفيها أكب على القراءات والحديث والفقہ ، وتولّى مشيخة الإقراء بالجامع الأموي حتى توفي سنة ٩٢٣ . وظلت القراءات بالشام نشيطة أيام العثمانيين حتى العصر الحديث ، يتجرّد لها العلماء تارة ، وتارة ثانية يجمعون بينها وبين بعض العلوم كالتفسير أو الفقہ أو علوم العربية .

وعلى نحو ما عُنيت الشام بالقراءات عُنيت بتفسير القرآن الكريم ، حتى إذا أخرج الطبري

(٤) راجع في الجعبري ابن الجزري ٢١/١ والدرر رقم ١٣٠ والشذرات ٩٧/٦

(٥) ترجم ابن الجزري لنفسه في كتابه طبقات القراء ٢٤٧/٢ وألحقت بالترجمة زيادة عن سنة وفاته لبعض تلاميذه وانظر الفوائد البهية للكنوي ١٤٠ ودائرة المعارف الإسلامية

(١) انظر في علم الدين السخاوي معجم الأدباء ٦٥/١٥ وابن خلكان ٣٤٠/٣ وإنباء الرواة ٣١١/٢ وطبقات القراء ٥٦٨/١ والسبكي ٢٩٧/٨

(٢) راجع ابن الجزري ٢١١/٢
(٣) انظر في ابن جبارة ابن الجزري ١٢٢/١ والدرر رقم ٦٦٧ والشذرات ٨٧/٦

تفسيره أكبت عليه تدرسه ، ويلقانا لها مفسر مهم هو عبد (١) الله بن عطية الدمشقي المفسر المتوفى سنة ٣٨٣ كان يحفظ الآلاف من أبيات الشعر العربي واستخدمها في تفسيره لمعاني الألفاظ القرآنية . وولتقى بعده بسليم بن أيوب المتوفى سنة ٥٤٧ وله تفسير (٢) للقرآن الكريم . ويلقانا في أيام نور الدين محمد بن ظفر المكي الذي عرضنا له في الحديث عن شعراء الزهد في الجزيرة العربية المتوفى سنة ٥٦٥ استوطن حماة بأخرة من حياته وألف فيها تفسيره المسمى « ينبوع الحياة » (٣) . واستوطن حلب تلميذ من تلامذة الزمخشري هو عالي (٤) بن إبراهيم الغزنوي وأقام بها يدرس ويصنف حتى وفاته سنة ٥٨٢ وفيها ألف تفسيراً كبيراً في مجلدين سماه تفسير التفسير . واستوطن دمشق الصوفي الكبير ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ وله تفسير صوفي لم يتمه وهو مطبوع . وللغزبن عبد السلام الفقيه الشافعي الدمشقي نزيل مصر الذي عرضنا له فيها بين فقهاء الشافعية تفسير بلاغي ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة منه .

ونلتقى في أوائل القرن الثامن بمفسرين كبيرين هما هبة الله بن البارزي وابن تيمية ، أما هبة (٥) الله فكان قاضياً لحماة وإليه انتهت مشيخة المذهب الشافعي بالشام وله شرح على الشاطبية في القراءات ، وله روضات الجنان في تفسير القرآن في عشر مجلدات توفى سنة ٧٣٨ . أما ابن تيمية فقد مر بنا حديث مفصل عنه في الحركة العلمية ، ونعرض هنا منهجه في التفسير القرآني وقد صوره في رسالة عنوانها أصول التفسير ، ومن خلالها أجملناه في مقدمة كتابنا : « سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة » موضحين أنه حمل على الإسرائيليات المدسوسة في التفاسير وعلى المعتزلة والشيعة الباطنية الذين يؤولون ألفاظ القرآن وعباراته كما حمل على المتصوفة في تفاسيرهم من مثل تفسير ابن عربي ، ورأى أن خير طرق التفسير تفسير القرآن بالقرآن فإن لم يف القرآن أحيانا رجع المفسر إلى الحديث النبوي وأقوال الصحابة والتابعين الذين عايشوهم وعرفوا منهم معاني القرآن الكريم . وبعد استيفاء ذلك كله وما يتصل به من إتقان العربية وتعمق علوم الشريعة والوقوف بدقة على دلالات القرآن وحسن تذوقه لخصائصه البلاغية يستطيع المفسر أن يجتهد في التفسير ويستنبط استنباطات سديدة . وطبق منهجه على سورة النور وسورتي المعوذتين القصيرتين

(٤) راجعه في تاج التراجم لابن قطلوبغا ص ٤٩ وبالدباية والنهاية ١١٤/١٣

(٥) انظر في ابن البارزي الدرر ج ٣ رقم ١١٠٣ وطبقات القراء ٣٥١/٢ والشذرات ١١٩/٦

(١) انظر في ابن عطية الدمشقي طبقات المفسرين للسيوطي رقم ٤٣ والنجوم الزاهرة ١٦٥/٤ وبروكلمان ١٥/٤
(٢) خطط الشام لكردي ٤١/٤
(٣) تنمة المختصر لابن الوردي ٨٧/٢

وخصَّ سورة الإخلاص أو التوحيد بكتاب . ويتحول تفسيره للآية الكريمة إلى بحث في مضمونها من خلال القرآن جميعه .

ونهج نهج ابن تيمية في تفسير الذكر الحكيم تلميذه ابن قيم الجوزية على نحو مايتضح في كتابه . « التبيان في أقسام القرآن » وفي تفسيره للمعوذتين . وكان يعاصره السمين^(١) الحلبي أحمد بن يوسف وكان نحويًا مقرئًا ونزل مصر وبها توفي سنة ٧٥٦ وله تفسير ضخيم في عشرين مجلدا ، وكتاب في إعراب القرآن في ثلاثة مجلدات باسم الدر المصون ، وكتاب في أحكام القرآن ، وله شرح على الشاطبية في القراءات ، وشرح ثان على التسهيل لابن مالك في النحو . وولتقى بابن^(٢) كثير أكبر المفسرين الشاميين وأهمهم المتوفى بدمشق سنة ٧٧٤ نشرت تفسيره مطبعة المنار في تسعة أجزاء ، وعداده في التفسير بالمأثور من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين والمفسرين السابقين ، وفيه يقول ابن حجر ناقدا : « لم يكن ابن كثير على طريق المحدثين في تحصيل العوالم وتمييز العالي من النازل ونحو ذلك من فنونهم وإنما هو من محدثي الفقهاء » ويقول الشوكاني مثنيا على تفسيره : « جمع فيه فأوعى ونقل المذاهب والأخبار والآثار وتكلم بأحسن كلام وأنفسه ، وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها » ويصنف العليمي عبد الرحمن بن محمد الحنبلي المتوفى سنة ٩٢٧ للهجرة تفسيرًا للذكر الحكيم ، وتؤلف كتب تفسير أخرى ، ويظل تفسير ابن كثير التفسير المتداول بين علماء الشام إلى العصر الحديث .

وشغلت الشام منذ دخلت في الدين الحنيف بتلاوة الذكر الحكيم وتفسيره كما شغلت بالحديث النبوي مكمل الدين القيم ومبينه وموضح تعاليمه ، وكان أول المحدثين بها صحابة رسول الله ﷺ ، ثم حمله عنهم التابعون يحدثون به الناس من أمثال مكحول^(٣) مفتي الشام ومحدثها المتوفى سنة ١١٨ . وكان يعاصره محمد^(٤) بن شهاب الزهري أول من دون الحديث تدوينا عاما ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق : عليكم بابن شهاب ، فإنكم لا تجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه ، وعاش بعد عمر ثلاثة وعشرين عاما إذ توفي سنة ١٢٤ ويقال إنه روى عن عشرة من

خلكان ٢٨٠/٥ وميزان الاعتدال ١٧٧/٤ وتهذيب التهذيب

٢٨٩/١٠ والشذرات ١٤٦/١

(٤) انظر في الزهري صفة الصفوة ٧٧/٢ وابن خلكان

١٧٧/٤ وميزان الاعتدال ٤٠/٤ وتهذيب التهذيب ٤٤٥/٩

وطبقات القراء ٢٦٢/٢

(١) راجع في السمين الحلبي طبقات القراء ١٥٢/١

والدرر الجزء الأول رقم ٨٤٦ والشذرات ١٧٩/٦

(٢) انظر في ترجمة ابن كثير الدرر ج ١ رقم ٩٤٨

والشذرات ٢٣١/٦ والبلد الطالع ١٥٣/١

(٣) راجع في مكحول حلية الأولياء ١٧٧/٥ وابن

الصحابة لحقهم ، وقد أتاح للشام أن تكون أول جامعة وناشرة للحديث النبوي وكان موظفا لدى الأمويين وعمل قاضيا ليزيد بن عبد الملك ، وعنه حمل الحديث الأوزاعي فقيه الشام المتوفى سنة ١٥٧ وعداده في الفقهاء ، كما حمله الإمام مالك فقيه المدينة والليث بن سعد فقيه مصر وسفيان ابن عيينة وسفيان الثوري فقيها العراق . وعن تلاميذ الزهري والأوزاعي في الشام حمل الحديث هشام ابن عمار مقرئ دمشق ومفتيها الذي مررنا ذكره بين القراء . ومن حمل عنه الحديث القاضي عبد ^(١) الصمد بن عبد الله قاضي دمشق ، وعنه روى الحديث أبو زرعة الدمشقي شيخ الشام في الحديث. وولتقى بخيشمة ^(٢) بن سليمان الطرابلسي أحد الحفاظ الثقات المشهورين المتوفى سنة ٣٤٣ . ولا تلبث بلدة طبرية بالشام أن تقدم سليمان ^(٣) بن أحمد الطبراني المولود سنة ٢٦٠ والمتوفى سنة ٣٦٠ صاحب المعاجم الثلاثة: الكبير والأوسط والصغير، وقد جمع في الكبير أحاديث جميع الصحابة ما عدا أباهريرة إذ أفرد له كتابا خاصا. وكان يعاصره الحسين ^(٤) بن محمد الماسر جيسي الحافظ المتوفى سنة ٣٦٥ أخذ بدمشق عن أصحاب هشام بن عمار، صنّف المسند الكبير مهذباً معللاً في ألف وثلاثمائة جزء ولم يصنّف في الإسلام أكبر من مسنده وجمع حديث ابن شهاب الزهري جمعا لم يسبقه إليه أحد وكان يحفظه مثل الماء. وولتقى بحافظ من صيّداء هو أبو الحسين ^(٥) محمد بن أحمد الغساني المولود سنة ٣٠٥ والمتوفى سنة ٤٠٢ وله مسند على ترتيب أوائل أسماء الرواة. ويلقانا حافظ من صور هو محمد ^(٦) بن علي الصوري المتوفى سنة ٤٤٦ قدم بغداد وأخذ عنه حفاظها الثقات. ويلقانا حافظ بيت المقدس محمد ^(٧) بن طاهر المقدسي المعروف باسم ابن القيسراني المتوفى سنة ٥٠٧ وله مصنفات في الحديث النبوي متعددة، منها: «أطراف الكتب الستة» وهي صحيح البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

- | | |
|--|---|
| (١) راجعه في النجوم الزاهرة ١٩٣/٣ وانظر في أبي زرعة النجوم ٨٧/٣ | (٤) انظر في الماسرخسي النجوم الزاهرة ١١١/٤ |
| (٢) انظر في خيشمة تذكرة الحفاظ للذهبي (طبع حيدر آباد) ٧٥/٣ والشذرات ٣٣٤/٢ | (٥) راجع الغساني في النجوم ٢٣١/٤ وبيروكلمان ٢١٤/٣ |
| (٣) راجع في الطبراني تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢٤٠/٦ وابن خلكان ٢٠٧/٢ والنجوم الزاهرة ٥٩/٤ وعبر الذهبي ٣١٥/٢ | (٦) انظر في الصوري تاريخ بغداد ١٠٣/٣ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٣١١/٣ وبيروكلمان ٢٣١/٣ |
| | (٧) راجع في ابن القيسراني المنتظم ١٧٧/٩ وابن خلكان ٢٨٧/٤ والوفائي للصفدي ١٦٦/٣ وميزان الاعتدال ٥٨٧/٣ وعبر الذهبي ١٤/٤ والشذرات ١٨/٤ |

وينشط المحدثون أيام نور الدين والأيوبيين في مقدمتهم أبو القاسم^(١) بن عساكر المتوفى سنة ٦٧١ وبني له نور الدين دار الحديث النورية بدمشق ، وله في الحديث مصنفات كثيرة مفيدة ، منها « الأطراف » جمع فيه ما اتفق عليه الأئمة الثقات في الحديث ، وله وراء ذلك أعمال كثيرة . وجاء بعده عبد^(٢) الغنى الجماعيلي المتوفى سنة ٦٠٠ وله كتاب في أحاديث الأحكام الشرعية سماه « عمدة الأحكام في معالم الحلال والحرام عن خير الأنام » وكتبت له الأجيال التالية شروحا كثيرة ، وهو صاحب كتاب الكمال في معرفة أسماء الرجال . وكتب له جمال الدين يوسف المزني الآتي ذكره تكملة بعنوان « تهذيب الكمال » وله مختصرات كثيرة . وأكمل التهذيب مغلطاي بعنوان إكمال تهذيب الكمال ، وولتقى بابن^(٣) الصلاح عثمان بن صلاح الدين المتوفى سنة ٦٤٣ وهو حافظ كبير تولى مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق وله كتاب أقصى الأمل والشوق في علوم حديث الرسول ، طبع مرارا بعنوان مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث وله مختصرات كثيرة . وبلغنا محيي الدين النووي الفقيه الكبير المتوفى سنة ٦٧٦ وعداده بين فقهاء الشافعية ، وكان حافظا متقنا ، وله شرح على صحيح مسلم هو أهم شروحه ، وله رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين وكتاب الأذكار المنتخب من كلام سيد الأبرار وله الأربعون النووية وكتاب التقريب في مصطلح الحديث وكتاب تهذيب الأسماء واللغات ، ودرس بدار الحديث الأشرفية في دمشق وغيرها . وكان يعاصر النووي اليونيني على^(٤) بن محمد بن أحمد شرف الدين المتوفى سنة ٧٠١ وله خدمة عظيمة أداها لصحيح البخاري ، إذ حاول أن يخرج من مخطوطاته نسخة في أدق صورة ممكنة لمنفعة المسلمين في العالم الإسلامي ، واختار أصلا لهذا الإخراج نسخة وثيقة كانت موقوفة بمدرسة أقبغا آص بالقاهرة وقابلها في واحد وسبعين مجلسا على أصل مسموع للحافظ أبي ذر الهروي وأصل ثان مسموع للحافظ أبي محمد الأصيلي وأصل ثالث مسموع لأبي القاسم بن عساكر المذكور آنفا وأصل رابع مسموع على الشيخ أبي الوقت بقراءة السمعاني . وكان بجواره في تلك المجالس الإمام النحوي ابن مالك للمراجعة والتصحيح مما جعله فيما بعد يملئ كتابا مستقلا

الحفاظ ١٤٣٠/٤ والسبكي ٣٢٦/٨ والبداية والنهاية

١٦٨/١٣ والشذرات ٢٢١/٥

(٤) راجع اليونيني في الدرر لابن حجر ١٧١/٣ والسلوك

٥٢٤/١ والنجوم الزاهرة ١٩٨/٨ والشذرات ٣/٦

(١) مرت مصادر ترجمته في ص ٥٦٣ .

(٢) راجع في الجماعيل تذكرة الحفاظ ١٦٠/٤ وطبقات

الحفاظ للسيوطي ١٨ وكتابه حسن المحاضرة ٣٥٤/١ والعر

٣١٣/٤

(٣) انظر في ابن الصلاح ابن خلكان ٢٤٣/٣ وتذكرة

بعنوان « شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح » وكان أمام اليوناني في مجالسه المذكورة جمع من طلاب الحديث وعلمائه وفي أيديهم نسخ من صحيح البخارى للمقابلة . واتخذ اليوناني رموزا لرواة تلك النسخ ولرواة آخرين بحيث بلغت رموزه خمسة عشر رمزا . وقد طبعت مطبعة بولاق الكتاب من نسخة فرعية لتلك النسخة اليونانية ، وهي نسخة ابن مالك وعليها شهادة من اليوناني بسماعه النسخة عليه ، وشهادة من ابن مالك بسماعها منه . وهي ذروة في التحقيق لم يبلغها أحد بعد اليوناني ، كما أشرنا إلى ذلك في كتابنا « البحث^(١) الأدبي » .

ومن كبار المحدثين في القرن الثامن الهجري الميزي^(٢) يوسف بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٤٢ وإليه انتهت رئاسة المحدثين بالشام ، ومن تصانيفه تحفة الإشراف بمعرفة الأطراف « طبع في الهند ، وله « تهذيب الكمال » المجمع على أنه لم يصنف مثله . وكان يعاصره الذهبي محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ حافظ الشام وهو مع المزي من مفاخر دمشق في زمنها وله في الحديث تصانيف كثيرة مثل مختصر سنن البيهقي ومختصر الأطراف للمزي والمعجم الكبير والصغير ، وسنعود للحديث عنه بين المؤرخين . ومن محدثي القرن التاسع بدر^(٣) الدين العيني المتوفى سنة ٨٥٥ صاحب كتاب « عمدة القارى في شرح صحيح البخارى » والخيزرى^(٤) الدمشقي محمد بن محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٨٩٤ وله تعليقات على شرح ابن حجر للبخارى المسمى بالفتح البارى . وظل هذا التراث الضخم بأعين المحدثين أيام العثمانيين ، وكان أكثر اهتمامهم بكتب الصحاح الستة وخاصة بشروح ابن حجر والقسطلاني على صحيح البخارى وشرح النووى على صحيح مسلم .

وطبيعى أن يكون الفقه نشيطا في الشام مع الدراسات الدينية السابقة لحاجة أهل الشام إلى الفتوى في القضايا الشرعية وما يعرض لهم منها في حياتهم اليومية ، وفعلا تكوّن للشام إمام أنشأ مذهبا فقهيا ظل فيها طويلا بجوار المذاهب الأربعة المشهورة : مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى

(١) البحث الأدبي (طبع دار المعارف) ص ١٨٦ وما بعدها
 (٢) انظر المزي في الدرر ٢٣٣/٥ والنجوم الزاهرة ٧٦/١٠ وشذرات الذهب ١٣٦/٦ والبداية والنهاية ١٩١/١٤ والسبكي ٣٩٥/١٠ وتاريخ ابن الوردي ٣٣٢/٢ وطبقات الحفاظ للسيوطي ٥١٧ والدارس في أخبار الملهارس ٣٥/١
 وتذكرة الحفاظ ١٤٩٨/٤ والبدر الطالع ٣٥٣/٢
 (٣) انظر في العيني حسن المحاضرة ٤٧٣/١ والفوائد البية ٢٠٧ والضوء اللامع ج ١٠ رقم ٥٤٥ والشذرات ٢٨٦/٧ والبدر الطالع ٣٩٤/٢
 (٤) راجع في الخيزرى الضوء اللامع ج ٩ رقم ٣٠٥

أبو ابن حنبل ونقصد الإمام الأوزاعي^(١) صاحب المذهب المنسوب إليه أصحابه من الأوزاعية ، وقد توفي سنة ١٥٧ للهجرة ، ومولده بعلبك ومنشؤه بيروت ، واتخذها موطنه إلى وفاته ، ويقول السبكي إنه : « لم يكن يلي القضاء بدمشق والخطابة والإمامة - قبل ظهور مذهب الشافعي فيها لأواخر القرن الثالث كما سيتضح عما قليل - إلا أوزاعي على مذهب الإمام الأوزاعي^(٢) . ويذكر المؤرخون أنه ولي القضاء بدمشق يحيى بن حمزة منذ سنة ١٥٤ إلى سنة ١٨٣ ثم وليه بعده ابنه محمد^(٣) إلى سنة ٢٣١ . وأكبر الظن أن كلام السبكي يشملها وأنها كانا يقضيان بين الناس بمذهب الأوزاعي . ويبدو أنه ظل بعدهما من كان يقضى بهذا المذهب ، إذ يذكر ابن تغرى بردى أنه توفي لسنة ٣٤٧ قاضي دمشق أحمد^(٤) بن سليمان بن حذلم الأوزاعي المذهب ، ويقول إنه كان له حلقة بالجامع الأموي وأكبر الظن أنه كان يدرس للناس فيها المذهب . ومعنى ذلك أن مذهب الأوزاعي كان لا يزال حيًّا في دمشق والشام إلى أواسط القرن الرابع الهجري . ومعروف أن الأمويين في أول تأسيس حكمهم بالأندلس كانوا على مذهب الأوزاعي مثل أهل الشام وظلوا عليه إلى أن انتقلوا عنه إلى مذهب مالك في أواخر القرن الثاني للهجرة^(٥) ، وكأنهم كانوا أسبق من أهل الشام انفصالاً عن مذهب الأوزاعي .

وتذكر كتب التراجم والتاريخ أن أبا يوسف تلميذ أبي حنيفة حين ولي قضاء القضاة لعهد الخليفة الرشيد وأصبح هو المسيطر على تولية القضاة في الدولة الإسلامية كان لا يولي قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال أفريقية إلا أصحابه والمنتسبين إلى مذهبه الحنفي ، ونظن ظنا أنه كان يوجد في دمشق أحياناً قاض حنفي بجانب القاضي الأوزاعي ، وربما كانا يتداولان الحكم . ومن تذكرهم كتب التاريخ من قضاة الأحناف قاضي دمشق علي^(٦) بن محمد بن كاس المتوفى سنة ٣٢٥ للهجرة ، ونظن ظنا أن حلب كانت أسرع من دمشق في الانصياع لمذهب أبي حنيفة

(٣) انظر فيه وفي أبيه النجوم الزاهرة ٢/٢٢ ، ١١٣ ، ٢٦٠

(٤) راجع في ابن حذلم النجوم الزاهرة ٣/٣٢٠ وفي السبكي ٣/١٩٦ : ابن خديم

(٥) تاريخ الفكر الأندلسي لبالثيا ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص ٤١٣ ، ٤١٧

(٦) النجوم الزاهرة ٣/٢٦٠

(١) انظر في الأوزاعي الجزء السابع من طبقات ابن سعد والأنساب للسمعاني ٥٣ وابن خلكان ٣/١٢٦ وتاريخ بغداد ١٠/١٩٩ وتذكرة الحفاظ ١/٥٨ وشذرات الذهب ١/١٤١ والنجوم الزاهرة ٢/٣٠ ومحاسن المساعي في مناقب الأوزاعي (طبع القاهرة) صنفه مؤلف مجهول سنة ٨٥٠ وضحي الإسلام ٢/٩٨

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ١/٣٢٦

بحكم قربها أكثر من العراق ، ومثلها في ذلك أنطاكية ، ويلقانا فيها ابن أبي الفهم^(١) التنوخي الأنطاكي المتوفى سنة ٣٤٢ وكان فقيهاً حنفياً بارعاً . وولتقى في حلب بأحمد^(٢) بن يحيى بن زهير الحلبي المتوفى سنة ٤٢٤ وله كتاب ذكر فيه الخلاف بين أبي حنيفة وأصحابه من مثل أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني تلميذه ، وأخذ عن ابن زهير المذهب بحلب جد بني أبي جرادة هبة الله بن أحمد ، وتولى القضاء بمدينته ، وكانت أسرته على ثراء غير قليل فأكبت على المذهب تدرسه وتعمقه منذ هبة الله إلى حفيده عمر بن العديم في القرن السابع كما سنذكر عما قليل .

ونخلص من ذلك إلى أنه كان من الأسباب المهمة في دخول مذهب أبي حنيفة إلى الشام أن كثيرين من القضاة منذ أواخر القرن الثاني كانوا أحنافاً ، فأخذ المذهب يشيع ، وتكاثر طلاب العلم الذين يبغون اعتناقه ، وأخذ يدرسه لهم غير عالم حنفي . ويلقانا المفضل^(٣) بن محمد المعري الحنفي المتوفى سنة ٤٤٤ تلميذ الإمام القدوري الحنفي البغدادي وليّ القضاء بعلبك وناب في القضاء بدمشق ، ومن تصانيفه كتاب في الرد على الإمام الشافعي . ويلقانا البلاساغوني^(٤) محمد بن موسى المتوفى سنة ٥٠٦ مصنف « أصول الفقه » على مذهب أبي حنيفة ، وليّ قضاء بيت المقدس ودمشق مدة . وكان القضاة قبله في الشام شافعية وكذلك كان أئمة الجامع الأموي ، فحاول أن يقيم فيه إماماً حنفياً ، فأغلق أهل دمشق الجامع ولم يملكوه وعُزل وعاد القضاء في دمشق إلى الشافعية .

وكانت قد أخذت المدارس تنشأ بالشام وكانت قد أسست في دمشق - كما مر بنا - المدرسة الصادرة سنة ٤٩١ ويعدُّ ابن شداد من فقهاء حتى سنة ٦٥٨ أحد عشر فقيهاً حنفياً ، وذكر النعيمي بعده فقهاءها إلى نهاية أيام المالك . وقد ذكر ابن شداد بجوارها في دمشق وضواحيها حتى سنة ٦٧٠ أربعاً وثلاثين مدرسة للأحناف ويذكر أسماء فقهاءها حتى سنة ٦٧٠ ويتابع ذلك النعيمي . ويصنع ابن شداد نفس الصنيع بحلب وما أنشئ فيها من مدارس حنفية منذ أسست فيها المدرسة الزجاجية سنة ٥١٦ وكانت حلب قد أقبلت أكثر من دمشق - على المذهب الحنفي من قديم كما مر بنا . واشتهرت فيها أسر بتوارث هذا المذهب مثل أسرة بني العديم ، وعنى نور الدين

(١) النجوم الزاهرة ٣/٣١٠ وتاج التراجم رقم ١٣٥
 (٢) انظر ابن زهير في تاج التراجم رقم ٤١ وقابل بمعجم الأدياء ٥/١٦ وما بعدها .
 (٣) راجع المفضل في النجوم الزاهرة ٥/٥٢ وتاج التراجم رقم ٢٢٤
 (٤) انظر في البلاساغوني النجوم الزاهرة ٥/٢٠٤ والسبكي ١/٣٢٦

بالمذهب وكان حنفياً وأسس له مدرستين : مدرسة بحلب وأخرى بدمشق سميت كل منهما بالمدرسة النورية . ومضى الأيوبيون بعده يعنون بالمذهب ومدارسه ، وكانوا شافعية ، وانفرد من بينهم المعظم عيسى صاحب دمشق (٦١٥ - ٦٢٤ هـ) باعتناقه المذهب الحنفي وتعمقه فيه ، على هدى من أستاذه جمال الدين الحصري^(١) الذي انتهت إليه رئاسة المذهب بدمشق والمتوفى سنة ٦٣٦ وله شرحان على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني : شرح مفصل في ثمان مجلدات سماه التحرير ، وشرح مختصر في مجلدين سماه الوجيز ، ومع إيجازه زاد فيه ١٦٣٠ مسألة مع الإيضاح بالنظائر والشواهد . وشرح أيضا للشيباني كتاب السير الكبير وهو في الأحكام الفقهية المتعلقة بالغزوات والحرب ، وله كتاب في الخلاف بين الشافعية والحنفية ، ودفع المعظم للتعلم في المذهب حتى ألف فيه كتابا^(٢) . وليس ذلك فحسب ، فقد كلف الحصري وفقهاء المذهب بتأليف كتاب جامع فيه ، فألفوا كتابا في عشر مجلدات سموه كتاب التذكرة .

وتُظَلُّ الشَّامُ أَيامُ المَالِيكِ ويقرر الظاهر بيبرس أن لا يُقْتَصَرُ في مصر على قاضٍ شافعي كما كان الشأن منذ عهد صلاح الدين ، بل يشترك معه في القضاء قاض حنفي وقاض مالكي وقاض حنبلي وعمم ذلك في دولته بدمشق وحلب وغيرهما من مدن الشام ، واطرد العمل بذلك إلى أيام العثمانيين ، فكان من الأسباب المهمة في ازدهار المذهب الحنفي بديار الشام بجوار ما كان له من مدارس ، مما دفع إلى حركة علمية نشيطة فيه ، وكان أول من تولى القضاء بدمشق من فقهاء الأحناف حسب قرار بيبرس عبد^(٣) الله بن محمد بن عطا الأذرعى المتوفى سنة ٦٧٣ ، وتوالى القضاء الأحناف فيها بعده ، منهم شمس الدين الأذرعى المتوفى سنة ٧٢٢ ولى قضاء دمشق عشرين سنة ودرّس طويلا بمدارسها الحنفية . وتتكاثر أسماء القضاة والفقهاء الأحناف في كتب التاريخ والتراجم ، وحسبنا أن نعرف أن نشاطا وافرًا أداه فقهاء الأحناف في ديار الشام بالحقب التالية . وظل هذا النشاط أيام العثمانيين ، ولبرهان^(٤) الدين الحلبي المتوفى سنة ٩٥٦ كتاب مَلْتَقَى

(١) راجع في الحصري الفوائد البية في طبقات الحنفية ٨٤ والجواهر المضية لابن أبي الوفا ١٥٥/٢ وتاج التراجم رقم ٢٠٨ والبداية والنهاية ١٥٢/١٣ والنجوم الزاهرة ٢١٣/٦
 (٢) انظر في المعظم عيسى ونشاطه في الفقه الحنفي مختصر
 (٣) انظر في الأذرعى النجوم الزاهرة ٢٤٦/٧ والسلوك للمقریزی ٦١٩/١
 (٤) راجع في برهان الدين دائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة الألمانية) ٤٣٣/٢

الأبجر في فروع الفقه الحنفي ، وقد ترجم قديما إلى التركية والفرنسية . وصنف شمس الدين
الهمرتاشي الغزي المتوفى سنة ١٠٠٤ للهجرة كتاب تنوير الأبصار وجامع البحار في الفقه الحنفي
ومنه ومن شروحه مخطوطات بدار الكتب المصرية .
وكان أقل المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى انتشارا وأتباعا في الشام المذهب المالكي ، ويأخذ
في النشاط هناك متأخرا زمن الدولة الأيوبية ، منذ بنى صلاح الدين بدمشق للمالكية مدرسته
الصلاحية بالقرب من البيمارستان النوري ، ويذكر ابن ترداد من أساتذتها المهمين ابن الحاجب
المتوفى سنة ٦٤٦ وقد مر بنا ذكره بين النحاة وله مختصران نفيسان في الفقه المالكي
وعلم الأصول ، ودرس الفقه المالكي أيضا في زاوية المالكية الملاصقة لغربي الجامع الأموي ،
بناها أيضا للمالكية صلاح الدين . وخلفه في المدرسة الصلاحية عبد (١) السلام الزواوي المتوفى
سنة ٦٨١ وإليه انتهت رئاسة المالكية بالشام ومشيخة القراء ، وكان معمرا ، توفي عن ٩٢ عاما .
ولا يذكر ابن شداد للمالكية وراء المدرسة الصلاحية سوى مدرسة واحدة هي مدرسة الشرايشي في
حين ذكر للحنفية كما أسلفنا أربعة وثلاثين مدرسة . وكان قد انتعش المذهب المالكي كغيره من
المذاهب حين قرر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ إسناد الحكم في بلدان الشام الكبرى : دمشق وغيرها
إلى أربعة قضاة بينهم قاض مالكي ، وكان أول من تولى القضاء المالكي بدمشق حينئذ عبد السلام
الزواوي المذكور آنفا ، وتعاقب بعده القضاة ، كما تعاقب فقهاء المالكية يدرسون للناس
المذهب ، ومن أهمهم عيسى (٢) بن مسعود مدرس الفقه المالكي بالجامع الأموي المتوفى سنة ٧٤٣
وله شرح جيد على مختصر ابن الحاجب ، وشرح المدونة للفقه المالكي . لمصنفها سحنون ناشر
المذهب في الديار المغربية ، وله شرح موسع على صحيح مسلم وكتاب في مناقب مالك ، وإليه
انتهت رئاسة المالكية في الشام . ويلقانا في كتب التراجم كثيرون يتنقلون بين القاهرة ودمشق متولين
لمنصب القضاء المالكي . ويأخذ نشاط المالكية أيام العثمانيين في التضاؤل والشحوب .
وكان أول من أدخل مذهب الشافعي - فيما يبدو - إلى الشام أبو زرعة (٣) بن عثمان الدمشقي
ولى القضاء بالقاهرة ثمانى سنوات ، ثم ولى القضاء بدمشق سنة ٢٩٢ حتى توفي سنة ٣٠٢ ويقول

(٣) راجع أبو زرعة في قضاة دمشق لابن طولون (طبع
دمشق) ٢٢ والبداية والنهاية ١٢٢/١١ والشذرات ٢٣٩/٢ .
والسبكي ١٩٦/٣ وقابل على ٣٢٦/١

(١) راجع في عبد السلام الزواوي النجوم الزاهرة ٣٥٦/٧
وطبقات القراء ٣٨٦/١ والبداية والنهاية ٣٠٠/١٣ والسلوك
٥٤٢/١

(٢) انظر في ابن مسعود الدرر الكامنة لابن حجر ٢٩٠/٣

السبكي في كتابه طبقات الشافعية : لم يل القضاء بعده في الشام إلا شافعي المذهب غير ابن حذلم قاضي الشام فإنه كان أوزاعي المذهب كما مر بنا . ومر بنا أيضا أنه ولي قضاء الشام حتى توفي سنة ٣٢٥ . ويغلب أن يكون هذا شذوذا وأن تكون عبارة السبكي صحيحة ، كما يتضح ذلك لمن يرجع إلى كتاب قضاة دمشق لابن طولون . ومنهم عبد (١) الله بن محمد القزويني قاضي الرملة المتوفى سنة ٣١٥ والحسين (٢) بن أبي زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٢٧ وكان قاضيا لدمشق في زمن الإخشيد ، وأبو (٣) يحيى البلخي زكريا بن أحمد المتوفى سنة ٣٣٠ وكان مثل سابقه قاضيا لدمشق . ومنهم أيضا أيام الفاطميين أبو بكر الميائنجي قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٧٥ . ويبدو أنه تجرد في القرن الرابع فقهاء شافعية لعرض المذهب الشافعي ودراسته في مدن الشام الكبرى ، إذ نجد عبد المنعم بن غلبون الحلبي المتوفى سنة ٣٨٩ مقرئ حلب يسلكه السبكي بين فقهاء الشافعية ، ويقول إنه تلقن المذهب على الحصائري (٤) الحسن بن حبيب الدمشقي إمام مسجد باب الجابية بدمشق المتوفى سنة ٣٣٨ ، ويلقانا في القرن الخامس فقيه شافعي هو أبو (٥) الخير المروزي يستوطن المعرة سنة ٤١٨ ويدرس بها للطلاب حتى وفاته سنة ٤٤٧ وله كتاب في فقه الشافعي يسمى الذخيرة حمله عنه طلابه . وولتقى من قضاة دمشق بأبي المظفر عبد (٦) الجليل بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٧٩ وكان يعاصره نصر (٧) بن إبراهيم المقدسي المتوفى سنة ٤٩٠ تفقه على الفقيه سليم بصور ودرس فيها عشر سنوات ثم انتقل إلى دمشق يدرس ويفتي ويحدث . وكان قد نزل بصوامع بيت المقدس ودمشق الإمام الغزالي منذ سنة ٤٨٨ وله ثلاثة كتب في الفقه الشافعي : البسيط والوسيط والوجيز ، وشُغف بها الشافعية منذ زمنه في الشام وغير الشام .

ويدخل مذهب الشافعي في مرحلة كبرى جديدة ينتشر فيها بالشام أوسع انتشار ، ونقصد مرحلة تأسيس مدارس الشافعية منذ تأسيس المدرسة الأمينية في سنة ٥١٤ ويعد ابن شداد في

-
- | | |
|---|---|
| (١) انظر قضاة دمشق ٢٦ والبداية والنهاية ١١/١٥٧ | (٥) انظر أبا الخير في السبكي ٤/٢٩٩ |
| والعبر ٢/١٦٢ والسبكي ٣/٣٢٠ | (٦) راجع في أبي المظفر قضاة دمشق ٤٢ والسبكي ١٠٠/٥ |
| (٢) راجع الحسين في السبكي ٣/٢٨١ وقضاة دمشق ٢٧ | (٧) انظر نصر بن إبراهيم في تهذيب الأسماء واللغات ٢/١٢٥ والسبكي ٥/٣٥١ والعبر ٣/٣٢٩ ومرآة الجنان ٣/١٥٢ والنجوم الزاهرة ٥/١٦٠ والشذرات ٣/٣٩٥ |
| (٣) انظر البلخي في قضاة دمشق ٢٨ والسبكي ٣/٢٩٨ والشذرات ٢/٣٢٦ والعبر ٢/٢٢٢ | (٤) راجع في الحصائري السبكي ٣/٢٥٥ وقارن مع ابن غلبون في السبكي ٣/٣٣٨ |

كتابه « الأعلاق الخطيرة » من مدرسى هذه المدرسة حتى زمن تأليفه لكتابه حوالى سنة ٦٧٠ عشرة من كبار فقهاء الشافعية ، ولاتتجاوز مدارس الشافعية بدمشق حتى عهد نور الدين عد أصابع اليد الواحدة ، حتى إذا خلص الأمر لصلاح الدين والأيوبيين - وكانوا شافعية إلا ما كان من اعتناق المعظم عيسى للمذهب الحنفى - ازدهر المذهب الشافعى منذ هذا التاريخ ، وقد جعل صلاح الدين قاضى القضاة بدمشق شافعيًا ، وبلغت مدارس الشافعية - كما أحصاها ابن شداد - أربعين مدرسة حتى أيامه . وإذا تصورنا أن المدرسين النابيين لكل مدرسة من هذه المدارس بلغوا حتى زمنه فى المتوسط أربعة من المدرسين يكون معنى ذلك أن المذهب الشافعى حظى حتى أواخر القرن السابع الهجرى فى دمشق وحدها بما لا يقل عن مائة وستين فقيها نابيا ، واطرد العمل بذلك فى هذه المدارس بدمشق وفيما أحصاه بعدها النعمى فى كتابه « الدارس » وأيضا فيما قابلها من مدارس للشافعية فى حلب وغيرها من بلدان الشام الكبرى .

ومن المؤكد أن قرار الظاهر بيبرس بأن يكون للمذاهب الكبرى بجانب مذهب الشافعى قاض لم يحدث أثرا عكسيا فى المذهب كما كان يُظنّ ، إذ كان زمام القضاء فى أيام الأيوبيين بيد الشافعية وحدهم ، بل ظل للمذهب ازدهاره ، وظل له الجمهور الأكبر من الناس والفقهاء فى الشام ، ونكتفى بالوقوف عند بعض مشهورهم ، فمنهم ابن ^(١) أبو عصرون قاضى القضاة بدمشق لعهد صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٥ وبنى له قبل ذلك نور الدين المدارس بحلب وحماة وحمص وبعليك ، وبنى هو لنفسه مدرستين بحلب ودمشق ، ويقول السبكي عنه : ملأ البلاد تصانيف وتلامذة ، ويذكر من تصانيفه « صفوة المذهب » فى سبع مجلدات وكتاب الانتصار فى أربع مجلدات وكتاب المرشد فى مجلدين وكتاب الذريعة فى معرفة الشريعة ، إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . ومن كبار فقهاء الشام بعده العزبن عبد السلام ، ذكرناه بين فقهاء الشافعية بمصر ، إذ استوطنها حتى وفاته .

وفى رأينا أن أعظم فقيه شافعى أنجبته الشام هو محيى الدين النووى ^(٢) المتوفى سنة ٦٧٦ عن

(٢) راجع فى النووى السبكي ٣٩٥/٨ والبداية والنهاية ٢٧٨/١٣ وتذكرة الحفاظ ١٤٧٠/٤ والنجوم الزاهرة ٢٧٨/٧ والعبر ٣١٢/٥ وشذرات الذهب ٣٥٤/٥ والسلوك ٦٤٨/١ والدارس فى أخبار المدارس ٢٤/١

(١) انظر فى ابن أبي عصرون خريدة القصر (قسم شعراء الشام) ٣٥١/٢ وابن خلكان ٥٣/٣ والسبكي ١٣٢/٥ ونكت المميان ١٨٦ وطبقات القراء ٤٥٥/١ والعبر ٢٥٦/٤ والنجوم الزاهرة ١٠٩/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٥٧/٤ والبداية والنهاية ٣٣٣/١٢ والشذرات ٢٨٣/٤

خمسة وأربعين عاما ، ومر بنا ذكره بين المحدثين ، وكان إماما مجتهدا واسمه يتردد في كتب الفقه الشافعي بعده وكذلك آراؤه ، ومن أهم مصنفاته في فقه الشافعية منهاج الطالبين لخص به كتاب المحرر للرافعي القزويني ، واختصر منهاج فيما بعد الشيخ زكريا الأنصاري ، وسمى مختصره المنهج ، وصنف النووي في فتاويه الفقهية كتابين : كبير وصغير . ومن فقهاء الشافعية الكبار في زمنه وبعد زمنه علاء^(١) الدين الباجي المتوفى سنة ٧١٤ وكمال الدين محمد الزملاكاني حفيد عبد الواحد الذي ذكرناه بين البلاغيين توفى سنة ٧٢٧ . وتفويض كتب التراجم والتاريخ بأسماء جلّة من هؤلاء الفقهاء ، ولا بد أن نلاحظ أن كثيرين من فقهاء الشافعية الكبار بمصر كانوا ينزلون في الشام مثل تقي الدين السبكي قاضي قضاة الشام وابنه تاج الدين عبد الوهاب خطيب الجامع الأموي مؤلف طبقات الشافعية ، ويظل المذهب الشافعي مزدهرا بالشام أيام المماليك والعثمانيين .

وكان المذهب الحنبلي في الشام أقل أشياعا وأنصارا من المذهب الشافعي والحنفي ، ومن أوائل من أدخلوه إلى دمشق والشام علم من أعلام المذهب الحنبلي هو أبو القاسم الخرققي عمر^(٢) بن الحسين المتوفى بدمشق سنة ٣٣٤ وكان قد استوطنها بأخرة من عمره ودرس المذهب فيها ، وله كتاب دوت شهرته هو « المختصر » في الفقه الحنبلي ، ظل طلاب المذهب يعتمدون عليه طويلا ، ويقال إن عدد مسائله بلغ ٢٣٠٠ مسألة . وظل المذهب لا يتعش في ديار الشام حتى قبض له في القرن الخامس أبو الفرج^(٣) الشيرازي المقدسي الدمشقي المتوفى سنة ٤٨٦ وكان قد تفقه في بغداد على أبي يعلى صاحب طبقات الحنابلة ، وقدم الشام فسكن بيت المقدس ونشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل فيما حوله من بلدان فلسطين ، ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها وأخذ ينشر المذهب حتى أصبح له أتباع وتلامذة كثيرون لا في دمشق فحسب بل أيضا في بيت المقدس وغيرها من بلدان الشام ، وله تصانيف عدة في الفقه الحنبلي والأصول ، منها : المبهج والإيضاح ، ومختصر في الحدود وفي أصول الفقه ، والتبصرة في أصول الدين ، وله كتاب الجواهر في التفسير ثلاثون

(١) انظر في علاء الدين الباجي الدرر الكامنة ١٧٦/٣ الحنابلة لابن أبي يعلى ٣٣١ والأنساب للسمعاني ١٩٥ وابن طبقات الشافعية للسبكي ٣٣٩/١٠ وفوات الوفيات ١٥٠/٢ وحسن المحاضرة ٥٤٤/١ والشنرات ٣٤/٦
(٢) انظر في الخرققي تاريخ بغداد ٢٣٤/١١ وطبقات خلكان ٤٤١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٨٩/٣
(٣) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (طبعة دمشق) ٨٥/١ وما بعدها

مجلدا . وكان يعاصره الفقيه الحنبلي عبد^(١) الوهاب بن طالب التميمي نزيل دمشق وإمام مسجد الريحان .

وخلف أبا الفرج الشيرازي على المذهب ابنه عبد الوهاب المتوفى سنة ٥٣٦ وتخرج من بيته فقهاء حنابلة كثيرون ، ويعرفون في دمشق والشام ببيت ابن الحنبلي ، ولعبد الوهاب مثل أبيه تصانيف في الفقه الحنبلي والأصول ، منها المنتخب في الفقه الحنبلي في مجلدين والبرهان في أصول الدين . ولعبد الوهاب على المذهب في الشام يد سابعة ، فقد بنى له بدمشق مدرسة تعرف بالمدرسة الحنبيلة ، ويذكر ابن شداد أساتذتها من الحنابلة الفقهاء حتى أيام تأليف كتابه « الأعلاق الخطيرة » بعد سنة ٦٧٠ . ويذكر بدمشق معها تسعة مدارس أخرى للحنابلة بُنيت بعدها حتى زمن ابن شداد . ونشط بناء المدارس الحنبلية في بيت المقدس وظل بعد ابن شداد على نحو ما يصوره ذلك النعيمي في كتابه « المدارس في تاريخ المدارس » . وكان مما ضاعف نشاط هذا المذهب قرار الظاهر بيبرس أن يكون للحنابلة في ديار الشام - كما في ديار مصر - قاض في كل بلد كبير بجانب قضاة الحنفية والمالكية والشافعية . ويتضح هذا النشاط وتتضح معه كثرة الفقهاء من الحنابلة منذ أيام الأيوبيين ، ومن كبارهم حينئذ موفق^(٢) الدين بن قدامة الجماعلي المقدسي عبد الله بن أحمد المتوفى بدمشق سنة ٦٢٠ وهو من أئمة المذهب ، وله كتب كثيرة في الفقه الحنبلي وأصوله وأصول الدين ، منها المغني شرح به مختصر الخرقى المار ذكره في عشر مجلدات ، وهو مطبوع ، والكافي في أربع مجلدات ، وله في أصول الفقه كتاب روضة الناظر ، وفي أصول الدين كتاب الاعتقاد . ويلقانا بعده فقهاء كثيرون من بيته يتردد ذكرهم طوال القرنين السابع والثامن . ومانكاد نبلغ نهاية القرن السابع أيام الماليك حتى يتألق في المذهب اسم الإمام ابن^(٣) تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ وقد صورنا جانبا من تحرره الفكري واجتهاده في غير هذا الموضع ، ومربنا حديثنا عن منهجه في التفسير القرآني ، وله عشرات الرسائل والكتب في المسائل التشريعية والعقيدية ، ويقول الذهبي في تذكرة الحفاظ إن مصنفاته التي سارت بها الركبان نحو ثلاثمائة مجلد ، ومن أهم كتبه الفقهية فتاويه وهي مطبوعة قديما في خمسة مجلدات كبار . ومن أعلام الفقهاء الحنابلة بعده تلميذه ابن قيم الجوزية المذكور بين البلاغيين وهو حامل فقهه وعلمه وناشرهما في الناس وأضاف

(١) ابن رجب ٩٦/١

٢٥٦/٦

(٢) راجع في ابن قدامة ابن رجب ١٧٠/٢ والبداية

(٣) مرت مصادر ابن تيمية في الحركة العلمية ص ٥٥١ .

والنهارية ٩٩/١٣ والشذرات ٨٨/٥ والنجوم الزاهرة

إليها كثيرا من روائع الكتب ، مع نزعة صوفية قوية فيه . وتصدى في دمشق بعد أستاذه للإقراء والإفتاء وصنّف كثيرا في الفقه والتفسير والحديث والأصول والفروع ، ومن تصانيفه إعلام الموقعين وشرح منازل السائرين ، والصواعق المرسلّة على الجهمية والمعطلة ، وطرق السعادتين ، ويقول ابن حجر في الدرر : هو طويل النفس في كتاباته يحاول الإيضاح جهده فيسهب جدا ، ويقول الشوكاني في البدر الطالع : « له من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة وحسن السياق مالا يقدر عليه غالب المصنفين بحيث تعشق الأفهام كلامه وتميل إليه الأذهان وتحبه القلوب » . ويزخر كتاب النجوم الزاهرة بأسماء فقهاء الحنابلة وقضاتهم بدمشق وغيرها حتى نهاية زمن تأليفه سنة ٨٧٢ . ويلقانا بأخره من أيام المماليك مجير الدين العليمي عبد الرحمن بن محمد قاضي بيت المقدس المتوفى سنة ٩٢٧ وله كتاب في طبقات الحنابلة سماه « المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد » . ويظل للفقهاء الحنابلة نشاطهم أيام العثمانيين مثلهم في ذلك مثل بقية أصحاب المذاهب الثلاثة الأخرى .

ومنذ ظهرت المذاهب الفقهية والكلامية والجدل يتحدث بين أصحابها ، مما أتاح مبكرا لنشأة علم الجدل وما تبعه من نشأة علم آداب البحث والمناظرة ، ويكثر التأليف فيها لهذا العصر كما يكثر التأليف في علم الأصول الذي وضعه الإمام الشافعي وفاق الأولين والآخرين فيه الآمدى الذي سنلم به في حديثنا عن علم الكلام بجزء مصر ، وكان قد نزل مصر ثم استوطن حماة حتى وفاته سنة ٦٣١ ، وكتابه « الإحكام في أصول الأحكام » ربما كان أروع كتاب في علم الأصول على مدى الأزمنة الماضية . والشام - مثل مصر - انصرفت عن الاعتزال وعن الفرق الكلامية الكثيرة التي نشأت في بغداد ، حتى إذا ظهر الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ وانضم تحت لوائه شافعية خراسان انضم مثلهم شافعية الشام ومصر بحيث تعانق المذهبان . الشافعي والأشعري في كل مكان . ولم يلبث أن خصمها الحنابلة الآخذون بظاهر الكتاب والسنة ، واستمر هذا الخصام على مدار السنين في أزمنة الأيوبيين والمماليك . ومن حين إلى آخر يتوقف السبكي في طبقاته ليصور تعصب بعض الحنابلة ضد الأشاعرة وخاصة أستاذه الذهبي ، فقد كان يتعصب تعصبا شديدا ضدهم على نحو ما سنعرض ذلك في غير هذا الموضوع . وفي الوقت نفسه يشيد بفقهاء الشافعية الذين يردون على خصوم الأشعرية ، على نحو ما أشاد بفخر الدين بن عساكر في رده المفتح على الحسن بن علي الأهوازي المار بين القراء في كتابه « تبين كذب المفترى فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري » . ويشيد السبكي

بصفي^(١) الدين بن الهندي المتوفى بدمشق سنة ٧١٥ لقيامه بنصرة المذهب الأشعري ، ويقول : إنه كان من أعلم الناس بمذهبه وأدراهم بأسراره ، ويذكر من تصانيفه في نصرة المذهب كتابه « زبدة الكلام » ويذكر له بجواره كتابا في الأصول هو « نهاية الوصول في دراية الأصول » .. وظلت نصرة الشافعية لمذهب الأشعري على مدار السنين في أيام المماليك والعثمانيين .

٥

التاريخ

نشطت دمشق والشام في كتابة التاريخ بجميع صورته من السير المفردة وتاريخ المدن وتاريخ الدول أو دولة معينة والتراجم أو كتب الطبقات . ونبدأ حديثنا بالسير المفردة ، وأولها سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الزكية ، وأول شامى ندب نفسه للكتابة فيها أبو^(٢) زرعة عبد الرحمن بن عمرو شيخ الشام المتوفى سنة ٢٨٢ وله بجانبها كتاب عن تاريخ الخلفاء الراشدين ، سقط مثل السيرة النبوية من يد الزمن . وعنى بعض الشاميين بالكتابة فيها ولم تصلنا كتاباتهم ، مثل السيرة النبوية لابن أبي طى المتوفى سنة ٦٣٠ . وولتقى في أيام العثمانيين بشمس الدين الدمشقي محمد^(٣) بن يوسف المتوفى سنة ٩٤٢ وله سيرة نبوية تسمى السيرة الشامية جمعها من نحو ٣٠٠ كتاب ، وتعنى مصر بإخراجها الآن . وصنّف نور الدين الحلبي المولود بمصر السيرة الحلبية ، ومر ذكرها في حديثنا عن التاريخ بقسم مصر ، وهى مطبوعة . وولتقى بثلاث سير أو تراجم شخصية صور أصحابها فيها حياتهم ، وأول ما يلقانا منها كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وهو يصور فيها حياة الشاميين وحملة الصليب لزمه ، نشرها فيليب حتى وكان قد نشرها قبله ديرنبورج . ولأبي شامة المقدسى المتوفى سنة ٦٦٥ ترجمة شخصية بقلمه أودعها كتابه « ذيل الروضتين » وبالمثل لابن طولون الصالحى المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ ترجمة شخصية بعنوان « الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون » وهى مطبوعة بدمشق .

١٢٨/١ وتاريخ ابن عساكر ٢٧٤/٧ وابن حجر فى التهذيب

٥٥/٢ . وراجع بروكلمان ٢١/٣

(٣) انظر فى شمس الدين الشفراء ٢٤٩/٨

(١) راجع فى صفى الدين طبقات السبكي ١٦٢/٩

والواقى بالوفيات ٢٣٩/٣ والدرر لابن حجر ١٣٢/٤ ومراة

الجنان ٢٧٢/٤ والشذرات ٣٧/٦ والبدر الطالع ١٨٧/٢

(٢) انظر فى أبى زرعة النجوم الزاهرة ٨٧/٣ وقارن بالجزء

وشغل صلاح الدين بسيرته المؤرخين ، وأولهم العماد الأصبهاني وفيه ألف كتابه « البرق الشامي » ذكر فيه أخبار صلاح الدين وفتوحاته وأحداث الشام في عهده ، وهو في سبع مجلدات . ويتصل بهذه السيرة كتابه « الفيح القُسيّ في الفتح القدسي » صوّر فيه فتح صلاح الدين للقدس تصويراً أدبياً بديعاً . وصنّف بهاء^(١) الدين بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ سيرة لصلاح الدين بعنوان : « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » اعتمد فيها على السيرة الصلاحية لأبن أبي طى . ولابن عنين الشاعر المتوفى سنة ٦٣٠ سيرة^(٢) للملك العزيز سماها التاريخ العزيزى : وكتب أحد أولاد الناصر داود بن عيسى بن الملك العادل سيرة له باسم « الفوائد^(٣) الجليلة في الفرائد الناصرية » . وللنووى المذكور بين الفقهاء كتاب في سيرة الإمام الشافعى ، ولابن عرشاه^(٤) الدمشقى المتوفى سنة ٨٥٤ سيرة مفصلة لتيمورلنك تعقب فيها مولده ونشأته وملكه ودولته ومن خلفوه حتى سنة ٨٤٠ وسمى هذه السيرة « عجائب المقدور في نواب تيمور » مصوراً إفساده في الأرض وإهلاكه الحرث والنسل وما ارتكب من الفظائع ، غير أنه كتبها بأسلوب مسجوع شديد التكلف ، ونزل مصر بأخرة من عمره في عهد السلطان جقمق وكتب سيرته بعنوان « التأليف الطاهر في شيم الملك الظاهر » . ولبدر الدين العيني المار ذكره كتاب السيف المهند في سيرة السلطان المؤيد ، ولبدر الدين محمد^(٥) بن أبي بكر الدمشقى المتوفى سنة ٨٧٤ سيران : سيرة لنور الدين ، والسيرة الثانية للسلطان قايتباى . وله سير كثيرة في العصر . ولابن طولون الذى ذكرناه آنفاً بين الجغرافيين سيرة لابن العربى المتصوف . وصنف شمس الدين الدمشقى المار ذكره سيرة لأبى حنيفة ، ومنها مخطوطة في دار الكتب المصرية . ولمحمد بن يحيى الحنبلى سيرة صنّفها عن عبد القادر الجبلانى المتصوف ، وهى مطبوعة ، ولمرعى^(٦) بن يوسف الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ سيرة صنّفها في مناقب ابن تيمية .

هذا بعض ما صادفنا من كتب السير المفردة ، أما كتب تاريخ المدن فقد عرضنا طائفة منها في

-
- | | |
|---|--|
| ٢٩٨ | (١) راجع بهاء الدين فى ابن خلكان ٨٤/٧ والسبكى |
| (٣) بروكلمان (الطبعة العربية) ١٨/٦ | ٣٦٠/٨ وتاريخ ابن الوردى ١٦٠/٢ وتذكرة الحفاظ |
| (٤) انظر مصادر ترجمة ابن عرشاه فى ص ٨٢٩ | ١٤٥٩/٤ وطبقات القراء ٣٩٥/٢ والبدابة والنهاية |
| (٥) راجع ترجمته فى الضوء اللامع ١٥٦/٧ | ١٤٣/١٣ والمختصر لأبى الفدا ١٥٦/٣ والنجوم الزاهرة |
| (٦) انظر فى مرعى الكرمى خلاصة الأثر ٣٥٨/٤ | ٢٩٢/٦ والشذرات ١٥٨/٥ |
| | (٢) انظر كشف الظنون لحاجى خليفة (الطبعة الثانية) |

حديثنا عن علم الجغرافيا وخاصة ما اتصل منها بفضائل دمشق والشام وبيت المقدس ، ونبسط الكلام في كتابين ذكرناهما هناك ، أما أولهما فتاريخ مدينة دمشق للإمام الحافظ ابن عساكر على بن الحسن المتوفى سنة ٥٧١ ويقال إنه في ثمانين مجلدا بدأه بالحديث عن فضائل الشام وفتوحها وخططها ومساجدها وكنائسها ودورها ثم ترجم لكل من دخل دمشق والشام منذ الجاهلية إلى زمنه من الأنبياء والخلفاء والولاة والفقهاء والقضاة والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب . وهذبه بحذف الأسانيد عبد القادر بن أحمد بن بدران ، ونشر من تهذيبه سبعة « مجلدات » حتى ترجمة عبد الله بن سيار ، وقلما يذكر في المراجع باسم تهذيب تاريخ ابن عساكر ، بل يقال مباشرة تاريخ ابن عساكر . والكتاب الثاني الذي سبق أن عرضنا له ونرى الوقوف عنده كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن شداد ، وهو يذكر خططها ثم يسهب في ذكر الجامع الأموي وذكر مساجدها حتى زمنه ، ويتحدث عن مزاراتها في باطنها وظاهرها وخوانقها وربطها ومدارسها الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وكنائسها ودياراتها وحماماتها ومأمذحت به نثرا وشعرا ، وهو بذلك تاريخ اجتماعي ثقافي حضاري . وقد عني ابن شداد بحلب كما عني بدمشق . ولعل أهم كتاب عني بها قبله كتاب « بغية الطلب في تاريخ حلب » لابن العديم ^(١) عمر بن أحمد المتوفى سنة ٦٦٠ صنفه في عشر مجلدات أرخ فيها لعلمائها وأدبائها على الترتيب الأبجدي وجعل له تاريخا لحلب على السنين في كتابه : « زبدة الحلب من تاريخ حلب » وصل به إلى نهاية أيام نور الدين محمود سنة ٥٦٩ حققه ونشره الدكتور سامي الدهان بدمشق . ولا ابن خطيب ^(٢) الناصرية على بن محمد المتوفى سنة ٨٤٣ تنمة لبغية الطلب في مجلدات سماها « الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب » وأكماله محمد بن محمد بن الشحنة المتوفى سنة ٨٩٠ وسمى تكملة « نزهة النواظر » . وعني بكل ذلك أيام العثمانيين ابن ^(٣) الحنبلي محمد بن إبراهيم الحلبي المتوفى سنة ٩٧١ وصنف كتابه « الزبد والضرب (عسل النحل) في تاريخ حلب » مع تكملة إلى سنة ٩٥١ . ولجير الدين العليمي المتوفى سنة ٩٢٧ كتاب الأئیس الجليل في تاريخ القدس والخليل مطبوع . ومن يرجع إلى كتاب « الإعلان بالتويخ لمن ذم التاريخ » سيجد بلدان الشام مع من كتبوا تاريخها تتعاقب ، تُذكرُ أولا حلب ثم حمص فالخليل فداريا ضاحية لدمشق فدمشق فصفد فصور فطرابلس فعسقلان ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه لم تبق بلدة

(٢) راجع ابن خطيب الناصرية في الضوء اللامع ج ٥

رقم ١٠١٦ والشذرات ٢٤٧/٧

(٣) انظر ابن الحنبلي في الشذرات ٦٦٥/٨

(١) انظر في ابن العديم معجم الأدباء ٥/١٦ وفوات

الوفيات ٢٠٠/٢ والشذرات ٣٠٣/٥ وتاج التراجم ص ٤٨

ومقدمة الدكتور سامي الدهان لكتابه: زبدة الحلب

في الشام إلا مجرد عالم لكتابة تاريخها ومنها ماوصلنا ومنها ما لم يصلنا وضاع مع الأيام .
 ونترك تاريخ البلدان إلى التاريخ العام ، وأول مايلقانا فيه ابن القلانسي حمزة^(١) بن أسد
 المتوفى سنة ٥٥٥ وله تاريخ للحوادث على السنين سماه تاريخ دمشق ذيل به على كتاب التاريخ
 لهلل الصابي ابتداءً به كما يقول ياقوت من سنة ٤٤١ إلى حين وفاته سنة ٥٥٥ . وكان يعاصره
 العظيمي^(٢) الحلبي المتوفى بعد سنة ٥٥٦ ، ولمحمد بن عمر بن شاهنشاه كتاب عن حياة وتاريخها
 وله أيضا تاريخ على السنين . وجاء بعدهما ابن أبي الدم^(٣) الحموي قاضي حياة المتوفى سنة ٦٤٢
 وله التاريخ المظفرى وهو تاريخ عام في ستة مجلدات حتى سنة ٦٢٧ ، وسبط ابن الجوزى الحنفى
 المولود ببغداد والمستوطن لدمشق منذ مطلع القرن السابع حتى وفاته سنة ٦٥٤ وله كتاب مرآة
 الزمان في تاريخ الأعيان بدأ به من أول الخليفة ورتبه منذ الهجرة النبوية على السنين حتى سنة
 وفاته ، وفيه يذكر الحوادث ثم الوفيات في كل سنة ، وكان في أربعين مجلدا ، ونُشر منه في حيدر
 آباد قسمان من الجزء الثامن على نحو ما أوضحنا ذلك في حديثنا عن المؤرخين بالعراق في الجزء
 السالف . ولموسى^(٤) بن محمد اليونيني البعلبكي المتوفى سنة ٧٢٦ مختصر للمرأة في نحو النصف مع
 ذيل في أربعة مجلدات يتناول أولها مصر وسوريا من سنة ٦٥٨ إلى سنة ٦٧٤ . ويلقانا مؤرخ كبير
 هو أبو الفدا صاحب حياة المتوفى سنة ٧٣٢ وقد ذكرناه بين الجغرافيين وله كتاب المختصر في أخبار
 البشر ، وزعه على قسمين : قسم عن الجاهلية والديانات والأنبياء وقسم عن الإسلام حتى سنة
 ٧٢٩ وهو تاريخ نفيس ترجمه المستشرقون قديما إلى اللاتينية . وصنف عمر بن المظفر بن الوردى
 المتوفى سنة ٧٤٩ تكملة له حتى أيامه سماها «تمة المختصر» طبعت مثل أصلها مرارا .
 ونلتقى بالذهبي^(٥) محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ وله تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير
 الأعلام في ١٢ مجلدا رتبه على السنين جامعا فيه بين الأحداث والوفيات . ونقد السبكي تلميذه في

(٤) راجع موسى في الدرر ١٥٣/٥ والشذرات ٧٣/٦
 والبداية والنهاية ١٢٦/١٤
 (٥) انظر في الذهبي الدرر ٤٢٦/٣ ونكت الهميان ٢٤١
 ووفيات الوفيات ٣٧٠/٢ والبداية والنهاية ٢٢٥/١٤ وتاريخ
 ابن الوردى ٣٤٩/٢ وطبقات القراء ٧١/٢ ومرآة الجنان
 ٣٣١/٤ والسبكي ١٠٠/٩ والوفى بالوفيات ١٦٣/٢
 والنجوم للزاهرة ١٨٢/١٠ والشذرات ١٥٣/٦ والبدر
 الطالع ١١٠/٢

(١) راجع في ابن القلانسي تاريخ دمشق لابن عساكر
 ٤٣٩/٤ ومعجم الأدباء ٢٧٨/١٠ والنجوم الزاهرة ٣٣٢/٥
 والشذرات ١٧٤/٤
 (٢) انظر في العظيمي بروكلمان (الترجمة العربية) ١٣١/٦
 (٣) راجع في ابن أبي الدم : السبكي ١١٥/٨ وتاريخ
 ابن الوردى ١٧٥/٢ والشذرات ٢١٣/٥ والمختصر لأبي الفدا
 ١٨٢/٣

طبقاته موقفه من الأشعرية ، وأنه لم يقف على الحياد في عرضه لهم وللصوفية أيضا . وكان الحنابلة يخاصمون الطائفتين ولذلك يصبّ عليهم جميعا جام غضبه ، إذ كان حنبليا متعصبا لأصحاب مذهبه ، حتى ليقول السبكي أنه كان إذا ترجم واحدا من الحنابلة يطنب في وصفه بجميع ما قيل فيه من المحاسن ، ويتغافل عن غلطاته ويتأول له ما أمكن ، وإذا ترجم أحدا من الأشعرية كالإمام الحرمين الجويني والغزالي وأمثالها لا يبالغ في وصفه ويكثر من قول مَنْ طعن فيه ، ويعيد ذلك ويبيده^(١) . وكان ينبغي أن يكون منصفًا في تاريخه وتراجمه فيه بريئا من العصبية في المذهب ، ويقول السبكي : « هذا وهو الحافظ المدره والإمام المبجل فما بالك بعوام المؤرخين » . وللذهبي تاريخ عام في مجلدين ، وهو مختصر لتاريخه الكبير ، رتبته على السنوات وذكر فيه الأحداث والوفيات ، سماه « العبر في خبر من غبر » وذكره يتردد في الهوامش .

وكان يعاصر الذهبي أبو بكر بن عبد الله بن أيك الدوادار صاحب صرخد ، وله كتر الدرر وجامع الثغر ، ألفه للناصر بن قلاوون وهو في تسعة أجزاء أولها في بدء الخلق وثانيها في الأمم القديمة وثالثها في السيرة النبوية والخلفاء الراشدين ، والرابع في الدولة الأموية ، والخامس في الدولة العباسية ، والسادس في الدولة الفاطمية ، والسابع في الدولة الأيوبية ، والثامن في دولة المماليك البحرية ، والتاسع في دولة الناصر بن قلاوون ، منه نسخة بدار الكتب المصرية وهو كتاب نفيس جدير بالنشر . وولتقى بابن كثير الذي مر ذكره بين المفسرين المتوفى سنة ٧٧٤ وله البداية والنهاية ، وهو في التاريخ العام ، عُنِيَ فيه بالسيرة النبوية مميزا بين الوثيق والمتهم في الأخبار ، ومضى فيه يجمع بين الأحداث والوفيات على مر السنين حتى سنة ٧٦٧ للهجرة . وجاء بعده زين الدين بن الشحنة^(٢) الحلبي المتوفى سنة ٨١٥ وله في التاريخ العام « روض المناظر في علم الأوائل والأواخر » انتهى فيه إلى سنة ٨٠٧ وهو مجلد واحد طبع قديما على هامش الكامل لابن الأثير . وولتقى بعده بيدر الدين العيني الذي مر ذكره بين المحدثين المتوفى سنة ٨٥٥ نشأ بحلب وتفقه على أبيه وكان قاضيا حنفيا وعلى غيره من فقهاء حلب الأحناف ، واختلف إلى شيوخ دمشق وبيت المقدس والقاهرة ، وتقلد مناصب مختلفة في القاهرة ودمشق منها الحسبة وقضاء الحنفية ، وله عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، وهو تاريخ عام من بدء الخليقة حتى سنة ٨٥٠ .

والشدرات ١١٣/٧ والبدر الطالع ٢٦٩

(١) انظر السبكي ١٣/٢ وما بعدها

(٢) راجع في ابن الشحنة الضوء اللامع ٣/١٠

ومن نلتقى بهم في أيام العثمانيين الجنابي مصطفى^(١) بن حسن المتوفى سنة ٩٩٩ وله في أحوال الأوائل والأواخر تاريخ حافل يعرف بتاريخ الجنابي يؤرخ فيه لثلاث وعشرين دولة إسلامية في مجلدين حتى سنة ٩٩٧ قال صاحب كشف الظنون لم أر كتابا جامعا لدول العالم مثله . وكان يعاصره القرماني^(٢) أحمد بن سنان الدمشقي المتوفى سنة ١٠١٩ وله أيضا تاريخ عام للدول الإسلامية سماه : « أخبار الدول وآثار الأول » طبع قديما ببغداد في ٥٠٠ صفحة .

وبجانب هذه الكتب التاريخية الكثيرة في التاريخ العام صنف مؤرخو الشام كتبًا فرعية خاصة ببعض الدول ، من ذلك : « نُصْرَةُ الْفِطْرَةِ وَعُصْرَةُ الْقَطْرَةِ » للعماد الأصبهاني ، وهو تاريخ للسلاجقة وأتابكتهم ووزرائهم ، اختصره الفتح البندارى سنة ٦٢٣ بكتابه « زبدة النصره ونخبه العصرة » طبع في القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . ونلتقى بأبي شامة^(٣) الحافظ المقرئ المؤرخ المقدسى الشافعى عبد الرحمن بن إسماعيل المتوفى سنة ٦٦٥ وله كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : دولة نور الدين ودولة صلاح الدين في وصف معاركهما وانتصاراتهما الكثيرة على حملة الصليب ، وعادة يسرد المعركة ، ثم يعرض لوحاتها الشعرية البديعة التي تصور مجد العرب الحرني تصويرا رائعا ، وكيف كان هذا البطلان : نور الدين وصلاح الدين يسحقان الصليبيين سحقا ذريعا لا يكاد يبقى منهم ولا يذر . وكتب للروضتين ذيلًا من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٦٥ . وكتب البرزالي^(٤) القاسم بن محمد المتوفى سنة ٧٣٩ صلة لتاريخ أبي شامة باسم « المقتنى لتاريخ أبي شامة انتهى به إلى سنة ٧٣٨ وذيله تلميذه الحافظ مدرس النورية تقي الدين محمد^(٥) بن رافع المتوفى سنة ٧٧٤ في كتاب سماه الوفيات حتى سنة ٧٧٤ ومنه مخطوطه بدار الكتب المصرية . ونلتقى بابن^(٦) واصل محمد بن سالم المتوفى سنة ٦٩٧ وله « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » نشره

١٥٠١/٤ والدرر ٣٢١/٣ وفوات الوفيات ٢٦٢/٢ والشذرات ١٢٢/٦ والنجوم الزاهرة ٣١٩/٩ والبدر الطالع ٥١/٢

(٥) انظر في ابن رافع الدرر ٥٩/٤ والشذرات ٢٣٤/٦ (٦) راجع في ابن واصل نكت الهيمان للصفدى ص ٢٥٠ والشذرات ٤٣٨/٥ ومقدمة كتابه مفرج الكروب وخطط الشام لكرد على ٤٤/٤ وله تجريد الأغاني لأبي الفرج جرده من أسانيد ، ونُشر في القاهرة

(١) انظر في الجنابي دائرة المعارف الإسلامية . وفي معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية مصورتان من كتابه

(٢) راجع في القرماني خلاصة الأثر ٢٠٩/١

(٣) انظر في أبي شامة ترجمة شخصية بقلمه في ذيل الروضتين ص ٣٧ والسبكي ١٦٥/٨ وتذكرة الحفاظ ١٤٦٠/٤ وفوات الوفيات ٥٢٧/١ والبداية والنهاية ٢٥٠/١٣ وذيل مرآة الزمان ٣٦٧/٢ وطبقات القراء ٣٦٦/١ والشذرات ٣١٨/٥

(٤) راجع في البرزالي السبكي ٣٨١/١٠ وتذكرة الحفاظ

الدكتور جمال الدين الشيال في ثلاثة أجزاء . وصنف ابن حبيب الحلبي بدر الدين الحسن بن عمر المتوفى سنة ٧٧٩ في تاريخ الممالك حتى أيامه كتابه « درة الأسلاك في دولة الأتراك » ابتداءً به من سنة ٦٤٨ حتى سنة ٧٧٧ وأتمه ابنه طاهر إلى سنة ٨٠٢ . ولابن حبيب كتاب في تاريخ أسرة قلاوون وأبنائه سلاطين مصر . ولمرعى الكرمي السابق ذكره أيام العثمانيين نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين .

ونلتقى بكثيرين من كتاب التراجم والطبقات ، ومنهم كتاب عامون لم ينجسوا قطراً عربياً بعينه ولا طائفة من الطوائف بعينها ، نذكر منهم الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء ويقع في نحو خمسة عشر مجلداً ، نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بعض أجزاءه . ومنهم ابن^(١) شاعر الكتبي الحلبي المتوفى سنة ٧٦٤ وله كتاب فوات الوفيات يقصد كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، وكأنه تكلمة لما فاته ، وبه أكثر من ثمانمائة ترجمة لعلماء من كل صنف ولكتاب وشعراء وصوفية وحكام . وكان يعاصره الصفدي خليل بن أيبك المتوفى أيضاً سنة ٧٦٤ وسلم به في حديثنا عن النثر ، وهو أهم من أنجبتهم الشام في كتابة التراجم ، وله فيها كتابه الضخم الوافي بالوفيات ويدخل في نحو ثلاثين مجلداً نشرت منها طائفة . وله بجانبه « نكت الهميان في نكت العميان » في تراجم من فقدوا بصرهم من مشاهير الأكفأ في العالم العربي على توالي الحقب ، وأيضاً « أعيان العصر وأعيان النصر » في مشاهير معاصريه في نحو تسعة مجلدات ، وهو حري بالنشر . ويعني نجم^(٢) الدين الغزي المتوفى سنة ١٠١٦ بتراجم القرن العاشر ويؤلف فيها كتابه الكواكب السائرة ، وعُنت جامعة بيروت الأمريكية بنشره ، ويصنف المحبي^(٣) محمد أمين المتوفى سنة ١١١١ للهجرة كتابه : « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » كما يصنف المرادي^(٤) محمد خليل المتوفى سنة ١٢٠٦ كتابه : « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » .

ويؤلف العماد الاصبهاني كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » وهو كتاب تراجم لشعراء العالم العربي في القرن السادس الهجري حتى نحو سنة ٥٧٠ وهم موزعون على أقطارهم من إيران إلى الأندلس ، نشرت منه أقسام مصر والشام والأندلس والمغرب ونشرت أجزاء العراق . وصُنفت بعد العماد في الشام كتب عن الشعراء مثل طبقات الشعراء لمحمد^(٥) بن عمر بن شاهنشاه

(١) انظر في ابن شاعر البداية والنهاية ٣٠٣/١٤ والدرر

٧١/٤ والشدرات ٢٠٣/٦

(٢) راجع في الغزي خلاصة الأثر ١٣٥/١ ومقدمة الجزء

الأول من الكواكب السائرة

(٣) انظر في المحبي سلك الدرر ٨٦/٤

(٤) راجع في المرادي تاريخ الجبرق ٢٣٣/٢

(٥) انظر مختصر المرأة لسبط ابن الجوزي : ٤٠١

صاحب حياة المتوفى سنة ٦١٧ وكان في عشر مجلدات ، سقط هو وغيره مما يماثله من أيدي الزمن .
ومما وصلنا نفحة الریحانة ورشحة طلاء الحانة للمعجب المذكور في بيان محاسن الشعراء بدمشق
وحلب والعراق واليمن والحجاز ومصر والمغرب وبلاد الروم ، طُبِعَ في مجلدين كبيرين .

واهتم الأطباء بصنع كتب تحمل تراجمهم ، وشاركت الشام في هذا العمل عن طريق ابن
أبي أصيبعة الذي مر ذكره بين الأطباء فألف كتابه « طبقات الأطباء » استقصاهم حتى زمن
وفاته ، وهو أوسع كتب الأطباء تفصيلا لحياتهم وأعمالهم . وتُعنى الشام بكتب الرجال من رواة
الحديث ، ويصنف عبد الغنى الجماعيل - كما مر بنا - كتاب « الكمال في معرفة أسماء الرجال »
عن رواة الحديث النبوي في كتب الصحاح الستة . وأضاف إليه المزى المار ذكره بين المحدثين
تكملات وتصحيحات بعنوان تهذيب الكمال في اثني عشر مجلدا ، وللنووي كتاب في رجال
أصحیحى البخارى ومسلم باسم رياض الصالحين في ذكر رجال الصحيحين . وعنى الذهبي باختصار
هذا التهذيب وإحسان ترتيبه وإضافة زيادات إليه ، وسمى كتابه « تهذيب تهذيب الكمال » في
خمس مجلدات . وللذهبي كتاب المشته في الأسماء والأنساب خصه بتراجم الأسماء المتشابهة في
رواة الحديث وغيره . وللذهبي أيضا ميزان الاعتدال في نقد الرجال أى رواة الحديث النبوي رتبه
على حروف المعجم وهو مطبوع في ثلاثة مجلدات ، .

ولللذهبي كتابان في حفاظ الحديث النبوي وعلمائه : كبير هو تذكرة الحفاظ في أربعة مجلدات
ومختصر منها هو طبقات الحفاظ . واختصر السيوطى الأخير مع تكملات وأبقى لصنيعه الاسم ،
والكتب الثلاثة مطبوعة . وللذهبي كتاب في طبقات القراء لم يكتب له الذبوع إنما كتب لغاية
النهاية في طبقات القراء لابن الجزرى المذكور بين القراء المتوفى سنة ٨٣٣ ، وكتابه يتردد في
الهوامش باسم طبقات القراء . ووضعت للقضاة كتب مختلفة من أهمها قضاة دمشق لابن طولون
المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ وهو مطبوع . وللفقهاء كتب كثيرة في رجالهم وطبقاتهم ،
وقد صُنِّفَ كثير من الكتب عنهم على اختلاف مذاهبهم ، فلأحناف كتبهم وكذلك للشافعية
والحنابلة ، أما المالكية فلم يصادفنى كتاب شامى عن فقهاءهم ، ولعل في هذا مايدل على أنهم ظلوا
في الشام قليلين . وكثر التأليف في الحنفية بأخرة من العصر ، فلاين طولون السابق ذكره كتاب
الغرف العلية في متأخرى الحنفية .

وللحنفية كتب في طبقاتهم كانت متداولة ومشهورة مثل الجواهر المضية في طبقات الحنفية
لعبد القادر بن أبى الوفا وتاج التراجم لابن قطلوبغا . وكان التأليف كثيرا في طبقات الشافعية ،

ولابن الصلاح أثار ذكره بين المحدثين كتاب كبير فيها اختصره النووي ورتبه على حروف المعجم ،
ومن أشهر كتابه في تلك الطبقات السبكي وكتابه مذكور مرارا وتكرارا في الهوامش. وكتاب
ابن (١) قاضي شهبة الدمشقي المتوفى سنة ٨٥١ ترجم فيه لأعلام الشافعية حتى سنة ٨٤٠ وهو
مطبوع . ونشط الحنابلة في كتابة تراجم فقهاءهم ولاين ارجب (٢) الدمشقي الحنبلي المتوفى سنة
٧٩٥ كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى المتوفى سنة ٥٢٦ وهو مطبوع في مجلدين .
ولمحمد (٣) بن عبدالقادر النابلسي المتوفى سنة ٧٩٧ مختصر للطبقات مطبوع ، ونحتم كلامنا في هذا
الفصل بالاشارة إلى كتاب المدارس في تاريخ المدارس للنعمي (٤) المتوفى سنة ٩٢٧ وهو يصور
الحركة بل النهضة العلمية التي ظلت أضواؤها تشع في الشام ، حتى مع ماغشيها من سحب
العثمانيين .

(٣) راجع محمد بن عبدالقادر في الدرر لابن حجر
١٣٨/٤ . وبيروكلمان (الترجمة العربية) ٣٩/٦
(٤) انظر النعمي عبدالقادر بن محمد في الكواكب
السائرة ٢٥٠/١ والشذرات ١٥٣/٨

(١) راجع في ابن قاضي شهبة الضوء اللامع ج ١١ رقم
٦١ والشذرات ٢٦٩/٧ والبدر الطالع ١٦٤/١
(٢) انظر في ابن رجب ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦٧
والدرر لابن حجر ٤٢٨/٢ وشذرات الذهب ٣٣٩/٦
ومقدمة الدكتور سامي الدهان لطبعة الذيل بدمشق

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب الشام

كان بالشام قبل الفتح الإسلامي العربي لغات متعددة وعناصر جنسية مختلفة ، فقد كان بها ساميون هم سلالة الشعوب التي نزلتها قديما من أموريين وكنعانيين وفينيقيين وعبرانيين وآراميين ، وكان بها عناصر من شعوب البحر المتوسط في مقدمتهم الإغريق نزلاؤها منذ فتحها الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ قبل الميلاد وخلفته بها الدولة السلوقية الإغريقية لنحو قرنين ونصف . وكان بها سلالات رومية منذ احتل الرومان الشرط الأكبر منها في أواسط القرن الأول قبل الميلاد ، وظلت اليونانية لعهدهم لغة الثقافة ، ودعم ذلك انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى غربية عاصمتها روما وشرقية عاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية وتبعتها الشام ، وتآلق فيها كما مر بنا غير شاعر ومتفلسف اتخذوا الإغريقية لسانهم وأداتهم في التعبير الوجداني والفكري .

وهياكل ذلك لأن تعدد اللغات في الشام قبل الفتح العربي الإسلامي ، وكان من أكثرها شيوعا اللغتان اليونانية والآرامية ، ولم نذكر حتى الآن اللغة العربية . مع أن عوامل كثيرة جعلتها تتغلغل في الشام من قديم ، لاجلواره للجزيرة العربية وموقعه شمالي الحجاز وغربي بادية السماوة فحسب ، بل لقيام ثلاث دول عربية على حدوده وحفافه الشرقية والجنوبية طوال ثمانية قرون أو تزيد قبل الإسلام ، وهي دول الأنباط وتدمر والغساسنة . وسبق أن ألمنا بها في فاتحة الفصل الأول ، ونبسط الحديث عنها الآن بعض البسط^(١) . أما دولة الأنباط فقد ظهرت على صفحات

الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الترجمة العربية) ص ١٣ وما بعدها وتاريخ العرب لصالح أحمد العل الجزء الأول وكتابتها العصر الجاهل ص ٣٣ وما بعدها .

(١) انظر في هذه الدول تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي في مواضع مختلفة من أجزائه وتاريخ العرب مطول لفليب حق (الترجمة العربية) وكذلك كتابه « تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين » ٤١٦/١ وما بعدها ، وتاريخ

التاريخ منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، متخذة بطرا عاصمة لها جنوبية . واستطاعت في مطلع القرن الأول قبل الميلاد أن توسع حدودها شمالا حتى منطقة حوران وجبل الدروز ، متخذة بُصْرَى بالقرب من دمشق عاصمة لها شمالية . ويذكر المؤرخون أنه في سنة ٨٥ قبل الميلاد احتل الملك الحارث الثاني النبطي دمشق وغطتها الخصب ، وبذلك بلغت هذه الدولة ذروة مجدها السياسي ، إذ كانت تضم شمالى الجزيرة العربية وشرق الأردن وجنوبى فلسطين وسوريا الجنوبية ، ولم يلبث الرومان أن قضوا عليها في مطلع القرن الثانى للميلاد . والأنباط عرب كانوا يتكلمون العربية في حياتهم اليومية ، فهم عرب أصلاء ، ولاريب فى أن أنحاء من الشام وخاصة تلك التى سيطروا عليها أخذت تتعرب وتنطق بالعربية لعهدهم . وقد أخذوا عن الآراميين أبجديتهم وكتبوا بها نقوشهم وكلماتها العربية ، ومضى خطهم يتطور فى بيئتهم وشمالى الحجاز حتى بعد زوال دولتهم ، إلى أن نشأ عنه الخط العربى الذى كُتب به القرآن الكريم والذى يتداوله العرب إلى اليوم .

والدولة العربية الثانية تدمر أقامتها القبائل العربية الشمالية بعد سقوط دولة الأنباط داخل بادية السماوة شمالى الجزيرة العربية بين الشام والعراق ، متخذين منها مركزًا كبيرًا للتجارة مع بلدان البحر المتوسط وبلدان فارس والهند والصين . وبلغت هذه الإمارة أوج مجدها فى منتصف القرن الثالث الميلادى لعهد أذينة الذى بسط سلطانه على الشام ، مما أتاح للقبائل العربية فى دولته التغلغل فى ديارها ، وكان عاملا فى تعرب بعض سكانها حينئذ ، غير أن الرومان لم يلبثوا أن قضوا على تلك الدولة فى عهد الزباء زوجة أذينة . وبذلك انكش ثانياً التأثير اللغوى العربى فى ديار الشام . على أنه سرعان ما استعاد هذا التأثير فاعليته فى عهد الدولة العربية الثالثة : دولة الغساسنة ، وقد أخذت فى الظهور مع سقوط تدمر ، ويرجع النسابون بالغساسنة إلى اليمن وأن قبيلتهم فارقتهم بعد خراب سدِّ مأرب ، واستقرت فى شرقى الأردن . وشقت - فيما بعد - طريقها شمالا إلى حوران ، واصطدمت فى تلك الأنحاء بقبيلة عربية تسمى الضجاعم تمت لها الغلبة عليها ، وكانت تتجول فى هذه المنطقة الواسعة مع إعلان ولائها للدولة البيزنطية . ويقول النسابون إن جدها الأعلى كان يسمى جفنة بن عمرو مُزَيَّقِيَاء ، ولذلك يسمى النسابون الغساسنة أحيانا باسم آل جفنة . وقد اعتنقوا المسيحية منذ القرن الرابع للميلاد ، مما يدل على عمق صلتهم وامتزاجهم بأهل الشام المسيحيين . وتاريخ ملوكهم غامض ، وأهمهم الحارث بن جبلة (٥٢٨ - ٥٦٩ م .) وقد منحته الدولة البيزنطية لقب فيلارك أى شيخ القبائل وأميرها ، كما منحته لقب البطريق وهو أعظم

الألقاب في الدولة البيزنطية بعد لقب الإمبراطور . وأهم من ذلك أنه زار بيزنطة واستطاع أن يقنع إمبراطورها وحواشيه بتعيين يعقوب البرادعي أسقفا على الكنيسة المونوفيسيتية السورية ، وكانت تخالف العقيدة الرسمية للكنيسة البيزنطية . ويقال إن يعقوب رسم مائة ألف كاهن ونصّب تسعة وثمانين أسقفا في البلاد . ومعنى ذلك أن الحارث بن جبلة كان يعد أقوى سيد في سوريا والشام ، ولذلك دلالة البعيدة في نفوذ القبيلة بالشام وفي مدى ما حدث حينئذ من تعرب بعض الشاميين وخاصة من رجال الكنيسة اليهيقوية . وكان الغساسنة كثيرون الحركة والتنقل من بقعة إلى أخرى ، وتتردد على السنة مادحي ملوكهم من الشعراء ذكر جلق وكانت منازل بالقرب من دمشق على نهر بردى المشتهر ببساتينه ، وأشهر من جلق الجابية وكانت على مسافة يوم من دمشق إلى الجنوب الشرق .

ولما أطلنا في بيان ذلك كله لنجد على أن الشام كانت قد أخذت تستعرب منذ قرون عدة قبل الإسلام ، ولا ريب في أن الفتح الإسلامي العربي زاد هذا الاستعراب حدة وقوة ، وخاصة أن قبائل الغساسنة وقضاة وغيرهما ممن كانوا اعتنقوا النصرانية نبذوا سريعا الدين المسيحي ودخلوا في الدين الحنيف ، ودخله معهم كثيرون من أهل الشام لما رأوا في شريعته السمحة من الإنصاف والمساواة بين الناس ومن العدل الذي لا يصلح حياة أمة بدونه . وكان حكمهم البيزنطيون قد أساءوا معاملتهم إلى أبعد حد وساموهم ضروبا من العذاب والخسف وأرهقوهم بالضرائب الفادحة إرهاقا لا يطاق ، بينما رأوا حكمهم المسلمين الجدد يرفعون عنهم كل ظلم وكل ثقل في الضرائب مسوين بين كل من يسلم منهم وبين الجند الفاتح في جميع الحقوق ، غير مستأثرين لأنفسهم بشيء ، مها يكن قليلا أو تافها . فلاعجب أن يدخلوا في الدين الحنيف أفواجا .

وقد استوطن الشام كثير من الجند الفاتحين له ، وكانوا من قبائل مختلفة شمالية وجنوبية ، وظلت الجزيرة العربية ترفدهم بسيول طوال الحقب الأولى للحكم الأموي ، واستقرت منها عشائر وبطون في بلدان الشام حتى بلدانه الداخلية مثل حمص وطرابلس وبيروت وقيسارية وغيرها من مدن سوريا ولبنان وفلسطين . وبذلك حدث مزج قوى بين العرب المهاجرين وبين أهل الشام لا عن طريق الإقامة والاستيطان فحسب بل أيضا عن طريق المصاهرة والاختلاط اليومي بين الأسر والناس ، مما دفع بقوة إلى استعراب الشام سريعا . وظل من أهم دوافعه دخول الأسر الشامية أو بعض أفرادها في الإسلام ، إذ جزء لا يتجزأ منه تلاوة القرآن ، ولن يستطيع أحد أن يتلوه تلاوة سنييدة دون تعلم لغته ، أو بعبارة أخرى دون استعراجه . وربما كان مما يؤكد كثرة من

اعتنقوا الإسلام بعد الفتح مباشرة الخبر الذي مر بنا في الفصل الماضي عن أبي الدرداء قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة أن عدد من كان يشرف عليهم يوميا في تلاوة القرآن بمسجد دمشق ألف وستائة ونيف ، وكان وراءهم آلاف مستعربون لا يحتاجون إلى من يعلمهم تلاوة القرآن الكريم . ونظن ظنا أن الاستعراب في الشام أصبح أمنية أهلها جميعا : من أسلم منهم ومن ظل على دينه المسيحي لسببين مهمين : أولا لتفوق العربية على الآرامية التي كانت شائعة على الألسنة ، إذ لم يكن لها تراث أدبي كالعربية ، ولا كان لها جماها في الجرس وحسن الإيقاع ، وثانيا لأن الدولة الأموية اتخذت دمشق عاصمة لها واستعانت بكثير من أهلها المسيحيين في الإدارة وشئون الخراج والمال ، فأكبَّ كثير من المسيحيين على العربية يحاولون أن يتعلموها وأن يتقنوا الأداء بها حديثا وكتابة . وينبغي أن لا ننسى ما كان قد حدث من استعراب هذه العناصر المسيحية قبل الإسلام وخاصة بين التجار ورجال الكنيسة اليعقوبية .

وربما كان من أكبر الأدلة على ما كان قد حدث من استعراب كثيرين من أهل الشام الأصليين قبل الإسلام أننا نجد أسرة مسيحية مستعربة تعمل مع معاوية وخلفائه الأمويين في إدارة الشئون المالية ، ونقصد أسرة سرجيوس (وفي بعض المصادر سرجون) ويُظن أنه كان حاكما لدمشق قبل الفتح العربي الإسلامي واتخذ معاوية مستشارا له في الشئون المالية مع بقاءه معتقنا لدينه المسيحي ، وكان حفيده يوحنا الدمشقي يشرف على الشئون المالية بدوره لعهد عبد الملك بن مروان ، وما زالت هذه الأسرة المسيحية تعاون الخلفاء في شئون المال والخراج حتى أمر الوليد بن عبد الملك بتعريب الدواوين كما هو معروف .

ومن أكبر الأدلة أيضا على استعراب العناصر المسيحية أننا نجد نفرا منهم يعنى بترجمته ترجمة مبكرة لبعض العلوم اليونانية ، على نحو ما ذكر صاحب الفهرست عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه تُرجمت له كتب الطب والنجوم والكيمياء^(١) . ولا شك في أن هؤلاء المترجمين كانوا مستعربين ، بل كانوا يجذقون العربية حتى استطاعوا أن ينقلوا منها لخالد بن يزيد ما نقلوه من المعارف المتصلة بتلك العلوم . ويسمى ابن خلكان في ترجمته لخالد أحد أولئك المترجمين وهو مريانوس الراهب الرومي الذي أخذ عنه خالد علم الكيمياء أو كما كانوا يسمونه علم الصنعة . ويقول ابن خلكان إن لخالد فيها ثلاث رسائل تضمنت إحداهن ماجرى له مع مريانوس الراهب المذكور وصورة تعلمه منه والرموز التي أشار إليها^(٢) .

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٣٣٨ (٢) انظر ترجمة خالد في ابن خلكان ٢٢٤/٢

ولم نتحدث عن اليونانية التي كانت معروفة في الشام قبل الإسلام ، وأكبر الظن أنها انحازت إلى الأديرة ، وقد رأينا آنفاً أن خالد بن يزيد بن معاوية استعان في علم الصنعة وماترجم إليه منه براهب رومي ، وأكبر الظن أن الرهبان في دمشق ومدن الشام من أنطاكية إلى غزة كانوا قد أخذوا في التعرّب ليستطيعوا الحديث إلى مسيحي الشام المستعربين ، ولعل في كل ما تقدم ما يوضح العوامل الكثيرة التي دفعت إلى تعرّب الكتلة الكبرى من أهل الشام مسلمين ومسيحيين .

٢

كثرة الشعراء

يلاحظ أن عرب الشام قبل الإسلام لم يكن لهم نشاط يذكر في تاريخ الشعر العربي لا عند الغساسنة ولا عند غيرهم من القبائل الشامية ، حتى إذا كانت الفتوح وهاجر كثيرون من القبائل القيسية مثل عامر وسليم إلى فلسطين وسوريا أخذ الشعر ينشط في الشام وأخذ الشعراء يتكاثرون وخاصة مع الأحداث الكبرى على نحو ما يلقانا في المعارك التي نشبت بعد وفاة يزيد بن معاوية وتولّى مروان بن الحكم للخلافة بين القبائل اليمنية وفي مقدمتها قبيلة كلب والقبائل القيسية منذ موقعة مرج راهط وغيرها من المواقع . وولتقى عقب هذه المواقع بشاعرين كبيرين للشام هما عدى بن الرّقاع العاملي اليميني والطرماح الطالبي اليميني ، أما عدى بن الرقاع فشاعر عبد الملك بن مروان والخلفاء من بعده ، وله ترجمة في كتابنا العصر الإسلامي بين شعراء بني أمية ، وأما الطرماح فنشأ في الشام ونزل الكوفة مع بعض جيوشها واستقر بها ، واعتنق فيها مذهب الصفرية من الخوارج ، وله ترجمة في كتابنا المذكور بين شعراء الخوارج .

وكانت الشام طوال عصر بني أمية تَعَصَّ بشعراء الحجاز ونجد والعراق الوافدين على الخلفاء لمديحهم وأخذ نوالهم وعظائمهم . وما نبغ شاعر واشتهر في هذه البيئات إلا رحل إلى دمشق يمدح هذا الخليفة أوذاك ، والخلفاء يُعَدِّقون على الشعراء جوائزهم وصلاتهم على نحو ما هو معروف عن شعراء العراق : الفرزدق والأخطل وجرير وعبد الله بن الزبير وذي الرّمة والعجاج وابنه ربيعة . ومثلهم من شعراء الحجاز كثير والأحوص وابن قيس الرقيبات . ومدحهم من شعراء نجد كثيرون في مقدمتهم الراعي التميمي . وكان الأمويون يعدّونهم ألسنتهم ودعاتهم في بيئاتهم ، فأجزلواهم في العطاء ، وكانوا مازالون غادين عليهم رانحين بقصائد طنانة يروونها الرواة في كل مكان بالشام وغير الشام .

وليس ما قدمناه كل ما كان بالشام من نشاط الشعر والشعراء لعهد بني أمية ، فقد شارك غير خليفة في هذا النشاط ، إذ كان بينهم شعراء بارعون هم يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، واشتهر الوليد بأنه يعيش للهو والقصف وجلب المغنين والمغنيات من الحجاز وإقامة الحفلات لهم في قصره ، وشعره يستغرقه الغزل والتغنى بالخمير حتى بعد خلافته ، مما أعدَّ بسرعة لسقوط الدولة الأموية ، وله ترجمة في كتابنا العصر الإسلامي .

وتنتقل الخلافة في العصر العباسي إلى بغداد ، ويظل للشام نشاطها في الشعر ، وهو نشاط لا يقف عند مجرد نظمه على طريقة الإسلاميين والجاهليين ، إذ نرى شعراءها يصعدون في شعرهم عن النزعات التجديدية التي نُظِم الشعر العربي على أضوائها في صدر الدولة العباسية . ومن كبار شعرائها الذين لمعت أسماءهم في القرن الثاني الهجري عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي معاصر الرشيد ، وكان من الفلجة « من أرض دمشق » ، وترجم له ابن المعتز في كتابه « طبقات الشعراء » وأشاد بشعره إشادة رائعة . ومن كان يعاصره من الشعراء الشاميين البعثاني وكان يحتذى - كما يقول الجاحظ - حذو بشار بن برد في البديع وله ترجمة في كتابنا العصر العباسي الأول . وعلى غراره تلميذه منصور العمري الشامي ، وله أيضا ترجمة في كتابنا العصر العباسي الأول . وبالمثل في هذا الكتاب ترجمة لشاعر شامي مهم عاش في القرنين الثاني والثالث هو ديك الجن . فالشام لم تنشط في الشعر طوال العصر العباسي الأول فحسب ، بل قدمت إليه أعلام من الشعراء النابيين شاركوا في نهضته وازدهاره . بل أكثر من ذلك لقد تطورت بصور البديع الحسية التحديدية وأضافت إليها صورا جديدة من بديع وزخرف معنويين رائعين ، وبذلك استحدثت للشعر العربي مذهبا جديدا هو مذهب التصنيع أو التنميق الحسي والفكري ، على نحو ما هو معروف عن أبي تمام أستاذ هذا المذهب الذي أعطاه صيغته النهائية ، وقد أوضحنا ذلك أيضا تماما في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » . وتلاه تلميذه البحتري ، ولم يكن له ثقافته وتعمقه في النفوذ إلى دقائق الأفكار ، ومع ذلك تمسك بالمذهب وبخاصة جوانب البديع الحسي مع تمسك شديد بمقومات الشعر العربي وتقاليده في الصياغة ، وكان لا يباري في الضرب على قيثارة الشعر العربي واستخراج أروع النغم منها وأحلاه . وأكبت الأجيال التالية في العالم العربي على دراسته ودراسة أستاذه متخذة منه نموذجا للتمسك بعمود الشعر العربي وصياغته ، كما اتخذت من أستاذه نموذجا للبديع الحسي والمعنوي الذي يرضى المتفلسفة والمتعمقين في المعاني . وانقسم النقاد مع الشاعرين وفنهما إلى صفتين متقابلين ، وكل ذلك حاولنا تصويره في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ولأبي تمام ترجمة

في كتابنا « العصر العباسي الأول » وللبحتري ترجمة في كتابنا « العصر العباسي الثاني » . ونشرف بعد البحتري على نهاية القرن الثالث ، ولاتزال للعصر العباسي الثاني بقية زمنية ، وفيها يسطع نجم شاعر الطبيعة الحلبي الصنوبري وله ترجمة في كتاب هذا العصر .

ونغض في عصر الدول والإمارات ، وقد عُني بالحديث عن شعراء القرن الرابع الهجري ومطالع القرن الخامس الثعالبي في يتيمة ، متحدثا عن الشعراء النابيين في أقاليمه من أواسط آسيا إلى الأندلس . ويلاحظ في فواتح كتابه أن كفة الشعر العراقي التي كانت تجعله يرجح على جميع الأقاليم العربية شاما وغير شام قد خفّت وخلفتها كفة الشام ، إذ يستهل يتيمة بقوله : « الباب الأول من القسم الأول في فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان وذكر السبب في ذلك ثم يقول : « لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام .. والسبب في تبرز القوم قديما وحديثا على من سواهم في الشعر قريهم من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق لمجاورتهم للفرس ونبط (فلاحى) العراق ومدخلتهم إياهم .. ورزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان .. وهم بقية العرب ، والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين أدوات السيف والقلم ، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ، ويثيب على الجيد منه فيجذل ويفضل » . ولسنا نريد أن نناقش الثعالبي في هذا الحكم ، فإنه - على ما فيه من مبالغة - يدل على ما حدث بالشام مع مطالع عصر الدول والإمارات من نهضة شعرية حقيقية تنبىء عنها الأبواب التالية في اليتيمة ، فقد جعل الثعالبي الباب الثاني لسيف الدولة الحمداني أمير حلب وشمال الشام وملح شعره وغزواته الحربية المظفرة على لسان شعرائه . وقصر الباب الثالث على أبي فراس الحمداني الشاعر والفارس المشهور . وخص الباب الرابع بملح أشعار آل حمدان أمراء الشام وقضاتهم وكتابهم . وأفرد الباب الخامس للمتنبى شاعر سيف الدولة المبدع . وجعل الأبواب : السادس والسابع والثامن لبعض المادحين لسيف الدولة من شعراء الشام والعراق .

ومررنا كيف أن حلب في زمن سيف الدولة (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ) استحوطت أكبر مركز علمي وفلسفي ولغوي ، إذ نزها كثير من العلماء والمتفلسفة واللغويين من أمثال الفارابي وأبي علي الفارسي وابن جني غير من كان بها من الأطباء وعلماء الفلك . ولا يهمننا الآن بيان ذلك إنما يهمننا أنها أصبحت مركز الشعر والشعراء في تلك الحقب ، إذ لم يبق شاعر كبير في الشام أو في العراق أو في إيران إلا أممها وأسبغ عليه سيف الدولة من نواله ، حتى ليقول الثعالبي إنه لم يجتمع قط بباب أحد

من الملوك - بعد الخلفاء - مااجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر» منهم كُشاجم - ويقال إنه كان طبّاخة - والخالديان - وكانا خازني مكتبته - والسّلامى والسّرى الرّفاء والوأواء الدمشقي والنامى المصيصى وابن نباتة السعدى والببغاء ، وكل هؤلاء كانوا شعراء ، وترجم لهم الثعالبي ، ووراءهم كثيرون كانوا يفدون على سيف الدولة مادحين ثم يعودون بالعطاء إلى أوطانهم شاكرين مثنين .

ومضت الشام في نهضتها الشعرية وظهر فيها أمثال عبد المحسن الصورى وأبي الرقعمق والواساني وجميعهم ترجم لهم الثعالبي ، ويعنى الباخري في دمية القصر بذكر طائفة من شعراء الشام خاصة من مدح منهم الوزير السلجوقي نظام الملك ، وترجم لأبي العلاء المعرى وابن سنان الخفاجي تلميذه ترجمة قصيرة . وبعض من ترجم له ألم به العماد الأصبهاني في الخريدة . ولم يُعن أحد من أصحاب التراجم الشعرية بشعراء النصف الثاني من القرن الخامس ومطالع القرن السادس ، ومن أعلام الشعراء الشاميين في تلك الحقبة ابن حيوس وله ديوان ضخم في مجلدين . ويعرض العماد الأصبهاني في خريدة القصر تراجم مستفيضة لنحو مائة وثلاثين شاعرا جمهورهم من شعراء القرن السادس حتى زمن كتابته أو تأليفه للخريدة في أوائل العقد الثامن من القرن ، وهم يشغلون ثلاثة أجزاء ، أولها خاص بشعراء دمشق والشعراء الأمراء من بني أيوب ، ونراه في مطلع هذا الجزء يشيد بشعر الشاميين ويرفعه درجات على شعر أهل العراق ، بالضبط كما صنع الثعالبي ، يقول : « شعر الشاميين أصح وزناً ، وأسحُّ مُزناً ، وأمتن صيغة ، وأحسن صبغة ، وأحكم صنعة ، وأسلم رقعة ، وأرفع نسجا ، وأنفع مزجا ، وأقوم معنى ، وأحكم مبنى » ويشيد بطائفة من قدمائهم مثل البحترى وأبي تمام وطائفة من محدثهم بعدهما مثل عبد المحسن الصورى وابن سنان الخفاجي وابن حيوس ، وكأنى به نسي أبا العلاء عامدا لشهرته الواسعة . ويرجم في هذا الجزء لابن الخياط الدمشقي تلميذ ابن حيوس وديوانه مطبوع . وتلا العماد ذلك بجزء اشتمل على خمسة وأربعين شاعرا بينهم أهم من أنجبتهم الشام في القرن السادس الهجرى من الشعراء أمثال الغزى وابن منير الطرابلسي والقيسراني وعرقلة وديوانه مطبوع وفتيان الشاغورى وديوانه مثله مطبوع وابن قُسيم الحموى وأسامة بن منقذ وديوانه مطبوع . ويتبع ذلك جزء به نحو ثمانين شاعرا عرض فيه العماد بيوتا وشعراءها كبيت آل المعرى وبيت بنى الدويدة وبيت بنى الحُصين ، ويذكر طائفة من شعراء حلب ربما كان أهمها حماد الخراط . وكان العماد لم يترك في الشام لزمه شاعرا كبيرا ولاصغيرا إلا ترجم له .

واهتمت كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام بعد زمن العباد في أيام الأيوبيين والمماليك والعمانيين ، وفي مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاعر الكتبي والوفاء بالوفيات للصفدي ومطالع البدور للغزولي والدرر الكامنة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوي وريحانة الألبا للخفاجي ونفحة الريحانة للمعجمي وسلك الدرر للمرادى . فكل هذه الكتب تحمل عشرات من شعراء الشام في حقب وأزمنة مختلفة ، وكثير من نابهيم في تلك الأزمنة والحقب أيام الأيوبيين ومن بعدهم لهم دواوين مطبوعة مثل ديوان ابن الساعاتى والصاحب شرف الدين الأنصارى وأيدمر المحيوى والشاب الظريف وأبيه عفيف الدين التلمسانى وابن الوردى وابن النقيب الدمشقى ، وتموج رفوف المكتبات في العالمين العربى والغربى بدواوين كثيرة لشاميين لاتزال مخطوطة .

٣

شعر دورى - رباعيات - موشحات - بديعيات - تعقيدات

(١) الشعر الدورى

منذ ابتدع الشعراء فى العصر العباسى الأول الشعر المزدوج الذى يتكون من شطرين متقابلين ، وتتوالى فيه الشطور المتقابلة ، والشعراء يكثرون منه فى جميع الأقاليم الإسلامية ، وهىأ ذلك لظهور أنماط مختلفة من الشعر الدورى الذى تتكون فيه القصيدة من أدوار متعاقبة ، ويغلب أن يكون كل دور بيتين ، وتقل الأدوار وتكثر حسب رغبة الشاعر . وتفرع عن هذا النمط من قديم عند أبى نواس وأضرابه نمط المسمطات وعادة يتكون الدور فيه من أربعة شطور يليها شطر خامس تتحد قافيته فى كل الأدوار ، بينما تتنوع القوافى فى الشطور الأربعة السابقة له من دور إلى دور ، وكأن الشطر الخامس بقافيته المكررة ياقوته فى عقد تلتقى عندها أسلاكه المختلفة ، وتسمى هذه القافية المكررة عمود القصيدة . وكلما تقدمنا فى العصر كثرت هذه المسمطات ، وهى قد تكون رباعية بمعنى أن قافية الشطر الرابع هى المكررة ، وقد تكون خماسية كما ذكرنا ، وقد تكون سباعية أو تساعية ، وممن عنى بالنظم فيها أسامة بن منقذ فى ديوانه منها أربعة مسمطات خماسية ، ومن أقوله فى أحدها (١) :

عبد المجيد ص ٤٠ .

(١) ديوان أسامة بن منقذ (طبع المطبعة الأميرية

بالقاهرة) تحقيق الدكتور أحمد بدوى والدكتور حامد

كم رُضْتُ نفسى بالسُلوان فامتنتُ وكم أضاعوا موثيقَ الهوى ورَعَتُ
وما نَقَمْتُ عليهم غدرَةً فصغتُ^(١) ولا أضعتُ لهم عهداً ولا اطلعتُ
على ودائعهم في صدرى التُّهَمُ

وقافية الشطر الأخير مكررة في الشطر الخامس من كل دور ، وواضح أن المسمط خماسى الشطور ، وتلقانا أمثلة للمسمطات في دواوين ابن الساعاتى والصاحب شرف الدين الأنصارى وأيلمر المحبوى زمن الأيوبيين ، ومضى الشعراء في الحقب التالية يكثرُونَ منها وخاصة صلاح الدين الصفدى ، ونظلم نلتقى بها في الحقب المتأخرة .

(ب) الرباعيات

معروف أن الرباعية أربعة شطور تولّف بيتين ، وتتحد الشطور : الأول والثانى والرابع فى القافية وقد يتحد مع تلك الشطور الشطر الثالث فى القافية وقد يختلف . وللرباعية وزنان هما : « فَعَلْنَ فَعَلْنَ مُسْتَفْعَلْنَ مُسْتَفْعَلْنَ » و « فَعَلْنَ مَتَفَاعِلْنَ فَعُولْنَ فَعَلْنَ » وقد أخذت تشيع على السنة الشعراء فى هذا العصر وخاصة منذ القرن السادس ، نجدها عند ابن قُسيم الحموى المتوفى سنة ٥٤١ للهجرة وعند عرقلة المتوفى سنة ٥٦٧ وفى خاتمة ديوانه منها اثنتا عشرة رباعية ، منها قوله :

ويلاه على المهفّف الميَّاس ما أحسنه ولو بقلبِ قاسِ
يهتُرُ كأنه قضيبُ الآسِ سكرانَ ولم يَدُقْ حميًّا الكاسِ

وذكر ابن خلكان أنه كان للعماد الأصبهاني ديوان صغير جميعه دُوَيْبَاتٍ أو رباعيات ، وطائفة فيها كانت بلسان نور الدين فى الحث على جهاد حملة الصليب وتمزيق جموعهم ، من مثل أقوله^(٢) :

لا راحة لى فى العيش إلا أغزو سبى طربًا إلى الطلى يهتُرُ^(٣)
فى ذلُّ ذوى الكفر يكون العزُّ والقدرة فى غير جهادٍ عَجَزُ

(١) صغت : مالت

(٢) الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة (طبع مطبعة

وادي النيل) ٢٠٧/١ .

(٣) الطلى : جمع طلاة أو طلية : العنق أو صفتحه .

وكان لفتيان الشاغوري المتوفى سنة ٦١٥ ديوان جميع مافيه دوبيتات ، رآه ابن خلكان وأنشد منه في ترجمته قوله :

الوردُ بوجنتيك زاهِ زاهرُ والسحرُّ بمقلتيك وافٍ وافِرُ
والعاشقُ في هواك ساهٍ ساهرُ يرجو ويخافُ فهو شاكٍ شاكرُ

ونظلم نلتقى بالرباعيات في دواوين الشعراء أيام المالك بل أيضا أيام العثمانيين عند حسن البوريني وبهاء الدين العاملي وعبد الغنى النابلسي وغيرهم من الشعراء^(١) وحين شاعت التورية بثها الشعراء في رباعياتهم كقول علي بن المظفر الوداعي الحلبي المتوفى سنة ٧١٦ متغزلا^(٢) :

لما حُجِبَ الكَرَى عَنِ الآفاقِ وانقاد مع العدا على العُشاقِ
ناديتُ وقد تزايدتُ أشواقِ ياغُصْنُ رضيتُ منك بالأوراقِ

والتورية واضحة في كلمة الأوراق ، إذ لها معنيان قريب وهو أوراق الغصن وبعيد وهو أوراق الرسائل المتبادلة بينه وبين صاحبه ، وهو المراد .

(ج) الموشحات

الشائع المعروف أن الموشحات من اختراع الأندلسيين وأنهم سبقوا إليها المشاركة ، ومعروف أنها تتألف من شطور تسمى قفلا وشطور تليها تسمى أداورا أو أغصانا ، ومن خرجة يسمي بها القفل الأخير في الموشحة . ومن ينعم النظر فيها يؤمن بأنها تطورت من أشكال المسمطات ، واستقلت بهذه الصورة ، ويبالغ المستشرقون الإسبان - خاصة - قائلين إنها فن أندلسي خالص تطور عن أغان رومانسية كانت معروفة في القرنين الرابع والخامس للهجرة ، ولم يقدموا أغنية واحدة تشهد لذلك ، بينما يوجد لدينا شكل من أشكال المسمط نظمه ديك الجن الحمصي المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة نظن ظنا أنه الأب الحقيقي للموشحات الأندلسية إذ يجري على هذا النمط^(٣) :

قولى لَطَيْفِكَ يَنْشِينِي عَسْ مَصْجَعِي عِنْدَ الْمَنَامِ

عند الرقاد عند الهجوع عند الهجوذ عند الوسن
 فعسى أنام فتنطفي نار تأجج في العظام
 في الفؤاد في الضلوع في الكبود في البدن

ويستمر المسمط الموشح على هذه الصورة، وواضح أنه نشأ من فكرة بسيطة هي تكرار قافية البيت بروي جديد . وكأنما وقع هذا المسمط الغريب أو قل هذا الموشح الفريد لمقدم بن معاني شاعر الأمير الأندلسي عبد الله بن محمد المرواني (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) فنظم على صورته بعض منظوماته وكتب هذه الصورة عنده أن تشيع بعده في الأندلس باسم الموشحات على نحو ما أوضحنا ذلك مرارا في كتاباتنا . وحملها إلى المشرق الأندلسيون المهاجرون إلى مصر والشام ووضع لها ابن سناء الملك قوانينها الموسيقية في كتابه « دار الطراز » وبذلك فتح أبواب تلك الموشحات على مصاريعها للمشاركة كي ينظموا على غرارها منذ زمنه في أواخر القرن السادس . وأيضا فإنه كان قد نزل الشام بعض الأندلسيين من ناظميها ، فكانوا من أسباب إشاعتها مثل عبد المنعم الجليلاني الأندلسي الطبيب نزيل دمشق في زمن صلاح الدين وظل بها إلى وفاته ، وله فيه مدحة سميت التحفة الجوهريّة ، ويقول ابن أبي أصيبعة : له « ديوان غزل وتشبيب وموشحات ودوبيّات » أوربا عيات . ونظّل في زمن الأيوبيين والمماليك نلتقى بوشاحين مختلفين . وللصلاح الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ كتاب في الموشحات سماه : توشيع ^(١) التوشيح ذكر فيه إحدى وستين موشحة من عيون الموشحات الأندلسية والمصرية والعراقية والشامية ، وذكر موشحا طريفا لشمس الدين محمد بن علي الدهان المتوفى سنة ٧٢١ ، ويقول ابن شاكر إنه كان يحترف صناعة الدهان وينظم الشعر الرقيق وكان على علم بالموسيقى والألحان ، فكان ينظم الشعر ويلحنه ويغني فيه المغنون ^(٢) ، ويسوق نفس الموشح الذي ذكره الصفدي ، ويستهلّه بقوله :

بأبي غُصْنُ بَانَةٍ حَمَلًا بَدَرَ دُجَى بِالْكَمَالِ قَدْ كَمَلَا أَهْيَفُ
 فَرِيدٌ حُسْنٍ مَامَسِ أَوْسَفْرَا
 إِلَّا أَغَارَ الْقَضِيْبَ وَالْقَمْرَا
 يُبْدَى لَنَا بِابْتِسَامِهِ دَرَا

(٢) راجع ترجمته في فوات الوفيات ٤٩٢/٢ والوفاء
 ٢٠٩/٤ وانظر عقود اللآل للنواجي ص ٧٧ .

(١) حقق هذا الكتاب ألبير مطلق ونشره بدار الثقافة
 بيروت .

والموشح وافر الموسيقى واللحن والنغم. وذكر الصفدى بجانب هذا الموشح موشحا لجمال الدين يوسف الصوفي المتوفى سنة ٧٥٠، وهو يفيض بالعدوثة وجمال اللفظ والصور كقوله:

ساحرٌ بالدلال ساحرٌ بالصَّبُّ فاتقُ في الكمان لائقٌ بالحبُّ

بَشَدًا المسكُ فاحُ ثغرُ هذا الغزالِ
باسمُ عن أقاحُ كفيريدِ اللآلِ
رُدُّ نورَ الصباحِ كظلامِ السليانِ

وأُشد الصفدى لنفسه في كتابه سبعا وثلاثين موشحة ، وكثير منها معارضات لموشحات مشهورة لأندلسيين وغير أندلسيين ، وقلما يخلق إلى أفق الموشحات التي يعارضها ، ويغلب التكلف على موشحاته ، وفي أحيان قليلة يسلس في بعض الموشحات وبعض المقاطع كقوله في معارضة موشحة لابن اللبانة الأندلسي :

بات بدري وهو معتنى أحسى فاهُ وأرتشفُ
وبه أمسيت مئجدا
بعد ماقد كنت منفردا
وغدا بدر السما كميذا

وقد أنشد النواجي في كتابه عقود اللآل تسع موشحات لابن حبيب الحلبي وموشحتين لابن حجة الحموي^(١).

ويلقانا وشاجون مختلفون في زمن العثمانيين على نحو ما يذكر المحبي عن أبي بكر العمري وأبي بكر العصفوري^(٢). ولابن النقيب المتوفى سنة ١٠٨١ موشح استلهم فيه موشحا مشهورا للسان الدين ابن الخطيب استلهه بقوله^(٣) :

يالِياي السَّفْحُ من عهد الصُّبا ياسقَى مغناكِ صوبُ الدِّيمِ
كم تسرقتُ بها بين الرُّبى خلَّسًا مرَّتْ كطيفِ الحُلْمِ

(٣) ديوان ابن النقيب نشر المجمع العلمي العربي بدمشق
ص ٢٦٣

(١) انظر فهرس عقود اللآل للنواجي
(٢) نفحة الرحانة للمعجبى ٢٢/١ ، ٢٥٤

وتكثر الموشحات الصوفية عند عبد الغنى النابلسي كثرة مفرطة . ونقف قليلا عند وشاحين مهمين هما أيدير المحيوى والمخار الحلبي .

أيدير المحيوى^(١)

لأنعرف شيئا عن نشأة هذا الشاعر ومرباه ، وكل ما بأيدينا عنه أنه عتيق محي الدين محمد بن محمد بن سعيد بن ندى وزير الجزيرة لسلاطينها من الأيوبيين ، وقد طبع له دار الكتب المصرية مختارات من ديوانه ، وهو فيها يمدح الملك الكامل سلطان مصر مشيدا بانتصاره على حملة الصليب في موقعة دمياط سنة ٦١٨ . وكان يسكن دمشق ويزور مصر كثيرا وله مدائح في الصالح نجم الدين أيوب حين كان يلي شئونها منذ سنة ٦٣٦ إلى سنة ٦٤٧ ويبدو أنه لم يعيش بعد هذا التاريخ طويلا ، وله غزليات وأشعار طريفة في الطبيعة ، وله - بجانب ذلك - موشحان في المديح يستهلها بغزل بديع ، وقد عارض في موشحه الأول ابن زهر في موشح له مشهور ، ومن قوله فيه على نسقه .

هَزَّ عِطْفَ الغصنِ من قامته
مُطْلِعاً للشمس من طلعتِه
ثم نادى البدرَ في ليلته
أيها البدرُ تغيبُ ويحكَا ما احتياجُ الناسَ للبدرِ معي

وعذوبة موسيقاه واضحة في هذا الموشح ، وكان يضيف إليه في أحيان كثيرة محسنات البديع من طباق وجناس وتورية ، ولاتفارقه هذه العذوبة حتى حين ينجح إلى التكلف على نحو ما نلقاه في موشحه الثاني وفيه يقول :

بات وسُمَّاره النجوم	ساهرٌ	فن تَرَى	عَلَّمَكَ السُّهْدَ يا جفون
صبا إلى مذهب التصابي	صابي	لا يعدل	
فجئبه خافق الجناب	نابي	مُبَلِّل	
والطُّرف من دائم انسكاب	كابي	مُخَبِّل	

(١) ١٠٩/٤ ونخطط المقريري (طبعة دار التحرير) ٧/٢ وديوانه
طبعته دار الكتب المصرية .

(١) انظر في أيدير فوات الوفيات ١٤٠/١ والانتصار
لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق (طبع مطبعة بولاق)

وواضح أنه بدأ موشحه بالدور أو الغصن لا بالقفل ، وتلا القفل بالدور في ثلاثة أبيات ، وكل بيت مكوّن من ثلاثة أجزاء ، الجزء الثاني مستخرج من آخر الجزء الأول ، فصايب مستخرج من التصايب وبالمثل نابي مستخرج من الجناب ، وكابي مستخرج من انسكاب . وهو تكلف واضح ولكنهم كانوا يعدونه في الموشحات والأشعار آية براعة فائقة .

المحار^(١) الحلبي

هو سراج الدين عمر بن مسعود الحلبي الملقب بالمحار لأنه نشأ يَمَحِر الكتان أي يغسله ويبيضه ثم اشتغل بالأدب والشعر ومهر فيهما ، ففارق موطنه حلب إلى حماة ورعاه صاحبها الملك المنصور (٥٨٧ - ٦١٧ هـ) إلى أن توفي بدمشق سنة ٧١١ . وربما كان أروع وشاح أنجبته الشام على مر الأزمنة والحقب ، ومن موشحاته المشهورة موشحة عارض بها أيدمر المحيوي في موشحته المذكورة آنفا ويستهلها على هذا النمط :

مَناحِتُ الوُرُقِ في الغصونِ إلّا هاجتْ على تغريدها لوعةَ الحزين
 هل ماضى لي مع الحبايبِ آيبُ بعد الصدودِ
 أوهل لأيامنا الذواهبِ واهبُ بأنْ تعودُ
 بكل مصقولة الثرائبِ كاعبُ هيفاء رُودُ

والموشح يمج على هذه الشاكلة بعذوبة الجرس وجمال الإيقاع والنغم رغم محاولة المحار فيه أن يستخرج الجزء الثاني في الدور من آخر كلمة في جزئه الأول ، فقد كان من القدرة على حسن التلحين لكلماته بحيث لا يقف دونه أي عائق ، بل إن العائق نفسه يصبح إكمالاً بديعاً للتلحين والتنغيم على نحو ما يتضح في كلمات « آيب - واهب - كاعب » . . ولا يقل عن هذه الموشحة عذوبة ورشاقة وحلاوة في النغم موشحته التي عارض بها موشحة أحمد بن الحسن الموصلي المار ذكره في العراق ، افتتحها بقوله :

مَدشِمتُ سَنا البروقِ من نَعمانِ باتت حَديقِ

(١) انظر في المحار فوات الوفيات ٢/٢١٩ ، ٥٠٦ ، وانظر توشيح التوشيح للصفدي إذ توارد مع صاحب الفوات على أربعة من الموشحات وانظر عقود اللآل رقم ٥٢ ، ٧٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ والنجوم الزاهرة ٩/٢٢١ والوفاء ٤/٢٨٠

تُذَكِّي بمسيل دمعها الهتّانِ نارَ الحُرْقِ (١)
 ما أومض بارقُ الحِمَى أو خَفَقًا
 إلا وأجَدَّ لى الأسى والحُرْقَا
 هذا سببٌ لمحتى قد خُلِقَا

وتصويره لمسيل الدموع المتدفق بأنه يضرم نار الحرق تصوير بديع . وموشحات المخار على هذا النمط تمتع الأذن والقلب والخيال بصفاء موسيقاها ورقتها وما يُطَوَى فيها من جمال التصاوير .

(د) البديعيات

مرّ بنا أن الشام - منذ أواخر القرن الثاني الهجرى - تطورت بصور البديع الحسية التجديدية من جناس وطباق وتصاوير إلى إشراك صور جديدة معها من زخرف الفكر ووشيه على نحو ما هو معروف عن أبي تمام ، نافذة بذلك إلى إرساء مذهب جديد فى فن الشعر سمّيته فى كتاب « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » باسم مذهب التصنيع أى التنميق الناشئ عن استخدام محسنات البديع المعروفة وأيضاً عن استخدام طرائف فكرية لا تكاد تُحصى . وتبع البحترى - كما ذكرنا - أستاذه أبا تمام فى المذهب ولم تكن له ثقافته الفلسفية ولا بعد غوره فى الأفكار . وكان أبو تمام يكثر من الجناس فلم يتابعه البحترى فى هذا الإكثار وإن ظل يستخدمه كما يستخدم الطباق والتصاوير من تشبيهات واستعارات . ونجد الجناس بعده على كل لسان فكل شاعر شامى يحاول أن ينفذ فيه إلى أبيات بديعة كقول أبى فراس الحمدانى (٢) :

وما السلافُ دهثنى بل سَوَّأَفُهُ ولا الشُّمولُ دهثنى بل شمائلُهُ

ولعل شاعرًا شامياً لم يكثر من استخدام الجناس كما أكثر أبو العلاء ، وسنراه يدخل عليه ألواناً من التعقيد سنعرض لها عما قليل ، وكان يعاصره ابن حَيُّوس المتوفى سنة ٤٧٣ وكان يتابع أبا تمام فى الإكثار من المحسنات البديعية جناساً وغير جناس . ونرى العباد الأصهبانى فى الخريدة يتوقف مراراً ليثبت على هذا الشاعر أو ذاك كثرة استخدامه للجناس ، وسجّل ذلك مراراً على الشعراء

(١) تذكى : تضرم .
 الفرنسى بدمشق (٣٠٢/٢)

(٢) الديوان تحقيق . د . سامى الدهان (طبع المعهد

الثلاثة الذين افتتح بهم الجزء الأول من شعراء الشام وهم الغزى وابن منير والقيسراني وفيه يقول :
« صاحب التطبيق والتجنيس ، وناظم الدر النفيس » (١) . وعلى شاكلتهم شعراء الخريدة لافي
استخدام الجناس وحده بل في استخدام المحسنات البديعية جميعا ، وكذلك من تلاهم من
الشعراء الشاميين .

وكانت قد تكونت بمصر منذ أواخر أيام الفاطميين مدرسة حملت لواء المحسنات البديعية
وأشاعتها في شعرها ونثرها مضيئة إليها لونا جديدا هو لون التورية الذي يصور مزاج المصريين
وميلهم من قديم إلى النكتة ، وكان من السابقين إلى حمل هذا اللواء بأخرة من الدولة الفاطمية
ابن قادوس وابن قلاقس ، وحمله بعدهما القاضي الفاضل وابن سناء الملك وغيرهما . وكانت ديار
الشام جميعها توحدت مع مصر لعهد صلاح الدين ، وسرعان ما وجدنا ذوق هذه المدرسة
المصرية يعم بلدان الشام ، كما لاحظ ذلك الصفدى ونقله عنه ابن حجة الحموى في خزانته إذ
ذكر السابقين في المدرسة من شعراء مصر ثم قال : « وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم
وتأزر نصرهم » وعدّ منهم سيف الدين المشد المتوفى سنة ٦٥٦ والشيخ شرف الدين عبد العزيز
الأنصارى شيخ شيوخ حماة المتوفى سنة ٦٦٢ وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠
ومجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ والشاب الظريف شمس الدين محمد بن العفيف المتوفى سنة
٦٨٨ ومحيي الدين بن قُرْناص الحموى المتوفى سنة ٧١٢ وتمثل ابن حجة في خزانته بأشعارهم في
محسنات البديع المختلفة وفتح لكل منهم فصلا طريفا في باب التورية ، واستطاعوا في أحوال كثيرة
أن يجعلوا لتورياتهم نفس خفة الروح التي تلقانا في توريات المصريين مثل قول ابن لؤلؤ (٢) :

يَمْرُ بِي كُلَّ حِينٍ وَكَلِمًا مَرًّا يَجْلُو

وهو لا يريد « مر » من المرور وهو المعنى المتبادر لكلمة يمر في أول البيت ، وإنما يريد مر من
المرارة عكس الحلاوة ، وهو المعنى البعيد ، ومثل قول مجير الدين بن تميم (٣) :

أَيَا حُسْنَهَا مِنْ رَوْضَةٍ ضَاعَ نَشْرُهَا فَنَادَتْ عَلَيْهِ فِي الرِّيَاضِ طَيُورٌ

ولضاع معنيان : أولها من ضاع الزهر يَضُوع إذا فاحت رائحته ، وثانيها من ضاع الشيء

(٣) فوات الوفيات ٥٤٢/٢

(١) الخريدة (قسم الشام) ٩٦/١

(٢) خزنة الأدب للحموى ص ٣٢٨

يضيع إذا فقد والأول المراد . ومثل قول الشاب الظريف وقد احتجب بعض أصحابه عنه (١) :

ولقد أتيتُ إلى جنابك قاضيا باللثم للعتبات بعضَ الواجبِ
وأتيتُ أقصد زورةً أحظى بها فرِدِدْتُ - ياعيني - هناك بحاجبِ

وواضح أنه ليس المراد حاجب العين ، وإنما البواب المشرف على الزيارة . وتظل التورية شائعة على ألسنة الشاميين ، ويشيد الحموي في خزائنه باستخدام الوداعي على بن المظفر المتوفى سنة ٧١٦ لها ولاكثاره منها كقوله (٢) :

قال لي العاذلُ المفنَّدُ فيها يومَ وافَتْ فسَلَّمْتُ مُخْتَالَه
قم بنا ندعى النبوةَ في العشدِّى فقد سلَّمتُ علينا الغزاله

وللغزالة معنيان : معنى قريب وهو الشمس ومعنى بعيد وهو صاحبتة الجميلة التي تشبه الغزالة وهو المراد .

ويتبع ابن حجة ماأخذه ابن نباتة من موائد التورية عند الوداعي ، وبالمثل يتبع ماأخذه الصفدى من ابن نباتة من تورياته البديعة ، وكان الصفدى يعنى عناية شديدة باصطناع المحسنات البديعية وخاصة التورية والجناس ، وله فيها كتابان .

ومضى شعراء الشام - بعد الصفدى - كشعراء مصر يعنون بتلك المحسنات بقية زمن المالك ، يشترك في ذلك فتح الدين بن الشهيد المتوفى سنة ٧٩٣ وعلى بن أيبك الدمشقى المتوفى سنة ٨٠١ وابن الأدمى المتوفى سنة ٨١٦ وابن حجة الحموى صاحب الخزانة المتوفى سنة ٨٣٧ . ويطرد اصطناع المحسنات البديعية في أيام العثمانيين ، ومن أهم ألوانها الاقتباس من القرآن الكريم وتضمين شطور أو أبيات في قصيدة الشاعر لشعراء سابقين ، وقد اقتبس الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى فواصل « سورة الشمس » في قطعة غزلية له مستهلا لها بقوله (٣) .

قسماً بِشَمْسٍ جَبِينِهِ وَضُحَاهَا وَنَهَارٍ مَبْسِمِهِ (إذا جَلَّأها)

(٣) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصارى (نشر مجمع اللغة العربية بدمشق - تحقيق د. عمر موسى) ص ٥١٥

(١) خزانة الأدب للحموى ص ٣٣٤

(٢) الخزانة ص ٣٤٣

وتوالت قوافيه : (يَغْشَاهَا - زَكَّاهَا - تَقَوَّاهَا - أَشْقَاهَا) . ومن طريف الاقتباس في الغزل قول
فتح الدين بن الشهيد (١) :

فِي صَدْرِهَا رُمَّانٌ نَهْدٌ زَانُهُ حَلْيٌ (يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ)

ويريد بوسوسة الحلي صوته الخفي ، واقتبس - كما هو واضح - آية سورة الناس وما فيها من
الاستعاذة من الشيطان الوسواس بما لانفع فيه الذي (يوسوس في صدور الناس) . وأكثر الشعراء
من التضمين لأبيات المتنبي وغير المتنبي من كبار الشعراء ، كقول مجير الدين بن تميم مضمنا لبيت
من أبيات المتنبي في وصفه لزهر اللوز إذ يقول (٢) :

أَزْهَرَ اللَّوْزِ أَنْتَ لِكُلِّ زَهْرٍ مِنْ الْأَزْهَارِ يَا تَيْنَا إِمَامُ
« لَقَدْ حَسَنْتُ بِكَ الْأَيَّامَ حَتَّى كَأَنَّكَ فِي فَمِ الدَّهْرِ ابْتِسَامُ »

وعنى كثيرون باقتباس الشطور الثواني من معلقة امرئ القيس وتضمينها في قصائدهم . وسنلتقي
بأمثلة كثيرة من ألوان هذه البديعيات في ترجحاتنا للشعراء .

(هـ) التعقيدات

إذا كانت الشام نفذت - على لسان أبي تمام - إلى ابتكار مذهب التصنيع والتنميق في الشعر
العربي ، فإنها هي أيضا التي نفذت إلى ابتكار مذهب التصنع والتعقيد في الشعر أو قل هي التي
أعطته صيغته النهائية ، فقد أخذ الشعراء - منذ أوائل هذا العصر - يتكلفون في صورهم البيانية
ومحسناتهم البديعية ألوانا شتى من التكلف عرضناها في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي »
ومانصل إلى أبي العلاء المعري حتى يبلغ هذا التصنع أقصاه في ديوانه : « لزوم مالا يلزم » وهو في
مجلدين ضخمين . والقصائد فيه تنتظم حروف المعجم حرفاً حرفاً ، وفي كل حرف يأتي بالروى
ساكناً ومتحركاً بالحركات الثلاث : الضمة والفتحة والكسرة ، والتزم مع كل روى حرفاً معيناً
يسبقه كالباء والتاء وغيرهما . وبذلك أصبح لقصائد هذا الديوان الضخم رويان يلزمانها في حتمية
شديدة . وليس هذا كل ما في الديوان من تعقيد ، فقد يكون ذلك أخف ما فيه من ألوانه ، إذ نراه
يعنى فيه بعرض كلمات غريبة لاتكاد تحصى ، وشغف بالجناس وعقده بدوره إذ طلبه بين القافية

(٢) الخزانة ص ٤٧٣

(١) الخزانة ص ٤٠٤

وما يسبقها من كلمات البيت ، بل لعله ظن ذلك لا يزال شيئا سهلا فطلب أن يكون بين أول كلمة في البيت وبين القافية كقوله (١) .

أَشْرَاكَ ذَنْبُكَ وَالْمُهَيْمِنُ غَافِرٌ مَا كَانَ مِنْ خَطِيئَةٍ سِوَى الْإِشْرَاكِ

ومعنى أشراك : أغراك وأوقعك في الإثم . ويكثر هذا الجناس المعقد في لزوم ما لا يلزم أوفى اللزوميات ، ولا يكتفى أبو العلاء بعقد الجناس واللفظ الغريب والروى المتعدد بل يطلب عقداً أخرى من ألفاظ الثقافات وما يتصل بها من اصطلاحات الفلسفة والعلوم الإسلامية وعلوم الأوائل من فلك وغير فلك وعلوم العربية من عروض وغير عروض مثل (٢) .

بَقَائِ الطَّوِيلِ وَغَيْبِ البَّسِيطِ وَأَصْبَحْتُ مضطرباً كَالرَّجَزِ

والطويل والبسيط والرجز من محور الشعر وأوزانه كما هو معروف ، والرجز أكثرها اضطراباً لكثرة ما يجري فيه من زحافات وعلل .

ولعل في ذلك ما يوضح كيف أرسى أبو العلاء في الشام مذهب التصنع والتعقيد الشديد وكيف رفعه على دعائم متينة لافي قصيدة واحدة أو في قصيدتين ، بل في ديوان كبير . وتبعه شعراء الشام لا ينظمون دواوين مثله يلتزمون فيها ما لا يلزم من اللوازم التي التزمها جميعاً ، ولكنهم يستخدمونها في الحين بعد الحين كقول ابن حيوس متغزلاً (٣) :

أَوْصَابُ جِسْمِي مِنْ جِنَايَةِ بُعْدِكُمْ وَالصَّبْرُ صَبْرٌ بَعْدَكُمْ أَوْ صَابُ

فقد جانس بين أول كلمة في البيت وبين القافية المكونة من حرف العطف « أو » وكلمة صاب مثل كلمة صبر أي مر . وعلى هذه الشاكلة قول ابن عنيّن (٤) :

خَبَّرُوهَا بِأَنَّهُ مَا تَصَدَّقْتُ لَسَلُّوْهَا عَنْهَا وَلَوْ مَاتَ صَدًّا

والجناس واضح بين آخر الشطر الأول والقافية ، وهو فيها مكون من كلمتين . ويكثر ذلك عند شعراء العصر حتى نهايته زمن العثمانيين . ويقول الحموي في خزانته : « كان الشيخ صلاح

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي (طبع دار المعارف

(٣) الديوان ٥٨/١

الطبعة العاشرة) ص ٤٠١

(٤) الديوان (تحقيق خليل مردم طبع دار صادر) ص

الدين الصفدي يستسمن ورمه ويظنه شحما فيشبع أفكاره منه ويملاً بطون دفاتره (شعرا ونثرا)
ويأتى فيه بتراكيب تخفُّ عندها جلاميد الصخور . ويسوق من هذه الجلاميد أمثلة لعل أخفها
قول الصفدي^(١) .

وكم شِمتُ لما قِستُ مقدارُ ودِّكم بوارقَ بأسٍ في بوارٍ قياسِ

والجناس في الشطر الثاني ، وهو مركب من كلمتين يختلفان معنى وبناء كما هو واضح ، وفيه
غير قليل من الثقل فما بالناس بما وراءه من أمثلة ساقها الحموى للصفدي . ولانعدام أن نجد بين
الشعراء من يزرى على هذا التصنع الشديد لجناسات كأنها قطع الصخر كما يقول الحموى مما يجعلها
تصك الآذان صكاً عنيفاً ، ولعله لذلك حمل زين الدين بن الوردى معاصر الصفدي المتوفى سنة
٧٤٩ على من يجعل الجناس له مذهباً في نظمه ، يقول ناصحاً شعراء عصره^(٢) .

إذا أُحْبِيتَ نَظْمَ الشَّعْرِ فَاحْتَرِّ لِنَظْمِكَ كُلَّ سَهْلٍ ذِي امْتِنَاعِ
وَلَا تَقْصِدْ مِجَانِسَةً وَمَكَّنْ قَوَافِيَهُ وَكِلَهُ إِلَى الطَّبَاعِ

وقليلون هم الذين استمعوا إلى نصحه إذ أصبح التصنع منذ زمن أبي العلاء في القرنين الرابع
والخامس ظاهرة عامة تشمل جمهور الشعراء إلا من ندر ، ولهم في ذلك كثير من الأفانين
وينشد العمد الأصهباني في خريدته صوراً كثيرة من هذه الأفانين ، وخاصة عند ابن قسيم الحموى
المتوفى سنة ٥٤١ وهو شاعر نور الدين وأبيه عماد الدين ، وبدأ العمد بصورة معقدة من تصنعه في
القوافي إذ نظم أبياتاً على خمس قواف ، يقول فيها مادحاً^(٣) :

قل	للأمير	أخي	الندى	والنائلي	المطال	للشعراء	والقصيد
لازلت	تستهك	العدا	بالذابل	العهبالي	في الاحشاء	والاكباد	
ووقيت	من صرف	الردى	والنازل	المختال	للأعداء	والحساد	

وواضح أنه يمكن أن تُفصل الشطور الأولى من كل بيت وحدها وأن يضاف لكل منها الكلمة
التالية أو الكلمتان أو الأربعة ، ومع كل صورة يتكون بيت مستقل ، وهي مهارة تصور قدرة على

(٣) الخريدة (قسم الشام) ٤٤٤/٢

(١) الخزانة ص ٢٦

(٢) الخزانة ص ٢٧

التصنع والتعقيد . وينشد العماد بن قُسيّم مقطوعة طويلة تتوالى الكلمات فيها بحيث لا تخلو أولاهما من صاد وثانيتها من سين أو العكس^(١) . ومما أنشده العماد في خريدته من هذه الصور المتكلفة قصيدة لشاعر من شعراء المعرة التزم في كل كلمة من كلماتها أن لا تخلو من حرف النون^(٢) ، وأنشد لشاعر آخر من شعراء المعرة قطعة تُقرأ على سبعة أوزان^(٣) . ولا بن عين حين ألم في رحلته الكبيرة إلى المشرق بالفخر الرازي في « هراة » قصيدتان^(٤) في مديحه تشتمل كل كلمة في أولاهما على حرف السين كقوله فيها .

حَسَّتْ سريرته وَقُدِّسَ سِنْحُهُ وَسَمَا بِأَسْلَافٍ سِرَاقٍ شُوسٍ^(٥)

بينما تشتمل كل كلمة في ثانيتهما على حرف الحاء . وتعلق كثير من الشعراء في العصر بصنع الألغاز والإجابة عنها ، وأفرد كثيرون لها أبوابا في دواوينهم على نحو ما يلقانا في ديوان ابن عين وأيضا في ديوان مامية الرومي الدمشقي في زمن العثمانيين . وظل غير شاعر يتصنع للملايلزم في بعض مقطوعاته وقصائده وكان للصاحب عبد العزيز الأنصاري مجلد كبير فيه^(٦) .

٤

شعراء المديح

يكثر شعراء المديح في الشام منذ القرن الثاني الهجري ، وذكرنا أسماء نفر منهم في غير هذا الموضع ، وقد أهدت الشام في القرن الثالث إلى الشعر العربي أكبر شاعرين مدّاحين فيه ، وهما أبو تمام والبحتري . ويتكاثر شعراء المديح كثرة مفرطة في أول هذا العصر : عصر الدول والإمارات بجلب زمن بطلها سيف الدولة الحمداني الذي تحول بها إلى أكبر مركز علمي وفلسفي وأدبي ، على نحو ما مرّ بنا ، وغدت مقصد الأدباء وحلبة الشعراء ، وجاءوها من كل بلد في العراق وإيران فضلا عن الشام ، وفي مقدمتهم المتنبي . وظل سيف الدولة نحو عشرين عاما يمزق جموع البيزنطيين ويستولى على كثير من الحصون والبلدان ، والشعراء من حوله ينثرون عليه قصائدهم

(٥) السنج : الأصل ، شوس جمع أشوس : الشجاع

المقدام

(٦) فوات الوفيات ٥٩٨/١

(١) الخريدة (قسم الشام) ٤٤٧/١

(٢) الخريدة ٤٥/٢

(٣) الخريدة ١٠٨/٢

(٤) الديوان ص ٩٦ ، ٩٨

ومدائحهم بالعشرات - إن لم يكن بالمئات - مسجلين للبطل العربي مجده الحرى العظيم ، وقد صورنا في قسم العراق من هذا التاريخ للأدب العربي مدائح المتنبي فيه ، ولن نستطيع أن نعرض هنا مدائح غيره من شعراء العراق مثل ابن نباتة وأبي الفرج البغدادى ، فكتاب اليتيمة للشعالبي يحمل من مدائحها ومدائح غيرها لسيف الدولة روائع بديعة . ويكفى أن نشير إلى من تحفوا به من شعراء الشام أمثال كشاجم والوأواء الدمشقي وأبي العباس أحمد بن محمد المصيصي المشهور باسم النامي ، وكان عند سيف الدولة يتلو أبا الطيب في المنزلة والرتبة ، وكان شاعرا بارعا ، ومن قوله فيه بإحدى مدائحه (١) :

أَمِيرَ الْعُلَا إِنْ الْعَوَالِي كَوَاسِبٌ عِلَاءَكَ فِي الدُّنْيَا وَفِي جَنَّةِ الْخُلْدِ
يَمْرٌ عَلَيْكَ الْحَوْلُ ، سَيْفُكَ فِي الْعُلَا وَطَرْفُكَ مَا بَيْنَ الشُّكِيمَةِ وَاللُّبْدِ (٢)
وَيَمْضَى عَلَيْكَ الدَّهْرُ ، فَعَلَّكَ لِلْعَلَا وَقَوْلُكَ لِلتَّقْوَى وَكَفَّكَ لِلرَّفْدِ

فسيف الدولة دائما محارب يديق أعناق البيزنطيين بسيفه المسلول ، ودائما ساهر شاكي السلاح وبصره مصوب إلى فرسه الذي يملك باستمرار شكيمته استعدادا للنزال . وما الإنسان إلا فعل وقول وفعل سيف الدولة دائما للعلا ومنازله الرفيعة وقوله للتقوى ومحافة الله ، أما كفه فللعطاء والنوال السابغ .

وكان سيف الدولة - ومثله الحمدانيون عامة - من الشيعة الإمامية ، مما جعل كثيرين من أهل حلب يعتقدون هذه النحلة ، ومربنا أن تفرعت عنها فرقة التُّصَيْرِيَّة الشديدة الغلو لما ترعمه - كما مرَّ بنا - من ألوهية علي بن أبي طالب . ومكَّن لانتشار التشيع في الشام استيلاء الدولة الفاطمية على فلسطين ودمشق وكثير من بلدان سوريا منذ سنة ٣٥٩ ونرى نفرا من شعراء الشام يتزلون القاهرة معتنقين - على ما يبدو - لتلك النحلة ويتغنون بمديح الخليفة الفاطمي العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) ووزيره يعقوب بن كلُّس وفي مقدمتهم أبو الرِّقْمَقِ أحمد بن محمد الأنطاكي ، وله في الخليقة ووزيره غير قصيدة ، ومن قوله في ابن كلُّس بإحدى قصائده (٣) :

لَمْ يَدْعُ لِلْعَزِيزِ فِي سَائِرِ الْأَرْضِ ضُ عَدُوًّا إِلَّا وَأَخْمَدَ نَارَهُ

اللجام

(١) اليتيمة ٢٢٥/١

(٢) اليتيمة ٣١٠/١

(٢) الطلا : جمع طلية أو طلاة كما مر . وهي العنق أو صفحتة الشكيمة : الحديدية المعترضة في فم الفرس من

كلُّ يومٍ له على نُوبِ الدَّهْرِ وَكَرًّا الخُطوبَ بالبُذْلِ غارَةٌ

ولأبي العلاء المعري ديوان معروف يسمى «سقط الزند» أكثره مدائح نظمها على سبيل
التمرين لا اقتصاداً لمديح شخص بعينه إلا ما ندر، فهو لم ينظم كثرتها طلباً للكسب ونيل العطاء،
ولنما على سبيل التدريب اتباعاً لشعراء المديح المنتشرين بزمنه في كل مكان، ومن قوله على
طريقتهم في المديح بأولى قصائد سقط الزند:

مَكْلُفٌ خَيْلُهُ قَصَصَ الأَعَادِي وَجَاعِلٌ غَابِهِ الأَسَلِ الطُّوَالَا
تَكَادُ قِسِيهِ مِنْ غَيْرِ رَامٍ تُمَكِّنُ مِنْ قُلُوبِهِمُ التُّبَالَا

فالخيل لكثرة ما جعلها الممدوح تمارس القتال تقتنص بنفسها الرجال. وإنه لأمدح حقاً غير أن
عريته ليس غاباً بل رماحاً طوالاً تخطف الأرواح خطفاً، وإن قسيه لتصيب أعداءه في الصميم
دون رام ينزع عنها النبل والسهام، وهي مبالغة مألوفة عند أصحاب المديح لأيامه.
ومررنا أن بني مرداس خلفوا الحمدانيين في حلب، وعنى منهم خاصة محمود بن نصر يجمع
الشعراء حوله فاجتمع في حاشيته كثيرون منهم عبد الواحد الحلبي الربيعي وابن حيوس الدمشقي
وابن النحاس الحلبي وابن سنان الخفاجي. وحدث أن قطبان أنطاكية أو بطريقها استولى في
شعبان سنة ٤٦١ على حصن «أسفونا» ونكّل تنكيلاً شديداً بأهله، فحاصره محمود بن نصر
وفتك بجميع رجاله، وكانوا نحو ألفين، وردّ محمود الحصن على أهله، وهنأه ابن سنان الخفاجي
بهذا النصر المبين قائلاً في إحدى قصائده (١).

إِنْ أَظْهَرْتُ لِعَلَّاكَ أَنْطَاكِيَّةً حُزْنًا فَقَدْ ضَحَكَتْ عَلَى قُطْبَانِيهَا
لَمَّا أَطَّلَّ لَهُ لَوَاؤُكَ خَافِقًا عُرِفَتْ وَجْوهُ الذُّلِّ فِي صُلْبَانِيهَا

وحين زار حلب نظام الملك وزير ألب أرسلان السلجوقي قدّم له كثيرون من شعرائها
مدائحهم، وكان وافر العقل بصيراً بتدبير الملك سيّوساً بعيد النظر، فساس الدولة السلجوقية خير
سياسة، وهو مؤسس المدارس أو الجامعات النظامية في العراق وإيران، وله يقول محمد بن أحمد
الشطرنجي الحلبي من مدحة طويلة على أبواب حلب (٢).

(١) زبدة الحلبي من تاريخ حلب لابن العديم ١٤/٢ وما

(٢) دمية القصر ١/١٩٩

ياخير من خفت عليه رايةً وأجل معقودٍ عليه لواء
لك كل يوم مئة سيرة في الخافقين وغارة شعواء

وذكرنا - فيما أسلفنا - أن بني عمار استطاعوا أن يكونوا لهم في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري إمارة بطرابلس ، وكانوا يُقربون منهم الشعراء ويجزلون لهم في العطاء ، وذكر العماد الأصبهاني في الخريدة نفرا من شعرائهم في مقدمتهم ابن العلاء المعري ، وله من مدحة في عمار بن محمد بن عمار : آخر أمرائهم (١) :

يحتاطك التوفيقُ لا يألوك في تسهيله لك كلَّ صعبٍ أو عرٍ
دامت لك النعماء موصولاً بها توفيقٌ منصورٍ اللواء مظفرٌ

وسقطت من يده طرابلس في حجر الصليبيين ، وكانت لذلك مناحة كبيرة بين المسلمين . وكان ابن العلاء - فيما يبدو - شيعياً ، ولعله لذلك رحل إلى القاهرة وقدم مدائحه إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ، وله يقول في إحدى مدائحه (٢) :

ليزدد علواً ملك مصر فلانها به حرم الله العزيز المحرم
فكة مصر ، والحجيج وفوده ويمناه ركن البيت ، والتليل زمزم

ومن كبار الشعراء الذين نشأوا في حجر بني عمار واستظلوا بما أحدثوا في طرابلس من حركة أدبية الشاعر الدمشقي ابن الخياط وسنخسه بترجمة مستقلة .

وأمرء حصن شيرز : بنو مقلد بن منقذ على شاكلة بني عمار في طرابلس يتردد مديحهم على السنة الشعراء منذ استخلص على بن مقلد بن منقذ « شيرز » من أيدي الروم سنة ٤٧٤ وظلت أسرته تحكمها حتى أتى عليها زلزال شديد سنة ٥٥٢ هدمها من قواعدها وأهلك سكانها . وتغني الشعراء طويلاً باسم محررها في القرن الخامس على بن منقذ وبخلفائه في حكمها ، كما نجد عند ابن منير والقيصري .

ويلقانا في أواخر القرن الخامس والربع الأول من القرن السادس شاعر فلسطيني هو العزّي إبراهيم بن يحيى المتوفى سنة ٥٢٤ وقد ترك غزاة مسقط رأسه مبكراً إلى دمشق يختلف إلى شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وظل بالمدرسة النظامية فترة طويلة مدح فيها ورثي كثيرين من علماءها ، ثم تركها

(٢) الخريدة ٨٢/٢

(١) الخريدة (قسم الشام) ٧٨/٢

إلى كَرَمَانَ وشيراز في فارس وهرارة في أفغانستان وكلما ألم ببلد مدح أمراءها ووزراءها حتى وفاته فهو شاعر جَوَّال ، وله أشعار كثيرة رائعة في المديح وغير المديح ، وله في ابن مكرم وزير كَرَمَانَ مدائح بديعة من مثل قوله^(١) :

مادعوناه من بني الدهر إلا أهل الدهر نفسه للتهاني
 جُمع الأسد والكواكب والأب حُرَّ والناسُ منه في إنسان
 واستجابت له مناقبُ شئى لم تجلَّ في خواطر الإمكان

ويتنبه البطل المغوار أتاك الموصل عماد الدين زنكى منذ أوائل العقد الثالث من القرن السادس الهجرى إلى أن تحاذل المسلمين أمام حملة الصليب مرجعة إلى تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لهم وأنه لابد من جمع كلمتها تحت لواء واحد . ويستولى على حلب وبعض بلدان سوريا الشمالية ، وماتوا في سنة ٥٣٤ للهجرة حتى يسوق إلى الصليبيين جيشا جرارا بقيادته ، وينازلهم بالقرب من حماة ويعصف بجمعهم ، ويستولى على حصن بارين بين حماة وحلب . وكانما استيقظ الشعر حينئذ من سباته الطويل . ويتبارى الشعراء في مديحه والإشادة بانتصاره ، وفي مقلمتهم ابن منير والقيسراني . ولم يلبث في سنة ٥٣٩ أن فتح مدينة الرها مزيلا منها جوسلين ودولته الصليبية إلى غير رجعة ، وهلل الشعراء في كل مكان لهذا الفتح المبين ، وفيه يقول ابن منير^(٢) :

فتح أعاد على الإسلام بهجته فافتتر مبسمه واهتر عطفاه
 أين الخلائف عن فتح أتيح له مظلل أفق الدنيا جناحاه

ومضى ابن منير في القصيدة يُعلَى - بحق - هذا الفتح على فتح المعتصم لعمورية أكبر مدن آسيا الصغرى في زمنه ، فقد قضى زنكى على المملكة الرابعة لحملة الصليب ، وكانوا قد أسسوها شمالي العراق . وبدا حينئذ - في الأفق - أمل كبير في أن ممالكهم التي أسسوها في أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس لا بد أن تسقط في أيدي المسلمين مهما طال الزمن . وامتدت إلى عماد الدين سنة ٥٤١ يد أئمة في الظلام ففتكت بالبطل الباسل ، وحمل الراية بعده ابنه نور الدين ومضى يجاهد الصليبيين ، وغرَّت الأمانى جوسلين فعاد إلى الرها ، واستردها

لابن واصل تحقيق الدكتور الشيال ٩٣/١

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥١/١

(٢) الروضتين لأبي شامة ٣٩/١ وانظر مفرج الكروب

سريعا نور الدين وفرّ جوسلين ، وهنّاه الشعراء بهذا الفتح المبين ، وفي مقدمتهم ابن قسيم الحموي
بمثل قوله (١) :

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهه كالرمح دلّ على المساواة لئنه
والدين يشهد إنه لمعزّه والشرك يعلم إنه لمهينه
فتح الرها بالأمس فانفتحت له أبواب ملك لا يذال مَصُونُهُ (٢)

وولّى نور الدين وجهه نحو سوريا فاستولى من حملة الصليب على حصن أرتاح سنة ٥٤٤ .
ونازل صاحب أنطاكية وجموعه ، وخرّ صريعا بيد أسد الدين شيركوه وفرّت جموع الصليبيين
مهزومة مدحورة . وعاد نور الدين إلى حلب ، والشعراء يهللون بمثل قول ابن منير في مطلع قصيدة
له (٣) .

أقوى الضلال وأقفر عرصاته وعلا الهدى وتبلّجت قسامته

وظلت أيام نور الدين محمود أعياد نصر على حملة الصليب ، وظل الشعراء يدبجون فيه مدائح
رائعة ، وقد استولى من الصليبيين على أفامية سنة ٥٤٥ واستولى من بيت طغتكين على مدينة
دمشق سنة ٥٤٩ وهبته عالمها وحافظها ابن عساكر قائلا (٤) .

لقد بلغت بحمد الله منزلة عالية فاقصد العالی من القرب
وطهر المسجد الأقصى وحوزته من التجاسات والإشراك والصلب

وفي نفس السنة يهزم الصليبيين بدلوك من ثغور حلب ، ويتنازل له حملة الصليب في أنطاكية
عن نصف أعمال حارم . واستولى على شيزر وبعلبك وصرخد ، وشغل بإرسال نور الدين شيركوه
وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر سنة ٥٥٨ وتطورت الظروف وتملك صلاح الدين مصر . ونور
الدين محمود يُعدّ بحق منشئ الدولة الأيوبية . ولم يلبث في سنة ٥٥٩ أن استولى على مدينة حارم ،
وأخذت حصون كثيرة تتساقط في يده ، ويتغنى بانتصاراته الرائعة العمام الأصبهاني قائلا في مطلع
إحدى قصائده (٥) .

(١) الخريدة (قسم الشام) ٤٧٤/١ وما بعدها

أقفر . عرصاته : ساحاته . تبلّجت : أضاءت .

(٢) يذال : يهان .

(٤) الخريدة (قسم الشام) ٢٧٧/١

(٥) الخريدة (بداية قسم الشام) ص ٥٤

(٣) الروضتين ٥٨/١ ومفرج الكروب ١٢٢/١ أقوى :

ياواحدا في الثَّصْرِ غيرَ مشارِكِ أقسمتُ مالك في البسيطة ثانٍ
كم وقعةٍ لك في الفَرَجِ حديكها قد سار في الآفاق والبُلدانِ
وجعلتَ في أعناقهم أغلالهم وسَحَبْتهم هُونًا على الأذقانِ

ويحمل الراية بعد نور الدين في منازلة حملة الصليب البطل المظفر صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية، وفتوحه العظيمة مصوّرة في الجزء الخاص بمصر، وما وافت سنة ٥٨٣ حتى تمت له هذه الفتوح بعد وقعة حطين المباركة التي استولى بعدها على بيت المقدس أهم مملكة كانت لحملة الصليب كما استولى على كثير من الحصون على الساحل الشامي، ولم يبق في الشام ولا في الموصل والعراق شاعر إلا وتغنى بفتوح هذا البطل الباسل، تغنى بها سبط بن التعاويذي البغدادي وموفق الدين الإربليّ والشاتالي الموصلی وابن الساعاتي الدمشقي وله مدائح كثيرة متناثرة في كتاب الخريدة، وللعماد في هذه الفتوح قصيدة رائعة أنشدنا منها قطعة في الجزء الخاص بمصر، ولابن الشحنة الموصلی فيه مدحة طارت شهرتها لقوله فيها هذين البيتين السائرين^(١):

وإني امرؤٌ أحببتكم لمكارمٍ سمعتُ بها والأذنُ كالعين تَعْشَقُ
وقالت لي الآمالُ إن كنت لاحقًا بأبناءِ أيوبٍ فأنت الموقِّعُ

ودار الزمن ودانت مصر والشام - بعد صلاح الدين - لأخيه العادل ، ولابن عُنَيْنِ الدمشقي فيه وفي ولديه المعظم عيسى والأشرف موسى مدائح مختلفة . وبينها رائية بديعة في العادل يستعطفه بها في العودة إلى دمشق وكان صلاح الدين نفاه منها لكثرة أهاجيه في أهلها ، وأذن له العادل في العودة ، وفيها يقول^(٢) :

العادلُ الملك الذي أسماؤه في كل ناحيةٍ تشرف منبرا
نسختُ خلائقه الكريمة ما أتى في الكُتُب عن كسرى الملوك وقيصرا
ملكٌ إذا خفت حلوم ذوى النهى في الرُّوع زاد رزانةً وتوقرا

ومعروف أن آل أيوب توزعوا فيما بينهم بلدان الشام ، وكان لكل منهم شاعره الذي يتغنى بمناقبه وأعماله ، ونذكر من بينهم نور الدين مودود شحنة دمشق ابن أخي صلاح الدين لأمه ،

وهو ممدوح فتیان الشاغوري دُبج فيه مدائح كثيرة . وحرى بنا أن نذكر ملوك حمة الأیوبین ، وكانوا ممدوحین . ومن أسبغ عليهم مدائحه الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصاري ، وله في صاحبها المظفر محمود (٦٢٦ - ٦٤٢ هـ) وابنه المنصور سيف الدين محمد (٦٤٢ - ٦٨٣ هـ) مدائح كثيرة ، وكان للثاني موقف محمود حين أحس بأن التار سيفزون الشام إذ التجأ بأسرته إلى مصر حتى إذا التحم القتال بين المصريين والتار في عين جالوت كان في مقدمة المحاربين البسلاء ، وثو الصاحب الأنصاري بهذا الموقف الشجاع طويلا بمثل قوله (١) :

بَعَيْنِ جَالُوتَ خُضَّتْ بَحْرٌ وَغَى يُخَالُ فُلُكًا بِالْأَسَدِ مَشْحُونًا
وَكُنْتُ لِلْجَيْشِ غُرَّةً شَدَخْتُ أَنْوَفَهُمْ فَاثْنَوْنَا مُؤَلِّينَا

وطوال أيام الممالك كان يرتفع صوت الشعر للتنويه بأعمالهم . وكان لانتصاراتهم على التار أو المغول بعد موقعة عين جالوت حظ كبير من الشعر ، ومررنا في قسم مصر أن الظاهر بيبرس كان دائما يتعقبهم في الموصل وعلى شواطئ الفرات وسمع بحشود لهم على شاطئه الشرق فخاض إليها لُججَةً وخاضها جيشه معه ومزقهم شر ممزق ، وفي هذه الغزوة يقول الموفق عبد الله الأنصاري الدمشقي (٢) .

الملكُ الظاهر سلطاننا نَفْدِيهِ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَهْلِ
اقتحمَ الماءَ لِيُطْفِئَ بِهِ حَرَارَةَ الْقَلْبِ مِنَ الْمُغْلِ

ولم يستول الظاهر بيبرس ولا قلاوون ولا الأشرف خليل على حصن أو بلد من حملة الصليب إلا وجلجل الشعر ، حتى إذا أنهى الأشرف خليل الحروب الصليبية باستيلائه على عكا آخر حصونهم أخذ شعر المديح في الشام يتحول إلى شعر مناسبات لمديح الحكام حين يستولون على أزمة الأمور أو حين تمر بهم بعض الأعياد أو بعض الأحداث .

ويظل الشعراء أيام العثمانيين يقدمون مدائحهم للحكام ، وكان شعراء الشام حينئذ قريين من إستمبول وكانوا لا يزالون غادين عليها راثمين ، مما جعلهم يكثرون من مديح سلاطينهم ، على نحو

(١) الديوان (بتحقيق عمر موسى - نشر مجمع اللغة . (٢) النجوم الزاهرة ١٦٠/٧

مايلقانا في ديوان مامية الرومي المتوفى سنة ٩٨٧ ومديحه فيه للسلطين سليمان وسليم الثاني ومراد الثاني . ويكثر حينئذ مدح العلماء وأعيان البلدان فضلا عن حكامها ، وأخذ الشعراء يكثر من مثل المصريين من التاريخ بالشعر يورخون قدوم حاكم أو مناسبة من المناسبات يجعلون ذلك في آخر شطر بالمدحة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحسب الجُمْل ، فيكون المجموع سنة الولاية للحاكم أو سنة المناسبة . وجدير بنا أن نعرض نقرأ من شعراء المديح النابيين .

ابن الخياط^(١)

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبي نسبة إلى قبيلة تغلب المولود بدمشق سنة ٤٥٠ لخياط اشتهر بنسبته إليه ، فهو من أبناء عامة الشعب الدمشقي . ودائما يلقانا في كل البلدان العربية شعراء من أولاد العامة ، لأن الثقافة العربية الإسلامية كانت مناهلها مفتوحة الأبواب دائما ، إذ كان الشيوخ في المساجد يعرضونها على الناس جميعا شبانا وشيبا ، وكانت المساجد أو الجوامع الكبرى تشتمل على مكتبات غاصة بالكتب في كل علم وكل فن وكذلك بدواوين الشعراء ، مما أتاح للشباب في كل بلد عربي أن يتزود بما شاء من الثقافة العلمية وأدبية وأن ينبغ بينهم علماء وأدباء وشعراء لا حصر لهم .

وشهد ابن الخياط في صباه دمشق نائرة على حكم بدر الجمالي ، حتى لقد أشعل أهلها النار في قصره سنة ٤٦٠ وسرت النار إلى الجامع فسقطت سقوفه وتناثرت فصوصه المذهبة ، ونُهبت الدور والدكاكين ، وظل هذا الاضطراب سائدا في دمشق وأخذ السلاجقة يحاصرونها ابتغاء الاستيلاء عليها حتى تم لهم ذلك سنة ٤٦٨ وتملكها تُتَشُّ أخو السلطان ألب أرسلان .

ومعنى ذلك أن الحياة كانت سيئة سوءا شديدا بدمشق منذ سنة ٤٦٠ حتى نزلها تتش مما جعل كثير من أهلها يهاجرون منها إلى بلدان الشام الأخرى . وكان ممن هاجر منها في هذه الأثناء ابن الخياط وكان لا يزال في بواكير شبابه ، وولَّى وجهه نحو حَمَاة ، ووفد على أمير بها يسمى محمد بن مالك فقربه منه واتخذته كاتباً له ، فعُرف باسم ابن الخياط الكاتب ، وفيه يقول :

حَبَانِي جَوْدُهُ عَيْشًا كَأَنِّي ظَفَرْتُ بِهِ مِنَ الدَّهْرِ اسْتِرَاقًا

خلكان ١٤٥/١ والشذرات ٥٤/٤ ومقدمة ديوانه بتحقيق خليل مردم (طبع المجمع العلمي العربي بدمشق)

(١) انظر في ترجمة ابن الخياط وشعره تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦٧/٢ وذييل تاريخ دمشق لابن القلانسي ٢٣٤ والخريدة (بداية قسم الشام) ص ١٤٢ والعبر ٣٩/٤ وابن

وكان شاعرٌ بلدته ابنُ حَيُّوس حين اضطربت الأحوال في دمشق سنة ٤٦٤ تركها إلى حلب وعاش بها في كنف بني مرداس ، فرأى أن يتبعه هناك ، ولقيه ابن حَيُّوس لقاء حسنا ومنحه ثيابا ودنانير مع تنويهه بشعره . وأوصاه أن يفد على بني عمار أصحاب طرابلس لرعايتهم الشعر والشعراء ، إذ سيجد عندهم مبتغاه . غير أنه عاد إلى حماة ، وكان كلما ألم بها أمير من أمراء بلدان الشام مدحه على نحو ما يلاحظ من مدحه للأمير الحلبي وثاب بن محمود بن صالح وله يقول :

لقد لبستُ بك الدنيا جلالاً فلو كانت يدًا كنت السوارا

ويبدو أنه مرَّ بحماة على بن مقلد بن منقذ بعد استيلائه على حصن شيزر ، فاتصل به الشاعر ومدحه ومدح معه أسرته وما اشتهروا به من بسالة وما أتاحوا لخصمهم الأشم من مناعة ، وفي ذلك يقول :

هُمُ غادروا بالعزَّ حصباءَ أرضهم أعزَّ منلا من نجوم الغياهبِ

ونرى ابن الخياط في سنة ٤٧٦ يأخذ بنصيحة مواطنه الشاعر الكبير ابن حَيُّوس ، فينزل طرابلس قاصداً بني عمار ويستقبلونه استقبالا حافلا ، وكان يحكمها حينئذ منهم جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار (٤٦٤ - ٤٩٤ هـ) وله فيه مدائح رائعة ، وربما كانت أولها داليتة ، وفيها نحس فرحته بلقائه من مثل قوله :

كفى يندى جلال الملك غيئا إذا نرحت قوارة كل وادٍ
فمن ذا مبلغ الأملاك عنا وسواس الحواضر والسبوادى
بأننا قد سكنا ظل ملك مخوف البأس مرجو الأيادى
فما نخشى محاربة الليالى ولانرجو مسالة الأعادى

وهنىء بمقامه في ظل بني عمار بطرابلس ، وصحب فيها طائفة من الأدباء كانوا يخرجون للمتزهات وينعمون بمشاهدتها الطبيعية البديعة . ومن حين إلى آخر كان يمدح جلال الملك في المناسبات كمرور الأعياد . وله في أخيه فخر الملك قصائد لاتقل روعة عن قصائده فيه ، ومن قوله في إحداها :

أرتجى غيرَ عمارٍ لنايبةٍ - إذن فلا آمنشئى كفه التوبا

المانعُ الجارَ لو شاء الزمانُ له منعا لضاق به ذرعًا وإن رَحبا
البازلُ المالَ مسئولاً ومبتدئا والصائنُ المجدَ موروثاً ومكتسبا

وظل في طرابلس حتى سنة ٤٨٦ وفيها احترفت داره واحترق كل ما كان بها من أثاث ، فحزن حزناً شديداً.

وعَبث بابت الخياط الحنينُ إلى دمشق مسقط رأسه وموطن خلَّانه بها أيام الشباب ، فعاد إليها وكان ملكها حينئذ تتش السلجوقي وقربه منه وزيره هبة الله بن بديع الأصبهاني ، واصطحبه معه إلى « الرى » بفارس وهناك أنشده مدحة فيه ، ورحل إلى خراسان ، ولم يلبث أن عاد إلى دمشق سنة ٤٨٧ وامتدح أمير قبيلة بني كلب حسان بن مسمار بقصيدتين ، وفتح له أمير الجيش غضب الدولة آبق أبوابه فدحه بقصيدة بائية ربما كانت أروع قصائده ، وتوالت مدائحه فيه حتى توفي سنة ٥٠٢ ومن قوله في البائية :

وما آبقُ إلا حياً مُتهللاً إذا جادَ لم تُقلع مواطرُ سُحبه
أغرُّ غياثُ للأنام وعصمةُ يُعاش بُنعماه ويُحمى بذبه
ولم يُر يوماً راجياً غيرَ سيفه ولم يُر يوماً خائفاً غيرَ ربه
حُببتَ حياةً في سماحِ كأنه ربيعُ يزِين النُّورَ ناضرَ عُشبه

والقصيدة رائعة حقاً ، نوه بها القدماء طويلاً كما نوهوا بغزلها وسنشد منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٢ وأخذوا بعد ذلك عدة بلدان على الساحل الشامى فى السنوات التالية وكثرت الشكايات منهم ، وواقعهم طُعنيكين صاحب دمشق على سواد طبرية سنة ٤٩٩ وفى السنة التالية حاصر بلدوين صاحب القدس صيدا ، وفى ديوان ابن الخياط قصيدة يحض فيها عصب الدولة أمير الجيش فى دمشق على منازلة الصليبيين ، وفيها يقول مستنفرًا الدمشقيين للجهاد :

لقد جاشَ من أرضِ إفرنجيةِ جيوشُ كمثلِ جبالِ تَرْدِي
أنوماً على مثلِ هَدِّ الصِّفاةِ وهزلاً وقد أصبح الأمرُ جدًّا
وكم من فتاةٍ بهم أصبحت تدبُّ من الخوفِ نحرًا وخدًّا

فحاموا على دينكم والحريم
فقد أبتعت أروسُ المشركين
محاماةً من لا يرى الموتَ فقد
فلا تُغفلوها قطافاً وحَصداً

وله وراء هذه القصيدة مرثية لبطل استشهد في حرب حملة الصليب سنشد منها قطعة في الحديث عن شعراء الرثاء والشكوى أنشدها كالقصيدة السالفة غضب الدولة المتوفى - كما مر بنا - سنة ٥٠٢ . ولا نجد له وراء هاتين القصيدتين شعرا حماسياً ضد حملة الصليب مع أنه عاش حتى سنة ٥١٧ مما يجعلنا نظن ظناً أن شعراء الشام في الربع الأول من القرن السادس على الأقل قصروا في استشارة الأمة ضد حملة الصليب حينئذ . وله في هذه الفترة التي عاشها بعد غضب الدولة مدائح في بعض الرؤساء والوزراء ورجال الشرطة الدمشقيين وغيرهم من الأعيان والقواد ، وآخر قصيدة له نظمها في مرضه الأخير يسترفد ابن القلانسي المؤرخ ، وفيها يثنى على أدبه وكتابته بمثل قوله .

له فِقْرٌ لو تجسّدنَ لم يُفَضِّلنَ إلا بينَ العُقودِ
فِيظَلْمَنَ إن قيل نُورٌ نَصِيرٌ وَيُحَسِّنَ إن قيل دُرٌّ نَصِيدٌ

ويبدو من شعره أنه كانت له مجالس مع بعض الأدباء يتنادمون فيها على الشراب ويسترسلون في اللهو والطرب بسماع بعض المغنين ، كما كانت له نُزْةٌ كثيرة في الغوطة وبساتينها ، ويبدو أنه كان يولع بلعب الترد مع بعض رفاقه ، وله فيه قصيدة بديعة بديوانه ، رواها العماد الأصبهاني في خريدته . وواضح أن شاعرية ابن الخياط كانت شاعرية خصبة كما يتضح من طول قصائده ومن لغتها الجزلة الناصعة دون تكلف للغرابة أو ما يشبه الغرابة ، ومع جمال الموسيقى والجرس الصوتي وأنغامه ، ومع تصاويره المبتكرة الفذة .

ابن القيسراني (١)

هو أبو عبد الله محمد بن نصر ، من سلالة خالد بن الوليد البطل العظيم ، ولد بعكا سنة ٤٧٨

الدين زنكى وابنه نور الدين محمود والشذرات ١٥٠/٤
وصدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني للدكتور محمود
إبراهيم وتوجد مخطوطة من ديوانه - وهي مختارات منه -
بدار الكتب المصرية .

(١) انظر في ترجمة ابن القيسراني وشعره الخريدة (قسم
الشام) ٩٦/١ وابن القلانسي : ٣٢٢ ومرآة الزمان لسبط
ابن الجوزي (طبع حيدرآباد) ٢١٣/٨ ومعجم الأدباء
٦٤/١٩ وعبر الذهبى ١٣٣/٥ وابن خلكان ٤٥٨/٤
والنجوم الزاهرة ٢١٣/٥ والروضتين ٥١/١ في حروب عماد

وانتقل به أبوه وهو في صباه إلى قيسارية^(١) ، فنسب إليها وقيل ابن القيسراني إذ نشأ بها ، ويبدو أنه هاجر منها مبكرا بعد استيلاء حملة الصليب عليها سنة ٤٩٤ وأبعد في هجرته إلى الشمال إذ نزل حلب ، وأقام فيها طويلا ربما نحو عقدين من السنين ، ثم نزل دمشق . والقلماء مختلفون منهم من يقول إنه نزل حلب أولا ثم نزل دمشق ، ومنهم من يقول بل نزل دمشق ثم نزل حلب ، ودفعتنا إلى ترجيح الرأي الأول أننا سنجدده عما قليل أهم شاعر شامي عُني بتصوير البطولة العربية في الفتك بحملة الصليب منذ سنة ٥٢٣ للهجرة وقد تجاوز الأربعين من عمره . وكانت دمشق كثيرا ماتشتبك مع الصليبيين في حروب وتردهم على أعقابهم خاسرين كما حدث في عهد حاكمها طغتكين سنة ٥٠٢ ويعود طغتكين مع مودود صاحب الموصل إلى كسرهم على طبرية سنة ٥٠٧ واستطاع أن يهزمهم في البقاع سنة ٥١٠ وهزم صاحب أنطاكية سنة ٥١٣ .

وكل هذه الأحداث والانتصارات العظيمة لطغتكين لا نجد لها أي ذكر أو صدى في شعر ابن القيسراني مما يدل على أنه كان غائبا عن دمشق طوال هذه المدة . على كل حال يدل غياب هذه الأحداث السالفة على أنه لم يكن بدمشق في أثنائها وأنه نزل حلب أولا وأقام بها حتى نهاية العقد الثاني من القرن السادس ثم نزل دمشق بعد ذلك . ويدل دلالة قاطعة على أنه كان بها في عهد بوري بن طغتكين (٥٢٢ - ٥٢٦ هـ) أننا نجد ينشده أولى قصائده في الحروب الصليبية حين هزم حملة الصليب على أبواب مدينته في أواخر سنة ٥٢٣ وفيها يقول :

وافوا دمشقَ فظنوا أنها جِدَّةٌ ففارقوها وفي أيديهم العدمُ
وغادروا أكثر القُرْبانِ وانجفلوا وخلفوا أكبر الصُّلْبانِ وانهموا^(٢)

وكان - كما قال مترجوه - يتولى في أثناء مقامه بدمشق إدارة الساعات بها إلى أن تولى شمس الملوك بن بوري (٥٢٦ - ٥٢٩ هـ) حُكْمها ، فاصطدم به ابن القيسراني ، مما جعله يهجو ، وعلم بهجائه فضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وفر منه بعيدا إلى العراق . وترك العراق سريعا إلى حلب حين سمع بانتصارات عماد الدين زنكي على حملة الصليب واستيلائه منهم على المعرة وبعرين ، وتؤكد صلته به منذ سنة ٥٣٤ إذ نجده يشيد بانتصاره على جموع الصليبيين واستيلائه منهم على حصن بارين غربي حلب في الطريق إلى حماة ، ويشعر في عمق ببطولة العرب وعماد الدين قائلا :

(٢) انجفلوا : تشردوا

(١) كانت ثغرا كبيرا من ثغور فلسطين .

حَدَارٍ مَنَا وَأَنَّى يَنْفَعُ الْحَدْرُ وَهِيَ الصَّوَارِمُ لَا تُبْقَى وَلَا تَدْرُ
وَأَيْنَ يَنْجُو مَلُوكَ الشُّرْكَ مِنْ مَلِكٍ مِنْ خَيْلِهِ النَّصْرُ بَلْ مِنْ جُنْدِهِ الْقَدْرُ

ثم يكون نصر عماد الدين العظيم باستيلائه على الرها من يدجوسلين ومحو عار هذه المملكة أو الدولة التي أقامها الصليبيون شمالي العراق آمليين في الانحدار منها إلى الجنوب ، وإذا عماد الدين يستولى عليها بجيوشه وبطولته الخارقة سنة ٥٣٩ وتكون لذلك رنة فرح عظيم في نفس ابن القيسراني ونفوس المسلمين وينشد :

سَمَتْ قِبْلَةَ الْإِسْلَامِ فَخْرًا بِطَوْلِهِ وَلَمْ يَلِكْ يَسْمُو الدِّينَ لَوْلَا عِمَادُهُ
مَصِيبُ سَهَامِ الرَّأْيِ لَوْ أَنَّ عَزَمَهُ رَمَى سَدَّ ذِي الْقَرْنَيْنِ أَضْمَى سِدَادَهُ
فَقُلْ لِلْمُلُوكِ الْكُفْرِ تُسَلِّمُ بَعْدَهَا مَمَالِكُهَا إِنْ الْبِلَادُ بِلَادُهُ

ونرى ابن القيسراني - بعد هذا الفتح المبين - بنحو عام يزور أنطاكية ، ويقول العماد زارها. لحاجة عرضت له ، ولاندرى هل كانت حاجة سياسية لأمير أوكانت حاجة شخصية ويغلب على ظننا أنها كانت حاجة سياسية ، والمهم أنه شُبِّبَ بإفرنجيات وبراهبات وتمادى في التشبيب ، وسندكر طرفا منه في حديثنا عن شعراء الغزل . وعاد من رحلته إلى عماد الدين وجمال الدين بن أبي منصور ، وله فيه مدائح بديعة .

وتطورت الأمور سريعا فقتل عماد الدين بيد آئمة ، كما أسلفنا وحمل لواء الجهاد بعده المملكة العادل نور الدين ، وتفرجوسلين الأمانى ووقوف الأرمن معه ، فيعود إلى الرها ، ويخرجها منه الدين منكلا بالأرمن ، ويهنيئ ابن القيسراني الوزير ابن أبي منصور بهذا الانتصار قائلا

لِيَهْنِكَ مَا أَفْرَجَ النَّصْرُ عَنْهُ وَمَانَالَهُ الْمَلِكُ الْعَادِلُ
وَإِنْ يَكُ فَتَحُ الرُّهَا لُجَّةً فَسَاحِلُهَا الْقُدْسُ وَالسَّاحِلُ

وحقا عظم الأمل في نور الدين أن يسترد للمسلمين القدس والمسجد الأقصى بل السادة الشامي جميعه . ويحشد حملة الصليب في سنة ٥٤٣ جيشا كثيفا لهم في بقعة تسمى (يَعْرَفُ) ويسحق نور الدين محمود الجيش سحقا ذريعا ، وينشد ابن القيسراني :

مظفرٌ في دِرْعِهِ ضَيْعَمٌ عليه تاجُ الملكِ معقودٌ
وصارمٌ الإسلامِ لا يُنثِنِي إلا وشِلْوُ الكُفْرِ مَقْدودٌ^(١)

ويدور العام ويحشد صاحب أنطاكية وحملة الصليب احشودهم عند حصن « إنْب » ولقيهم نور الدين فحقهم محقا . وقُتِلَ في المعركة صاحب أنطاكية البرنس العاقى ، ولم يفلت من القتل إلا من خبّر أهل أنطاكية من قومه بالاندحار والدمار . وجلجل ابن القيسراني بصوته منشدا نور الدين على جسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية قصيدة رائعة استهلها بقوله :

هذي العزائم لا ما تدعى القُضْبُ وذى المكارمُ لا ما قالت الكتبُ^(٢)
أغرّت سيوفك بالإفرنج راجفةً فؤادُ روميّة الكبرى لها يَجِبُ^(٣)
غضبتَ للدين حتى لم يَفُتْكَ رَضًا وكان دين الهدى مرضاته الغُضْبُ
من كان يغزو بلادَ الشُّركِ مكتسبا من الملوك فنورُ الدين مُحْتَسِبُ^(٤)
فأنهضُ إلى المسجد الأقصى بذي لَجَبٍ يوليك أقصى المنى فالقدسُ مرتقبُ^(٥)

ولابن القيسراني مدائح أخرى لنور الدين يردد فيها مجده وانتصاره الحربيين ضد حملة الصليب وما يأمله على يديه من رد بيت المقدس والساحل الشامي على أصحابها المسلمين . ودائما يحوطه بهالة إسلامية هو جدير بها ، فقد كان يحارب في سبيل الله لا يبتغي مغنا ، إنما يبتغي ما عند الله من الأجر والثواب ، حتى ليقول له ابن القيسراني في نفس هذه القصيدة السالفة .

إلا تكنُ أحدَ الأبدالِ في فلكِ الـ تَقْوَى فلا نتّارى أنك القطبُ

وكانه يعده قطب تقوى وإنقاذ للشام وأهل الشام . ولم يعيش ابن القيسراني حتى يمجد بقية انتصاراته المجيدة على الصليبيين ، إذ توفي قبله بنحو عشرين عاما سنة ٥٤٨ . وله مدائح في بني منقذ وفي مجير الدين آبق صاحب دمشق . ويقول العماد إنه كان له معرفة بالمنطق وعلوم الأوائل وأنه كان يتصنع للجناس أحيانا غير أن ذلك قليل في شعره ، فقد كان يطلب فيه النصاعة والسلاسة على غرار أستاذه ابن الخياط فهو تلميذه وخريجه وراوى ديوانه .

(٤) محتسب : يحسب أجره على الله
(٥) ذولجب : الجيش . اللجب : الصباح والجلبة .

(١) الشلو : العضو وبقيّة الشيء . مقدود : مشقوق
(٢) القضب جمع قضيب : السيف القاطع
(٣) راجفة : نفخة مميتة : يجت : يخفق

ابن الساعاتي^(١)

هو بهاء الدين علي بن محمد بن رستم الدمشقي خراساني الأصل ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٥٥٣ هـ وكان ماهرا في صنع الساعات الفلكية ، وأنعم عليه نور الدين محمود إنعاما وافرا حين صنع الساعات التي وُضعت على باب الجامع الأموي ، وأتاح له ذلك ثراء ، نعم به ابنه علي إذ شُغف بالفروسية وبيع ضروب اللهوم مثل الزرد والشطرنج . ومثل لداته حفظ القرآن صبيا واختلف إلى دروس العلماء والمؤدبين في الجامع الأموي ، ويبدو أن ابن سعيد خلط بينه وبين أخيه فخر الدين إذ قال إنه حين شب أرسل به أبوه إلى البديع الأسطُرلابي بآمد ليتقن صناعة الآلات الفلكية ، وكأنه لم يلاحظ أن البديع توفي قبل ميلاده بنحو عشرين عاما . وربما أرسله إلى أحد أولاده . ونراه بعد فتح صلاح الدين لآمد يمثل بين يديه مادحا له بقصيدة لامية سنة ٥٧٩ يقول له فيها :

لولا مساعي صلاح الدين ماصلحتُ شَمُّ المالك بعد الزَّيغ والميلِ
فليعلم القدسُ أن الفتحَ منتظرٌ حلوله وعلى الآفاق فليطُلْ^(٢)

وتحققت سريعا نبوءته بفتح القدس ، ونراه بين من حَفُوا بصلاح الدين في موقعته الماحقة :
موقعة حِطِّين على حافة طبرية ، وله يهنئه بهذا النصر العظيم وما أنزل بحملة الصليب من ضربة قاصمة لم يفيقوا بعدها أبدا ، إذ كُتبت الكثرة منهم على وجوهها ، ووقع ملوكهم وصناديدهم في أسر البطل العربي ، وله يقول :

جَلَّتْ عزماتك الفتحَ المينا وقد قرَّتْ عيونُ المؤمنينا
قضيتَ فريضةَ الإسلام منه وصدقتَ الأمانى والظنوننا
فألمَ بالسواحل فهى صورُ إليك وألحق الهامَ المتونا^(٣)
وقلبُ القدس مسرورٌ ولولا سطاك لكان مكتنبا حزينا
أدرتَ على الفرنج وقد تلاقتْ جموعهمُ عليك رَحَى طَحُوننا

(١) أنيس المقدسي (طبع المطبعة الأمريكية - بيروت)

(٢) يطول : يفخر تبا

(٣) صور : مائلة وناظرة . الهام : الرهوس

(١) انظر في ابن الساعاتي وشعره وفيات الأعيان لابن

خلكان ٣٩٥/٣ وعبر الذهبي ١١/٥ ومرآة الزمان : ٣٧٥

والغصون اليانعة لابن سعيد ص ١١٨ وشذرات الذهب

١٣/٥ وابن أبي أصيبعة ص ٦٦١ ومقدمة ديوانه بتحقيق

ويذكر انتصارات صلاح الدين المتلاحقة على حملة الصليب في ييسان وغير ييسان ، وتراءى له مدن الساحل الشامي ، وهي تنتظر مخلصها ومنقذها من الظلمة الأشرار ، وإن القدس ليكاد يطير فرحا فقد أصبح وشيك الخلاص ، وفعلا لم تمض شهور حتى فتحت أبوابه لصلاح الدين وعاد ، وعاد معه المسجد الأقصى إلى الإسلام والمسلمين ، وإنه ليصبح مبهجا فرحا :

لقد ساغ فَتْحُ القدسِ في كلِّ منطِقٍ وشاع إلى أن أسمع الأسلُ الصُّمًّا (١)
 فليت فتي الخطَّابِ شاهدَ فَتْحِهَا فيشهد أن السهمَ من يوسفِ أَصْمَى
 حَبَا مَكَّةَ الحُسْنَى وثى يثربِ وأطرب ذبَّاك الضريحَ وماضِمًا
 وأصبح ثغرُ الدينِ جِذْلانَ باسمًا وألسنةُ الأغمادِ تُوسعه لثَمًا

لقد فُتِحَ القدسُ عنوةً ، وإن قعقة السلاح لتكاد تسمع الصُّمَّ ، وقد عاد المسجد وعادت فيه الصلاة وتكبيرات المصلين وأذان المؤذنين . ويقرن فتح صلاح الدين للقدس فتحًا حربيًا بفتح عمر بن الخطاب لها من قبل سلمة . ويصور ابتهاج مواطن الوحي في مكة ويثرب وابتهاج الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح المبين ، وكيف عمت البهجة والفرحة القدس ثغر الدين ، وكأنما ألسنة الأغماد تعانقه وتقبله : تقبل كل ركن فيه . وله وراء هذه القصائد في صلاح الدين ست عشرة قصيدة . ونراه بعد وفاته يلزم ابنه نور الدين صاحب دمشق فيمدحه بقصائد مختلفة ، غير أنه أخذ يتبرم بالشام وبمن حول نور الدين كما يتضح من قوله في مدحة له :

أبكتني الأيامُ مذ ضحككتُ لي عن نيوبِ نوابِ عُصَلِ (٢)
 أفسدن خلاني فمالي في الـ سراءِ والضراءِ من خِلِّ

وكان هذا الشعور بأنه لم يعد له صديق وفي في موطنه سببا في أن يشدَّ رحاله إلى القاهرة فينزل بها ويتخذها دار مقام له حتى وفاته سنة ٦٠٤ وشعر فيها بأنه حياته أصبحت رغدة ناعمة وذكر ذلك مرارا في شعره ، وكان قد وطد علاقاته بكثيرين من كبار رجال الدولة ، وفي مقدمتهم القاضي الفاضل وله فيه اثنتا عشرة قصيدة . وبمجرد أن وضع قدمه في القاهرة أصبح من ندماء العزيز عثمان بن صلاح الدين حتى وفاته سنة ٥٩٥ وله فيه أكثر من ثلاثين مدحة . وربما كانت أيام العزيز أسعد أيامه بمصر . وهو يصور في مديحه منادته له ومجالس أنسه . وله مدائح في السلطان

(١) الأسل : الرماح والسيوف .

(٢) عصَل : معوجة كأياب الأسد

العادل أخى صلاح الدين ، ولكن تنقصها الحرارة . وقد عاش بمصر يتملى بمشاهد الطبيعة وصوّر ذلك فى كثير من شعره ، وفى دار الكتب المصرية ديوان له خاص بمقطعات النيل يبدو أنه اختيارات من ديوانه ، وسندكر بعضا من قصائده فى طبيعة دمشق وطبيعة مصر وأيضا بعضا من خمرياتة .

الشهاب^(١) محمود

هو محمود بن سليمان بن فهد الدمشقى الحنبلى ، ولد بدمشق سنة ٦٤٤ وعنى بتربيته أبوه وكان فقيها حنبليا ، فحفظ القرآن صبيا . وأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء الحنابلة والعلماء المختلفين مثل ابن مالك فى النحو وابن الظهير الإربلى فى الأدب وعليه تدرب فيه ، وكان يجلّه ويوده مودة مخلصه ، حتى إذا توفى سنة ٦٧٧ بكاه بقصيدة يقول فيها :

بكته معاليه ولم يرُّ قبله كريمٌ مضى والمكرماتُ نَوادبُهُ

وبرع محمود فى الأدب حتى فاق أقرانه مما جعل القائمين على ديوان الإنشاء فى دمشق يعينونه فيه وهو فى نحو الثلاثين من عمره ، وظل فيه حتى سنة ٦٩٢ إذ نقل إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة بعد وفاة محبى الدين بن عبد الظاهر ، ورأس هذا الديوان فى عهد السلطان بيبرس البندقدارى سنة ٧٠٨ حتى إذا توفى عبد الوهاب بن فضل الله العمرى صاحب ديوان الإنشاء بدمشق نُقل إلى وظيفته هناك وظل قائما عليها حتى توفى سنة ٧٢٥ . ومعنى ذلك أنه كان أديبا كاتباً محسنا وظل يعمل بديوان الإنشاء فى دمشق والقاهرة نحو خمسين عاما . وله فى الكتابة الديوانية كتاب جيد يسمى « حسن التوسل » غير أننا رأينا أن نسلكه بين الشعراء لأنه كان شاعرا متفوقا كما كان كاتباً بارعا ، بل أهم من ذلك أنه الشاعر الشامى الوحيد الذى صور حروب الظاهر مع التتار وحروبه وحروب قلاوون وابنه السلطان الأشرف خليل مع حملة الصليب تصويرا بديعا مما جعل ابن تغرى بردى يقتصر فى أغلب الأمر على وصفه لمعارك هؤلاء السلاطين .

وأول سلطان أشاد الشهاب محمود بانتصاراته الظاهر بيبرس وكان قد علم بحشود للتتار شرقى

(١) انظر فى الشهاب محمود وشعره فوات الوفيات لابن شاکر فى ترجمته ٥٦٤/٢ وترجمة الظاهر بيبرس ١٦٤/١ وترجمة الأشرف خليل ٣٠٥/١ والجزء السابع والثامن

والناسع من النجوم الزاهرة . انظر فهرس تلك الأجزاء والبداية والنهاية لابن كثير ١٢٠/١٤ والدرر الكامنة لابن حجر ٩٢/٥ والدارس فى تاريخ المدارس للتعميمى ٢٣٦/٢

الفرات فزحف إليهم من الشام بجيش جرار ونحاض إليهم الفرات وفتك بجموعهم وكادا أن لا يبقى باقية منهم . وعاد الملك الظاهر إلى دمشق مؤزرا منصورا ، وأنشده الشهاب قصيدة طنانة يقول فيها :

سِرَّ حَيْثُ شَتَّ لَكَ الْمُهَيْمِنُ جَارُ وَاحْكُمُ فَطَوَّعُ مَرَادِكِ الْأَقْدَارُ
خُضَّتِ الْفُرَاتُ بِسَابِحِ أَقْصَى مَنَى هَوَّجُ الصَّبَا مِنْ نَعْلِهِ آثَارُ
حَمَلْتِكَ أَمْوَاجَ الْفُرَاتِ وَمَنْ رَأَى بَحْرًا سِوَاكَ تُقْلَهُ الْأَنْهَارُ (١)
رَشَّتْ دِمَاؤُهُمُ الصَّعِيدَ فَلَمْ يَطِرُّ مِنْهُمْ عَلَى الْجَيْشِ السَّعِيدِ غِبَارُ

ولم يلبث التتار أن حشدوا جموعا لهم سنة ٦٧٥ وأيدتهم جموع من عسكر الروم ، وتعاقدوا على منازلة بيبرس ، وعلم بتلك الجموع فباغتها محيطا بها من كل جانب ، وقاتلت قتال الموت ولم يغن ذلك عنها شيئا ، إذ كان يقتحم مع جنوده البواسل الأهوال كالأسد الضارية إلى أن انكسر التتار والروم وفروا معتصمين بجبال وراءهم ، وأحاطت بهم العساكر المصرية وقتلت منهم مقتلة عظيمة وفي ذلك يقول الشهاب محمود :

كَذَا فَلْتَكُنْ فِي اللَّهِ تَمْضَى الْعَزَائِمُ وَإِلَّا فَلَا تَجْفُو الْجَفُونَ الصَّوَارِمُ (٢)
بِجَيْشٍ تَظَلُّ الْأَرْضُ مِنْهُ كَأَنَّهَا عَلَى سَعَةِ الْأَرْجَاءِ فِي الضِّيقِ خَاتِمُ
يَحِيطُ بِمَنْصُورِ اللَّوَاءِ مَظْفِرٍ لَهُ النَّصْرُ وَالتَّأْيِيدُ عَبْدٌ وَخَادِمُ
مَلِيكٌ بِهِ لِلدِّينِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ بِشَائِرِ الْكُفَّارِ مِنْهَا مَاتِمُ
مَلِيكٌ لِأَبْكَارِ الْأَقَالِمِ نَحْوَهُ حَنِينٌ كَذَا تَهْوَى الْكِرَامُ الْمَكَارِمُ

وسنذكر في جزء مصر أن الظاهر بيبرس استولى على كثير من بلدان حملة الصليب وحصونهم مثل قيسارية وصدف والرملة ويافا وأنطاكية مزيلا منها مملكتهم ، ولم يدون ابن تغرى بردى شيئا من شعر الشهاب محمود في هذه الفتوح الضخمة . ويسير السلطان قلاوون سيرة الظاهر في منازلة الصليبيين ، ويستولى على طرابلس مملكتهم الثالثة التي أسسوها بعد مملكة بيت المقدس ، وبذلك تكون جميع ممالكهم التي شادوها سقطت من قواعدها ولم يبق في أيديهم إلا عكا وصور وصيداء .

السيف القاطع

(١) نقله : تحمله

(٢) جفن السيف : غمده . الصوارم جمع صارم

وبيروت وبعض حصون قليلة ، ولم يلبث قلاوون أن استولى منهم على حصن المرقب ، ومجد فتوحه الشهاب محمود قائلاً .

الله أكبر هذا النَّصْرُ وَالظَّفْرُ هذا هو الفتح لاماتزعم السير
هذا الذى كانت الآمال إن طمحتْ إلى الكواكب ترجوه وتنتظر
فأنهضُ وسيرُ واملِك الدنيا فقد نَحَلتْ شوقاً منابرها وارتاحتِ السرر^(١)
إن لم يُوفِّ الورى بالشكر ما فتحتْ يداك فالله والأملك قد شكروا

وخلف قلاوون ابنه « السلطان الأشرف خليل » ، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً وكان مخوف السطوة قوى البطش ، وبمجرد أن استهلت سنة ٦٩٠ بعد جلوسه على عرش السلطنة بقليل تاهب لحصار عكا ، فجمع الصناع لعمل آلات الحصار وخرج بعساكره من الديار المصرية حتى أحاط بعكا في شهر ربيع الآخر ، وكان المتطوعون أكثر من الجند ونصب عليها المجانيق ، ولم يلبث أن زحف عليها بجيشه الجرار ودخلها بعد قتال عنيف . وطلب حملة الصليب البحر المتوسط فتبعتهم الجنود الإسلامية تقتل وتأسر فلم ينج منهم إلا القليل . وعصى الداوية والإسبترية في أول الأمر معتصمين بأبراج عالية ، غير أنهم اضطروا إلى التسليم ، ومن غريب الصدفة أن فتحها تم في السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ بالساعة الثالثة من النهار في نفس الموعد الذى كانت قد سقطت فيه بيد حملة الصليب سنة ٥٨٩ . وفي هذا الفتح المبين ينشد الشهاب محمود قصيدة بديعة مهنتاً « الأشرف خليل » مفتحها لها بقوله :

الحمد لله ذلتْ دولةُ الصُّلبِ وعزَّ بالترك دينُ المصطفى العربى
هذا الذى كانت الآمال لو طلبتْ رؤياه فى النوم لاستحيتْ من الطلب
ما بعد عكاً وقد هُدَّتْ قواعدها فى البحر للشرك عند البرِّ من أرب^(٢)
لم يبقَ من بعدها للكفر مذ خربتْ فى البحر والبر ما يُنجى سوى الهرب
يا يومَ عكا لقد أنسيتَ ما سبقتْ به الفتوحُ وما قد خُطَّ فى الكتب
بُشراك يا ملكَ الدنيا لقد شرفتْ بك الممالكُ واستعلتْ على الرُّتب

وتفتح أبوابها مدينة صور لجند السلطان ويسلمها إليهم حملة الصليب وتليها مدينة صيدا

(٢) أرب : مطلب وأمنية

(١) السرر : جمع سرير : العرش

وقلعة جبيل وعثليث وأنطربوس وبيروت . ويدور العام ويستولى الأشرف على بقية حصونهم ويمد فتوحه إلى الشرق ويستولى على قلعة الروم غربى الفرات ، ويهتبه الشهاب محمود بهذا النصر المتوالى قائلا من مدحة طويلة .

وفتحُ بدَا في إثر فتحِ كأنما سماءُ بدتْ تترى كواكبها الزُّهرُ

وعلى هذا النحو سجّل الشهاب محمود فتوحات السلاطين الثلاثة : الظاهر بيبرس وقللاون واخليل تسجيلا رائعا . وله وراء هذه المدائح الحماسية مدائح نبوية جمعها في ديوان سماه : « أهنا المنائح فى أسنى المدائح » وهو مفقود ، وستنشد له قطعا فى حديثنا عن شعراء التصوف والمديح النبوى .

منجك^(١) بن محمد بن منجك

شركسى دمشقى نشأ فى بيت نعمة ، فكان أميرا ابن أمير . ولد سنة سبع بعد الألف للهجرة وتوفى سنة ١٠٨٠ ونشأ مثل لداته الدمشقيين يعنى بالعلم والتعليم ، فحفظ صغيرا القرآن الكريم ، حتى إذا شبَّ عن الطوق أخذ يختلف إلى علماء دمشق ، أخذ القراءات على الشيخ عبد الرحمن العمادى والحديث النبوى عن الشيخ الشهاب أحمد الوفاى ، وأبى العباس المقرئ . أما الأدب الذى شغف به منذ نشأته فقد أخذه عن أحمد بن شاهين . وكان كريما مسرفا مبالغا فى إسرافه ، فأنفق ما خلفه له أبوه ، حتى إذا تربت يده وضاعت به دنياه ولّى وجهه نحو إستانبول ، ولكنه لم يحقق فيها ما كان يأمله فعاد إلى دمشق ، ولم يلبث أن خالط أصدقاءه القلماء . وله ديوان شعر جمعه فضل الله المحبى والد صاحب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر بأمر من مفتى الدولة العثمانية : حسام زاده ، وله فيه مدائح كثيرة . وديوانه يحمل كثيرا من المدائح والغزليات والخمريات ، وأكثر مدائحه فى الفقها والعلماء من شيوخه وغير شيوخه ، وفى مقدمة من مدحهم شيخه فى القراءات عبد الرحمن مفتى دمشق وفيه يقول :

تندى أنامله ويشرق وجهه
يقظ لأعقاب الأمور كأنما
فيجود بالآلاء والألاء
جليت عليه حقائق الأشياء

طبعت المطبعة الحنفية بدمشق مختارات من ديوانه باسم ديوان منجك .

(١) انظر فى منجك ربحانة الألبا طبعة عيسى الحلبي ٢٣٢/١ وخلاصة الأثر ٤/٤٠٩ ونفحة الربحانة ، وقد

ومهابةً سادَ الولاة ولاؤها محفوفةً بجلالةٍ وبهاء
وشمائلُ رقتُ كما خطرتُ على زهرِ الربيعِ بواكرُ الأنداءِ

والصياغة رصينة جزلة ، والألفاظ مختارة منتخبة . والمعاني مكررة في المديح التقليدي ، غير أن الشاعر يحاول أن يخرجها إخراجاً طريفاً على نحو ما يتضح في البيت الأول الذي جمع فيه بين الكرم والبشر المترقق في وجه الممدوح ، وبذلك جعله يجود بالآلاء والنعم كما يجود بلآلاء الوجه وإشراقه وما يجري فيه من بشر بهيج . والجناس بين الآلاء والآلاء جناس بديع . وواضح كيف لاءم في البيت الثاني بين معناه وبين الممدوح وكان مفتياً لدمشق ، فوصفه بالفطنة ودقة الحدس ، وبالمثل البيت الثالث وما جمع فيه بين المهابة والجلالة والبهاء مع حسن الصياغة . وقل ذلك نفسه في البيت الرابع فشمائل المفتي رقيقة عطرة كزهر الربيع باكرته النسائم والأنداء .

وولى القضاء في دمشق والشام حسام زاده قبل توليه منصب الإفتاء في الدولة العثمانية وعم فضله وبره أدبائها ، وله ألف البديعي كتابيه : « هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام » و « الصبح المنبى في الكشف عن حيشة المتنبى » ويقول منجك في تهنئة له بالعيد :

آلى الزمانُ عليه أن يُواليكَا يُثنى عليك ولا يأتى بثانيكَا
إذا سَطَا فبأحكامٍ تنفَّذها وإن سَخَا فبِفَضْلِ من مساعيكَا
من ذا يُضاهيك فيما حُزَّت من شرفٍ ومَنْ يُدانيك في حِلْمٍ ويَحْكيكَا
أعيادنا كُلُّها يومٌ نراك بهِ وليفةُ القَدْرِ وَقْتُ من لياليكَا

والملاءمة بين معاني الأبيات ومنصب المفتي - وكان حينئذ قاضياً بدمشق - واضحة ، والمبالغة واضحة في البيت الأول ، ولكن الشاعر خففها بالجناس بين « يثنى وثانيكَا » وعاد إليها بقوة في البيت الأخير ، وكان يكفيه أن تكون أيام لقائه للقاضي أعيادا ، ولكنه أبقى إلا المبالغة المسرفة إذ جعل ليلة القدر وقبول الدعاء بها ممن يحظون برؤيتها وقتاً من ليالي الشيخ . ولاريب في أن صياغته ناصعة ، وأنه يغلب على شعره السلاسة ، مع ما يوشيه به من جناس وطباق كما في البيت الثاني . ودائماً محسنات البديع عنده مقبولة ، وقلما يمازجها الثقل والتكلف . وله مدحة في أستاذه المقرئ - وهو صاحب نفع الطيب - ويذكر أنه قرأ عليه كتاب « الشفا » وهو في مدح المصطفى سيد المرسلين ، وتموج المدحة بإجلاله لعلمه وتقواه ، يقول :

يقضى النهارَ بآراءٍ مسدِّدةٍ ويقطع الليلَ تسييحًا وقرآنا

وتلقانا وراء مدائحهم في الديوان وعند من ترجموا له أُلغاز ، ومعروف أن الشعراء كانوا قد أخذوا يتلاعبون بها منذ القرن الخامس الهجري ، وكثرت زمن المالك والعمانيين . وله غزليات وخمريات بديعة ، سندكر منها بعض أبيات في غير هذا الموضع .



شعراء الفلسفة والحكمة

تشيع الحكمة في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي على نحو ما نجد عند زهير ، فقد ضمن معلقته طائفة كبيرة من الحكم ، وكأنهم أرادوا أن يصوروا لمعاصريهم خبرتهم بالحياة وإدراكهم لتجاربيها حتى ينتفعوا بذلك أكبر نفع في فهم شئون الدنيا وشئون الناس وأحوالهم في سلوكهم . ومضى الشعراء بعد العصر الجاهلي يحاكون الجاهليين في تغذية أشعارهم بتلك الحكم ، حتى إذا كان العصر العباسي أخذ الشعراء يضيفون إلى تراثهم من الحكم عتادا جديدا من حكمة الفرس والهنود واليونان ، وأخذ النابهنون منهم يعتمدون على عقولهم الخصبية في استخلاص الحكم من خبراتهم بأحوال الدنيا والناس ، حتى ليبلغ بعضهم من ذلك أن تُخصى حكمه بالعشرات ، بل أحيانا بالآلاف على نحو ما عرف عن أبي تمام الشاعر الدمشقي ، فقد أحصى بعض البلاغيين حكمه فوجدوا ثلاثمائة وأربعة وخمسين بيتا سوى تسعين شطرا . وعاش المتنبي أكثر سنوات عمره في الشام وبواديها وقد بلغ الذروة في تضمين مدائحهم حكما رائعة ، وأحصاها البلاغيون ، فوجدوها أربعمائة ، سوى مائة وثلاثة وسبعين شطرا . ولكثرة ما يتناثر في شعره من حكم أفردتها بعض الأسلاف بالتأليف ، وحاول بعض النقاد الوصل بينها وبين حكم أرسطو ، وهي مبالغة مفرطة في التصور إذ أكثر حكمه من ثمار خبراته بالحياة خبرة فذة . وظل شعراء الشام يستظهرون - بعد المتنبي وأبي تمام - الحكم في جوانب من أشعارهم ، ولم تلبث الشام أن أهدت إلى الشعر العربي حكما وفيلسوبا كبيرا ، هو أبو العلاء المتوفى سنة ٤٤٩ وسنترجم له عما قليل .

وكان الطُّغْرَائِي قد لمع اسمه بنظمه لامية العجم ، وقد صاغها جميعا حكما وأمثالا على طريقة مزدوجة أبي العتاهية التي سماها ذات الأمثال ، والتي ضمنها أربعة آلاف مثل . ولامية الطُّغْرَائِي لا تبلغ مبلغها في حشد آلاف من الأمثال ، وليست من بحر الرجز وإنما هي من البسيط على شاكلة نونية البُسْتِي المشهورة . وقد أصبح تقليدا عند كثير من شعراء الشام وغيرهم أن يخلصوا بعض

قصائدهم برصْف طائفة من الأمثال والحكم ، ولابن منير الطرابلسي قصيدة من هذا الطراز يقول فيها (١) :

وإذا الكريم رأى الخمولَ نزيله في منزلٍ فالخزمُ أن يترحلا
 كالبدر لما أن تضاءلَ جدَّ في طلب الكمال فحازه متنقلا
 سفهاً لحلمك أن رضيتَ بمشربٍ رنقٍ ورزقُ الله قد ملأ الملا
 فارقُ تُرقُ كالسيف سُلُّ فبان في مئنه ماأخفى القرابُ وأخملا
 للقفَر لا للفقر هبها إنما معنك ماغنك أن تتوسلا

وهي أمثال وحكم يراد بها النصيح لسلوك الشخص الكريم على نفسه في الحياة . فلا يرضى بمنزل هون ، بل يرحل ويتنقل ، فكمال البدر وعز الشخص في تنقله . ويزجر من يرضى المشرب الكدر ورزق الله قد طبق الملا أو الأرض وملاها بالطيبات ، وهل يقطع السيف إلا بعد أن يُسلُّ من قرابه أو غمده ، وعار ما بعده عار أن يتضرع الشخص ويتذلل لإنسان مثله ، ولأن يركب القفر المجدب الخراب خير من أن يقف بباب .

ودائماً تلقانا هذه الحكم في تضاعيف قصائد الشعراء ومقطوعاتهم ، وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة منها طائفة جرت على ألسنة أطباء الشام ، ويلقانا منها أيضاً منشورات في كتب التاريخ كقول الشيخ شمس الدين الحمصي (٢) :

الدهرُ كالطيف بُؤساه وأنعمه عن غير قصدي فلا تحمد ولا تلم
 لا تسأل الدهر في البأساء يكشفها فلو سألت دوام البؤس لم يدم

فكل شيء حائل وزائل ولا دوام لضر أو نفع ولا لبؤس أو نعيم ، ولا دخل لدهر في شيء من ذلك ، ولا بأس مع رحمة الله فلا بؤس يدوم ولا ضر يدوم . وربما كانت أروع قصيدة من قصائد هذه الأمثال والحكم في العصر المملوكي قصيدة عمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة وهي في أكثر من سبعين بيتاً . وفيها يقول (٣) :

(٣) الكشكول لبهاء الدين العاملي (طبعة عيسى البابي الحلبي) ٣٠٦/١

(١) ابن خلكان ١٥٦/١
 (٢) النجوم الزاهرة ٣٤٥/٧

اعتزل ذكر الأغاني والغزل. وقل الفصل وجانب من هزل
 واتق الله فتقوى الله ما مازجت قلب امرئ إلا وصل
 قاطع الدنيا فمن عاداتها تخفض العالی وتعلی من سفل
 لا تقل أصلي وفصلي أبدا إنما أصل الفتي ماقد حصل
 ميل عن المنام واهجره فما بلغ المكروه إلا من نقل

والقصيدة جميعها على هذه الشاكلة حكم وأمثال ونصائح غالية وكأنها أعلام تهدي الإنسان في سلوكه الطريق القويم . ويظل الشعراء بعد ابن الوردي ينظمون مثل هذه الحكم أيام المالك وأيضاً أيام العثمانيين ، إذ نقرأ لبعض الشعراء حكماً وأمثالاً منثورة في أشعارهم وتراجمهم ، كقول حسين بن أحمد الجزري الحلبي المتوفى سنة ١٠٣٤ للهجرة^(١) :

حاذِرْ عِدَاكَ الْأَقْرَبِينَ مِنَ الْوَرَى فَأَضْرُهَا الْقُرْبَاءَ وَالْقُرْنَاءَ
 وَتَوَقَّ مِنْ كَيْدِ الْحَقُودِ وَلِينِ مَا يُبْدِي فَقَدْ يُبْصِدِي الْحَسَامَ الْمَاءَ

ويذكر ابن معصوم لشاعر يسمي نجيب الدين علي بن محمد العاملي رحلة أودعها أشعاراً على طريقة ديوان الصادح والباغم لابن الهبارية وما فيه من حكم ومعان خلقية تهذيبية ، ويسوق ابن معصوم طائفة من حكمه كقوله^(٢) :

المراء لا يسلم من حاسدٍ أوشامتٍ في اليسر والعسر

وتكثر الحكم أيضاً في كتاب نفحة الريحانة للمحبي ، وهي من قديم كثيرة في الشعر العربي كما أسلفنا . وحرى بنا أن نقف قليلاً عند أبي العلاء أكبر شعراء الحكمة والفلسفة لافي الشام وحدها بل في العالم العربي جميعه . وتتلوه بكلمة عن منصور بن مسلم .

(٢) سلافة العصر لابن معصوم ص ٣١٠

(١) ريحانة الألبا ١٢٢/١

أبو العلاء^(١) المعريّ

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التَّنُوخِي ، ولد في ربيع الأول سنة ٣٦٣ للهجرة في بلدة تسمى « مَعْرَةَ النعمان » من أعمال حمص بين حلب وحماة ، وإليها ينسب ، واشتهر بكنيته « أبي العلاء » وفي ذلك يقول :

دُعيتُ أبا العلاء وذلك مَينٌ أولكنَّ الصحيحَ أبو التُّزولِ

وأسرته تنحدر من قبيلة تَنُوخ إحدى القبائل العربية الجنوبية ، وما إن بلغ الرابعة من عمره حتى اعتلَّ علة الجدرى وذهب فيها بصره ، وكان يقول : « لأعرف من الألوان إلا اللون الأحمر لأنني ألبستُ في الجُدرى ثوبا مصبوغا بالعُصْفُر ، لأعقل غير ذلك » . وكان بيته بيت قضاء وعلم وشعر ، إذ ظل قضاء المعرة طويلا فيهم ، وألم بهم ياقوت في ترجمته له بمعجم الأدباء وذكر لهم طرائف من أشعارهم . وطبيعي أن يقتدى بهم فيكبَّ بعد حفظه القرآن على كتب الدين الحنيف واللغة . وأيضا فإن فقد بصره مبكرا جعله يُعنى بطلب العلم . وتلمذ على أبيه أولا ومن في بلدته من تلامذة ابن خالويه ، ولم يلبث حين أخذ ما عندهم جميعا أن رحل إلى حلب وحضر على علمائها وعاد منها وهو في نحو العشرين من عمره سنة ٣٨٤ . وحين بلغ الثلاثين من عمره سأل ربه إنعاما ، ورزقه صوم الدهر ، فلم يفطر في السنة والشهر إلا في العيدين .

ورحل إلى بغداد في أواخر سنة ٣٩٨ وبقى بها نحو سنة وسبعة أشهر ، وكان من أسباب عودته منها سريعا نشوب خصومة بينه وبين المرتضى العلوي أخى الشريف الرضى بسبب تعصبه للمتنبى ، وأيضا كان قد وصله خبر بمرض أمه ، فعاد عجلا ، ووجدها قد كُبت نداء ربه . وأخذ نفسه منذ

والفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٦٥ وفصول في الشعر ونقده ص ١٠٧ وترجمته في دائرة المعارف الإسلامية ومطالعات لعباس محمود العقاد ص ٧٠ وأبو العلاء المعري للدكتورة عائشة عبدالرحمن ومقلعتها لتحقيقها لرسالة الغفران . وطبع له سقط الزند بشروح مختلفة واللزوميات ورسالة الغفران والصاله والشاحج ورسائله بتحقيق الدكتور عبد الكريم خليفة وكذلك بتحقيق الدكتور إحسان عباس . وانظر الحضارة الإسلامية لميتر ١١٠/٢ .

(١) انظر في ترجمة أبي العلاء وشعره معجم الادباء ١٠٨/٣ وتعريف القدماء بأبي العلاء (طبع دار الكتب المصرية) وفيه كل ما كتب عنه تقريبا في المراجع القديمة ومن أهمه رسالة الإنصاف والتحرى في دفع الظلم والتجرى عن أبي العلاء المعري لابن العديم الحلبي وهي دفاع قوى عنه ونفى لما قيل من إلحاده . وانظر فيه كتاب تجديد ذكرى أبي العلاء لطف حسين (طبع دار المعارف) وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف ٣٥/٥ وكتبنا : كتاب الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة العاشرة) ص ٣٧٦

هذا التاريخ في سنة ٤٠٠ بحياة زاهدة خشنة ملازما داره وبلدته لايرحها ، وإلى ذلك يشير بقوله :

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث^(١)
لفقدى ناظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسم الخبيث

ثلاثة سجون أحاطت قضبانها به : سجن روحه في جسده وسجن داره وسجن فقهه لبصره ، وظل يفرغ نحو خمسين عاما لنظم زومياته ولتأليف كتبه الكبرى ، ومر بنا أن حلب تبعت مصر منذ سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ وكان أول ولايتها للحاكم بأمر الله الفاطمي عزيز الدولة فاتك الوحيدى وله ألف أبو العلاء كتاب الصاهل والشاحج متحدثا فيه على لسان فرس وبغل ، وقد حققته الدكتورة عائشة عبد الرحمن ونشرته دار المعارف ، ويقول ابن العديم إنه ألفه لفاتك بسبب حق على بعض أقربائه . وله أيضا صنع كتابه « القائف » وهو أمثال على طريقة كلية ودمنة ، ولم يكدم يتم الجزء الرابع منه حتى توفي فاتك سنة ٤١٣ فعدل عن إتمامه . وولى حلب بعد فاتك سدد الدولة الكتامي سنة ٤١٤ وقدم له أبو العلاء الرسالة السنديية في مجلد واحد .

واعتقل صالح بن مرداس أمير حلب في سنة ٤١٨ سبعين رجلا من المعرة هم مشايخها وأماثلها ، واجتاز صالح بالمعرة ، فخرج إليه أبو العلاء شافعا فيهم فقال له صالح : « قد وهبتهم لك أيها الشيخ » . وعاد إلى داره وهو ينشد :

بُعثتُ شفيعا إلى صالحٍ وذاك من القوم رأيتُ فسَدُ
فيسمع مئى سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد

ومنذ حبس نفسه في داره أصبح ملاذاً لطلاب العلم في العالم العربي ، فهم يغدون عليه ويروحون يأخذون عنه كتبه وشروحها ، وبالمثل دواوينه وشروحها ، وكثيرا من كتب اللغة وفي مقدمتها كتاب غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام غير كتب لغوية أخرى كثيرة . ويقول ابن فضل الله العمري : « أخذ عن أبي العلاء خلق لا يعلمهم إلا الله عز وجل ، كلهم قضاة وأئمة وخطباء وأهل تبخر وديانات .. وكان له أربعة من الكتاب المهودين يكتبون عنه ما يكتبه إلى الناس وما يمليه من النظم والنثر والتصانيف والإجازات والسماع لمن يسمع منه ويستجيزه » . وعقد ابن العديم في كتابه عنه المسمى « الإنصاف والتحري » فصلا ذكر فيه مشاهير تلاميذه .

(١) النبيث : الخفى .

وكان أبو العلاء آية خارقة في الذكاء وقوة الحافظة حتى قالوا إنه كان يلعب الزرد والشطرنج ، وإذا سمع حديثا بلغة غير العربية حفظه بحذافيره ، وقد تحول يعبُّ وينهل من ثقافات عصره حتى استوعبها جميعا سواء المترجم عن اليونانية من فلسفة وغير فلسفة ، أو المترجم عن الفارسية والهندية فكل ذلك مضافا إلى الثقافتين : الإسلامية والعربية تمثله أبو العلاء تمثلا حيا خصبا ، يرفعه إلى أعلى منزلة ، يتمثل صاحبها التراث الإنساني جميعه .

ومنذ سنِّ الثلاثين اختار لنفسه صوم الدهر ما عدا أيام الأعياد كما أسلفنا ، واختار لنفسه معه حياة زاهدة ، وذكر ذلك في شعره إذ قال إن طعامه العدس والتين أو كما يسميهما البلسن والبلس رافضا ما وراءهما من طيبات الطعام ولذائذه ، إذ يقول :

يقنعني بُلْسُنُ يُرْسُ لِي فَإِنِ اتَّيْتُ حَلَاوَةَ فَبَلْسُ

ويقول ناصر خسرو في رحلته المسماة « سفرنامه » إنه زاره سنة ٤٣٨ فوجده في سعة من العيش مما جعل بروكلمان يشك في أنه عاش معيشة زاهدة . وهو قول مدفوع بإجماع من ترجموا له من القدماء : أنه كان يعيش معيشة زهد وتقشف ، حتى لئزى القفطى - وهو أحد من تحاملوا عليه ورموه بالإلحاد - يقول : لم يكن أبو العلاء من ذوى الأموال ، وإنما خُلف له وقف يشاركه فيه غيره من قومه ، وكانت له نفس تشرف عن تحمل المِن ، فشى حاله على قدر الموجود ، فاقتضى ذاك خشن الملابس والمأكل والزهد في ملاذ الدنيا ، وكان الذى يحصل له في السنة مقدار ثلاثين دينارا قدر منها لمن يخدمه النصف ، وأبقى النصف الآخر لمثونته ، فكان أكله العدس - إذا أكل - مطبوخا وحلاوته التين ، ولباسه خشن الثياب من القطن وفرشه من لباد (صوف) في الشتاء وحصيرة من البردي في الصيف ، وترك ما سوى ذلك . وربما كان هذا الدخل القليل من أسباب تركه لأكل اللحم ومستخرجاته من البيض واللبن ، لا أخذًا بمذاهب الحكماء ولا اتباعا لمذهب البراهمة الهندي ، كما قيل ، بل لضيق ذات يده وإشفاقا على الحيوان ، ولعله صنع ذلك مبالغة في الزهد ورفض طيبات الحياة .

وكان أبو العلاء يحسنّ بعمق آلام الإنسان في دُنياه ، ولعل ذلك ما جعله يعزف عن الزواج حتى لا يرزق بولد يكابد من دنياه ما كابدته وصرح بذلك قائلا :

هذا جناهُ أبا عيسىً وما جنيتُ على أحدٍ

ويقال إنه أوصى بكتابة هذا البيت على قبره حين أوشك على مفارقة الدنيا في سنة ٤٤٩ . وله

رسائل كثيرة جمع منها أخيراً الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الأوردي نحو أربعين رسالة ، ونشرها في ثلاث مجموعات ، بدأها بالرسالة المنيحية التي أرسل بها إلى الوزير البغدادي أبي القاسم المغربي وتلاها بالرسالة الإغريقية المرسل إلى الوزير نفسه . ويبدو أنه أرسل بالرسالتين إليه بعد فراره لعهد الحاكم بأمر الله من مصر ، وسنعرض لهذه الرسائل في غير هذا الموضوع . ولأبي العلاء أيضاً رسالة الملائكة وهي في مسائل التصريف ، طبعت قديماً بالقاهرة . ورسالة الغفران له مشهورة ، وسنلم بها وبكتابه الفصول والغايات في حديثنا عن النثر . وله « ملق السبيل » في الوعظ والزهد ، وهو فيه يصوغ المعنى نثراً ثم يصوغه شعراً . وله ديوان صغير سماه الدرغيات وهو أشعار في وصف الدروع ، وقد طبعت ملحفاً بديوانه الكبير سقط الزند .

ونقف قليلاً لتحدث عن السقط ثم عن ديوانه الكبير الثاني اللزوميات ، والسقط أول ما يخرج من نار الزند وشره ، سمي أبو العلاء ديوانه الأول بهذا الاسم إشارة إلى أنه أول ما نظم وسمح به خاطره فشبهه بالسقط . وهو يجمع شعر الصبا ومنه قصيدة نظمها في رثاء أبيه وهو في الرابعة عشرة من عمره وشعر الشباب وبعض شعره في الكهولة ومنه قصيدة نظمها في رثاء أمه وأخرى أرسل بها شاكرًا مثنياً إلى خازن دار العلم ببغداد . وشرح أبو العلاء هذا الديوان وسمى شرحه « ضو السقط » وقد طبعت في مصر قديماً . وطبعت دار الكتب المصرية الديوان ومعه ثلاثة شروح : شرح لتلميذه التبريزي وشرح لأبي محمد البطليوسي الأندلسي وشرح لأبي الفضل قاسم الخوارزمي ، وهو في خمس مجلدات كبيرة . والديوان يكتظ بالمديح والرثاء والفخر والنسيب والوصف وأكثره في المديح ، وجمهوره في مديح أشخاص خياليين ، وذكر ذلك في مقدمته قائلاً « لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولا مدحت طلباً للثواب وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السوس (الطبع) فالحمد لله الذي ستر بؤفة (بؤفة) من قوام العيش » . ونفس ممدوحيه القليلين لم يوجه إليهم مديحه - كما قال - طلباً للثواب أو النوال وإنما هم بعض أصدقائه كتبوا إليه فرأى أن يجيبهم شعراً ، وربما مدحهم شاكرًا صنيعاً لهم على نحو ما ذكرنا من ثنائه على خازن دار العلم ببغداد واصفاً عونه الحميد له في أثناء ترده على تلك الدار ومكثتها الكبرى المشهورة . وطبيعي أن يخلو هذا الديوان من الهجاء والخمريات ووصف الصيد . وهو في الديوان - بعامة - يحاكي المتنبي ، وكان يرفعه فوق جميع الشعراء ، وشرح ديوانه وسماه معجز أحمد بينا سمي شرحه لديوان أبي تمام : « ذكرى حبيب » وشرحه لديوان البحري « عبث الوليد » ويفجؤنا في الديوان فخر عنيف على نحو ما نقرأ في قصيدته :

ألا في سبيل المجد ماأنا فاعل عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلٌ
وإني وإن كنت الأخيرَ زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

وهذا الصوت القوي المفاخر المباهى بالمجد والعبقريّة يكاد يحنّى بعد ذلك من الديوان ، إذ يعود أبو العلاء إلى صوته الحقيقي : صوت اليأس من الناس والحياة والمعرفة بالدهر وتصاريق أيامه ولياليه . وهو يذكر الليل وظلمته كثيرا ، ولعل ذلك بسبب فقدده لبصره ، وأيضا بسبب تشاؤمه وما حمل من أثقال الدنيا دون أن يجد معينا . وقد شكّا كثيرا من أنه لا يجد في الدنيا صديقا ولا أخا يُضيفه الوداد ، مع كثرة بغضه للانفراد ، حتى يقول :

ولو أنّي حُبَيْتُ الخُلْدَ فَرْدًا لما أَحْبَبْتُ بالخُلْدِ انفرادا
فلا هطلتُ عَلَيَّ ولا بأرضي سحائبٌ ليس تنتظمُ البلادا

ويبالغ أبو العلاء في سوء ظنه بالناس في نفس هذه القصيدة الدالية ، فيقول إن الجوزاء منزل عُطارد المنسوب إليه السُّلم لو خبرت الناس خبرته وبلاءه وجربت من كيدهم ماجرب وعرفت من خُبث سرائرهم ما عرف لما طلعت عليهم ليلا ولا تراءت لهم مخافة أن يصل إليها كيد من كيدهم ، يقول :

فظنُّ بسائرِ الإخوان شرا ولا تأمنُ علي سِرُّ فُودا
فلو خبرتهم الجوزاء خبيري لما طلعتُ مخافةً أن تُكادا

ومضى يخفف حدة التشاؤم الأسود المعتم ببروق كثيرة من الفخر ، فكانه في السؤدد فوق السموات السبع رفعة وعلاء ، وإنه ليفلُّ نواب الأيام وكوارثها وحده بقوته ومضائه . وفي رأينا أن أروع قصائد أبي العلاء في سقط الزند مرثية لأنها تفصل من ذات نفسه ومن أهمها مرثيته لصديقه الفقيه .

غير مُجَدِّ في مِلَّتِي واعتقادي نوحُ بالكِ ولا ترنمُ شادي
وشبيهُ صوتِ الثعبيِّ إذا قيَّسَ بصوتِ البشيرِ في كل نادى

وواضح أنه يقول في مطلعها إن البكاء الحزين كالغناء الفرح دلالتها واحدة ، إذ سرعان ماتتحول البشارة بالمولود - مها طالت حباته - صراخا عليه ، حتى لكأن الصوتين متشابهان أو مختلطان اختلاط شجوة الحمامة فلا يدرى السامع أتبكي محزونة أم تغني مبهجة . ويمضي

أبو العلاء في مثل هذه الأفكار العميقة طالبا من قارئه أن يخفف من وطء أقدامه على الأرض ، لأن ترابها من أديم آبائه وأجداده ، وكأن الأرض مقبرة كبرى ، وكم من لحدٍ فيها يضحك من تزاحم الأضداد فيه بين صالح وطالح . ولا يلبث أن يقول إن الحياة كلها تعب وعناء وشقاء لا ضفاف له ، وإن الحزن على الميت والفجعة فيه لأضعاف السرور ساعة ميلاده . ولأبي العلاء مرثية ثانية يرثي بها صديقا من أبناء عمومته ، وهي تكتظ بالحكم من مثل قوله :

لو عرفَ الإنسانُ مقدارهُ لم يفخرِ المولى على عبده
أضحى الذي أجلَّ في سِنِّه مثلَ الذي عُوِّجِلَ في مهده
ولا يبالي الميِّتُ في قبره بِبذمه شيعِ أم حمده
والواحدُ المُفردُ في حتفه كالحاشدِ الكثيرِ في حشده
وربَّ ظمآنَ إلى مَورِدٍ والموتُ لو يعلم في ورده

وديوانه الثاني اللزوميات أو لزوم ما لا يلزم هو الأهم لأنه يحمل فلسفته أو تفكيره الفلسفي بجميع أسسه وشعبه ، وقد تكلف فيه - كما يقول في مقدمته - ثلاث كلف : الأولى أنه ينتظم حروف المعجم جميعها ، والثانية أن رويته يجيء بالحركات الثلاث ثم بالسكون ، والثالثة أنه التزم مع كل روى فيه شيئا لا يلزم من باء أو تاء أو غير ذلك من حروف . وقد أوضحنا في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي أنه أضاف إلى هذه الكلف الثلاث كلفاً كان يشغل بها الفراغ الطويل الذي نظم فيه اللزوميات إذ امتد إلى نحو خمسين عاما . ومن هذه الكلف الدائمة ومنها العارضة أما الدائمة فاستخدامه للفظ الغريب وللجناس وقد التمس فيه ضروبا من التعقيد ، كما مررنا في غير هذا الموضوع ، إذ يجانس تارة بين القافية وكلمة في البيت وتارة ثانية بينها وبين أول كلمة فيه وقد يضيف إليها حرفا أو أكثر من الكلمة التالية ليستتم نسق الجناس . وبجانب هاتين الكلفتين الدائمتين في اللزوميات نجد كلفا عارضة من تصنعه الواسع لألفاظ الثقافات المختلفة ، بحيث يعدُّ أول من وسَّع استعارة الشعراء لاصطلاحات العلوم والفنون في أشعارهم .

ومع كل هذه الكلف والصعوبات التي ضيق بها الممرات إلى قوافي الديوان استطاع أن ينظم مجلدين ضخمين من الشعر ، ضمنها فلسفته أو تفكيره الفلسفي المتشائم وهو تفكير شغل فيه بإنسان عصره والإنسان عامة وبال قضية التي طالما شغلت كبار المفكرين قضية الشر الذي يُصَّب على الإنسان والحياة الإنسانية صبًّا دون أن يعرف أسبابه ودون أن يستطيع له دفعا أو ردًّا . ويتسع به

التفكير في شرور الحياة الإنسانية وآلامها ويستولى عليه تشاؤم لا أول له ولا آخر ، كما يستولى عليه بأس يثقل عليه ثقلاً طويلاً ويملاً نفسه شقاءً وعناء . وإذا كانت الحياة على هذا النحو من الشر ففيم إذن تلقى الأبناء لها من آباءهم وفيم الزواج وهي شر متصل ، شر يؤذن دائماً بالكوارث والخطوب وتلاحق الفواجع والنكبات ، ولا منقذ ولا مخلص :

وهل يَأْبَقُ الإنسانُ من مُلْكِ رَبِّهِ وَيُخْرَجُ من أرضٍ له وسماءٍ

إنه أسير شرور الحياة وهو لا يستطيع منها فكاً كما ولا خلاصاً ، وحرىُّ به أن لا يتخذ ولداً حتى لا يرمى به في أتون هذه الشرور المهلكة . ولا تشغل أبا العلاء في لزومياته الشرور الكبرى التي تقع دائماً على عاتق الإنسان بل تشغله أيضاً الشرور الصغرى التي تحيط بإنسان عصره ، وأي شرور؟ شرور الحكم الفاسد لمصر والشام : حكم الفاطميين الذين أحاطهم دعواتهم بهالة قدسية ، حتى زعموا أن قدرة الله انتقلت إليهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ولججوا في نعتهم بصفات الله حتى آمنت طائفة في زمن أبي العلاء تتجسد الألوهية في الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي . وهذا البهتان في العقيدة كان يروج له دعواتهم وخطبائهم في المساجد ، وفي رأينا أنهم المقصودون بحملة أبي العلاء على علماء الدين في أيامه بمثل قوله :

نادتُ على الدين في الآفاق طائفةٌ ياقومُ من يشتري ديناً بدينارٍ
جَنَوْا كِبائرَ آثامٍ وقد زعموا أنَّ الصغائرَ تجنى الخُلْدَ في النارِ

وهو يتهمهم بأنهم باعوا باتباعهم المذهب الفاطمي دينهم بثمن بخس دراهم معدودة . وكما حمل على علماء الدين المروّجين للعقيدة الفاطمية حمل على الصوفية لقولهم بالحلول ، وسخر كثيراً من ذكرهم وتواجدهم فيه ، وسماه رقصاً ومن قوله فيهم :

تزيّوا بالتصوف عن خداعٍ فهل رُزّتِ الرجالَ أو اعتميت^(١)
وقاموا في تواجدهم فداروا كأنهم ثمالٌ من كُميت^(٢)

وهاجم الخكّام عامة الذين يرهقون الشعب بضرائب فادحة ، دون أن يؤدوا بها أي نفع له أو أي مصلحة ، وفي ذلك يقول :

(٢) الكميت : الخمر ، ثمال : سكارى .

(١) راز : اختر ، اعتمى : اختار

وأرى ملوكًا لا تحوطُ رعيَّةً فعلامٌ تُؤخذُ جزيةً ومكوسٌ

ويقول فيهم :

ظلموا الرعيَّةَ واستجازوا كيدها فعَدَّوا مصالحها وهم أجراؤها

فهم أجراء عند الشعب يأخذون رواتبهم من كدِّه ويعتصرونها من عرقه ، ومع ذلك يظلمونه ويبيغون عليه ويكيدون له ويأتمرون به . ويتسع بحملته ، فيشمل بها الناس من حوله فلا أخ كما مر بنا ولا صديق ، وقد شاع الطمع والحقد والمكر والخديعة والخلق الزرى المشين . ولم ينس المرأة في إعلان هذا السخط ، فقد وصفها بأنها لا تنصف في الود ولا تفي للعهد ، ولم ينصح بتعلمها ، فحسبها في رأيه - الغزل والنسيج والرذن أو الحياكة :

علموهنَّ النَّسِجَ والغزل والرَّذَ نَ وخَلَّوا كتابَةً وقراءه

وإنما دفعه إلى ذلك - في رأينا - فساد المجتمع في بعض جوانبه . وقد دفعه شعوره بالرحمة على الفقراء لزمته والرافة بهم أن دعا إلى المساواة بين الناس في السراء والضراء ، يقول :

كيف لا يشرك المضيقيين في النعمة قومٌ عليهم النعماء

وكل هذه جوانب تمس إنسان عصره وما كان يريد له من حياة كريمة ، وليس هذا هو الشطر الأكبر في اللزوميات ، فقد أودعها كما مررنا آنفا كل ما شعر به من آلام الإنسان وأصابه وأوجاعه في دنياه إزاء ما يُصَبُّ عليه من شرورها وهمومها وأفاعيها التي تلدغه صباح مساء .

ويُشيع أبو العلاء في أشعاره حيرة تترأى ظلالتها في اللزوميات مما جعل بعض القدماء والمعاصرين يقولون إنه كان يشك في كل شيء ويتخذ الشك عقيدة له - كما اتخذها السوفسطائيون - ويسلطه على ما حوله حتى على الديانات ، واستدلوا على ذلك بمثل قوله :

هفتِ الحنيفةُ والنصارى ما اهتدتُ ويهودُ حارتُ والمجوسُ مُصَلَّلةُ

اثنانِ أهلُ الأرضِ ذو عقلٍ بلا دينٍ وآخرُ دينٌ لا عقلَ له

والبيتان في هجاء أصحاب هذه الديانات لزمته لا الديانات نفسها ، إذ توزعوا أيامه فرقا كثيرة ، وكل فرقة تكفر أختها في داخل الدين الواحد ، وكان المذهب الإسماعيلي الفاطمي قائما في مصر ويدعوله الحكام وعلماء الدين في الشام . وطبيعي أن يعجب ممن يدعو لهذا المذهب المسرف

في الغلو غلواً شديداً ، بل المسرف في الانحراف عن الإسلام انحرافاً مفرطاً . وقد استعرضنا في مقالنا عن التفكير الفلسفي في شعر أبي العلاء بكتابتنا « فصول في الشعر ونقده » الأشعار التي قالوا إنه هاجم بها الديانات ووصموه من أجلها بالإلحاد وأثبتنا أن بينها منحولاً كثيراً انتحله عليه خصومه . ويبدو أن أيادي شريرة امتدت إلى اللزوميات قديماً وأدخلت عليها فساداً غير قليل ، يدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نقرأ فيها :

قد ترامت إلى الفساد البرايا واستوت في الضلالة الأديانُ

والبيت على هذا النحو يلصق تهمة الإلحاد بأبي العلاء ، إذ ينسب الضلالة إلى جميع الأديان ، غير أننا إذا رجعنا إلى كتاب شرح المختار من لزوميات أبي العلاء لابن السيد البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١ بعد أبي العلاء بسبعين عاماً وجدناه ينشده على هذا النمط .

قد ترامت إلى الفساد البرايا ونهتتا - لو ننتهى - الأديانُ

ورواية البطليوسي للبيت أوثق من رواية اللزوميات المطبوعة لأنها أقدم من مخطوطاتها التي اعتمدت عليها وأيضاً من النسخ الخطية المحفوظة في دار الكتب المصرية ، مما يدل بوضوح على أن تحريفات (١) مقصودة لبعض ذوى الأهواء الملحدتين أدخلت على اللزوميات من قديم . ومن المؤكد أنه أضيفت إليه بعض أشعار الزنادقة (٢) مثل ابن الراوندى . وقرأ بعض المعاصرين عنده أبياتاً ظنوا منها أنه يؤمن بقديم المادة والزمان والكواكب وخلودها مخالفاً بذلك رأى المتكلمين المسلمين في حدوثها جميعاً وأنها ليست قديمة فلا قديم سوى الله ، وهى فى واقع الأمر أبيات شُبِّهت عليهم من مثل قوله :

أرى زَمَنًا تقادم غيرَ غيرٍ فإن فسبحانَ المهيمِ ذى الكمالِ

وقوله :

يا شُهْبُ إنك فى السماءِ قديمةٌ وأشرتِ للحكماءِ كلَّ مُشارِ

(٢) انظر «أبو العلاء المعرى» للدكتورة عائشة عبد الرحمن ص ٢٣٤ وراجع معاهد التنصيص (طبعة بولاق) ص ٧١ وقارن بإنباه الرواة للقفطى ٧٥/١ .

(١) أشار د . حامد عبد المجيد محقق شرح البطليوسي فى مقدمته إلى أن المختار فيه من اللزوميات يصحح بعض ما حرّف من شعر أبي العلاء ووضّح عليه واستشهد على ذلك بالبيت المذكور .

وهو في البيت الأول جعل الله مسيطرا على الزمان مشيراً بذلك إلى أنه محدث من صنعه ، وكل ما هناك أنه قال إن الزمان تقادم أى تعمق في القدم ، وجعل الشهب في البيت الثانى قديمة وهو لا يقصد بالقدم في البيتين ما يناقض الحدوث إنما يقصد ما يناقض الحدائة بشهادة قوله :

وليس اعتقادى خلودَ النجومِ ولا مذهبي قِدَمَ العالمِ

فهو لا يقول بخلود الأفلاك والكواكب والمادة ولا بقدمها كما كان يقول فلاسفة اليونان . وإنما دخل الخطأ على بعض الباحثين من فهمهم القدم في مثل البيتين السالفين - كما قلنا - بأنه يعنى نقيض الحدوث وهو إنما يعنى نقيض الحدائة ، وقد بسطنا ذلك في مقالنا عن أبى العلاء بكتابنا المذكور آنفا ، وأوضحنا أنه في أشعاره مؤمن إيمانا عميقا بالديانات السماوية والدين الخفيف ورسالته السامية ، كما أوضحنا أن هذا الايمان أصل أساسى من أصول تفكيره الفلسفى العلائى ، وأنشدنا له طائفة من الأشعار التى تصور بوضوح إيمانه بالتكاليف الشرعية وبالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكل ما يتصل به من بعث ونشور من مثل قوله :

أقيم خَمْسِيَّ وَصَوْمَ الدَّهْرِ الْفُهُ وَأُدْمِنِ الذِّكْرَ أَبْكَارًا بِأَصَالِ

فهو صائم الدهر ، فرض على نفسه الصوم حين بلغ الثلاثين من عمره كما مر بنا ، وهو دائما يتجه إلى ربه مصليا الصلوات الخمس دون أى انقطاع واصلا صلاته بالصيام والدعاء والذكر والتبتل والاستغفار . ويعترف مرارا بالبعث والحساب وأن ملكين يكتبان عن يمينه وشماله حسناته وسيئاته ، يقول :

قد راعنى للحساب ذكُرٌ وغرّنى أنه بَعِيدُ
وعن يمينى وعن شمالى بصحبتى حافظُ قَعِيدُ

وهو يستلهم في البيتين قوله تعالى : (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدًا مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) . ويعترف بحساب القبر وسؤال الملكين منكر ونكير فيه للناس ، يقول مخاطباً الليالى :

خَلَّصْنِي مِنْ ضَنْكِ مَا أَنَا فِيهِ وَاطْرَحْنِي لِمُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ
ويشعر في عمق بأنه مقصّر مها قدم لربه من عبادة ، ويأمل دائما في عفوه ومغفرته يوم النشور ، يقول ضارعا :

ومغفرة الله مرجوة إذا أصبحت أعظمى في الرمم
 وباليتمى هامد لا أقوم إذا نهضوا ينفضون اللمم
 ونادى المنادى على غفلة فلم يبق في أذن من صمم
 وجاءت صحائف قد ضمنت كبائر آثامهم واللمم (١)
 وليت العقوبة تحريقة فصاروا رمادا بها أو حمم (٢)

فهو آمل في غفران الله . ومع حياته الزاهدة الناسكة يخاف لقاء ربه حتى ليرتجى أن لا يبعث يوم القيامة (يوم يُنادى المُنادِ من مكان قريب) كما جاء في سورة ق ، فيهبُّ الناس من رقادهم . ويقول أبو العلاء إنهم يسمعون النداء أو الصيحة بأذانهم ، ويستلهم مثل قوله تعالى : (وكلُّ إنسانٍ أَلْمَنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا) . وما يلبث أن يقول ليت العقاب يوم القيامة كان تحريقا يصبح العصاة به رمادا أو حمما فيستريحون ، ولكنه عذاب خالد ، وقد تكرر ذلك في القرآن كثيرا مثل : (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . ولعل في ذلك ما يسقط كل ما قاله عنه بروكلمان في ترجمته له من أنه كان لا يعترف برسالة الإسلام وأيضا ما قاله بعض المعاصرين عنه من أنه كان منكرا للنبوات جاحداً بالرسالة المحمدية ، وكيف يقال عنه إنه كان يجحدها ، وله قصيدة رائعة في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم نختمها بقوله بعد إشادة رائعة به وبرسالته النبوية :

فصلى عليه الله ما ذرَّ شارِقُ ومافت مسكاً ذِكْرُهُ في المحافل

واقترن ذلك عنده - كما مر بنا - بالزهد والتقشف وهو فيها يصدر عن الإسلام وروحه ، وحقا كان متشائما تشاؤما عميقا يملأ حنايا نفسه ، ولكن كان لا يزال يومض له بريق الأمل في رحمة ربه وعفوه ، يقول :

وما أنا يائسٌ من عَفْوِ رَبِّي على ما كان من عَمْدٍ وَسَهْوٍ

وذهب بعض المعاصرين إلى أنه اتخذ العقل إماماً له ، لا يثق ولا يستسلم ولا يلقى مقاليدته إلا إليه ، لمثل قوله :

كذب الظنُّ لإمامٍ سوى العَقْدِ لي مشيراً في صُبْحِهِ والمساء

(١) اللمم : الذنوب الصغيرة

(٢) الحمم : ما أحرق من خشب وغيره

وظنوا أن في ذلك ما يتصل من بعض الوجوه لإنكاره - في رأيهم للنبوات ، وفاتهم أنه متابع في تمجيده للعقل واعتزازه به للمعتزلة وقد مرت بنا في كتاب العصر العباسي الأول أبيات بشر بن المعتز المعتزلي الرائعة في تمجيد العقل ، وما زال المعتزلة يشيدون به حتى نفذ الجبائي وابنه أبو هاشم إلى إثبات شريعة عقلية بجانب شريعة الوحي السماوي وهي لا تخالفها بل تشهد لها وتسندها . وأبو العلاء يتابع الجبائي وابنه ، وكان يخالفها الأشعري ، ولذلك حمل عليه أبو العلاء في رسالة الغفران . وكان - مثل المعتزلة - يفسح للظن ، إذ الظن أساس المعرفة وأساس ما يصل إليه الإنسان من اليقين وفي ذلك يقول :

أما اليقينُ فلا يقينَ وإنما أقصى اجتهادى أن أظنَّ وأُحدِسا

فبلغ علمه الوصول إلى الظن ، وهو بذلك يتفق مع المعتزلة القائلين بأن كثيرا من التكاليف العقلية والشرعية مرجعه في الاجتهاد إلى الظن .

ويذهب بعض دارسي أبي العلاء إلى أنه كان يؤمن بالجبر مكررا أن الإنسان يدخل الدنيا كارها ويخرج منها كارها ، يقول :

خرجتُ إلى ذى الدار كرهاً ورحلتى إلى غيرها بالرغم والله شاهدُ

وأبو العلاء إنما كان يؤمن بالجبر في حياته وموته ووجوده فكل ذلك يحدث بإرادة الله ولا دخل لإرادة الإنسان فيه ، إذ لا نخرج إلى الدنيا اختيارا ولا نرحل عنها اختيارا ، وهو ما لا ينكره عليه أحد من القائلين بحرية الإرادة للإنسان إذ يريد بها المعتزلة - وهو معتزلي مثلهم - إرادة الأعمال والأفعال ، ويقدم على ذلك دليلا قاطعا حاسما قائلا :

إن كان مَنْ فعل الكبائر مُجْبِرًا فعقابه ظلمٌ على ما يفعلُ

وهو بذلك ينكر الجبر صراحة فيما يقترف الإنسان من كبائر ، ويرتب أبو العلاء عليه - عند القائلين به - نسبة الظلم إلى الله ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا . وهو بذلك يصدر عن فكرة المعتزلة القائلة بوجوب العدل على الله كما يصدر عن فكرتهم أن الإنسان حر تام الحرية في أفعاله وتصرفاته أما ما وراء ذلك من الأعمال الكونية فخاص بالله وارا دته العليا ولذلك يقول :

لا تَعِشْ مُجْبِرًا ولا قَدَرِيًّا واجتهدْ في تَوْسُّطِ بَيْنَ بَيْنَا

فذهب في حرية الإرادة مذهب المعتزلة ومذهبه فيما يخرج عن إرادة الإنسان من نظام الكون والوجود مذهب الجبر ولا يخالفه معتزلي في ذلك ، لأن أحدا لا يستطيع أن يقول إنه يولد باختياره أو يموت باختياره ، وإنما الجدل بين الجبرية والقدرية في إرادة الإنسان إزاء تصرفاته وهل هو حر مختار يتصرف في أفعاله وأعماله بمشيئته أو هو كريحته في مهب رياح القضاء والقدر تسيّره كما تريد . واختار القدرية والمعتزلة الرأي الأول ، وهو ما اختاره أبو العلاء بين ما اختاره من الأفكار الاعتزالية وقد صرح مرارا بما قاله المعتزلة من تنزيه الله عن التجسيد والشبه بال مخلوقات : ولعل ما أسلفنا من الحديث يوضح في إجمال كيف كان أبو العلاء فيلسوفا إسلاميا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وكيف أن فلسفته كانت تقوم على تشاؤم حاد يُردُّ إلى فقدده لبصره صبيا وإلى ما أطبق على المجتمع لزمه من شرور ومن حكم فاسد ، كما تُردُّ إلى إحساسه العميق بآلام الإنسانية التي ملأت قلبه لوعة ، مما جعله مفكرا إنسانيا عظيما . هذا جانب في فلسفته ، وجانب ثان استمدّه من الدين الحنيف وما فيه من دعوة إلى الزهد والتقشف والإيمان الصادق بالله وملائكته وكتبه وتكاليفه الشرعية واليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، مع الاعتقاد بحدوث الكون وكل ما فيه من مادة وزمان وأفلاك وكواكب ، فالله خالق الكون ومبدعه قال له : كن فكان . وجانب ثالث في فلسفته استمدّه من الاعتزال وما فيه من تمجيد العقل وتقديسه ، ومن وجوب العدل على الله وتنزيهه عن التجسيد ، ومن الإيمان بحرية الإرادة للإنسان وأنه حر كامل الحرية في أفعاله الشريرة والآثمة والخيرة الطيبة .

منصور^(١) بن المسلم

هو منصور بن المسلم العميمي الحلبي المعروف بالذُّمَّيْكَ وبابن أبي العُرْجَيْن ، ولد بحلب سنة ٤٥٧ وبها نشأ وحفظ القرآن كعادة لداته واختلف إلى شوخها ، وشُغِف خاصة بالعربية وأساتذتها ، فتزود منها خير زاد ، وأنس من نفسه رغبة في تعليمها وانتقل عن حلب وسكن دمشق ، وتحول بها مؤدبا يعلم الصبيان في مسجد الرماحين وغيره ، وظل في هذا العمل يشغل به حياته حتى توفي سنة نيف وعشرين وخمسمائة . وكان يتقن العربية ، مما جعله يصنف كتابا في الرد على ابن جنى في كتابه « إعراب الحماسة » ويقول مترجموه إنه دلّ فيه على تعمق في العربية وجودة

للقفطي ٣٢٦/٣

(١) انظر في منصور بن المسلم الخزيمية (قسم الشام)

١٦٩/٢ ومعجم الأدباء لياقوت ١٩٤/١٩ وإنباه الرواة

غَوْص . ويقول يا قوت كان له ديوان شعر وقفت عليه بخطه الرائق فوجدته مشحونا بالفوائد النحوية ، وقد شرح ألفاظه اللغوية واعتنى بإعرابه فدلَّ على تبحره في علم العربية . وروى العماد الأصبهاني في الخريدة طائفة من شعره ، بينها غزل كثير يدل على رهافة حسه ودقة شعوره من مثل قوله :

أَحِبَابُنَا إِنْ خَلَّفَ الْبَيْنُ بَعْدَكُمْ قُلُوبًا فِيهَا لِلتَّفَرُّقِ نِيرَانُ
رَحَلْتُمْ عَلَى أَنْ الْقُلُوبَ دِيَارُكُمْ وَأَنْكُمْ فِيهَا عَلَى التَّأْيِ سُكَّانُ

ونمضى معه في هذا الغزل الملتاع وإذا هو يذكّر غربته في دمشق ، ويتنقل من الغزل إلى سرد بعض خبرات له في الحياة ، مما تعمق نفسه في غربته الطويلة عن ملاعب صباه وشبابه وعن مجالس إخوانه وخلّائه ، يقول :

وَمَا بَاخْتِيَارِ الْمَرْءِ تَشَعَّبُ نِيَّةُ فَتَبْرَحُ أَوْطَارُ وَتَتْرَحُ أَوْطَانُ (١)
عَسَى مُورِدٌ مِنْ مَاءِ جَوْشَنَ نَاقِعٌ فَإِنِّي إِلَى تِلْكَ الْمَوَارِدِ ظَمَّانُ
وَمَا كَلُّهُ إِنْسَانٌ يَنَالُ مُرَادَهُ وَيُسَعِدُهُ فِيمَا يَجَاهِدُ إِمْكَانُ
وَعَيْشُ الْفَقِي طَعْمَانٌ حُلُوٌّ وَعَلَقَمٌ كَمَا حَالُهُ قِسْمَانُ : رِزْقٌ وَحِرْمَانُ

وهو يألم لغربته ونزوحه عن وطنه ، ويتمنى جرعة من ماء الآبار في جبل جوشن المشرف على حلب ينقع بها لهيب ظمئه إلى موطنه ودياره . ويسوق ذلك في عبارات عامة تحيل البيتين الأول والثاني حكمتين بديعتين ، وكأنه يريد أن يعزى نفسه فينظم الحكمتين التاليتين ، فليس كل إنسان تتحقق مناه ويعيش سعيدا ، بل كان إنسان يذوق الحلو والمر في حياته كما يذوق الرضا والحرمان . ويستهل قصيدة أخرى بالغزل أيضا وما يلبث أن يفضى إلى الحكم قائلا :

رَأَيْتُ الْفَقِيَّ يَأْتِيهِ مَا لَا يَنَالُهُ بِسَعْيٍ وَلَوْ أَنْضَى الرَّكَائِبَ وَالرَّكْبَانَ (٢)
وَمَنْ رَامَ إِدْرَاكَ الْمُنَى بِفَضِيلَةٍ فَقَدْ رَامَ أَمْرًا لَيْسَ يَدْرُكُهُ صَعْبًا
وَيَذْهَبُ بِالوَدِّ الْمِرَاءَ وَيَمْتَرِي حَفَائِظَ لَا تَبْقَى عَلَى صَاحِبِ صَحْبَانِ (٣)
تَوْقٌ قَلِيلٌ الشَّرُّ خَوْفٌ كَثِيرٌ وَلَا تَحْقِرَنَّ النَّزْرَ رَبَّتَمَا أَرَبِي
فَإِنْ صَغِيرَ الشَّيْءِ يَكْبُرُ أَمْرُهُ وَكَمْ لَفْظَةٍ جَرَّتْ إِلَى أَهْلِهَا حَرْبًا

(٣) يمتري : يستير . حفائظ جمع حفيفة وهي الغضب والحمية .

(١) تشعب : تبعث

(٢) أنضى : أتعب . الركائب : الابل

وهو يتكلم في أول الأبيات عن الحظ وما يغدقه على الإنسان ، دون سعى ، من منى لو أضنى فيها الركائب والركب مانالها أبدا ، ومهما تدرع لها من فضيلة وخصال طيبة مادنت قطوفها منه بحال ، وينصح الأصدقاء أن لا ينشب بينهم مرء ولا جدال مقيت لأنه يثير حفائظهم ومكامن الغيظ منهم ويقطع ما بينهم من صلوات . ويوصى الإنسان أن يتجنب قليل الشر حتى لا يقع في وهاده الكثيرة السيئة ، وأن لا يظنه - مها صغر وتضائل - شيئا لا يؤبه به ، فقد ينمو كما تنمو النار من بعض الشرر ، وكم من شر قليل حقير نما واستفحل واستعصى علاجه ، وكم من لفظة حمقاء أوقدت نار حرب مستطيرة . وينثر في قصيدة ثالثة طائفة من الحكم كقوله :

وقد يُحِبُّ الإنسانُ ما فيه نَقَصُهُ وَيُبْغِضُ ما يَنْمِي به وَيَزِيدُ
نريد من الأيام تَصْفُو من الأذى وَتَضْفُو ولا يَقْضِي بذاك وجودُ (١)
وكيف نروم العيش نَحْلُوا من القذى وللماء من بعد الصِّفاء ركود
إذا كان يُعْطَى المرء ما يستحقُّه تساوى شقى في القضا وسعيد
ومن جَرَّب الدنيا على سوء فِعْلِها يعيبُ ذمِيمَ العيش وهو حميد

وقد ألهمه البيت الأول قوله تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) ويقول إننا نريد من الأيام صفاء من الشوائب وأن تكون ضافية سابغة رغدة ولا تقضى بذلك سنة الوجود ، حتى في الطبيعة ، فالماء يركد بعد صفاء وحركة دائبة . ولو أن كل شخص نال ما تمنى لخالف ذلك سنة الحياة وأن الناس منهم شقى وسعيد ، وجدير بمن خبر الدنيا أن يرضى بميسور عيشه وأن يصبح في رأيه حميدا لا كرها مدموما . ومن طريف شعره .

الناسُ كالأرضِ ومنها هُمُ من خَشِنِ اللَّمسِ ومن لَيِّنِ
مَرُّ تَوَقَّى الرَّجُلُ منه الأذى وإِثْمِدُ يُجْعَلُ في العينِ (٢)

وهو تقسيم بديع للناس فهم كأهمهم الأرض معادن مختلفة ، منهم الصلِّد الذي لا يأتي بخير بل قد يؤذى ، ومنهم الكحل النافع الذي يبرئ العين ويزيدها حسنا وبهاءً وجالاً . ولنصور وراء ذلك أشعار يدعو فيها إلى الزهد في الدنيا والتقوى والعمل الصالح .

(١) تَضْفُو : تصبغ رغدة هائلة

(٢) المرء : الحجر الصلِّد . الإثمِد : الكحل

حسين^(١) الجزري

هو حسين بن أحمد الجزري الحلبي ، ولد بجلب وبها نشأ لزمن العثمانيين فحفظ القرآن الكريم ثم اختلف إلى حلقات الشيوخ والأدباء وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقصد به الرؤساء والحكام في دمشق والعراق ودخل القسطنطينية واصطفاه بنو سيفا أمراء طرابلس لأنفسهم ، فنظم فيهم كثيرا من مدائحهم ، وفيه يقول ابن معصوم : « أحد صاغة القريض . . العالم بشعار الأشعار والمقتنى لأبكار الأفكار . . راقت بدائع آدابه ورقت ، وملكت روائعه حرّ الكلام واسترقت » ويقول الشهاب الحفاجي : « أديب له أوصاف حسنى ، ومناقب هن الوشى بهجة وحسنا » توفي سنة ١٠٣٤ للهجرة . وله ديوان شعر نشر في بيروت أولا ثم نشره الطباخ مع ديوانى مصطفى البابي والفتح بن النحاس في مجموعته : العقود الدرية . وأشعاره موزعة بين المديح والغزل والفخر والشكوى ، وكان يشغف بالحكمة ينثرها في الشعر قائلا :

الشعرُ ما شاقَّتْ منه حكمةٌ لا ما يشوقك الكتيبَ الأوعسا^(٢)

فليس الشعر في رأيه ما يصور نزعة الحب الإنسانية وإنما الشعر ما يفيد تجربة وخبرة وبصراً بالحياة . وهو لذلك لا يعد الشعر المشوق لديار الحبيبة ومعاهدا من كثران وعساء وغير وعساء شعرا رفيع المنزلة فأرفع منه ما يزيدك إدراكا بالحياة من حولك ، ويعرّفك كنهها وحقيقتها ، يقول في تضاعيف غزل له :

إن المحبة محنة لا منحة ومن الغرام برى المحب المغرما
وإذا منعت الماء أول مرة ووردته أخرى تذكّرت الظما
في كل يوم روعة أولوعة والقد تُقعه الحوادث توأما
ولقد ملئت تحاربا وتجاربا لن تلقى إلا إناء مفعما

وهي أفكار يعطيها صفة التعميم مما يجعلها حكما وأمثالا ، فالحب محنة لا منحة يضنى صاحبه ، ومن تصدّه صاحبه أول مرة كمن يصدّ عن الماء وهو شديد الظما إذ لا يزال يذكر ذلك حتى لو

(٢) الكتيب : تل الرمل . الأوعس : الذى تغيب فيه الأرجل للينه

(١) انظر في ابن الجزري وشعره سلافة العصر ص ٣٩٣ وريحانة الألبا ١١٣/١ وخلاصة الأثر ٨١/٢ وانظر ديوانه في مجموعة العقود الدرية

أُتِيحَ لَهُ الْوَرُودُ ، فَظَمُّهُ وَهَفَفْتَهُ الْقَدِيمَانَ لَا يَبْرَحَانِ ذَاكِرْتَهُ ، وَهَلْ فِي الْحُبِّ إِلَّا صَدٌّ وَامْتِنَاعٌ وَعَذَابٌ ، وَالْحُبُّ يَصِلِي الرَّوْعَةَ بَعْدَ الرَّوْعَةِ وَاللُّوْعَةَ بَعْدَ اللَّوْعَةِ ، وَيَقُولُ إِنَّهُ مُفْعَمٌ بِالتَّجَارِبِ كَمَا يُفْعَمُ الْإِنَاءُ بِالْمَاءِ ، وَيَنْشُدُ :

أرى اليأسَ عِزًّا والرَّجَا ذَلَّةً الفَتَى وطولَ المني عجزًا وحبَّ الغنى فقراً
فلا تَضْجَرُنْ من حَالَةٍ مستحيلَةٍ كما نَلَّتْهَا عُسْرًا سَتَرَكَهَا يُسْرًا
وإن الفَتَى كَالغُصْنِ مادام نَابِتًا فَأَوْنَةٌ يُكْسَى وَأَوْنَةٌ يَعْرى

وهو يرى اليأس من الناس وتحقيق الآمال لا إحدى راحتين فحسب ، بل عزاً ما بعده عز ، كما يرى الرجاء وخاصة في الناس ذلاً ما بعده ذل ، واتساع الأمانى عجزاً لا يشبهه عجز ، والتطلع إلى الغنى فقراً لا يماثله فقر . فخير للإنسان أن يقنع وأن يرضى من دنياه بالكفاف . ويوصيه أن لا يضجر من شدة تنزل به لأنها لا بد أن تستحيل وتتحول ، فكل عسر معه يسر ، وما أشبه الإنسان بغصن شجرة يَعْرى من الأوراق ويكسى بها كل عام . ويقول :

إن خَصَّنِي بالبؤسِ دهري دائماً دون الوردى فأنا بذلك أفضلُ
هذي عقاقيرُ العِطَارَةِ كُلُّهَا لم يحترقَ منهن إلا المندلُ

فهو يتقبل البؤس راضياً ويتعلل لبؤسه بأنه أشبه ما يكون بالمندل أو العود الطيب الرائحة فإنه يحرق وحده دون ما عند العطار من صنوف عطارة كثيرة . ويتردد في أشعاره ذكر الحرمان وأن الكريم لاتضره قلة المال بينما اللئيم لا يجديه ولا ينفعه الثراء ، ويحاول أن يجد له ولأمثاله من الأدباء والفضلاء تعلُّلات للتضييق على نفر منهم في الرزق بمثل قوله :

لأنحسب الأرزاق تُقسَمُ باطلاً كلا لقد ساوى المهيمنُ بينَها
فإذا رُزِقْتَ الجَهْلَ أدركتَ المني وإذا حُرِمْتَ الجَدَّ أعطيتَ الثَّهْيَ

وكان أهل الأرض في رأيه اثنان: جاهل ثرى له كل ما يأمل ويتمنى وكان الدنيا طوع أمره ، وعاقل (أديب أو عالم) فقير حُرِمَ الجَدُّ أو الحظ وحرم معه إكسير الحياة من المال والثراء والنعيم . ويقول :

غَيْرُ بَدْعٍ إِذَا ظَلَمْتَ بدهر رُزِقَ العَمْرُ فِيهِ حَظًّا عَظِيمًا
فألهواءُ الصحيحُ يُدعى عليلاً واللَّدِيعُ المِصَابُ يُدعى سَلِيمًا

وهو يواسى من يحشون بأنهم مظلومون فى دنياهم لم ينالوا حظهم الطبيعى من الرزق والعيش الكرم ، بينما المغمورون يعيشون فى ببحوحة من الثراء والنعيم . ويقول إن النسيم المنعش الصحيح يدعى عليلا واللدغي يدعى سليما من تسمية الأصدقاء ، ولعل فى ذلك بعض المواساة للمظلومين المحرومين . ويقول :

رُوَيْدَكَ إِن بَعْدَ الضُّيْقِ مَخْرَجٌ وَصَبْرُكَ عِنْدَهُ أَهْيَى وَأَبْهَجُ
وَكَمْ مِنْ كُرْبَةٍ عَظُمَتْ وَجَلَّتْ وَعِنْدَ حَلُولِهَا الرَّحْمَنُ فَرَجٌ

وهو يدعو إلى الصبر عند الشدة والضيق إذ لا بد من رباطة الجأش دون أى تبرم ودون أى خور وضعف ودون أى يأس ، مع الاعتصام بالله والأمل الدائم فى رحمته ، وأنه لا بد كاشف الكرب والأهوال مهما اشتدت وإن فرجه لقريب ، وإنه لدائما مع الصابرين الذين لا يأسون أبدا من عونه . ولا بن الجزرى وراء هذه الحكم وما يماثلها فى أشعاره - كما قدمنا - مدائح كثيرة ، وله فيها أبيات بديعة من مثل قوله :

يُلَبِّيكِ مِنْ قَبْلِ السُّؤَالِ نَوَالُهُ وَيَأْتِيكِ دُونَ الْإِنْتِظَارِ نُضَارُهُ

وله أبيات مختلفة فى الشكوى من الناس والأصدقاء ، وفى غزله أبيات كثيرة جيدة ، وقد كان شاعرا محسنا مجودا .

٦

شعراء التشيع

مر بنا فى حديثنا عن التشيع أنه عُرف فى سَلْمِيَّةَ بالشام مع حركة عبد الله بن ميمون القدّاح حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى الداعى لمذهب الإسماعيلية المعروف ، وهذا إنما يصدق على تلك الحركة الشيعية . ويبدو أن أفرادا من الشام كانوا يتشيعون قبل هذا التاريخ ، لا التشيع الغالى المفرط ولكن التشيع المعتدل المقتصد ، ويسلك فيهم بعض الباحثين أبا تمام لمثل قوله عن قصيدة له مخاطبا المأمون (١) :

ووسيلتى منها إليك طريفةٌ شامٍ يدين بحبِّ آلِ محمدٍ

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ٥٥/٢

وقد ذهبنا في كتابنا العصر العباسي الأول إلى أن أبا تمام لم يكن يصدر في مثل ذلك للمؤمن عن تشيع إنما كان يريد أن يتقرب للخليفة بذكره لآل البيت . ومعروف أن المأمون كتب إلى الآفاق بتفضيل عليّ على أبي بكر وعمر ، مما جعل الشاعر يشيد بعلي ومواقفه في عهد الرسالة . ويلقانا بعده ديك الجن الحمصي المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة وتشيعه أوضح من تشيع أبي تمام إذ نجد عنده أشعارا في أهل البيت ومرأى تندب الحسين وتبكي مصرعه من مثل قوله في افتتاح إحدى مراثيه (١) :

يا عَيْنُ لالغَضَا ولا الكُتْبِ بُكا الرّزايا سوى بُكا الطَّربِ (٢)
يا عَيْنُ في كَرْبِلا مقابِرُ قد تركنَ قلبي مقابرَ الكُربِ
من البهاليلِ آلِ فاطمةِ أهلِ المعالي والسادةِ التُّجِبِ
كم شَرِقَتْ منهم السيوفُ وكم رُوِيَتْ الأرضُ من دمٍ سَرِبِ (٣)

ويقول أبو الفرج عن هذه المرثية إنها مشهورة عند الخاص والعام ويناح بها ، كما يقول إنه كان يتشيع تشيعا حسنا (٤) ، فتشيعه كان تشيعا معتدلا . ولم تعرف الشام التشيع المفرط الغالى إلا منذ القدّاح ودعوته الإسماعيلية التي اتخذ لها سَلْمِيّة بالقرب من حمص وحماة مركزا ، وأخذ القرامطة يشيعون هذه الدعوة بين بدو الشام ، غير أن دمشق ظلت بعيدة عن التشيع على الأقل حتى أوائل القرن الرابع إذ نجد النسائي صاحب كتاب السنن يلم بها سنة ٣٠٣ وكان يتشيع ، فسألوه عن معاوية وما روى من فضائله فأبى أن يفضله ، فما زالوا يدفعونه من المسجد ، ويقال : داسوه بالأقدام . وخرج من دمشق خائفا يترقب إلى الرملة فمات بها . ويبدو أن الدعوة الشيعية - لقيت لها آذانا صاغية بجلب منذ مطلع القرن الرابع ، ويلقانا هناك الصنوبري المتوفى سنة ٣٣٤ وكان يتشيع - فيما يبدو - تشيعا معتدلا . ونراه يذكر - ما يؤمن به الشيعة من وصية الرسول عليه السلام لعلي بالإمامة بعده ، وله مرث في الحسين تبكيه بكاء حارا من مثل قوله (٥) :

(١) الديوان (في طبعاته المختلفة) وأدب الطف أو شعراء الحسين لجواد شبر ٢٨٤/١
(٢) شجر الغضا . من أشجار البادية . يقصد بذكره وذكر الكتبان شعر النسيب
(٣) شرقت : غصت . سرب : سائل .
(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٥١/١٤
(٥) أعيان الشيعة ٣٥٦/٩ وانظر أدب الطف أو شعراء الحسين ١٩/٢

يَوْمَ الْحَسَنِ هَرَقَتْ دَمَّ حَ الْأَرْضِ بِلِ دَمَعَ السَّمَاءِ
 مَنْ ذَا لِمَعْقُورِ الْجَوَا دِ مُمَالِ أَعْوَادِ الْخِبَاءِ
 مَنْ لَلطَّرِيحِ الشُّلُو عُرُّ يَانَا مَخْلَى بِالْعَرَاءِ
 مَنْ لَلْمَحْنَطِ بِالثُّرَا بِ وَلِلْمَغْسَلِ بِالدَّمَاءِ
 ومن أهم شعراء الشيعة الإماميين بعده أبو فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٧ ، ومعروف أن الحمدانيين كانوا شيعة إمامية ، ويشتهر أبو فراس بقصيدة ميمية تصور عقيدته الشيعية وفيها هاجم العباسيين هجوما عنيفا ودافع عن العلويين دفاعا حارا ، وتسمى الشافية افتتحها بقوله (١) :

الدينُ مُحْتَرَمٌ وَالْحَقُّ مُهْتَضَمٌ وَفِي آلِ رَسُولِ اللَّهِ مُقْتَسَمٌ

والفيءُ : غنيمة الحرب ، وهو يشير إلى فبك وكانت فيثا لرسول الله في غزوته لخبر والقرى حولها . وكانت السيدة فاطمة الزهراء فكرت في إرثها عن أبيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذكرها أبو بكر الصديق بقوله : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة » فاستجابت ثوا الرأيه وكان ينبغي أن يستجيب له أيضا أبو فراس . والقصيدة في واحد وستين بيتا . ويعلن في ديوانه مرارا أنه شيعي إمامي ، ويذكر أئمتهم الاثني عشر في مثل قوله (٢) :

شَافِعِي أَحْمَدُ النَّبِيُّ وَمَوْلَا عِيَّ عَلِيٍّ وَالْبِنْتُ وَالسَّبْطَانِ
 وَغَلِيٌّ وَبَاقِرُ الْعِلْمِ وَالصَّامِ دَقُّ ثَمِّ الْأَمِينِ ذُو التَّبْيَانِ
 وَعَلِيٌّ وَالْمَتَّقِيُّ ابْنُ عَلِيٍّ وَعَلِيٌّ وَالْعَسْكَرِيُّ الدَّانِي
 وَالْإِمَامُ الْمَهْدِيُّ فِي يَوْمِ لَايْدُ فَعُ إِلَّا غُفْرَانُ ذِي الْغُفْرَانِ

والأئمة الاثنا عشر في الأبيات مرتبون ، وهم علي بن أبي طالب وابناه سبطا الرسول ، الحسن والحسين وعلي زين العابدين بن الحسين وابنه محمد الباقر وابن الباقر جعفر الصادق وابنه الأمين موسى الكاظم ونجل الكاظم علي الرضا وابنه محمد الملقب بالمتقي والجواد ثم ابنه علي الهادي ونجله حسن العسكري ثم ابنه محمد المهدي ويسميه القائم في مقطوعة ثانية ذكر فيها الأئمة الاثني عشر حتى انتهى إلى العسكري بن الهادي قائلا (٣) :

(٢) الديوان ٣/٣٩٧
 (٣) راجع ٣/٤٢٩ وما بعدها .

(١) ديوان أبي فراس الحمداني (نشر وتحقيق د. سامي الدهان) ٣/٣٤٨

وابنه العسكرى والقائم المظهر حقي محمد بن علي

ويعتقد الإمامية وخاصة الغلاة أن محمدا المهدي لم يموت وأنه غاب وسيعود ويسمونه قائم الزمان . وسنعرض هذه الفكرة عرضا أكثر تفصيلا في حديثنا عن بهاء الدين العاملي . ويلقانا في القرن الخامس الهجري ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ وهو شيعي إمامي ، ومن آثار تشيعه في شعره قوله (١) :

وقالوا قد تغيّرت الليالي وضيّعت المنازل والحقوق
وأقسم ما استجدّ الدهر خلقا ولا عدوانه إلا عتيق
أليس يردّ عن فديك عليّ ويملك أكثر الدنيا عتيق

وهو يأسى لعلى وزوجته فاطمة الزهراء أنها رُدّت عن ميراث فديك وقد كانت فكرت كما ذكرنا ذلك آنفا في أن ترثها ، وذكرها أبو بكر بحدِيثِ أَيْبِهَا عَلَيْهَا واستجابت له راضية . وكبرت كلمة تخرج من فم ابن سنان أن يقول عن الصديق الزاهد الذأنفق أمواله في دعوة الإسلام : إنه ملك أكثر الدنيا ، وهو لم يملك شيئا ، إن يقول إلا بهتانا وزورا .

وكان يعاصره كشاجم وكان أصغر منه سنا ، وكان يتشيع لمذهب الإمامية ، وسنخّصه بترجمة عما قليل . وربما كان أهم شعراء الشيعة بالشام في القرن الخامس الهجري ابن حيوس الشاعر الدمشقي ، وسنفرّد له الآخر ترجمة . ويلقانا بعده عند العباد الأصبهاني في كتابه الخريدة شعراء شاميون شيعيون متعدّدون عاشوا في القرن السادس الهجري ، غير أنه لا يُعنى بشعرهم الشيعي إلا بعض مقطوعات قلما توضح لهم مذهبها أو نحلة ، منهم ابن قسيم الحموي المتوفى سنة ٥٤١ وقد أنشد له العباد في حب آل البيت قوله (٢) :

ويدي بآل محمدٍ علقتُ مني فلستُ بغيرهم أرضى
جعل الإلهُ عليّ حُبهمُ وعلى جميع عبادِهِ قرَضاً
فأثارَ ذلك من زنادقةٍ حسداً فسموا حُبهم رَفْضاً
وعجبتُ هل يرجو الشفاعةَ من يَنبؤي لآلِ محمدٍ بَغْضاً

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٤٥٣/١

(١) ديوان ابن سنان (طبع المطبعة الأنسية ببيروت) ص

وهو يعلن حبه لآل البيت حبا لا يماثله حب ، وهو حب يراه فرضا مكتوبا على كل مسلم مخلص لدينه . ويبدو أنه كان يغلو في هذا الحب غلو الرافضة ، إذ يسمى أعداءهم زنادقة ، ويعجب أن يفكر في شفاعتهم يوم القيامة مبغض لهم تأكل نار بغضهم قلبه . وكان يعاصره ابن منير المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ويقول عنه العماد : كان غالبا متشيعا^(١) ولم يرو شيئا من شعره الشيعي الغالي . وكان طلائع بن رزيق وزير الخليفين الفاطميين : الفائز والعاقد شيعيا إماميا ، وكان من مقريه ثقة الملك الحسن من بني أبي جرادة الحلبيين المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، وله فيه مدائح بها إشارات لبعض عقائد الشيعة^(٢) ، ويبدو أن أسرته كانت تعتق مذهب الشيعة الإمامية مثلها في ذلك مثل أهل حلب موطنها . ومن شعراء الشام الشيعة في الخريدة عرقله الدمشقي حسان بن نمير المتوفى سنة ٥٦٧ هـ وينشد العماد مقطوعة طويلة يذكر فيها تشيعه قائلا^(٣) :

أنا من شيعة الإمام حسينٍ لستُ من سِنةِ الإمام يزيدٍ
وهو يريد يزيد بن معاوية الذي قتل الحسين أيام خلافته ، وسماه الإمام تهكما وسخرية . ونظلم في زمن الأيوبيين والمماليك نستمع إلى أشعار تبكى الحسين أو تمدح آل البيت على نحو ما نجد عند فتيان الشاغوري الدمشقي المتوفى سنة ٦١٥ للهجرة ، ويلقانا في مطالع ديوانه باكيا الحسين ذارفاً عليه الدمع مدراراً منشدا^(٤) :

لَمْ لَا أُسْحُ بِيَوْمِ عَاشُورَاءَ مِنْ مَقَلَّتِي دَمًا يَمَازِجُ مَاءَ
يَوْمًا بِهِ قُتِلَ الْحُسَيْنُ بِكَرْبَلَا قَتَلَا حَوَى كَرْبًا بِهِ وَبَلَاءَ

ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر المحرم ، وفيه استشهد الحسين على نحو ما هو معروف . ولفتيان قصيدة طويلة في حب آل البيت يقول إنه نظمها مؤملا عفو الله ورضاه ، وفيها يشيد بالرسول ورسالته المحمدية الكبرى ، ويسترسل في التنويه بعلي بن أبي طالب وانتصاراته المجيدة على أعداء الإسلام وبنوه بعلمه وزهده وتقشفه ، ثم يفيض في الحديث عن مصرع الحسين المفجع بمثل قوله^(٥) :

أَلْهَيْهِ لِلْحُسَيْنِ غَدَاةَ أَصْحَى هُنَاكَ « بِكَرْبَلَا » سِيلُوا قَتِيلَا

- | | |
|--|--|
| (١) الخريدة ٧٦/١ | بدمشق) ص ٦ |
| (٢) الخريدة ١٩٩/٢ | (٥) الديوان ص ٥٨٠ والشلو: العضو من الإنسان |
| (٣) الخريدة ٢٠١/١ | والجمع أشلاء ، كناية عن الموت |
| (٤) ديوان فتیان الشاغوري (طبع مجمع اللغة العربية | |

يَمزُقُ جِسْمَهُ دَوْسُ الْمَذَاكِي وَقَدْ أَعْلَتْ وَايَاهُ الْعَوِيلَا (١)
 شَكَا ظَمًا فَمَا عَطَفُوا عَلَيْهِ وَلَا أَلْوَا وَلَا أَرَوَا غَلِيلَا
 رَسُولُ اللَّهِ سَمَاهُ « حُسَيْنَا » وَقَبَّلَ نَعْرَهُ زَمْنَا طَوِيلَا

ويقسم فتيان مرارا وتكرارا بعلى والحسين وأصحاب العباء أو الكساء إشارة إلى حديث ترويه الشيعة عن أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : « دخل على وفاطمة ومعها الحسن والحسين فوضعهما الرسول في حجره فقبلهما واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة بالأخرى ، وجعل عليهم جميعا كساء أسود وقال : اللهم إليك لا إلى النار » . ولم يكن فتيان غالبا في تشييعه بل كان معتدلا ، يشهد لذلك قوله في علي والحسين وآلهما (٢) :

لَمْ أَهْوَهُمْ أَبَدًا يَبْغِضِي غَيْرَهُمْ كَلًّا وَمَنْ فَرَضَ الصَّلَاةَ وَوَقْتًا

فهو يقسم بربه فاض الصلاة أنه لم يجب آل البيت مبيغضا لأبي بكر وعمر مثل غلاة الشيعة ، بل هو يجب الجميع وإن كان حبه لهم أزيد وأكثر ، كما تشهد بذلك قصيدته السالفة .
 وملتقى في زمن الماليك بالوداعي المتوفى سنة ٧١٦ ويقول صاحب الفوات : كان شيعيا ، ومما يدل على ذلك قوله (٣) :

سَمِعْتُ بَانَ الْكَحْلَ لِلْعَيْنِ قُوَّةً فَكَحَلْتُ فِي عَاشُورَ مُقَلَّةً نَاطِرِي
 لَتَقْوَى عَلَى سَحِّ الدَّمُوعِ عَلَى الَّذِي أَذَاقُوهُ دُونَ الْمَاءِ حَرَّ الْبَوَاتِرِ

فهو قد تكحل في يوم عاشوراء يوم ذكرى مصرع الحسين ليسح الدموع ويذرفها على الحسين الذي قتلوه دون جرعة ماء يحتسيها بالسيوف القواطع ، وكان بعض معاصريه يتهمه بالرفض والغلو في التشيع فكان ينكر ذلك منحا علي من يتهمه بالسب واللعن ، وفي ذلك يقول (٤) :

قُلُّ لِلَّذِي بِالرَّفْضِ أَتِ هَمْنِي أَضَلُّ اللَّهُ قَصْدَهُ
 أَنَا رَافِضِيُّ الْعَنِّ الـ شَيْخَيْنِ أَبَاهُ وَجَدَّهُ (٥)

وواضح أنه يقول إنه رافضي تهكما على خصومه . ونظن نلتقى بشعر شيعي على هذه الشاكلة

(١) المذاكي : الخليل ، ولاياه : نساء أسرته .

(٢) الديوان ص ٦٨

(٣) فوات الوفيات لابن شاکر ١٧٦/٢

(٤) الفوات ١٧٥/٢

(٥) أباه مشددة الباء لصحة الوزن

لا في أيام الممالك فحسب ، بل أيضا في أيام العثمانيين ، ومن يُظنُّ تشيعه حينئذ درويش^(١) الطالوي المتوفى سنة ١٠١٤ وحسين^(٢) بن عبد الصمد العاملي وهو أبو بهاء الدين العاملي أكبر شعراء الإمامية حينئذ ، وسترجم له عما قليل .

كُشَاجِم^(٣)

هو أبو الفتح محمود بن محمد بن الحسين بن السندی بن شاهك اشهر بلقبه كشاجم ، وضبطه صاحب القاموس بضم الكاف ، وفي تاج العروس شرح القاموس وشرح درة الغواص للشهاب الخفاجي أنه بفتحها ، وقيل إن هذا اللقب مركب من أوائل كلمات تدل على صناعاته ، فالكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والجيم من جميل والميم من منجم أو من مغن ، وفي ذيل زهر الآداب : « أنه كان مغنيا وله في الغناء كتاب مليح » .

وكان جده السُّنْدِي من حرس الرشيد ويقول ابن خلكان في ترجمته لموسى الكاظم الإمام عند الشيعة الإمامية : « وكان الموكل به في مدة حبسه السندی بن شاهك » وربما تلقن عنه حينئذ عقيدة الإمامية ، وبقيت العقيدة منذ هذا التاريخ في بيته . وأصبح السندی بعد وفاة الرشيد من كبار حاشية الأمين ، ويقال إنه ولاء الشام ، وربما توفي بها ، وبقيت أسرته بعده فيها إذ يُسَلِّك حفيده كُشَاجِم في شعراء الشام ، وكان يسكن في شيبته بلدة الرملة بفلسطين . ونظن ظنا أنه وُلد لأبيه حوالي سنة ٢٩٠ للهجرة . ويارح الرملة والشام جميعا في سن مبكرة إلى الموصل حيث التحق بخدمة أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، وكان قد ولي الموصل مرارا بين عامي ٢٩٣ و ٣١٧ وبها انعقدت بين الشاعر وبين الشعراء هناك صلوات مودة وخاصة بينه وبين الخالدين . وينزل عند سيف الدولة الحمداني أمير حلب ، ويقال إنه كان يُشرف على إعداد طعامه أو على مكتبته . ويبدو أنه لم يمكث عنده طويلا . ونزل مصر وأقام بها فترة ، وأرسل حينئذ إلى جعفر بن علي أمير الزاب قصيدة في مديحه أثابه عليها بألف دينار كما يقول ابن شرف

(١) ربحانة الألبا ٦٣/١ وما بعدها

(٢) أعيان الشيعة ٢٢٦/٢٦ وروضات الجنات ٢٥/٢

(٣) انظر في كشاجم وشعره شذرات الذهب لابن العماد ٣٧/٣ وحسن المحاضرة للسيوطي ٥٦٠/١ والمنتخل للثعالبي ص ٣٥٢ وأعلام الكلام لابن شرف القيرواني وذيل زهر الآداب ص ١٠٧ وذكر له الشريشي في شرحه لمقامات

الحريري طائفة كبيرة من شعره ، وديوانه مطبوع ببيروت ، وراجع في السندی جده ترجمة موسى الكاظم في ابن خلكان والحيوان للجاحظ ٣٩٣/٥ والتنبيه والإشراف للمسعودي (طبعة الصاوي) ص ٣٠٢ وطبعة أوربا ص

القيرواني ، وترك مصر إلى الشام ثم عاد إليها وهو ينشد .
 قد كان شوقى إلى مصرٍ يورقنى فالآن عدتُ وعادتُ مِصرُ لى دارا
 وتُرَوَّى روايات مختلفة عن تاريخ وفاته ، فقبل توفى سنة ٣٥٠ وقيل بل سنة ٣٦٠ ولعل
 التاريخ الأخير هو الصحيح .

وهو يتناول في شعره الأغراض المختلفة المعروفة من مديح وثناء وشكوى وهجاء وخمريات
 ووصف للطبيعة والأطعمة وأدوات الحضارة . وله أشعار مختلفة في الصيد والطرده وله كتاب فيها
 سماه المصايد والمطارد ، وأيضا له كتاب في أدب النديم وهما منشوران . وكان شيعيا إماميا إما - كما
 قلنا - مثل أهل بيته وإما استقلالاً منه ودراسة للنحلة دفعته إلى اعتناقها ، ويشهد لذلك مارواه
 ابن شهر آشوب * إن صحَّ مارواه - من قوله :

نبيى شفيعى والبُتُولُ وحيدرُ . وسيطاهُ والسجّادُ والباقرُ المجدِ
 يجعّفَ موسى بالرضا بمحمدٍ بنجلِ الرضا والعسكريين والمهدى
 والبتول : السيدة فاطمة الزهراء ، وحيدر : الإمام على ، ويتوالى بعده أئمة الإمامية أو الاثنى
 عشرية وهم اثنا عشر إماما : على ، والحسن والحسين ابناه سبطا رسول الله ، والسجاد : على
 زين العابدين بن الحسين والباقر ابنه محمد ، ورخّم جعفر فى قسّمه ، والترخيم فى غير المنادى
 شاذ ، وموسى هو موسى الكاظم الإمام السابع ، والرضا هو على الرضا ابنه ، ومحمد هو محمد
 الجواد نجل الرضا ، ويلىه على الهادى فالحسن العسكرى ، وقد سماهما العسكريين والمهدى هو
 محمد المهدي المنتظر الذى مات صبيا حوالى سنة ٢٦٠ للهجرة . وسماهم جميعا كشاجم - كما
 رأينا - فى بيته واتخذهم شفعا له عند ربه ، مما يقطع - إن صحَّ أنه ناظم البيتين - بتشيعه
 وإماميته أو اعتناقه نخلة الإمامية .

وفى ديوان كشاجم ثلاث قصائد طويلة ، يبكى فى أولها الحسين ومن قُتلوا معه من آلِه فى
 كربلاء قائِلا فى مطالعها :

يابوس للدهر حين آل رسو ل الله تجتأهم جوائحه
 أظلم فى كربلاء يومهم ثم تجلى وهم ذبائحه
 لا برح الغيث كل شارقة تهى غواديه أروائحُه (١)

وتسيل .

(١) الشارقة هنا اليوم وأصله الشمس . والنوادى
 والروائح : السحب الممطرة صباحا ومساء . تهنى : تصب

على ثرى حله ابن بنت رسول الله مجروحة جوارحه .
وسيق نسوانه طلائح أح زان تهادى بهم طلائحه

والقصيدة تفيض - على هذا النحو - أسى ولوعة لمقتل الحسين وبعض آله معه ، ويسمى ذلك ذبحا ، فيبلغ كل ما يريد من التأثير لسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدعوه له الغيث أن يظل يهيم كل شارقة أو كل يوم على الثرى الذى ضم هذا الجسد الطاهر الجريح . ويصور بشاعة العدوان الأثيم حين ساق مرتكبه نساء آل البيت منهكات مُعيّيات ، حتى لقد أصاب الإبل التى حملتهن ما أصابهن من الإعياء والإجهاد والكلال . ويمضى فى القصيدة فيتحدث عن على بن أبى طالب وشجاعته وبأسه وخدماته للإسلام ورسالته ، كما يتحدث عن علومه الزاخرة . ويستهل كشاجم القصيدة الثانية ، وهى هزبية بإعلان حبه لأهل الكساء الخمسة الذين تحدثنا عنهم : الرسول والسيدة فاطمة وعلى بن أبى طالب وابناه : الحسن والحسين . ويذكر ما يعتقده الشيعة من أن الرسول أوصى بالإمامة لعلى فى غدِيرخُم ، ويذكر أن له معجزات جمّة وأنه بحر علوم سماوية ، ثم يأخذ فى بكاء الحسين وأن الأمويين ثأروا فيه لقتلهم فى غزوة بدر يقول :

لئن وثر القوم فى بذرهم لقد نأر القوم فى كربلاء
بها هتكت حرم المصطفى وحل بين عظيم البلاء
وساقوا رجالهم كالعبيد وحازوا نساءهم كالإماء
ولو كان جدّهم شاهدا لشيع أظعام بالبكاء

والآيات بالغة التأثير فى وصفها لهول يوم كربلاء وما كان فيه من هتك لحرمة نساء آل البيت ورجالهم ، أما الرجال فساقوهم سوق العبيد ، وساقوا النساء سوق الإماء ، فيا للفظاعة ، ولو شاهد الرسول هذه المأساة ما اكتفى بالدموع كما يقول كشاجم ، بل لأعاد غزوة بدر ثانية ، دفاعا عن سبطه وآله .

ويُلمّ كشاجم فى القصيدة الثالثة بالحسين وآل البيت وما أصابهم فى كربلاء إلاما سريعا ، وكأنما أراد أن يفرد لها لعل سيد الأوصياء كما يقول ، الجواد البطل ، ويسترسل فى فضائله قائلا :

وكم شبهة بهداه جلا وكم خُطّةٍ بِحِجَاهُ فَصَلْ
وكم أطفأ الله نار الضلال به وهى ترمى الهدى بالشعل

وكم ردّ خالقنا شمسهُ عليه وقد جَنَحَتْ لِلطَّفَلِ
وكم ضربَ الناسَ بالمرهفاتِ على الدِّينِ ضَرْبَ غِرَابِ الإِبْلِ

وحقا كان عليٌّ ملهما في معرفة الحكم الفاصل في أي مشكلة تعرض له أو لغيره ، حتى قال فيه عمر : قضية ولا أبا حسن لها ، وكم أعز الله به الإسلام ، وكم ضرب بالسيوف المرهفة أعداء الإسلام ضرب العرب لغرائب الإبل . أما أن الشمس كانت تُردّ عليه حين تجنح للغروب فتلك مبالغة ، عليٌّ في غنى عنها ، بل هي بهتان ، ومثلها بهتاننا مازعمه في القصيدة من تفضيل عليٍّ درجات فوق أبي بكر الصديق وأنه كان أجدر بالخلافة منه لأن الرسول أوصى أن يكون خليفة بعده . وتمادى في بهتانه على الصديق ، فقال إن الرسول نحاه عن الصلاة بالناس حين اشتد به المرض ، وقد صلى بالناس سبع عشرة صلاة ، وصلى به الرسول مؤتما ركعة ثانية من صلاة الصبح ثم صلى الركعة الباقية وقال : « لم يُقبضُ نبيٌّ حتى يؤمّه رجل من قومه » . وكلُّ ذلك متواتر معروف غير أن غلاة الشيعة ينكرونه . ولا يلبث أن ينحى باللائمة ، بل أن يهجو - غير خجل ولا مستح - أبا بكر وعمر ، لأنها منعا السيدة فاطمة حقها في ميراث الرسول ومآل إليه في غزوة خيبر ، وهما إنما صدعا في ذلك عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لانورث وماتركناه صدقه » ولعل في ذلك كله مايدل على تشيع كشاجم وغلوه في تشييعه .

ابن حيوس (١)

هو محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الدمشقي ، كان جده حيوس على شيء غير قليل من الثراء مما جعله يشيد بدمشق داراً فخمة توارثها بنوه من بعده إلى زمن الشاعر . وكانت أمه بنت قاضي غوطة دمشق ، فهو قد ورث الثراء عن آبائه ، والعلم عن جده لأمه وأخواله . ولد لأبيه بدمشق سنة ٣٩٤ وحفظ مثل لداته القرآن وأخذ يختلف إلى العلماء وفي مقدمتهم خاله ابن الجندي الفسافي ، وكانت دمشق حينئذ تابعة لمصر ، ويبدو أن أباه كان موظفا في دواوينهم هناك إذ نجد أحد قواد الحاكم بأمر الله الفاطمي المسمى أنوشكين الدزبري يتزل ضيفا على أبيه لسنة ٤٠٦ . ويعود فيما بعد حاكما لدمشق سنة ٤٢٠ حتى سنة ٤٣٣ . وكانت موهبة الشاعر تفتحت ،

ومقدمة ديوانه لخليل مردم وقد حققه ونشره في مجلدين
(طبع المجمع العلمي العربي بدمشق)

(١) انظر في ابن حيوس وشعره ابن خلكان ٤٣٨/٤
وزبدة الحلب (نشر د. سامي الدهان) ٤٠/٢ والوافي
١١٨/٣ وعبر الذهبي ٢٧٩/٣ وشذرات الذهب ٣٤٣/٣

فانعدت صلة وثيقة بينهما وأخذ كل منهما يهدى صاحبه هدايا عظيمة ، الشاعر يهديه روائع من مديحه بلغت أربعين قصيدة ، والدُّ زبرى يهديه أموالا جزيلة . ويتولى دمشق بعده ناصر الدولة الحسن بن الحسين الحمداني حتى سنة ٤٤٠ وله فيه عشر مدائح ويخلفه على دمشق حيدرة بن الحسين بن مفلح ، ويتولى مرارا متقطعة حتى سنة ٤٥٥ وله فيه قصيدة واحدة . ويبدو أنه اتجه في ولايته على مدينته إلى القاهرة ، فلزم الحسن بن علي اليازوري وزير الخليفة الفاطمي المستنصر من سنة ٤٤٢ إلى سنة ٤٥٠ وقدم إليه إحدى عشرة قصيدة ، بعضها قدمها إليه في القاهرة وبعضها أرسلها إليه من دمشق . وولى الوزارة بعده أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي فدحه بقصيدتين وعُزل سريعا فدح الوزير بعده بمدحة واحدة .

وفي هذه السنوات التي تبلغ أكثر من ستين عددا كان ابن حيوس شاعر ولاية الدولة الفاطمية الإسماعيلية ووزرائها وكان يصدر عن عقيدتها في مدائحهم ، وتضطرب الأمور في القاهرة ودمشق ، ويصمت الشاعر إزاءها حتى إذا ازداد الاضطراب في دمشق وخشى الشاعر على نفسه من استيلاء السلاجقة السنين أعداء الفاطميين الإسماعيليين عليها رأيناها يهاجر منها لسنة ٤٦٤ إلى طرابلس وبنى عمار ولاتها ، ويتصادف لقاؤه فيها بعلي بن منقذ صاحب حصن شيزر فينصحه أن يصحبه إلى محمود بن نصر المردي صاحب حلب فإنه سيجد عنده الظل الظليل ، وكان يغلب على الناس هناك مذهب الشيعة الإمامية . فلم يجد الشاعر بأسا من تليته النصيحة ، وقدم على الأمير محمود بن نصر ، فدحه بقصيدة بديعة وأعطاه ألف دينار ، وما زال الشاعر يوالى مدائح فيه إلى وفاته سنة ٤٦٧ حتى بلغت عشرا وهو يوالى عطاياه عليه . وخلفه ابنه نصر ، ففضى يجزل للشاعر في العطاء حتى بلغت مدائح فيه مدة إمارته ، وكانت عاما ، عشر قصائد ، وولى بعده أخوه سابق وظل يوالى عطاءه له حتى قضى مسلم بن قريش العقيلي لسنة ٤٧٣ على آل مرداس مستوليا منهم على حلب ، ومدحه ابن حيوس بقصيدة طنانة يقول له فيها :

أنت الذي نَفَقَ الثَّناءَ بِسُوقِهِ وَجَرَى النَّدى بِعُرُوقِهِ قَبْلَ الدَّمِ

وأجازه بألفي دينار ، وفي نفس السنة توفي ابن حيوس عن نحو ثمانين عاما . ولاريب في أن ابن حيوس انصرف عن عقيدته الإسماعيلية حين ولَّى وجهه نحو بني مرداس ، ونراه يجاهر بذلك قائلا :

وكلُّ نَوْءٍ بِمِصْرٍ جادني زمتا فِدائِ نَوْءِ سقاني الرِّىَّ في حَلَبِ

وشاء له القدر أن يهدر مسئوليته لآل مرداس في الأيام الأخيرة من حياته بعد أن أثره - كما يقول ابن خلكان - وأسبغوا عليه نعمة ضخمة ، مما جعله يبنى دارا فخمة له بحلب ، وكان قد كتب على بابها :

دارٌ بَنَيْنَاهَا وَعِشْنَا بِهَا فِي نِعْمَةٍ مِنْ آلِ مِرْدَاسٍ
قُلْ لِبَنِي الدُّنْيَا أَلَا هَكَذَا فليصنعُ النَّاسُ مَعَ النَّاسِ

ولم ينفعهم ما صنعوه فبمجرد أن أزال مسلم بن قريش العقيلي دولتهم استأذنه في إنشاد مديحه . ومن المؤكد أنه ظل إلى سن الستين يستلهم العقيدة الإسماعيلية الفاطمية في مداخله لولاة الفاطميين بدمشق ووزرائهم بالقاهرة إما عن اقتناع بها وإما رياء لذوى السلطان وقد تحدثنا عن هذه النحلة في كتابينا « العصر العباسي الثاني » و « عصر الدول والامارات » وأوضحنا مبادئها وكيف أن داعيتها القдах اتخذت سلمية بالقرب من حماة مركزا لها ، وكانوا يزعمون أن تاريخ العالم ينقسم إلى حلقات وكل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة وسابعهم الإمام الناطق الذي ينسخ بشريعته الشرائع . وقالوا إن جسم الإمام ليس جسما ماديا ، بل هو شبح يكن فيه اللاهوت النوراني ويبالغ بعض شعرائهم فيزعم أن الإمام صفو شفاف لا تشوبه الأكدار ، فهو نوراني خالص . وأضافوا أسماء الله الحسنى في القرآن الكريم على أئمتهم وجعلوهم علة الوجود ومدبري الكون إلى غير ذلك من مبادئ تصور غلوهم المفرط . ومن هذه المبادئ قبس ابن حيوس في مدحه للذيربي سنة ٤٢٧ قوله في مديح المستنصر حين ولي الخلافة بعد أبيه الظاهر لدين الله :

أُمَّتٌ خِلاَفَتُهُ رِيحُ النَّدى يَسْرًا وظل نَشْرُ الدُّنَا مِنْ نَشْرِهَا عَطْرًا (١)
وِخْصٌ بِالشَّرْفِ المَحْضِ الَّذِي ارتفعتُ لِه النواظِرِ والنورِ الَّذِي بَهَرَا
هُمُ الألى أخذ اللهُ العهودَ لهم والناسُ ذُرُّ عَلى مِنْ بَرٍّ أوفجراً (٢)
لأجلهم خلقَ الدُّنْيَا وأسكَنَهَا وذنبُ آدمَ لولاهم لما غُفِرَا
وإن آلاءَهُ مالا يحيطُ بها وَصَفُّ عَلى أَنَّهَا تَسْتَنْطقُ الحَجْرَا
مناقبٌ عددَ الأنفاسِ ما تركتُ لفاخرٍ مِنْ جميعِ الناسِ مفتخرَا

(٢) الذر: ما يرى في شعاع الشمس الداخلى من النافذة .

(١) أمت : قصدت ، يسرا : سهلا ، النشر : الريح الطيبة والطيب ، الدنا : جمع دنيا .

وواضح أنه في البيت الثاني يشير إلى اللاهوت النورى المنقل في الأئمة - بزعم الإسماعيليين - حتى انتهى إلى المستنصر . ويزعم أن الله اتخذ على الناس عهدا بطاعتهم قبل خلق العالم وأنهم علة الوجود ، ولولاهم لم يغفر ذنب أبيهم آدم . ويقول إن آلاء المستنصر ونعمه لا يحيط بها وصف وكأنها آلاء الله العى . ويكثر ابن حيوس من ذكر إمام العصر وغياب المسلمين وتنقل النور في الأئمة وأن طاعتهم فرض ، يقول للذيرى في إحدى قصائده :

يَاسَيْفَ مَنْ عَصِيَانُهُ وَوَلَاؤُهُ جَعَلَا شَقِيًّا فِي الْوَرَى وَسَعِيدَا

فالسعيد من أطاع الإمام الفاطمى والشقى حطب النار من عصاه . ونراه في مديح الوزير اليازورى يخرضه مرارا على العراق وقد جعل موضوعا لقصيدة دالية له تدبير اليازورى المعروف لفتنة البساسيرى في سنتى ٤٤٧ و ٤٤٨ واستيلائه على بغداد والموصل ودعوته فيها للخليفة الفاطمى ، وفيها يقول للخليفة العباسى القائم بأمر الله :

عَجِبْتُ لِمَدْعَى الْآفَاقِ مُلْكًا وَغَايَتُهُ بِبَغْدَادَ الرُّكُودُ
وَمِنْ مُسْتَحْلَفٍ بِالْهَوْنِ رَاضٍ يُنَادُ عَنِ الْخِيَاضِ وَلَا يَذُودُ

وهو يريد أن ملكه لا يتجاوز بغداد ، وأنه يرضى بالخزى والذل والصغار إذ ليس في يده من الحكم والسلطان شىء مع الملك السلجوقى طغرل بك . وما يزال يدور في الفلك الإسماعيلى الفاطمى حتى سن الستين إذ ينزل حلب عند محمود بن نصر المرداسى وكان قطع الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر وخطب للقائم بأمر الله فأنشده مدحة يقول فيها :

وَلِكِ الْأَدْلَةُ أَوْضِحَتْ حَتَّى رَأَى إِثْبَاتَ فَضْلِكَ مَنْ رَأَى التَّعْطِيلَا
عُرُوا بِأَنْ شَرَّقَتْ عَنْهُمْ مَذْهَبًا فِي الرَّأْيِ مَا عَرَفُوا لَهُ تَأْوِيلَا

وهو في البيتين يعرض بالفاطميين وأنهم يدعون إلى تعطيل إرادة الله وإنفاذ إرادة الأئمة ، كما يدعون دعوة واسعة إلى التأويل في القرآن الكريم حسب عقيدتهم وأهوائهم ، وكأنه يريد أن يعلن تبرؤهم منهم وأنهم ضالون مضلون . وأشعار ابن حيوس تمتاز بالقوة والصلابة والجزالة والنصاعة ، ويستخدم فيها أحيانا المحسنات البديعية دون إسراف أو إفراط .

بهاء الدين^(١) العاملي

هو محمد بن حسين بن عبد الصمد العاملي ، كان أبوه من فقهاء المذهب الإمامي الشيعي ينتقل في بلدان الشام ولبنان ، ثم رحل إلى إيران فتنقل بين بلدانها وأوغل فيها حتى هراة في أفغانستان . واستقر به المقام في « البحرين » حيث توفي بها سنة ٩٨٤ وقد ولد له ابنه بهاء الدين في بعلبك سنة ٩٥٣ وصحبه معه إلى إيران ، وحببت إليه الرحلة مثل أبيه ، فجاب البلاد الإيرانية والعربية . وزار مصر وبها ألف كتابه « الكشكول » المنشور في مجلدين كبيرين ، وهو موسوعة أدبية عرض فيها بهاء الدين معارفه أو قل بعض معارفه في الحديث النبوي والدراسات الدينية واللغوية والصوفية والاعتزالية والفلسفية والهندسية والفلكية سوى ما فيه من أشعار كثيرة تدل على ذوق جيد . وعلى غراره كتابه « المخلاة » . وبعد ثلاثين سنة من رحلاته في البلاد الإيرانية والعربية ألقى عصا تسياره في أصفهان ، وقربه سلطانها شاه عباس وأكثر من إغداقه عليه ، وولاه مشيخة العلماء الإمامية في أصفهان حتى وفاته سنة ١٠٣١ للهجرة . وفي أثناء إقامته بمصر انعقدت صداقة بينه وبين محمد بن الحسن البكري وبالمثل انعقدت صداقة بينه وبين الحسن البوريني في دمشق . وقد هيأته إمامية أبيه ونشأته في إيران مركز المذهب الإمامي إلى أن يصبح فقيها إماميا كبيرا ، وإلى أن يؤلف كتباً في الحجاج للمذهب بالعربية والفارسية ، وله مؤلفات كثيرة في التفسير وفي الأصول وفي الفقه وفي العربية وفي الفلك ، وكان شاعرا مبدعا .

ويقول الشهاب الخفاجي : « شعره باللسانين العربي والفارسي مهذب محمر ، وبالفارسية أحسن وأكثر » وأنشد له الخفاجي في الریحانة وابن معصوم في سلافة العصر والمحي في نضحة الریحانة وخلاصة الأثر أشعارا كثيرة تتناول أغراضا مختلفة : غزلا وخمرا ومدیحا ورتاء ، وأنشد له مترجموه رباعيات متعددة . وهو في شعره ليس إماميا فحسب ، بل هو إمامي غال . وكان الامامية يعتقدون أن إمامهم الثاني عشر محمدا المهدي المنتظر لم يمّت حوالى سنة ٢٦٨ وإنما اختفى وسيعود ، ويسمونه إمام^(٢) الوقت وقائم الزمان ، ويؤمنون أن بعض الصفوة من علمائهم على

وروضات الجنات ٥٣٢ والذريعة ٢٩/٢ ، ٢٤٠/٦
(٢) راجع في إمام الوقت عند الإمامية الاثني عشرية
العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسيهر (طبع القاهرة)
ص ١٩٧ ، ٣٤٤ وما بعدها

(١) انظر في بهاء الدين العاملي وشعره سلافة العصر لابن معصوم ص ٢٨٩ وریحانة لأبنا للخفاجی ٢٠٧/١ ونضحة الریحانة ٢٩١/٢ وكتابه الكشكول (طبعة الحلبي)
١٧٦/١ ، ١٩٧ وفي مواضع متفرقة وخلاصة الأثر ٤٤٠/٣

اتصال شخصي به وأنهم يستوضحونه بعض المسائل الشرعية ، ويفصح لهم عن رغباته وأوامره ، بل إنهم يجعلونه خليفة الله المصرف لشئون الكون والعباد ، ولبهاء الدين قصيدة عن هذا الإمام صاحب الزمان أو قائمه يغلو فيها هذا الغلو المفرط أنشدها في كتابه الكشكول وفيها يقول :

خليفةُ ربِّ العالمين وظلُّهُ	على ساكن الغبراء من كل ديار ^(١)
هو العروة الوثقى الذي من بذيله	تمسك لا يخشى عظام أوزار
علومُ الورى في جنب أبحر علمه	كغرفة كف أو كخمسة منقار
به العالم السفلى يسمو ويعتلى	على العالم العلوي من غير إنكار
همام لو السبع الطباق تطابقت	على نقض ما يقضيه من حكمه الجاري
لنكس من أبراجها كل شامخ	وسكن من أفلاكها كل دوار
أيا حجة الله الذي ليس جارياً	بغير الذي يرضاه سابق أقدار
ويامن مقاليد الزمان بكفه	وناهيك من مجد به خصه الباري

وبهاء الدين يجعل محمداً المهدي الغائب في رأى الإمامية خليفة الله في تنفيذ أحكامه على الناس وظله الذي يستظل به كل مظلوم ، ويجعله العروة الوثقى أخذاً من الآية الكريمة : (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ أَخِذًا مِنَ الْآيَةِ الْكُرْمَىٰ :) (وَمَنْ يُبَالِغْ فِي سَعَةِ عِلْمِهِ اللَّدْنِيِّ بِالْقِيَاسِ إِلَى عِلْمِ النَّاسِ الَّذِي لَا يُعَدُّ شَيْئًا مَذْكُورًا بِجَانِبِ بَحَارِ عُلُومِهِ . وَيَزْعَمُ أَنَّ الْعَالَمَ السُّفْلِيَّ وَهُوَ الْأَرْضُ شَرُفٌ بِهِ وَفُضِّلَ عَلَى الْعَالَمِ السَّمَاوِيِّ ، وَيَزْعَمُ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ لَوْ اتَّفَقَتْ عَلَى نَقْضِ مَا يَبْرُمُهُ لَانْقَلَبَتْ أَبْرَاجُهَا وَخَرَجَتْ مِنْ قَوَاعِدِهَا وَسُكُنَ مِنْهَا كُلُّ دَائِرٍ مَتَحَرِّكٍ مِنْ أَبْرَاجِهَا . وَيُصِفُهُ بِأَنَّهُ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى الْخَلْقِ وَأَنَّ الْأَقْدَارَ الْإِلَهِيَّةَ طَوَّعَ أَمْرَهُ لَا تَعْصَاهُ أَبَدًا وَأَنَّ مَفَاتِيحَ الزَّمَانِ وَخَزَائِنَهُ بِيَدِهِ . وَالْقَصِيدَةَ تَمْتَلِي بِهَذَا الْغُلُوِّ الْمَفْرُطِ الَّذِي يُجْعَلُ هَذَا الْإِمَامَ لَا يَزَالُ حَيًّا يَصْرِفُ أُمُورَ الْكُونِ ، وَيُدِيرُ شُؤْنَ الْعِبَادِ ، وَيَعُذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَقَالِيدَ الدُّنْيَا بِكَفِّهِ ، وَكُلَّ شَيْءٍ يَجْرِي فِيهَا بِإِرَادَتِهِ ، وَكَأَنَّ قَائِمَ الزَّمَانِ فَوْقَ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ . وَهُوَ غُلُوٌّ مَا يَمِثَلُهُ غُلُوٌّ .

وطبيعي وقد بلغ بهاء الدين من الغلو في عقيدته كل هذا المبلغ أن يدعو إلى سب من وقفوا -

(١) ديار : ساكن دار . الغبراء : الأرض .

في رأى الشيعة - ضد على وحقه في الخلافة وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق على نحو ما نقلناه في مثل قوله :

يا أيها المدعى حبّ الوصى ولم يَسْمَحْ بسبّ أبي بكرٍ ولا عمراً
كذبتَ والله في دعوى محبته تَبَّتْ يداك ستصلى في غدٍ سقراً
فإن تكن صادقاً فيما نطقتَ به فأبرأ إلى الله ممن خان أو غدرا
وأنكر النصّ في خمّ ويبيعه وقال إن رسول الله قد هجرا
أتيتَ تبغى قيام العذر في فذلك أتحسب الأمر بالتمويه مستترا

وبهاء الدين يجعل سب أبي بكر وعمر فريضة من لم يؤدها صلى نار الجحيم وعذابها الأليم ، ويدعو صاحبه أن يبرأ من الشيخين الجليلين - كبرت كلمات خبيثة تخرج من فمه - ويعلل لما قاله بأنها أنكرا نصّ غدير خم ووصية الرسول صلى الله عليه وسلم فيه لعل بالإمامة والخلافة ، وهو نص لم يثبت ، بل الثابت أن الرسول استخلف أبا بكر عنه في الحج حتى إذا مرض استخلفه في الصلاة كما هو معروف . وكل ذلك يؤذن بأن الرسول استخلف أبا بكر الصديق بعده واستخلف أبو بكر عمر ، وبهما انتشر الإسلام وفتح العالم القديم له أبوابه . ويتعلل بهاء الدين بأنها منعا السيدة فاطمة الزهراء رضوان الله عليها من إرث فدى رسول الله ، وإنما منعها بوصية الرسول - كما ذكرنا مرارا - إذ قال : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ما تركناه صدقة » . ومامن ريب في أن للشيخين الجليلين قدسية عظيمة في نفوس المسلمين . ولعل في كل ما قدمنا ما يصور كيف أن بهاء الدين العاملى كان رافضيا غالبا في الرفض ، سواء في مهاجمته أبا بكر وعمر أو في خلعه على الإمام القائم صفات الله وكأنه يشركه في تدبير الكون وتسخير المقادير ، تعالى الله علوا كبيرا عن كل ما لج فيه من رفع إمامه الخفى عن المستوى البشرى حتى للأنبياء المصطفين الأخيار ،

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

يكثّر شعر الحب في الأدب العربي منذ الجاهلية إلى اليوم كثرة مفرطة ، وحتى في إغراض الشعر الأخرى مديحا وغير مديح يقدم الشعراء لقصائدهم فيها أبيات من الغزل أو النسيب جذبا للأسماع ، ولذلك لا نغلو إذا قلنا إن النسيب والغزل والحب يكاد يكون الغرض الأساسي للشعر العربي ، وهو أمر طبيعي لأنه يتناول عاطفة الحب الإنساني الخالدة بجميع أحاسيسها ومشاعرها وانفعالاتها وانعكاساتها على حياة الشاعر المحب أو العاشق منذ تستهويه امرأة ، فيقع فريسة لحبها ، وتملا قلبه وجداً وشوقاً إلى رؤيتها ، وقد تعرف منه هذا الحب فتلقاه أو تنظر إليه نظرة أو تومئ إليه إيماءة فيزداد ولعابها وغراما ، وقد تتدلل عليه وتمتنع وقد تنأى عنه وتهجره فتضطرم بين جوانحه نار شوق لا تحمد ، وعبثا يتدلل لها ويستعطف ويتضرّع ، ومع ذلك لا يذوى الأمل في نفسه بلقائها أبداً ، فهو دائماً مؤمل في اللقاء بعد المهجران وعلى الأقل في الرؤية بعد الحرمان . وبلغ الحب ببعض الشعراء قد يما حد الجنون ، واسم قيس مجنون ليلي يشيع على كل لسان ، فقد ظل يغنى باسمها وعيناه مصوّبتان إلى خيالها ، فهو لا يرى في ليله ولا في نهاره سواها ، إذ تشغل من حوله كل وقت وكل مكان وهو يسبح في البوادي معاشرًا آرامها ، إذ هجر حياها ، بل هجر عالم الإنسان ، إنه لا يعرف سوى عالمها ، فهو العالم الفسيح الذي لا يزال بصره فيه شاخصا إليها . أما عالم قومه أو بعبارة أخرى عالم الإنسان فما أضيّق ساحاته ، وإنه ليفر منه منظويا على نفسه حالما بليلى وعالمها الساحر خالعا الوهم على الحقيقة ذاهلا عن كل ما حوله ذهول المجانين ، ولذلك سماه القدماء مجنون ليلي . وقلة فقط هم الذين بلغ بهم الحب هذا المبلغ المفرق في الخيال ، ومع ذلك فكل محب يشعر كأن صاحبه فوق مستوى كل من حولها من الفتيات والنساء ، وكأنما تحيط بها

هالة سحرية ، وبذلك تستحيل في خيال الشاعر المحب لها أو العاشق إلى كائن شعري ساحر . وقد يفتق المحب من حبه وسحره ، وقد يظل رهينا به لا ينفك عنه أبدا ولا يفتق بتاتا . ونستطيع أن نلاحظ ذلك على شاعر شامى من شعراء العصر العباسى الأول هو ديك الجن الحمصى ، فقد ظل يتغنى بمحبوبته « ورد » طوال حياته حتى بعد أن وسوس له شيطان الغيرة الحمقاء أن يحرقها ظلما وبهتاناً ، فقد ظل يبكيها بكاء قلب مزقه الندم والألم . وظل البحترى مثله يتغزل بصاحبته « علوة الحلبية » حتى شيخوخته على نحو ما صورنا ذلك في كتابنا « العصر العباسى الثانى » . ومن المؤكد أن شعراء الغزل العربى - على مر الأزمنة - أتاحوا بحبهم وأشعارهم لغير امرأة أن تنال حظا من الشهرة قليلا أو كثيرا . ولولا ديك الجن ما اشتهرت « ورد » ولا عرفها أحد ولولا البحترى ما اشتهرت علوة ولا حفل بها أحد ، وقد ظلت دارها قائمة معروفة تجلب حتى زمن ياقوت صاحب معجم البلدان فى القرن السابع الهجرى . على أن بين الشعراء من لم يقتصر فى غزله على واحدة بعينها فتغزل بكثيرات وقليل منهم من نشر عنده بلوعة حقيقية . ومنذ الجاهلية يتنوع الغزل ، ففيه العفيف النقى الذى أضاف إليه الإسلام بمثاليته عفة على عفة وطهرا على طهر ، والشاعر المحب يصور فيه وجدده وهيامه وكلفه بصاحبته كلفا شديدا وعذابه فى هذا الكلف عذابا متصلا . وفى الغزل بجانب ذلك الغزل الحسى الذى يصور جمال المرأة ومفاتها تصويرا ماديا تطغى فيه الفرائز وتجمع العواطف . وظل هذان النوعان : الملائكى الطاهر والمادى الصريح يتقابلان فى الغزل العربى طوال الحقب الماضية . والحديث عن الغزل وشعر الحب عند شعرائنا يطول فلندع ذلك إلى أمثلة مختلفة من غزل هذا العصر بديار الشام ، وأول ما نسوق من ذلك قول كشاجم فى صاحبة له (١) :

السُّحْرُ فى الحَاظِهَا الفَاتِكَة	والرُّوحُ من إِعْرَاضِهَا هَالِكَة
والقَهْوَةُ الصَّهْبَاءُ من رِيْقِهَا	والمسْكُ من أَصْدَاغِهَا الخَالِكَة
مَنْ لم ير الدَّرَّ وتَأْلِيفَهُ	فى سِلْكِهِ فليُرَهَا ضَاْحِكَة
قد كَتَبَ الحَسَنُ على خَدِّهَا	طُلُّ دَمِّ أَنْتِ لَه سَافِكَة

والأبيات تخلو من العاطفة المشبوية ، إذ ليس فيها حرارة ، إنما فيها تشبيهات واستعارات

(١) ديوان كشاجم (طبع المطبعة الأنسية ببيروت)

محفوظة ، فريق صاحبتة خمر والشعر على أصداعها مسك وأسنانها درّ ، وربما كانت الصورة في البيت الأخير بديعة ، إذ تخيل كأن حمرة خديها الساطعة دم سفكته ، وهي مبالغة في الخيال والتصوير . ولأبي فراس الحمداني أبيات فيها غير قليل من نشوة الحب وحرارته ، إذ يقول (١) :

سكرتُ من لَحْظِهِ لا من مُدَامَتِهِ ومال بالثَّومِ عن عيني تَمَائِلُهُ
وما السلافُ دهنتي بل سوائفُهُ ولا السَّمولُ ازدهنتي بل شمائلُهُ
أَلْوَى بِلُبِّي أَصْدَاغُ لُوَيْنَ لَهُ وغال قلبى ما تحوى غلائلُهُ

وهو يقول إنه انتشى من لحظ صاحبتة وعينها الفاتنتين لا من الخمر الحقيقية ، ويقول ليست السلاقة أو الخمر هي التي دهته بل صفحتا جيدها البديع ، وكذلك ليست الخمر أو السَّمول هي التي استخفته بل خصالها الحلوة وما أروع أصداع شعرها المنسدلة على خديها فقد ألوت وذهبت بلبه ، وما أجمل كل ما تشتمل عليه غلائلها وثيابها مما سرق منه قلبه . وله مقطوعة وصف فيها ليلة من ليالى حبه على طريقة عمر بن أبي ربيعة (٢) ، إذ يقول إنها ظلا يقتطفان زهرات الحب إلى أن بدا ضوء الصباح ففترقا . ولا بن زمرك موشحات وأشعار على هذا الغرار ، يحاكي فيها أبا فراس وابن أبي ربيعة ، وظن بعض المستشرقين أنها من تجديدهاته ، وهي قديمة في الشعر العربي . ولا بن سنان الخفاجي (٣) :

أترى طيفكمُ لما سرى أخذ النومَ وأعطى السَّهرا
أم . ذهلنا وتمادى ليلنا فتوهمنا العشاء السَّحرا
يا عيوننا بالحمى راقدة حرم الله عليكِنَّ الكرى
سلُ فروعَ البان عن قلبى فقد وهِمَ البارقُ فيما ذكرا

وليس في الأبيات لهفة ولا لوعة ، ودعاؤه على صاحبتة أو صواحبه - في البيت الثالث - أن لا يذقن النوم دعاء ناب على ذوق المحبين . ولم يكن من أصحاب الحب . وإنما هي أبيات في الغزل أو النسب كان يقدم بها لقصائده حكاية واقتداء بالشعراء قبله . ولا بن الخياط أشعار غزلية

(٣) ديوان ابن سنان الخفاجي (طبع المطبعة الأنسية)

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ٣٠٢/٢

(٢) ديوان أبي فراس ٣٩/٢ .

كثيرة يقدم بها لمدايح نوحس فيها لوعة المحب وحرقة فؤاده من مثل قوله (١) :

خُذًا من صَبَا نَجْدٍ أمانًا لقلبي فقد كاد رِيَّاهَا يطيرُ
تذكرُ والذكرى تشوقُ وذو الهوى يتوقُ ومنْ يَعْلَقُ به الحبُّ
غرامٌ على يأسِ الهوى ورجائه وشوقٌ على بُعدِ المزارِ
إذا خطرتُ من جانب الرَّمْلِ نفحةً تضمَّن منها داءه دونِ
أغارُ إذا آنتُ في الحىِّ أنةً حذارًا وخوفًا أن تكون

فحب صاحبه النجدية استأثر بقلبه حتى ليطلب له الأمان من صبا نجد مخافة عليه أن شعاعا ، وإنه ليذكرها ليل نهار وتُصبيه ، ويأس لهجرانها ولأسنة أهلها وسيوفهم كما يقو القصيدة . ويظل يرجو لقاءها وإنه ليتنسم في الصبا المقبلة من ديارها نفحة من عطرها تح نفس الداء ، داء الحب وعذابه . ويبالغ في وصف غيرته عليها ، حتى ليخشى أن تكون ك يسمعها في الحى من محب لها محموم بحبها ودائه العصال . ولعاصره العزى المتوفى سنة للهجرة (٢) :

إشارةً منك تغنني وأحسنُ ما رُدُّ السلامِ غداةً البينِ بالعتة
حتى إذا طاح عنها المرطُ من دهشٍ وانحلَّ بالضمِّ سلكُ العقدِ في الظلمِ
تبسمتُ فأضاء الليلُ فالتقطتُ حباتِ مُتَتَبِّرٍ في ضوءِ منة

وهو تكفيه الإيماءة من بعيد والإشارة بالبنان الجميل الأحمر حمرة زهر العنم ، ويقول سقط عنها المرط أو الأزار وانحل سلك العقد الملتف حول جيدها ، وتبسمت فأضاء ظلام وأخذت تلتقط حبات العقد المتناثرة في ضوء اللؤلؤ المنتظم في ثغرها البراق الفاتن . ودخل القيسراني مدينة أنطاكية في أثناء حكم الصليبيين لها سنة ٥٤٠ لحاجة عرضت وكان في الثانية والستين من عمره ، فنظم مقطعات يشبب فيها بإفرنجيات ، أشهرهن مغنية تد ماريًا ، خلبت له ، وله فيها غزليات كثيرة ، ومن بديع غزله قوله (٥) :

(٤) المرط : كساء من حرير أو صوف تلتفع به

(٥) الخريدة (قسم الشام) ١٢٤/١

(١) ديوان ابن الخياط ص ١٧٠

(٢) ابن خلكان ٥٩/١

(٣) العنم : نبات أزهاره قرمزية

عفائفُ إلا عن مُعاقرة الهوى ضعائفُ إلا في مغالبة الصَّبِّ
ولما دنا التوديع قلتُ لصاحبي حنانيك سِرُّ بي عن ملاحظة السَّرْبِ
تقضى زمانى بَيْنَ بَيْنٍ وهجره فحتامَ لا يصحو فوادى من حُبِّ
وأهوى الذى يَهْوَى له البدرُ ساجداً ألتَ ترى فى وجهه أثرَ التُّربِ

والصورة فى البيت الأخير رائعة فقد جعل كلفة البدر من أثر الترب العالق بجبهته لتوالى سجوده لصاحبه ولجمالها الساحر. ويقول إن زمانه تقضى فى حرمان متلاحق من البعاد والهجرة المتصلة. ولحماد الخراط المتوفى سنة ٥٦٥ قوله (١):

ألا هل لماضى العيشِ عندك مرجعُ وهل فيه بعد اليأس للصَّبِّ مَطْمَعُ
لقد أولعتُ بالصدِّ عنى وإنى لفُرقتها، ما عشتُ، بالوجد مَوَلَعُ
أضحكُ حُسَّادى فيغلبنى البكا وأكتمُ عَوادى وإنى لموجَعُ
إذا خطرتُ من ذكرها لىَ خطرةُ تكاد لها أنياطُ قلبى تقطَعُ

وهو يائس من اللقاء ومع ذلك لا يزال حبل الرجاء ممدودا، مع ولوعها بالصد عنه والإعراض ومع تعلقه بها ووجده وجدا ملتاغا. ويضحك حساده تمويها ويغلبه البكاء ويكاتم زواره وهو موجع القلب والحشا، حتى إذا ذكر اسمها عفوا أحس كأن نياط فواده وعلائقه تتقطع تحسرا ولوعة. وقد أنشد له العماد غزلا كثيرا. ويشكو ابن النقار كاتب الإنشاء الدمشقى المتوفى سنة ٥٩٢ شكوى مرة من صاحبه قائلا (٢):

مَنْ منصفى من ظالمٍ متعنَّتِ يزداد ظلما كلما حكَّمتهُ
ملكته روى ليحفظ ملكه فأضاعنى وأضاع ما ملكته

وهى تظلمه ولا ترحمه ولا تعطف عليه أى ضعف، وويل له لقد ملكها روجه لتحفظها وتصونها وتقوم بحقوقها فإذا هى تضيعها وتضيع صاحبها إذ أصبح خواء بلا روح، فما أشقاه؛ ويقول فتیان الشاغورى متغزلا (٣):

ومهفهفٍ بلغَ المنى بصفاته حركاتُ غُصنِ البان من حركاتِهِ

والشمسُ تحجَلُ من ضياءِ جبينه والجلنارُ يغارُ من وجناته
أضحى الجمالُ بأسره في أسره فكأن يوسف حاز بعضَ صفاته
لا تظمَعنُ يا عاذلي في سلوتي عنه فما أسلوهُ ، لا وحياته
وهو يصور صاحبه مهفهفة أو بعبارة أخرى ضامرة دقيقة الخصر بلغت كل ما تتمناه المرأة من
حسن وجمال ، ويقول إن غصن البان الذي يمد ملاحظة حركته مشتقة من حركاتها ، ويجعل
الشمس تصفرّ خجلاً من ضياء جبينها ، بينما يغار الجلنار أو بعبارة أخرى ورد الرمان وزهره الأحمر
من وجناتها المشربة بالحمرة القانية ، ويجعلها تحوز الجمال بأسره ، حتى لكأن يوسف عليه السلام
إنما حاز منه أطرافاً ! ويتوجه إلى عاذله باللوم ، فلن يكفّ عن حبه ولن يسلو صاحبه أبداً .

ويقول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ للهجرة (١) :

وتنبّهت ذاتُ الجناح بسحرة بالواديين فنبتت أشواق
ورقاً قد أخذت فنون الحزن عن يعقوب والألحان عن إسحاق (٢)
أنى تُباريني جوى وصبابة وكآبة وأسى وفيض مآق
وأنا الذي أملى الجوى من خاطري وهى التى تملى من الأوراق

وهو يقارن بين جواه وحبه وأساه ودموعه وبين جوى الحمامة الورقاء وصبابتها لأليفها وحزنها
الدفين ، ويقول إنه يملى من خاطره حرقته ولوعته ، بينما هى تملى من أوراق الشجر وتروى عنه
ذلك الوجد . ويقول المحار الحلبي المتوفى سنة ٧١١ للهجرة (٣)

ما بثّ شكواه لولا مسّه الألم ولا تأوّه لولا شفّه السقم
ولا توهم أن الدمع مهجته أذابها الشوق حتى سال وهو دم
يئدى التجلد والأجفان تفضحه كالبرق تبكى الغوادي وهو يتسم
يمسى ويصبح لا صبير ولا جلد ولا قرار ولا طيف ولا حلم

والمحار يقول إنه لم يشك إلا بعد أن برح به الألم ولا أن إلا بعد أن شفّه السقم وما كان ليتوهم

(١) الخزانة ص ٣٢٦

إسحاق الموصلي أشهر المغنين الملحنين في العصر العباسي

(٢) يعقوب هو النبي يعقوب وبكاؤه على ابنه يوسف

(٣) فوات الوفيات ٢٢١/٢

حتى ابيضت عيناه من الحزن معروف .. وإسحاق هو

أن نار الهوى أذبت مهجته حتى سال الدمع دمًا قانيا . ويمسى ويصبح وقد عزه الصبر والتجلد وتملكه قلق لا حدَّ له ، وضاع منه كل شيء حتى الطيف في المنام ، وحتى الأحلام إذ لا يزال مسهَّدًا لا ينام .

ونمضى إلى زمن العثمانيين ونجد الغزل وشعر الحب على كل لسان من مثل قول فتح الله بن النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ للهجرة^(١) :

طرقتُ طروقَ الطيفِ وَهنا مَيَّالَةٌ الأعطافِ حُسْبًا
مَصْفُوقَةٌ الخَدَّينِ مَثَلُ السَّيفِ الحَاظَأُ وَمَثْنَا
فِي حَلَّةٍ مِنْ جِنْسِ مَا يَكْسُو الرِّيعُ الغُصْنَ دَكْنَا
الدَّلُّ يَنْبِتُ مِنْ مَسَا حَبِ ذَيْلِهَا والحُسْنُ يُجَنِّي
لَوْ خَاطَبْتُ وَثْنَا لِحَبِّ مَعِ الجُمُودِ لَهَا وَأَنَا

وليس في القطعة لوعة ، بل هو يصف جمال صاحبه ودلها وحسها ، ويقول : لو خاطبتُ
وثنا من الأحجار لحنَّ لها وأنَّ أئينا لا ينقطع . ولم يكن فتح الله بن النحاس من شعراء الحب
والوجد مثل محمد الحشرى المتوفى سنة ١٠٩٢ للهجرة القائل^(٢) :

مَنْ عَدِيرِي فِي حَبِّ طِفْلِ لِعُوبٍ عَوْدُوهُ سَفَكَ الدِّمَاءَ فَحَلَا لَهُ
كَلِمًا صَدَّ عَنْ سِوَايَ دَلَالًا صَدَّ عَنِّي تَبْرُمًا وَمَلَالَةً
لَسْتُ أَنْسَى يَوْمَ الفِرَاقِ وَقَدْ أَدُّ رُكَّ مِنْ شَمَلْنَا النَّوَى آمَالَةً
غَضَبَ البَيْنِ مِنْ يَدِي كَلَّ قَدُّ سَرَقَ الغُصْنَ لِينَهُ وَاعْتَدَالَةً
مَرَّ نَشْوَانَ مِنْ جَوَى يَشْتِي نُقْلَ الوَرْدِ غُصْنَهُ فَأَمَالَةً

والقطعة ترخر بتصاوير بديعة ، تصور خصب الخيال عند الحشرى ، فقد عودوا صاحبه
الطفلة الناعمة الرقيقة سفك الدماء فحلالها أن تديم هذا السفك . ويزعم أن الغصن سرق لينة
واعتداله من قد صاحبه وقوامها اللين المشوق وينفذ إلى صورة طريفة ، فصاحبه تتثنى لثقل
الورد المتوهج على حدودها الفائقة . وحرى بنا أن نترجم في إجمال لبعض شعراء العصر الغزليين .

(١) نفحة الربحانة (طبعة الحلبي) ٥٢٧/٢ .

عبد (١) المحسن الصوري

هو عبد المحسن بن محمد الصوري ، أحد الشعراء المجيدين المبدعين ، وفيه يقول الثعالبي :
 « أحد المحسنين الفضلاء المجيدين الأدباء ، وشعره بديع الألفاظ حسن المعاني رائق الكلام ، مليح
 النظام ، من محاسن أهل الشام » ويقول ابن خلكان : « له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان .
 توفي سنة ٤١٩ وعمره ثمانون سنة أو أكثر » ، وكان ابن حيوس الذي ترجمنا له بين شعراء الشيعة
 مُعْرَى بشعره ، وكان يفضل على أبي تمام والبحري والمنتبي . ويُروى أنه مرَّ في طريقه إلى حلب
 بشاعر المعرَّة بل الشام بل العالم العربي لزمته : أبي العلاء ، وجرى بينهما حديث في الشعر والشعراء
 وعاب أبو العلاء عبد المحسن الصوري بقصر أشعاره وأنه لا ينظم في الغالب إلا مقطعات فقال له
 ابن حيوس : هو أشعر من طويلك يقصد المنتبي ، فدَّ إليه أبو العلاء يده وقبض على أعلى ثوبه
 قائلاً : الأمراء لا يناظرون ، يعني أنه لا يقارن بالمنتبي . وكان أبو العلاء معجباً بالمنتبي إعجاباً
 شديداً حتى سمى شرحه لديوانه باسم معجز أحمد . على أن قصر أشعار عبد المحسن الصوري
 لا يدفع أنه مجيد في قصاره إجادة رائعة . وهو فيها يقرب في فنه من أبي تمام في دقائق تصاويره
 وأخيلته .

ولعل ذلك ما جعل ابن خفاجة الأندلسي يعجب بأشعاره حتى ليقرنه في مقدمة ديوانه
 بالشريف الرضي ومهيار قائلاً : إنه تملكته في شبابه محاسن أشعارهم الرائعة الرائقة ، وألفاظهم
 الشفافة الشائقة . ويتوقف مرارا في ديوانه ليدلنا على أن عبد المحسن الصوري ألهمه هذه المقطوعة
 أو القصيدة أو تلك ، وهو فيها جميعاً يتغزل غزلاً رقيقاً ممتزجاً بالطبيعة وجبالها الهاجع في الكون ،
 وكأنه يضع أيدينا على خصائص عبد المحسن في غزله ، فهو فيه يمزج بين المحبوب وعناصر الطبيعة
 مزجاً فيه كثير من الطرافة في التصوير كقوله :

بالذي	أهم	تَعْدِي	سبي	ثناياك	العذابا
والذي	ألبس	خَدِي	لك	من الورد	نقابا
والذي	صير	حظي	منك	هَجْرًا	واجتنابا
يا غزالاً	صاد	باللح	ظ	فوادى	فأصابا
ما الذي	قالته	عينا	ك	لقلبي	فأجابا

٢٣٢/٣ وعبر الذهبي ١٣١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٦٩/٤
 ومرآة الجنان ٣٤/٣ والشذرات ٢١١/٣ وديوانه مفقود .

(١) انظر في ترجمة عبد المحسن الصوري وأشعاره
 اليتيمة ٢٩٦/١ وتمة اليتيمة ص ٣٥ وابن خلكان

فهو يصل بين رُضاب الثنايا في ثغر صاحبه وبين المياه العذبة الحلوة ، ويجعل الحمرة على وجنتها وردا تنتقب به . وهو بعد في التصوير . ويجعلها غزالا من نوع غريب ، فهي غزال لا يُصاد ، بل يصيد بشباك لحظه ، وإنه ليخلب القلوب فتليه طائفة مستجيبة .
وقد استلهم ابن خفاجة هذا الجانب في غزل عبد المحسن الصوري واستضاء به ، كما استضاء واستلهم في أشعار أخرى له جانبا ثانيا في غزل عبد المحسن ، ونقصد جانب الرقة والدمائة والنعومة على نحو ما نجد في قوله :

أَتْرَى بَثْرًا أَمِ بَدَيْنِ	عَلَقْتُ مَحَاسِنَهَا بِعَيْنِي
فِي لَحْظِهَا وَقَوَامِهَا	مَا فِي الْمَهْنَدِ وَالرُّدَيْنِي
وَبَوَجْهِهَا مَاءَ الشَّبَا	بِ خَلِيطُ نَارِ الْوَجْتَيْنِ
بَكَرْتُ عَلَيَّ وَقَالَتِ اخْدُ	تَرَّ خَصْلَةً مِنْ خَصَلَتَيْنِ
إِمَّا الصَّدُودُ أَوِ الْفِرَا	قُ فليس عندي غيرُ ذَيْنِ
فَأَجِبْتُهَا وَمَدَامَعِي	مَنْهَلَةٌ كَالْمِرْزَمَيْنِ ^(١)
لَا تَفْعَلِي إِنْ حَانَ صَدِّ	لُدُّكَ أَوْ فَرَاكَ حَانَ حَيْنِي
وَكأَنَّمَا قَلْتُ أَذْهَبِي	فَضَّتْ مَسَارِعَهُ لَبْنِي

والأبيات تسيل رقة وعذوبة ، مما يجعلها تطير من الفم بخفة طيرانا لرشاقتها ونعومتها ، والألفاظ مختارة اختيارا دقيقا ، وبالمثل موسيقاها الخفيفة المقتطفة من وزن الكامل المجزوء . وكان يعرف كيف يختار موسيقاه ولحونها وأنغامها ، وكيف يختار لها الألفاظ التي تمكن لها بجلاوتها وعذوبتها في الآذان ، بل في القلوب والأفئدة . ويقول في صدغ شعر مرسل بين أذن صاحبه ووجنتها وقد توقف مائلا منحنيا :

جَنِّي مَا جَنِّي وَأَنْصَرَفُ	وَأَنْكَرُ ثُمَّ اعْتَرَفُ
سَلُوا صُدْغَهُ لِمَ جَرِي	وَلِمَا جَرِي لِمَ وَقَفُ
وَكأَنَّمَا عَلَى أَنَّهُ	يَجُوزُ الْمَدَى فَانْعَطَفُ

وهو تصوير بديع لهذا الصدغ وانعطافه ذات اليمين أو ذات اليسار دون استرساله ، وكأنه لجماله وحسنه كان ينتظر أن لا ينعطف ، وقد بث فيه حركة طريفة فهو يجرى ثم يقف ، وهو يسترسل ثم

(١) المرزمان : نوه ان شديدا المطر

ينعطف . وكان الشعراء يغارون على صواحبهم ، ويذكرون ذلك في أشعارهم ، أما عبد المحسن فيقول :

تعلَّقته سكران من خمرة الصُّبا به غفلة عن لوعتي وهبي
وشاركني في حبه كلُّ أغيدٍ يشاركني في مهجتي بنصيب
فلا تُلْزِموني غيرَ ما عرفتها فإن حبيبي من أحبِّ حبيبي

وهو في ذلك رقيق منتهى الرقة ، فهو لا يغار ممن يحب حبيبه ولا يكرهه أو يمقته ، بل أعجب العجب أنه يحبه ، وهي مبالغة مفرطة في الرقة ورهافة الشعور .

ابن (١) منير

هو أحمد بن منير الطرابلسي ، ولد في طرابلس سنة ٤٧٣ لأب كان ينشد الأشعار ويغني في أسواقها ، وأخذ ابنه في نشأته بالتعليم فحفظ مثل لداته القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والأدب وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقدم دمشق وسكنها . ويقول العماد الأصبهاني كان شيعيا غالبا ، ويقول ابن خلكان : « كان رافضيا » . وكان هجاء خبيث اللسان ، وكثر هجاؤه فسجنه بوري بن طغتكين صاحب دمشق (٥٢٢ - ٥٢٥ هـ) . وعزم على قطع لسانه ، وشفع فيه الحاجب يوسف بن فيروز ، فأطلقه بوري على أن يغادر دمشق ، ورجع إليها بعد وفاته . غير أن حكامها بعد بوري ظلوا ينفونه مرارا ، مما جعله يتزل في بلدان شامية متعددة وخاصة حماة وشيزر ومدح كثيرين من حكام البلدان الشامية وخاصة أمراء شيزر ، وكان في أثناء مقامه بتلك المدينة يتردد على حلب . وتغنى طويلا بانتصارات عماد الدين زنكي على الصليبيين في بادين وغيرها من ساحات الحرب في الشام . وجلجل بصوته حين فتح مدينة الرها وأزال منها إلى غير رجعة إحدى الممالك التي أسسها حملة الصليب . وأقام ابن منير حيثئذ بحلب ، ونشأت بينه وبين ابن القيسراني - بسبب المنافسة - معركة هجاء حامية الوطيس . وتوثقت العلاقة بينه وبين نور الدين بعد وفاة أبيه زنكي ، وأشاد ببطولته وانتصاراته على حملة الصليب ، وكان يصحبه في غزواته ، واتخذ نور الدين سفيرا إلى حاكم دمشق في بعض المهام ، ولم يلبث أن توفي بحلب سنة ٥٤٨ .

والنجوم الزاهرة ٢٩٩/٥ وشذرات الذهب ١٤٦/٤ .

(١) انظر في ابن منير وشعره الخريدة (قسم الشام)

٧٦/١ وابن خلكان ١٥٦/١ وابن القلانسي ٣٢٢

وتناول ابن منير في شعره أغراضا مختلفة في مقدمتها المديح ، ومرَّبنا - في غير هذا الموضع - حديث عن مديحه لعماد الدين زنكي وابنه نور الدين في انتصاراتهما الرائعة على حملة الصليب ، ويُشيد العماد الأصبهاني بشعره وروعته . وكان يكنى أبا الحسن ويلقب المهذب وقال في وصف شعره أحد معاصريه : شعره ككنيته حسنٌ ونظمه كلقبه مهذبٌ ، أرقُّ من الماء الزُّلال ، وأدق من السحر الحلال ، وأطيب من نَيْل الأمنية ، وأعذب من الأمان من المنية . وله هجاء كثير . وكان يجيد الغزل وشعر الحب إلى أبعد حد ، وفي رأينا أن مرجع ذلك إلى حزن تنطوى عليه نفوس الشيعة جميعا منذ مقتل الحسين ، وهو حزن صَفَّى مشاعره ورقق أحاسيسه وملاه بوجود متقد لا تحمد ناره ، ومن رائع غزله قوله :

مَنْ رَكَّبَ الْبَدْرَ فِي صَدْرِ الرَّدِّيْنِيِّ	وموّه السحرَ في حدِّ اليمانيِّ
وَأَنْزَلَ النَّيِّرَ الْأَعْلَى إِلَى فَلَكَ	مَدَارُهُ فِي الْكِسَاءِ الْخُسْرَوَانِيِّ
طَرَفٌ رَنَا أَمْ قِرَابٌ سُلٌّ صَارْمُهُ	وَأَغِيدٌ مَاسَ أَمْ أَعْطَافٌ خَطِيٌّ
أَذَلَّنِي بَعْدَ عَزٍّ وَهَوَى أَبَدًا	يَسْتَعْبِدُ اللَّيْثَ لِلظَّبِيِّ الْكِنَاسِيِّ (١)
أَمَا ذَوَائِبِ مَسْكِ مِنْ ذَوَائِبِهِ	عَلَى أَعَالَى الْقَضِيبِ الْخَيْرَانِيِّ
وَمَا يُجِنُّ عَقِيْقِي الشَّفَاهُ مِنْ أَل	رَيْقِ الرَّحِيقِيِّ وَالشَّغْرِ الْجَمَانِيِّ
أَرَبِيَّ عَلِيٍّ بَشْتِي مِنْ مَحَاسِنِهِ	تَأَلَّفْتُ بَيْنَ مَسْمُوعٍ وَمَرْتِيٍّ

والصور في الأبيات طريفة غاية الطرافة ، فهو يتعجب من بدر يراه في صدر رمح رديني مهيبٍ لإصابة الحب في الصميم ، وإنه ليعجب أن يكون سحر العينين مموِّهاً في حد السيف اليماني وأن يرى القمر أمام عينيه يدور على الأرض في كساء فارسي حريري . ويعجب هل العين طرف يديم النظر أو غمد سل سيفه القاطع ، وهل هو بإزاء قد شائق ناعم يتثنى أو بإزاء أعطاف رمح خطيٍّ قاتل ، ويقول إن الهوى يستعبد الليث الفاتك للظبي الوادع الذي يعيش في كناسه أو مأواه الآمن ، ويرى ذوائب الشعر على أعالي هذا الغصن الخيزراني الأملس الناعم تقطر ذوب المسك ، أما الشفاه فورهاها الثغر الفضي من الأسنان والريق الرحيق السائع . وهي صور تدل على خصب الخيال عند ابن منير وقدرته على عرض الصور الشعرية عرضاً طريفاً . ويقول :

أُتْرَى يَثْنِيهِ عَنْ قَسْوَتِهِ خَدُّهُ الذَّائِبِ مِنْ رِقَّتِهِ

(١) الكيناس : مأوى للظبي في الشجر يستتر به

أفأستنجده وهو الذي لَوْنُ الدَّمْعِ عَلَى حَيْبَتِهِ
ولهذا قَوْسُهُ مُوتِرَةٌ تَسْتَمِدُّ التَّبِيلَ مِنْ مَقْلَتِهِ
قُرٌّ لَا فخرَ لِلبَدْرِ سِوَى أَنَّهُ صَبِغَ عَلَى صُورَتِهِ
صُدْغُهُ كَرْمَةٌ خَمِرٍ قُسْمَتْ بَيْنَ خَدَيْهِ إِلَى نَكْهَتِهِ
أَتَخَالُ الحَالِ يعلو خَدَّهُ نَقَطَ مَسْكِ ذَابٍ مِنْ طَرَّتِهِ
ذاكَ قَلْبِي سُلَيْتَ حَبَّتِهِ وَاسْتَوَتْ خَالَا عَلَى وَجَّتِهِ

والقطعة تموج بالصور ، فخذُ صاحبته يلوب رقة ، وقد لون دموعه بلونه الأحمر القاني ، وإن قوس حاجبها لمشدود والتبيل في مقلتها يستمده . وقد بلغت من الجمال وسحره مبلغا عظيما حتى ليفخر البدر بأنه صبغ على صورتها ، وكأن صدغها أو خصلتي الشعر المرسلتين على خديها كرمة خمر قسمت بينها واستحالت رضاها في ثغرها يرشفه المحب . ويقول : لا تظن الحال على خدّها نقطة مسك سقطت من طرة شعرها ، بل هو حبة قواده سلبتها من قلبه وأتاحها لوجنتها الفاتنة . وتكثر مثل هذه الصور البديعة في شعره وغزله ، من ذلك قوله :

وَتَوَقَّلْتُ فِي الرُّوضِ مِنْ وَجَنَاتِهِ نَارُ الحَيَاءِ يَشْبُهَانِ مَاءَ الصُّبَا^(١)

وقوله :

وَكَمْ لَهُ فِي كَبْدِي لَسَعَةٌ بَرُودَهَا الدَّرِّيَاقُ مِنْ فِيهِ^(٢)

وقوله :

سَلَّمْتُ فَازُورًا يَزُورِي قَوْسَ حَاجِبِهِ كَأَنِّي كَأْسُ خَمِرٍ وَهُوَ مَخْمُورٌ

وقوله :

قُرٌّ مَا طَلَعَتْ طَلَعَتْهُ إِلَّا سَجَدَ البَدْرُ لَهَا

وغزلياته تتردد بين الجزالة والنصاعة في الألفاظ وبين الرشاقة والعدوبة ، وله قصيدة رائية من مجزوء الكامل في مملوكه « تتر » أنشدتها الحموي في خزائنه تدل على خفة روحه وميله إلى الدعابة ، ويحق أن كان شاعرا بارعا من شعراء زمنه .

(٢) برودها : شرابها. الدرياق : الترياق الشافي

(١) يشبها : يوقدها .

الشاب^(١) الظريف

هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمساني ، نشأ أبوه في دمشق ، وخدم الدولة في عدة جهات ، وعمل كاتباً وشيخاً للصوفية وانتظم في سلكهم ، ووفد على القاهرة ونزل بها في خانقاه الصوفية الكبيرة المعروفة باسم « سعيد السعداء » وولد له حيثُذ ابنه شمس الدين سنة ٦٦١ . وعنى بتربيته وبدأ بحفظ القرآن الكريم ، حتى إذا أتمه أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ ، وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ ينظم مدائح وغير مدائح ، غير أن أباه رأى أن يعود إلى دمشق وعاد معه وظل يذكر صباه بمصر في مثل قوله :

يا ساكني مصرَ شَمَلُ الشوقِ مجتمعٌ بعد الفراقِ وشملُ الشكرِ أجزاءُ

والتحق أبوه بالدواوين في دمشق ، وولى هو عمالة الخزانة بها ، وعاش مكفوف الرزق ، وأفضى مع أنداده من شباب دمشق إلى حياة فيها غير قليل من اللهو يجتمعون في دورهم أوفى المنتزهات ، غير أنه لم يعيش طويلاً ، إذ عاجلته المنية في الثامنة والعشرين من عمره سنة ٦٨٨ . وقد تناول الشاب الظريف في شعره أغراضاً مختلفة من المديح وغير المديح ، وأهم غرض أبدع فيه واشتهر به بين معاصريه ومن جاءوا بعدهم الغزل ، لسبب طبيعي وهو أنه طالما تردد على سمعه شعر أبيه الصوفي وغيره من أشعار ابن الفارض وابن عربي ، وكأنا تمثل ما في أشعارهم جميعاً من وجد قوى حار ، وبتُّ منه الكثير في غزله ، مصوراً ما يثير الحب في القلوب من المشاعر والعواطف والأهواء ، عارضاً ذلك في لغة عذبة سهلة تلذ الألسنة والآذان والأفئدة . وفيه وفي شعره ورقته ينقل ابن شاعر عن ابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار قوله عنه وعن شعره : « نسيم سرى ، ونعيم جرى ، وطيف لابل أخف موقعا منه في الكرى ، لم يأت إلا بما خف على القلوب ، ويرئ من العيوب ، رِقُّ شعره فكاد أن يُشرب ، ودقُّ فلاغرو للقُصْب (الأغصان) أن ترقص والحمام أن يطرب ، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان ، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان .. وأكثر شعره بل كله رشيقي الألفاظ ، سهل على الحفاظ ، ل يخلو من الألفاظ العذبة ، وما تحلوه المذاهب الكلامية ، فلهذا علق بكل خاطر ، وولع به كل ذاكر »

ابن الفرات ٨٥/٨ والخزانة لابن حجة الحموي ص ٢٥١ وما بعدها وديوانه مطبوع بالمطبعة الأهلية ببيروت .

(١) انظر في الشاب الظريف وأشعاره قوات الوقيات لابن شاعر ٤٢٢/٢ والنجوم الزاهرة ٣٨١/٧ وتاريخ

وهي شهادة قيمة لابن فضل الله في الشاب الظريف وشعره غزلا وغير غزل ، إذ يموج شعره بالركة وحسن الجرس وجمال التناسق ، مع خفة الروح ، وكأنما حمل في صباه منها غير قليل من أهل القاهرة الذين عاشهم في نشأته ومطالع حياته ، ومن طريف غزله قوله :

لا تُخَفِ ما فعلتْ بك الأشواقُ واشْرَحْ هَوَاكَ فكلُّنا عُشَّاقُ
فمسي يُعينك من شكوتَ له الهوى في حَمَلِهِ فالعاشقون رفاقُ
لا تجزَعَنَّ فلستَ أولَ مُعْرَمٍ فتكتُ به الوجناتُ والأحداقُ
واصبرْ على هجرِ الحبيبِ فرما عاد الوصالُ وللهوى أخلاقُ
يا ربُّ قد بَعَدَ الذينَ أحبَّهم عنى وقد أَلَفَ الفراقَ فراقُ

والأبيات تسيل رقة وعدوبة ، وهي تلتصق بالنفس لا لما قاله ابن فضل الله العمري من أن الشاب الظريف كان يستخدم الكلمات العامية ، فليس فيها من العامية شيء ، وربما كان أدق من ذلك أن نقول إنه كان يستخدم أساليب وألفاظا أشبه بألفاظ وأساليب اللغة اليومية المتداولة على السنة العامة مع أنها عربية فصيحة ، مما يُشيع الاستواء في عباراته وانسجامها انسجام الماء العذب في تحدره ورقته وانطلاقه دون أى عائق لفظي ، بل مع العذوبة والحلاوة والرشاقة ، على شاكلة قوله :

أعزَّ اللهُ أنصارَ العيونِ ونخلدَ ملكَ هاتيكَ الجُفونِ
وضاعفَ بالفتورِ لها اقتداراً وإن تك أضعفتُ عقلي وديني
وأبقى دولةَ الأعطافِ فينا وإن جارتُ على قلبي الطَّعينِ
وأسبغَ ظلَّ ذاكَ الشَّعرِ منه على قدِّ به هيفُ الغصونِ

وهو دعاء لصاحبه ملء بالظرف والرقة والدمائة ، فهو يدعو لأمثاله من العشاق المفتونين بسحر العيون أن يعزهم الله وأن يخلد للعيون أو الجفون هذا الملك العريض من عالم الجمال والسحر ، ويدعو للعيون أن تزداد فتورا حتى يزداد سحرها وشره تأثيرا في القلوب . ويدعو لمثل قوامها وأعطافه أو جوانبه البديعة بالحياة السعيدة وإن أصابته في الصميم : في قلبه . ويستمر في دعائه : أن يسبغ الله ظل ذلك الشعر على قدها الأهيف الضامر ضمور الغصون اللدنة المليئة بالنضرة ، ويقول :

لى من هواك بَعِيدُهُ وقريبُهُ ولك الجالُ بديعُهُ وغريبُهُ
يا من أعيدُ جِماله بجلاله حذرًا عليه من العيون تُصيبُهُ
إن لم تكن عيني فإنك نورها أو لم تكن قلبي فانت حبيبُهُ
هل حرمةٌ أرحمةٌ لم تيممِ قد قلَّ منك نصيرُهُ ونصيبُهُ
لم يبق لى سرُّ أقول تذييعُهُ عنى ولا قلبُ أقول تذييعُهُ
والنَّجْمُ أَقْرَبُ من لِقاك مَنالُهُ عندى وأبعدُ من رضاك مَغيبُهُ

والآيات تسيل رقة ونعومة وهو فيها يحوط صاحبه بكل ما يستطيع من شباك التضرع والاستعطاف ، فهو عاشق واله ، وهى ليست جميلة فحسب بل هى أيضا جليلة ، وهو يعيد جلالها بجلالها حذرا من عيون الجاسدين . وهى نور عينه وَحَبَّة قلبه ، وهو يسألها متوسلا بالرحمة أوحرمته الحب لعلها تنيله شيئا من الود ، ويعترف بأن آلامه فى حبها ذاعت وشاعت ، وقلبه يصلى نار حبها حتى ذاب التياغا لطول يأسه من لقاءها حتى ليظن أن النجم أقرب من لقاءها منالا وأبعد من رضاها مغيبا . وهو فى غزله دائما ينصب شباك هذا التضرع الطريف كقوله :

بِتَشْنَى قوامك المشوقِ وبأنوار وجهك المعشوقِ
جُدْ بوصلٍ أوزورةٍ أو بوعدٍ أو كلامٍ أو وقفةٍ فى الطريقِ
أو بإرسالك السلامَ مع الرِّيحِ وإلا فبالخيالِ الطُّرُوقِ

وتدل تمنياته فى وضوح على خفة ظله ، وأنه رقيق رقة مفرطة مع الدماعة والظرف والتدله فى الحب واتقاد جذوته فى فؤاده . ولكل ذلك سماه معاصروه بـ « الشاب الظريف » . وله وراء ما ذكرنا من شعره موشحات ورباعيات بنفس الروح ونفس اللغة .

حسن^(١) البورينى

هو حسن بن محمد البورينى ، ولد بالأردن فى قرية صَفُورِيَّة لسنة ٩٦٣ للهجرة ، ونزل مع أبيه دمشق وهو غلام ، واختلف فيها إلى حلقات العلماء ، ولم يلبث أبوه أن بارحها إلى بيت

(١) انظر فى حسن البورينى وشعره رحانة الألبا ٤٢/١

وخلصة الأثر ٥١/٢

المقدس ، وفيه أتم تعلمه . وعاد إلى دمشق فاشتغل فيها بالتدريس في مدارسها والوعظ في مساجدها . وتولى منصب القضاء في الحج الشامي سنة ١٠٢٠ . وكان عالماً ثبثاً حُفظةً فصيح العبارة . وله شرح على ديوان ابن الفارض الصوفي بحسب المعنى الظاهر ، دون أى محاولة لإقحامه بين المتصوفة المتفلسفين أصحاب أفكار الحلول ووحدة الوجود . وكان سنياً شافعيًا . وله كتاب في تراجم الأعيان لا يزال مخطوطاً بدار الكتب المصرية ، وأفاد منه المحب في كتابه خلاصة الأثر .

وكان البوريني شاعرًا مجيدًا ، وجمع ديوان شعره ، ومنه مخطوطة في مكتبة كوبريلي بالآستانة ، ويقول فيه الشهاب الخفاجي : « دياجة الدنيا ومكرمة الدهر ، ونكتة عطارذ التي يفتخر بها الفخر » وروى له طائفة من غزله ، وهو فيه يستقى من نفس المعين الذي استقى منه الشاب الظريف ، ونقصد معين الشعر الصوفي وما فيه من وجد ملتاع ، ويكفي أنه قرأ ديوان ابن الفارض بل لقد شرحه ووقف عند كل معنى من معانيه وكل لفظ من ألفاظه ، فطبعي أن يتأثر بحبه الإلهي الظامي أبداً وما فيه من خوالج وخواطر لا تكاد تحصى ، تصور الحب الملتاع الذي يصحبه دائماً الفراق والحزمان ، فما يكاد يهنا بالحب لحظة حتى ينبثق له غراب البين ، ويظل في نعيقه وهو يتلهف أشد التلهف على رؤية صاحبتة بمثل قوله :

يقولون في الصبح الدعاء مؤثراً فقلت نعم لو كان ليلى له صُبْحُ
وياعجباً منى أروم لقاءه وفي جفنه سيفٌ ومن قدّه رُمحُ
وإنسانٌ عيني كيف ينجو وقد غدا يطول له في لُجٍّ مَدْمَعه سُبْحُ
وليس عجيباً أن دمعى أحمرُّ وفي مهجتي قرْحٌ وفي مقلتي رَشْحُ

فهو يعيش بدون صاحبتة في ليل لا آخر له ، ويعجب كيف يريد لقاءها وهي مسلحة بجفنها الساحر وقوامها المشوق ، إنه لم يعد له منها سوى الدموع التي يغرق فيها إنسان عينيه ، وما زالت عيناه تدمع حتى استحال دمعها دماً ، ويشعر كأن في مهجته جرحاً لا يبرأ وفي مقلته رشحاً لا يرقأ . ويقول :

وكنا كغُصْنِي بانهٍ قد تألّفا على دَوْحَةٍ حتى استطلا وأينعا
يغنيهما صدحُ الحمامِ مُرَجَّعاً ويسقيهما كأسُ السحابِ مُترعاً
سليمين من خطب الزمان إذا سَطَّأ خَلِيئينِ من قول الحسودِ إذا سَعَى

ففارقني من غير ذنبٍ جنيتهُ وأبقى بقلبي حرقةً وتوجعاً
عفا الله عنه ما جناه فإني حفظتُ له العهد القديم وضيقاً

وهي قطعة طريفة ، إذ يتصور البوريني أنه هو وصاحبه كانا مثل غصنين لشجرة ضخمة من شجر البان ولداً معاً وعاشا معاً صيفاً وشتاءً وتغذيا معاً وتناولوا الحياة تناولاً واحداً ، ينعمان بشدو الحمام وينهلان من كئوس السحاب منتشين هائنين ، لا عدول ولا حسود . وفجأة تهجره صاحبه من غير ذنب جناه . ويصطلي قلبه بنار الحب المحرقة وأوجاع المهجران المؤلمة ، ومع ذلك يدعو الله أن يغفر لصاحبه جنائتها ، إذ ضيعت العهد والميثاق القديم ، أما هو فلا يزال ذاكرةً له بل حافظاً أميناً . ويقول :

منازلُ هذا القلبِ كنَّ أو اهلاً وما هي من بعد الفراق طُلولُ
ويا ظبِّي هل بعد النِّفار تأنسُ ويا بدرُ هل بعد الأفول قفولُ
ويامنزلَ الأحباب أين ترحلوا وهم في قوادي - ما حيتُ - نزولُ
يميلون عني للوشاة وإني إليهم وإن طال الصدود أميلُ
علىَّ لهم حفظُ الوداد وإن جنوا وليس إلى نقض العهود سبيلُ

وقد فارقت صاحبه وأصبحت منازل قلبه طلولاً دارسة ، وإنه ليتساءل متحسراً هل بعد النفور تألف وهل بعد أفول البدر قفول ورجوع ، ويسأل منزل الجيبة وقومها أين ترحلوا ، ويقول إنهم نزول في قلبه لا يفارقونه أبداً ، وحتى إن هم سمعوا للوشاة وأطالوا له الصدود والمهجران فسيظل متعلقاً بهم حافظاً لودادهم لا ينقض العهود ولا ينكثها ، بل سيزداد تعلقه وحبه واستمساكه . وما يلبث أن يخاطب في نفس القصيدة قريبا أو كما يسميه ابن ورقاء أي حامة رمادية اللون قائلا :

وماهاجني إلا ابنُ ورقاء سُحرةُ له فوق أفنان الرياضِ هدبيلُ
يردُّدُ في صُحفِ الرياضِ قصائدا من الشوق يُملِّها لنا ويميلُ
يخيِّلُ أن البينَ آذى قوادهُ وكيف ولما يناً عنه خليلُ
ولم تحتكم فيه الليالي ولم يينُ عليه لبينِ رقةٍ ونحولُ
أما والهوى لوذقت ما ذقتُ في الهوى لما ازدان بالأطواق منك تليلُ

ألا إنه ما فارقَ الألفَ دَهْرَهُ ومالى إلى وَصْلِ الحبيبِ وصولُ

وهو يوازن بينه وبين قرى يتغنى سحرا بأشواق ماينى يرددتها فى صحف الرياض ويمليها مخيلا كأنه يشكو من آلام بين مبرح ولا بين ولا فراق ، فحبيبته بجانبه لم تفارقه ليلة ، ولا أصابه لفراقها ضنى ونحول . ويقسم له بالهوى لو ذاق أو جاعه وتبارحه ما ازدان تليله أو عنقه بطوق ، ويقول له إنه لم يفارق أليفته يوما بينما هو يتلظى بنار الفراق والهجران . وكان يعرف الفارسية وقد ترجم عنها قوله :

ورقُ الغصونِ دقاترُ مشحونةٌ مملوءةٌ بأدلةِ التوحيدِ

ولعل فيما قدمنا ما يدل على روعة غزلياته ، وهو فيها دائما مشوق يتمنى الوصل وأن تدوب حُجب الهجران . وما زال يردد هذا المعنى وما يتصل به ، حتى لبي نداء ربه بدمشق لسنة ١٠٢٤ للهجرة .

٢

شعراء الفخر والهجاء

موضوعا الفخر والهجاء من موضوعات الشعر القديمة منذ الجاهلية ، ومعروف أن شعر الفخر والحماسة الحربية غلب عليها قديما ، حتى سمي أبو تمام مختاراته الشعرية الكبرى باسم الحماسة تغليبا لهذا الموضوع على موضوعات الشعر الأخرى عند العرب فى جاهليتهم وإسلامهم ، وكان يزحمه من قديم شعر الهجاء ، إذ كانوا يفخرون بانتصاراتهم الحربية ويهجون خصومهم بهزائمهم ، يستثيرون بذلك قبائلهم لتخوض معارك جديدة أشد فتكا فى الأعداء . وكانت معارك العرب - على مر السنين - بينهم وبين الأمم وقودا مستمرا للفخر والهجاء ، فلم تحمد لها نار ، بل لقد اشتد أوارها كلما تقدمنا مع الزمن ، وكان شعراء الشام يشاركون فى تلك المعارك بسهام شعرهم النارية . ونكتفى بذكر شاعرين كبيرين قرييين من هذا العصر هما أبو تمام والبحترى ، وكانا أشبه بمكاتبين حربيين ، فهما يحضران المعارك مع ثوار إيران ومع الروم فى آسيا الصغرى ، ويصوران كيف احتدمت الحرب وبلاء الجيوش العباسية وقوادها فيها وما أنزلوا بالأعداء من مَحَق لا يكاد يبقى منهم باقية . وبجانب هذا الفخر والهجاء الحربى كان هناك الفخر والهجاء السلميان اللذان ينظمهما الشعراء لبيان ما يشتملون عليه هم وأقوامهم ، أو هم أنفسهم ، من مثالية خلقية رفيعة وما يتصف به أعداؤهم

أوبعض خصوصهم من أخلاق شائنة يذريها المجتمع . وهذا الفخر والهجاء الجماعيان والفرديان نجدهما عند أبي تمام والبحتري وغيرهما من الشعراء ، وكثيرا ما كان يحدث ذلك بين الشعراء أنفسهم ، فنجد - بعامل المنافسة - شاعرا يفاخر زميلا له ويهاجيه .

وكل ذلك نراه شائعا في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وكانت الحرب محتدمة في أوائله بين سيف الدولة الحمداني أمير حلب وبين الروم ، وكان يكيل لهم ضربات قاصمة ، مما جعل كثيرين من الشعراء يمدحون بطولته وبطولة جيوشه العربية مفاخرين الروم وهاجين منذرين جموعهم بمعارك تدق أعناقهم دقا ولا تبقى ولا تذر . وبجانب ذلك نجد الفخر والهجاء الفرديين محتدمين بين بعض شعراء حاشيته على نحو ما حدث بين الخالدين والسريّ الرّفاء . وشاعر الفخر الشامي الذي لا يبارى في القرن الرابع الهجري أبو فراس الحمداني ، وسنخصه بترجمة مفردة . وربما كانت أروع قصيدة فخر نظمها شعراء الشام في القرن الخامس الهجري قصيدة أبي العلاء المعري التي أشرنا إليها في ترجمته وفيها يقول^(١) :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلٌ	عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلٌ
تُعَدُّ ذنوبى عند قومٍ كثيرةٌ	ولا ذنب لي إلا العُلا والفضائل
وقد سار ذكرى في البلاد فنم لهم	بإخفاء شمسٍ ضوءها متكاملٌ
وإني وإن كنت الأخير زمانه	لأت بما لم تستطعه الأوائل
ولي منطقٌ لم يرض لي كنهه منزلي	على أنني بين السّاكين نازلٌ
ولما رأيتُ الجهل في الناس فاشيا	تجاهلتُ حتى ظننتُ أنني جاهلٌ
وواعجبا كم يدعى الفضل ناقصٌ	ووأسفاً كم يُظهر النقص فاضلٌ
ينافسُ يومى في أمسى تشرفا	وتحسد أسحارى عليّ الأصائل

والقصيدة تناقض شخصية أبي العلاء المتشائمة الزاهدة في الحياة وكل ما فيها من مجد ، وإما نظمها تقليدا ومحاكاة لسابقه في فن الفخر ، وإما نظمها في ساعة غضب ردا على بعض شائثيه وخصوصه . ومع ذلك فهي تصور مكانته في الأدب العربي ، وأنه فيه - بحق - السابق المجلى ، وهو يقول : من أين يلحقني الذم وأنا أنفض بكل ما يكسبني المجد والشرف من العفاف الطاهر

(١) ديوان سقط الزند (طبع دار الكتب المصرية)

والإقدام الجريء والحزم النافذ والنائل أو الجود السابغ ، ويقول إنه ليس فيه ذنوب ولا عيوب إلا إذا عُدَّت العلا والفضائل ذنوبا وعيوبا ، ولن تعد المحاسن كذلك أبدا . وإن ذكره ليعم البلاد كما يعمها ضوء الشمس الغامر الذي لا يستطيع أحد إخفائه ، وإن كان زمانه قد تأخر فإنه أتى بما لم يستطعه الأوائل ، ومع أنه بين السماكين في السموات العلا لا يزال منطقته أو عقله يطلب منزلة أعلى شأنا . ولما رأى الجهل فاشيا تجاهل حتى ظن الأغبياء أنه جاهل ، وتعجب من ادعاء الناقص الفضل وتحسّر على تظاهر الفاضل بالنقص . ويقول إن كل وقت يتمنى أن يكون فيه دون غيره من الأوقات ، فأمسه يحسد عليه يومه وأصيل اليوم يحسد عليه سحره . ويمضى أبو العلاء في القصيدة بهذا الصوت الضخم المجلجل كالرعد القاصف .

وكان يعاصر أبا العلاء ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة ، وله يفتخر بقومه وبلائهم في حرب الثغور ضد الروم^(١) :

أهلُ الثغور إذا تلمَّ مُلِمَّةٌ بَسَطُوا رِمَاحًا دونها وسَوَاعِدَا
وأولو الثَّقَى فإذا مررت عليهمُ لم تلق إلا مكرما ومجاهدا
إن حاربوا ملثوا البلاد مَصَارِعًا أو سالموا عَمَرُوا الديار مساجدا
بيتُ له النسبُ الجليُّ وغيره دعوى تريد أدلَّةً وشواهدا

وهو يفخر ببأس قومه وتقواهم وأنهم في الحرب يملثون ساحات المعارك بينهم وبين الروم صرعى مقتولين . وإذا أفضوا إلى السلم ملثوا الديار مساجد ، ويقول إن بيتهم عريق في العرب لا يطاوله أي بيت . ومن شعراء الفخر في زمن الفاطميين والأيوبيين أسامة بن منقذ وسنفرد له ترجمة - ولابن الساعاتي المار ذكره^(٢) :

وإني لآبي الضَّيْمِ من كل صاحبٍ وأكره قلبي أن يكون له خَدْنَا
وإن بلدٌ لم أَعُدُّ فيه مكرمًا نهضتُ فأعملتُ الجُدَيْلِيَّةَ البُدْنَا^(٣)
وما شان فضلي بين أهلي خموله وقد بلغتُ غاياته الإِنْسَ والجَنَّا
فإني كعود الهند هينَ بَدْوَجِهِ وقد عبقتُ أنفاسه السَّهْلَ والحَزْنَا

(٣) الجديلية البدن : النوق الضخمة

(١) ديوان ابن سنان الخفاجي ص ٢٣

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢١٤/٢

فهو يابى الضيم شاعرا بالكرامة شعورا عميقا ، حتى لو أحسن أن بلدا ينبو به رحل عنه إلى غير إياب ، ويبالغ في بيان فضله قائلا إنه شاع بين الإنس والجن ، وإن اعتراه خمول بين أهله فثله مثل عود الهند لا يُعرف فضله في دَوْحته ، بينما رَأَتْه العطرة تملأ السهل والحزن من الأرض . ونظل نستمع إلى هذا الصوت الأجلح المعتر بنفسه وكرامته طوال أيام المالك وبالمثل أيام العثمانيين كقول ابن الجزرى المار ذكره (١) :

يَقْدُمْنِي عَزْمِي وَحَظِّي مُؤَخَّرِي وَيُوصِلْنِي حَزْمِي وَدَهْرِي يَقَطُّعُ
وَهْمِي مِنَ الدُّنْيَا الْمَعَالِي وَنَيْلُهَا وَمَا هُمُّ قَلْبِي الرَّقْمَتَانِ وَلَعْلَعُ (٢)
وَلَا رَشَاءُ أَحْوَى وَلَا صَوْتُ قَيْنَةٍ وَلَا قَدْحٌ فِيهِ الرَّحِيقُ الْمُشَعِّعُ (٣)
وَلَكِنَّا لَدُنُّ وَأَجْرُدُ سَابِحٌ وَمَسْرُودَةٌ زَغْفَا وَأَيْضُ يَسْطَعُ (٤)

وهو صاحب عزم وحزم ونفاذ في الأمور وإن لم يسعفه الحظ والدهر . وهمه طلب المعالي والظفر بها لا بمن يسكن روضتي الرقمتين وجبل لعلع من سمر الشفاه ، ولا بمن يتغنين غناء جميلا ، ولا بالأقداح من رحيق الخمر وشرابه . إنما همه رمح لين قاتل وفرس مسرع ودرع واسعة محكمة وسيف ساطع يضئ في غبار الحرب حين يسله على رقاب الأعداء . إنه من أهل العزم والحزم والمعالي لا يشغف بحب ولا بغناء ولا بنحمر ، إنما يشغف بالبأس في الحرب وتقتيل الرجال وسفك دماءهم .

وبجانب هذا الفخر كان يدور هجاء كثير ، وخاصة لمن لا يجزون الشعراء الجزاء الوفر وكثيرا ما كانت تحتدم بينهم المنافسات ، فيفزعون إلى سهام الهجاء يصوبها الخصم منهم إلى خصمه صباح مساء . وقد يصبح الهجاء سهاما سامة قاتلة ، وقد يصبح سخرية جارحة ، وقد يصبح دعاية وإن لم تخل من مرارة ، كقول عبد المحسن الصوري وقد نزل ضيفا على أخ له (٥) :

وَأَخٍ مَسَّهُ نَزْوِي بِقَرْحٍ مِثْلَ مَا مَسَّنِي مِنَ الْجُوعِ قَرْحُ
بِتُّ ضَيْفًا لَهُ كَمَا حَكَمَ الدَّهْرُ رُوفِي بِحَكْمِهِ عَلَى الْحُرِّ قُبْحُ

(١) ربحانة الالباء ١١٨/١
(٢) الرقمتان : قربتان في شرقي نجد أو روضتان ، ويذكرها شعراء الغزل . لعلع : جبل في نجد
(٣) الرشاء : ولد الظبية وتشبه به الفتيات ، والحوة :
لمرة في الشفة ، الرحيق المشعشع : العسل الممزوج
(٤) اللدن : الرمح . أجرد . فرس . مسرودة :
درع . زغفا : سابعة . أبيض : سيف
(٥) اليتيمة ٣٠٠/١

قَالَ لِي إِذْ نَزَلْتُ وَهُوَ مِنَ السَّكْرِ وَالْمَهْمِ طَافِحٌ لَيْسَ يَصْحُو
لَمْ تَغْرَبْتَ قَلْتِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْقَوْلُ مِنْهُ نُصْحٌ وَنُجْحٌ
سَافَرُوا تَعْتَمُوا فَقَالَ وَقَدْ قَالَ لِي تَمَامُ الْحَدِيثِ صَوْمُوا تَصِحُّوا

وهي دعابة تلسع لسع الأبر ، فقد صور نزوله على مضيفه بقرح وهو ما يصيب الإنسان من
عَضُّ السَّلاح ونحوه ، كأنما نزوله عليه كان كارثة ، وقال إنه مسَّه من الجوع قَرَحٌ لا يزال يَنْزُأُ ،
وكأنما يستلهم آية سورة آل عمران : (إِنْ يَمَسَّكُمْ قَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرَحٌ مِثْلُهُ) أى إن نالوا
منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر . ويقول إن الدهر هو الذى حكم عليه هذا الحكم القبيح ،
ولقد أصابته سكرة من الشح والهم ، فسأله سؤالا مزريا : لم تغربت ونزلت عندي ، فأجابه لقول
رسول الله ﷺ : سَافَرُوا تَعْتَمُوا ، فبادر إليه يقول : تمام الحديث : صوموا تصحوا ، وكأنه
يطلب إليه أن يظل جائعا بل أن يصوم ويظل صائما ما ظل عنده . ويقول الغزى المتوفى سنة ٥٢٤
في هجاء حاكم من حكام إيران يسمى شروانشاه (١) :

رَأَيْتُ لَوْمًا مَصُورًا جَسَدًا شِيمَتُهُ الْاِحْتِيَالُ وَالْكَذِبُ
عَلَى سَرِيرٍ كَالنَّعْشِ لَا رَهَبٌ يعلوه من هيبَةٍ وَلَا رَغْبٌ
يَجِبُهُ بِالْهُجْرِ مَنْ يَخَاطِبُهُ بَيْنَ السَّعَالِي وَبَيْنَهُ نَسَبٌ (٢)
يَفْرُقُهُ النَّاسُ لِلْسَّفَاهَةِ وَالْعَقْرَبُ يُخْشَى وَخَدُّهُ تَرِبٌ
لِلْجَمْعِ وَالْمَنْعِ قَائِمٌ أَدَا كَالْفِيلِ لَا تَشْتَبِي لَهُ رُكْبٌ

وهو هجاء لأذع كوى به جلد هذا الحاكم ، بل لقد تحولت الأبيات في يد الغزى إلى ما يشبه
سياطا بل شواظا من نار يصبه فوق رأسه صبا ، فهو تمثال للؤم والكذب ، يجلس لاعلى سرير بل
على نعش لا يظله رهب منه ولا رغب في ماله ، لما عُرف عنه من شحٍ بغيض ، وأنه يصبك مخاطبه
بكلام قبيح ، وكأنما هو ليس من البشر ، بل إن بينه وبين الغيلان نسيا ذميا . والناس يخشونه
لسفاهته كما يخشون العقرب وخدها ملطخ بالتراب ، وكأنما خلق كالقيل قائما أبدا إذ لا ينام فعيناه
مشدودتان دائما لجمع المال ومنعه عن مستحققيه شحاً بغیضا لا يدانيه شح . وكان العرقلة الكلبي
المتوفى سنة ٥٦٧ كثير الهجاء حتى هجا نفسه ، وله من أبيات وقد أعطاه بعض من مدحهم
لا مالا ، بل شعيرا فقال (٣) :

(٣) الخريدة (قسم الشام) ١٨٢/١

(١) الخريدة (قسم الشام) ١٩/١

(٢) السعالى : الغيلان

يقولون لم أرخصت شعرك في الورى فقلت لهم إذ مات أهل المكارم
أجازى على الشعر الشعير وإنه كثير إذا استخلصته من بهائم

ومنذ زمن الغزى يشكو الشعراء كثيرا من أنهم لا ينالون ما يستحقونه على أشعارهم من
ممدوحهم ، بل إن منهم من يعطيهم رقعا مسطرة دون أن يفي بما فيها ، وكأنها كلام كاذب بكلام .
ومن كبار الهجائين في أيام الأيوبيين بدر الدين عيد الرحمن بن المسجف المتوفى سنة ٦٣٥
للهجرة ، وله يهجو جماعة من إخوانه أو عصابته كما يقول (١) :

يا رب كيف بلوتني بعصابة ما فيهم فضل ولا إفضال
متنافري الأوصاف يصدق فيهم الـ هاجي وتكذب فيهم الآمال
جبنًا إذا استنجدتهم للممة لومًا إذا استرفدتهم بـخجال
هم في الرخاء إذا ظفرت بنعمة آل وهم عند الشدائد آل

وهو يخلى عصابته من كل فضل ويراها جديرة بكل مذمة في مهجو إذ تكذب فيها دائما
الآمال . ويصف أفرادها بأنهم جبناء عند الشدائد ، لوماء بجلاء ، وهم في الرخاء أهل أو آل
كما يقول ، وفي الضراء سراب أو آل يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . وولى السلطان
الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤ قضاة أربعة يمثلون المذاهب الفقهية : المذهب المالكي والحنفي
والشافعي والحنبلي ولقب ممثلي هذه المذاهب ما عدا المذهب المالكي بلقب شمس الدين ، فاتخذ
الشعراء ذلك موضوعا للهجاء الفكاهة الساخر. من مثل قول بعضهم (٢) :

أهل الشام استرابوا من كثرة الحكماء
إذ هم جميعًا شمسٌ وحالهم في ظلام

وكان شرب الحشيش المخدر عُرف بين أراذل الناس يدخنونه ويمضغونه وقد يبلعونه ، وشدد
الظاهر بيبرس النكير على من يتعاطونه ، ونظم كثير من الشعراء في ذمه كقول الشاب
الظريف (٣) :

(١) فوات الوفيات ٥٣٩/١ شامة (الطبعة الأولى) ص ٢٣٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣٨١/٧

(٣) فوات الوفيات ٥٣٩/١ وانظر ذيل الروضتين لأبي

(٢) النجوم الزاهرة ١٣٧/٧

ما للحشيشة فضلٌ عند آكلها لكنه غيرُ مصروفٍ إلى رَشْدِهِ
صفراءُ في وجهه خضراءُ في فيه حمراءُ في عينه سوداءُ في كَبِدِهِ

وهو يقبِّحها غاية التقيح بآثارها في ماضئها من صفرة تعترى وجهه وحمرة تشوب عينه وسواد
لا يزول في كبده . ويقول مجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة في هجاء كحل (١) :

دَعُوا الشيخَ من كحلِ العيون فكفُّهُ يسوقُ إلى الطَّرْفِ الصحيحِ الدواهِيا
فكم ذهبَتْ من ناظرٍ بسوادهِ وألقتُ بياضًا خلفها ومآقيا

فكبحه يعنى الأَبصار ويقضى قضاء مبرما على سوادها ونظرها ولا يبقى بها بصيصا
ولا غير بصيص . ولبعض شعراء دمشق في هجاء القاضي شهاب الدين أحمد الباعوني الشافعي
المتوفى سنة ٨١٦ للهجرة (٢) :

قضاء الشام أنشدني بديني لا تبيعوني
صِفَعْتُ بكلِّ مضقعةٍ وبعدَ الكلِّ باعوني

وكانه أدخله فيما نزل بهذا القضاء من صفعات متوالية . وفي كلمة « باعوني » تورية واضحة
فهو لا يقصد « باعوني » من البيع وإنما يقصد القاضي الباعوني .

ويظال الهجاء على ألسنة الشعراء يرمون بسهامه من لا يروقههم من الحكام ومن لا يسبغ عليهم
نواله حتى أيام العثمانيين ، على شاكلة قول يوسف بن عمران الحلبي المتوفى سنة ١٠٧٤ للهجرة في
بخيل (٣) :

بخيلٌ لو يومٍ منه جادتُ أناملُهُ لخالتهُ الندامةُ
ولو في النارِ ألقى ألفَ عامٍ لما عُرِفَتْ له يوما سلامةُ
ولو صارتُ بسفرتِهِ رغيفا دُكَاءُ لما بدتُ حتى القيامةُ

فهو شحيح لو فاته شحُّه يوما لظل نادما أبدا . وما تُرجى له سلامة من النار بل سيظل خالدًا
فيها ، وإن مائلته لتخلو دائما من كل طعام حتى من الخبز ورغفان العيش المستديرة كالشمس ؛

(٣) ربحانة الألبا ١/١٠٨

(١) فوات الوفيات ١/٥٤٠

(٢) النجوم الزاهرة ١٤/١٢٤

ولو أنه ألقى رغيفا عليها ناسيا لا ستترت الشمس حتى القيامة كسوقا وخجلا أن يرى شيئا على سفرته أو مائدته . وحرى بنا أن نترجم لنفر من شعراء الفخر والمهجاء .

أبو فراس^(١) الحمداني

هو الحارث بن سعيد بن حمدان الحمداني التغلبي ، كان أبوه واليا على الموصل للخليفة الراضي ، وكان مشهورا مثل إخوته وأبناء أسرته بالفروسية والشجاعة ، واقترب برومية أنجب منها ابنه الحارث سنة ٣٢٠ ولقبه أبا فراس وهي كنية الأسد رمزا لفروسيته المستقبلية وهو رمز حقيقته الأيام . ولم يلبث سعيد أن قُتل غدرا وابنه يخطو في سنته الثالثة ، وعنت به أمه ، وأحضرت له المعلمين في صباه . ولم يلبث ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة الحمداني أن اشترك مع الأم في العناية والرعاية ، حتى إذا اقتطع لنفسه حلب وبعض ثغور الشام انتقل إليها ومعه أسرته سنة ٣٣٣ ومعه أبو فراس الذي كفله وقام على تربيته فارساً وأديبا خيرا قيام ، إذ أعطاه لبعض المدربين يدربونه على الفروسية ، وبعض المعلمين والمؤدبين من مثل ابن خالويه . وسرعان ما ظهرت فروسيته ونجابته ، فنححه ضيعة بمنبج بلدة بقرب حلب ، ولم يلبث أن ولاه عليها وهو شاب في السادسة عشرة من عمره ، وكان يلزم ابن عمه في حروبه للروم وقد يسوق إليهم فيالقي يقودها بنفسه ويعود إلى منبج ، مفضيا أحيانا إلى الصيد وبعض اللهو ، وفي ديوانه مزدوجة طردية . غير أن من الحق أنه لم يكن مشغوقا بصيد الحيوان إنما كان مشغوقا بصيد أعداء العروبة والإسلام من الروم . ومر بنا في حديثنا عن شعراء التشيع أنه كان شيعي الهوى ، وقد عرضنا لميسته الملقبة بالشافية التي دافع فيها عن العلويين ضد العباسيين دفاعا حاراً ، وتشيع الحمدانيين عامة مشهور وكانوا شيعة إمامية .

وظل يركب في مقدمة الصفوف مع ابن عمه وصهره لدق أعناق الروم ، وحاول أن يستخلفه عنه بحلب في إحدى غزواته ، فاستعطفه راجيا أن يصحبه في حربه . وكان دائما يبلى بلاء حسنا في تقتيلهم وتمزيقهم شرمزق ، وفي يوم من أيام شوال سنة ٣٥١ كان عائدا إلى منبج من الصيد مع

لتحقيقه لديوانه وقد قابله على ٤٠ مخطوطة محفوظة في مكتبات العالمين العربي والغربي ووضع حواشيه ورتب فهرسه .

(١) انظر في أبي فراس وشعره آليمة ٣٥/١ وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٤٣٩/٣ وزبدة الحلب ١٥٧/١ وابن خلكان ٥٨/٢ والشذرات ٢٤/٣ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٩٢/٢ ومقدمة د. سامي الدهان

غلمانه وإذا بكتيبة من الروم بقيادة « تيودور » تباغته فيدافع إلى أن تثخنه الجراح ويصيبه سهم في فخذه ويبقى نصله فيه ، ويؤسر البطل المغوار ، ويقدم به تيودور إلى خرشنة ويظل بها فترة . ثم ينقل إلى القسطنطينية ، ويدوق ذل الإسار وألم الجراح ، غير أن نفسه تظل صلبة عاتية لا تنكسر أبدا ، بل تزداد مع الأيام عتوا وصلابة . ويكبر الروم في أبي فراس فروسيته وبطولته فينزله في قصر على البحر ويخصصون له خادما يقوم بأمره ، ويأبى أن يخلع دروعه وسلاحه ، فيظل بهما في أسره .

ويطول الأسر أربع سنوات ، فتكثر أشعار أبي فراس إلى أهله وسيف الدولة وإخوانه مؤملا في الإسراع بفدائه ، وكان مما أخره أن سيف الدولة يريد فداء عاما له ولكل من معه من المسلمين ممن وقعوا قهرا في شراك الروم . وفي سنة ٣٥٥ يتفق الروم وسيف الدولة على اللقاء لفداء أسرى الطرفين ، وفي شهر رجب ينزل أبو فراس مع ثلاثة آلاف أسير عربي بخرشنة ، ويقدم سيف الدولة بأسرى الروم يفتدى بهم أبا فراس ومن معه من أسرى العرب . ويتم الفداء ويعود أبو فراس إلى حلب . وتأثر تأثرا شديدا لمرض سيف الدولة وما أصاب جنوده من انكسارات وانهازات متلاحقة . ويتوفى سيف الدولة في السنة التالية ، ويدور العام ، ويحاول أبو فراس الاستيلاء على حمص من يد ابن سيف الدولة أبي المعالي ويلقاه مولاه قرغويه في جمادى الأولى سنة ٣٥٧ ويكون في ذلك حقه ، ويقال إنه سقط جرحا في ساحة الحرب وشعر بدنو أجله فأنشد أبياتا يخاطب بها ابنته معزيا قائلا في ختام أبياته بلسان حالها :

زَيْنُ الشَّابِ أَبُو فِرَا سٍ لَمْ يَمْتَعْ بِالشَّابِ

وطبعمي أن لا يكون المديح الموضوع الذي يستفد شعر هذا الأمير الفارس ، إذ لم يكن في حاجة إلى التكسب بشعره ، وأن يكون الفخر هو الموضوع الذي يستغرق شعره : فخره بقبيلته تغلب وأمجادها منذ الجاهلية ، وبأسرته الحمدانية ومناقبها وما قدمته للعباسيين من انتصارات على الخوارج والقرامطة ، وعلى الروم البيزنطيين ، وفخر بمثاليته الخلقية الكريمة وبطولته . وتعد روميته أو أشعاره في أسر الروم القطع الأرجوانية في ديوانه ، وفيها غزل ورناء واستعطاف كثير لابن عمه سيف الدولة كى يرد إليه حريته ليعود معه لمنازلة الروم وقراعهم قراعا لا يبقى منهم ولا ينذر ، وبين قصائدها بائية يرد بها ردا عنيفا على الدمستق حين طعن في العرب وبسألهم الحرية ، وفيها أخذ يذكره باندحاراتهم أمام سيف الدولة ومقتل أخيه في مرعش وجرح أبيه بها في

وجهه وأسر ابن أخته في اللقن وما كان من فراره على وجهه لا يلوى . وهو في روميته يحن إلى
ملاعب صباه وشبابه ويشتاق إلى زوجه وأبنائه ويرثى لأمه العليلة وهي تسأل عنه الركبان حين أسر
قائلا على لسانها :

يَا مَنْ رَأَى لِي بِحَصْنِ خَرْشَنَةَ أُسْدَ شَرَى فِي الْقِيُودِ أَرْجُلَهَا

ويرد عليها مسرعا

يَا أُمَّتَا هَذِهِ مَوَارِدُنَا نَعُلُّهَا تَارَةً وَنَنهَلُهَا^(١)

فواردهم الحرب ، يقتلون الأعداء وتقتلهم ويأسرون الأعداء وتأسرهم ولا تنال القيود الثقيلة
من أقدامهم . ويقول في قصيدة ثانية : لولا أمي العجوز ما خفت أسباب المنية ولا طلبت الفداء
من ابن عمي أبدا . ويقول لها :

يَا أُمَّتَا لَا تَيْأَسِي اللَّهُ الْطَافُ خَفِيَّةٌ
أَوْصِيكَ بِالصَّبْرِ الْجَمِيْلِ فَإِنَّ خَيْرَ الْوَصِيَّةِ

فهو واثق في الله ثقة تامة ، وهو لا ييأس أبدا من فضله ورعايته ، مع عزة نفس لا تماثلها عزة
بل مع صلابة روح لا تشبهها صلابة ، وتبدو هذه الصلابة منذ أيامه الأولى في الأسر ونزولهم به في
خَرْشَنَةَ ، إذ سرعان ما أنشد :

إِنْ زَرْتُ خَرْشَنَةَ أُسِرَا فَلَقَدْ حَلَلْتُ بِهَا مُغِيرَا
وَلَنْ لَقِيْتُ الْحَزْنَ فِي كِ فِقْدِ لَقِيْتُ بِكَ السَّرُورَا

ويقول إنهم طالما فتكوا بأهلها وسبوا نساءهم الحور الفاتنات ، وكم أشعلوا بها نيرانا التهمت
المنازل والقصور وأنت عليها كأن لم تكن شيئا مذكورا . ونشعر كأنما تجسدت في روح أبي فراس
كل معاني القوة العاتية التي تميز بها العرب وفتحوا بها العالم القديم من أواسط آسيا إلى شمالي
إسبانيا ، على الرغم من أسره وما كان يعانیه من ألم وحزن ، وكأنما يحمل بين جنبيه روحا لا يمكن
أن تقهر مها نزل بها من كوارث وخطوب .

وربما كان أروع قصائد أبي فراس حيثئذ قصيدته الرائية التي نظمها حين قال الروم إن

(١) نعلها : نشرها تباعا . نهلها : نشرها ابتداء

أبا فراس وحده من بين الأسرى هو الذى لم نسلب منه سلاحه ، وقد بدأها بحوار بينه وبين إحدى صواحيبه .

أراك عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيْمَتِكَ الصَّبْرُ أما للهوى نَهَىٰ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ
بلى أنا مُشْتَاقٌ وَعِنْدِي لَوْعَةٌ ولكنَّ مِثْلِي لَا يُدَاعِ لَهُ سِرُّ
مَعَلَّتِي بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ إذا مَتُّ ظَمَانًا فَلَا نَزَلَ الْقَطْرُ
تَسَائِلُنِي مَنْ أَنْتِ؟ وَهِيَ عَلِيمَةٌ وهل بَفْتَىٰ مِثْلِي عَلَىٰ حَالِهِ نَكْرُ
فَقَلْتُ كَمَا شَاءَتْ وَشَاءَ لَهَا الْهَوَىٰ قَتِيلِكَ قَالَتْ أَيُّهُمْ فَهْمٌ كَثْرُ
وَقَالَتْ لَقَدْ أَزْرَىٰ بِكَ الدَّهْرُ بَعْدَنَا فَقَلْتُ مَعَاذَ اللَّهِ بَلْ أَنْتِ وَالِدَّهْرُ

وهو حوار وغزل فيهما فتوة وقوة ، فهو لا يبكى ، بل هو صابر صبر الرجال الأشداء ، مع ما يستعر في قلبه من لوعة إزاء معلته بوصل لا يناله ، وكأنما تغير كل ما فيه فلم تعرفه وتسأله من أنت ؟ تجاهل العارف ، فيقول لها قتيلك ، فتسأله أيهم فهم كثيرون . وتقول له : لقد نال منك الدهر ، يكنى بذلك عن أسره ، فيقول لها معاذ الله : بل أنت والدهر . ويمضى في حوارها قائلاً لها : لا تنكرينى يا ابنة العم فإننى غير منكر فى معجمان المعارك وقيادة الكتائب المعودة النصر واقتحام المخاوف والمخاطر المهلكة إلى الروم أسفك دماءهم وأسبى نساءهم دون أن أهتك لهم سترًا أو أكشف لهم ثوبا ، وما يلبث أن يصيح بكل فتوته :

أُسِرْتُ وَمَا صَحْبِي بَعُزْلٍ لَدَى الْوَعَىٰ وَلَا فَرَسِي مُهْرٌ وَلَا رَبُّهُ غَمْرٌ (١)
وَلَكِنْ إِذَا حُمَّ الْقَضَاءُ عَلَىٰ أَمْرِي فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقِيهِ وَلَا بَحْرُ
يَمْنُونَ أَنْ خَلُّوا ثِيَابِي وَإِنَّمَا عَلَىٰ ثِيَابٍ مِنْ دِمَائِهِمْ حَمْرُ
سَيَذَكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ يُفْتَقِدُ الْبَدْرُ
وَنَحْنُ أَنْاسٌ لَا تَوْسَطُ بَيْنَنَا لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرُ
تَهُونُ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالَىٰ نَفْسُنَا وَمَنْ خَطَبَ الْحَسَنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ الْمَهْرُ
أَعَزُّ بَنِي الدُّنْيَا وَأَعْلَىٰ ذَوَى الْعَلَا وَأَكْرَمُ مَنْ فَوْقَ التَّرَابِ وَلَا فَحْرُ

يقول : أسيرت وورائى صحبى يشهرون السيوف فى الحرب ولا يغمدونها أبدا ، إنهم فرسان

(١) غمر : قليل التجربة . عزل : لا يحملون سلاحا

أبطال ، وما أُسرتُ جنبنا ولا كان فرسى مهرا صغيرا بل كان مدربا على القتال ، وكان صاحبه فارسا شجاعا يحسن النزال والفتك بالأعداء ، وإنما هو القضاء الذي لا مَعْدَى عنه ولا مفر منه في بر أو بحر . ويتجه إلى الروم غاضبا لقولهم إنهم مَنُّوا عليه بتركه لابسا لأمته وعدته الحربية ، وهو استشعار للفتوة والقوة ما بعده استشعار . ويقول إن دروعه ملطخة بدمائهم ، إذ طالما دقَّ نصال سيوفه في أعناقهم وصدورهم . ويلتفت إلى قومه فيقول إنهم سيدكرونه حين تدق أجراس الحرب ، سيدكرون فروسيته وبطولته وبلاءه في الأعداء . وكأنما يضع قوانين الشباب العربي والأمة العربية ، إنها ترمى بنفسها في أتون الحرب فيما الصدر دون العالمين أو القبر ، وإن رجالها وأبطالها ليبذلون أرواحهم في نيل المعالي ، ومن خطب الحسنة لم يغله المهر ولم يعده باهظا ، بل إنه يقدمه راضيا حتى لو كان روحه وقلبه . ويقول مَنْ مثلنا : نحن أعز الناس وأعلاهم وأكرمهم بذلا . والقصيدة تعويذة رائعة لفتوة العرب وصلابتهم ، وهي جديرة بأن يضمَّها كل شاب عربي إلى صدره وذاكرته يحفظها ويترنم بأبياتها البديعة . وحانت منه التفاته - وهو في سجنه - إلى شجرة عالية فرأى على أحد غصونها حمامة وسمعها تنوح ، فأشدد :

أقولُ وقد ناحتُ بقربي حمامةٌ أيا جارتا هل تشعُرِين بحالي
 معاذَ الهوى ما ذُقتِ طارقةَ النوى ولا خَطَرْتُ منك الهمومُ بيالٍ^(١)
 أتحمِلُ محزونَ الفؤادِ قوادِمُ على غُصْنِ نائى المسافةِ على^(٢)
 أيا جارتا ما أنصفَ الدهرُ بيننا تعالَى أقاسمُك الهمومَ تعالَى
 أضحك مأسورٌ وتبكي طليقةٌ ويسكت محزونٌ ويندبُ سالى
 لقد كنتُ أولى منك بالدمعِ مُقلَّةٌ ولكنَّ دمعى فى الحوادثِ غالى

وقد أثار نواح هذه الحمامة بمرأى منه ومسمع الشجون في نفسه ، ويُعيدها من نوى وفراق كفراقه وغربة كغربته وهموم كهومومه . ويتساءل هل تحمل قوادم هذه الحمامة فؤادا محزونا ؟ ويقول إن الدهر لم ينصف بينهما ويتساءل كيف يضحك أسير فقد حرته وتبكي حرة طليقة ؟ بل كيف يسكت محزون ويخرس لسانه وتندب سالية ندبا متصلا ؟ ولا يلبث أن يقول لها : لقد كنت أولى منك بالبكاء بكاء لا تنقطع دموعه بل تظل منهمة ، غير أن دمعى فى الحوادث والنكبات غال لا يسيل أبدا ، وإنه ليتجشَّم أثقالها ويتحملها فى قوة . وشعر أبى فراس وراء رومياته يكتظ بالفخر

(٢) القوادم : ريشات أربع كبار فى مقدم الجناح

(١) النوى : الفراق

والحماسة ، وله قصيدة رائية في ٢٢٥ بيتا فخر فيها فخرا مضطرا بمناقب أسلافه الحمدانيين وأيامهم في الإسلام وما شادوه من إماراتهم في الموصل وحلب . وشعره - بحق - يُضرم الحمية في النفس العربية .

عرقلة^(١)

هو حسان بن نمير الكلبي الدمشقي ، ولد سنة ٤٨٦ و حفظ القرآن صغيرا ثم اختلف إلى حلقات العلماء ، ولم تلبث ملكته الشعرية أن تفتحت ، فغدا بشعره على أبواب حكام دمشق يمدحهم وينال جوائزهم . وكان لأسرة طغتكين نصيب كبير من مديحه ، وخاصة آبق آخر حكامهم لدمشق قبل استيلاء نور الدين أمير حلب عليها . ويبدو أن الرحلة كانت محببة إليه ، إذ نراه يرحل إلى حلب ويفقد إحدى عينيه في تلك الرحلة ، ولذلك لقبه معاصروه بعرقلة الأعور ، ورحل إلى الموصل وبغداد ونزل في قلعة جعبر ومدينتي آمد وماردين . وزار مصر وبقى بها مدة وتوثقت الصلة فيها بينه وبين الوزير طلائع بن رزيك وكان شيعيا أماميا ، وله فيه طائفة من المدائح ، ويذكر له في إحدى مدائحها أنه شيعي قائلا :

أنا من شيعة الإمام حسينٍ لستُ من سنة الإمام يزيدٍ
فهو ليس سنيا ممن ارتضوا يزيد بن معاوية قاتل الحسين إماما لهم ، بل هو شيعي من أنصار الحسين . وعاد إلى دمشق وكانت تابعة لنور الدين ، وكان أيوب بن شاذي وأخوه أسد الدين شيركوه وابنه صلاح الدين في مقدمة حاشية نور الدين ورجاله ، وتولى بعضهم شئون دمشق وكان صلاح الدين على شرطتها فاتصل بهم يمدحهم وأسبغوا عليه عطاياهم ، وكان خفيف الروح فقربوه منهم واتخذوه نديما لهم في مجالس لهوهم وسمهم . وكان صلاح الدين من بينهم يوده ويصادقه ويُحضره مجالس أنسه . ووصفه العماد الأصبهاني حينئذ فقال : « لقيته بدمشق شيخا خليعا ربعة مائلا إلى القصر أعور مطبوعا حلو المنادمة لطيف النادرة معاشرًا للأمراء ، شاعرا مستطرف الهجاء ، لم يزل خصيصًا بالأمراء السادة بني أيوب ينادمهم ويداعبهم ويطايبهم قبل أن يملكوا مصر ، والملك الناصر صلاح الدين يوسف أشغفهم بنكته ، وأكلفهم بسماع نتفه ، وله فيه

والشذرات ٢٢٠/٤ وقد طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ديوانه .

(١) انظر في عرقلة الدمشقي وشعره الخريدة (قسم الشام) ١٧٨/١ وقوات الوفيات والنجوم الزاهرة ٦٤/٦

مدائح ، ولديه منه منائح . وكان صلاح الدين وعده أنه متى ملك مصر يعطيه ألف دينار ،
ووفى له بوعده غير أنه لم يلبث أن وافاه القدر سنة ٥٦٧ .
ويبدو أن عرقلة كان في أوائل حياته يقصد أوساط الناس ، ومدح شخصا مرة فأعطاه شعيرا .
فغضب ، وأنشد ما مر ذكره من قوله :

يقولون: لِمَ أرخصتَ شعركَ في الوريِّ فقلتُ لهم إذ ماتَ أهلُ المكارمِ
أجازي على الشُّعرِ الشَّعيرِ وإنَّهُ كثيرٌ إذا استخلصته من بهائمِ

واشتهر في زمنه بأنه هجاء كبير ويقول العماد - كما أسلفنا - إنه كان مستطرف الهجاء ، إذ كان
يحاول فيه التندير إضحكا كما لسامعه وجلبا لسروره ، كقوله في مغن ضارب على العود لم يعجبه
صوته ولا ضربه وتلحينه :

على	صَوُّهُ	سَوِّطُ	علينا	لا على	الفرسِ
وجملة	ضربه	ضربُ	لمدِّرعِ	ومُـ	الفرسِ
يقول	السامعون	له	رماه	الله	بالخرسِ
وخذُ	ياربُّ	مهجته	إذا غنى :	(خذِي	نفسى)

فهو لا يجعل صوته يصلكُ الأسماع فحسب ، بل يجعله يكويها كي السياط للخيل ، أما ضربه
فكانه ضرب حقيقى يضرب به دروعا وتروسا لا ألقانا تُشجى السامعين وتطربهم ، مما يجعلهم
يدعون عليه بالخرس بل بالموت حين يغنى ، وكان بالصدفة يغنى مقطوعة أولها : « خذِي
نفسى » . ويقول لبعض مهجويه :

لك	وجهٌ	كانه	ال	بدرٌ	لكن	إذا	كُسفُ
وقوامٌ	كانه	ال	غصنٌ	لكن	إذا	انقصُ	
وبنانٌ	كانه	ال	بجر	لكن	إذا	نَشِفُ	
وأبٌ	أكذبُ	الأنبا	م	ولكن	إذا	حَلَفُ	

وهو في الأبيات الثلاثة الأولى يبدأ بالمدح لكن لا يلبث أن يمحوه بل أن يرده عليه هجاء
واقذاعا شديدا ، فهو صاحب وجه كاسف وقوام قصير منقصف وبنان شحيح لا يقتر بأى خير ،

أما أبوه فكذاب أشر . وكان بدمشق في زمنه طيب يسمى أبا الحكم تصادف أن وقع ليلا فانشتر جفنٌ إحدى عينيه ، وكان هذا الطيب كثيرا ما يرثى من يموت فقال عرقلة متندرا عليه :

لنا طيبٌ شاعرٌ أشترٌ أراحنا من شخصه الله
ما عادَ في صُبْحَةٍ يومٍ فتى إلا وفي باقيه رثاء

فهو يدعو عليه بالموت حتى يريح العباد منه ، إذ لا يعود ولا يزور أحدا صباحا حتى يكتب له قصيدة رثاء مساء . فهل وراء ذلك شؤم يتمنى الناس الخلاص منه . وكان يُقذع أحيانا في هجائه ، حتى في الموت . ويقول في رثاء بعض خصومه :

لقد حَسَنْتَ به اليومَ المرأى كما حَسَنْتَ به أمس الأهاجى
ولكنْ لَجَّ في شتمِ البرايا وكان القتلُ عاقبةَ اللجاج

وهي شماتة تدل على أنه كان عدوانى المزاج ، وله رثاء لاذع لبعض المجان ، يقول فيه إن دنان الخمر وكثوسها وقيانها المغنيات يبكيه بكاء مرا .

أسامة^(١) بن منقذ

هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكلبي ، من أعلام بني منقذ أصحاب قلعة شيزر إلى الشمال من حِجَاة ومن علمائهم وفرسانهم . ولد لأبيه سنة ٤٨٨ وقد عنى بتعليمه وتدريبه على الفروسية وأتقنها سريعا ، ولقى - وهو شاب - في صيده أسدا فصرعه . ويقال إن أباه كان رجلا صالحا فترك إمارة القلعة لأخيه سلطان ولم يكن له ولد ، فتبني أسامة وأخذ يعده للإمارة بعده . وكان اسم عماد الدين زنكى قد أخذ في التآلق منذ استيلائه على حلب سنة ٥٢٤ فالتحق به أسامة وأبلى بلاء حسنا في حروبه ضد حملة الصليب ، حتى إذا أغاروا على شيزر سنة ٥٣٢ عاد إليها مسرعا ودافع عنها دفاعا مستميتا حتى ارتدوا على أعقابهم خاسئين . وبمقدار فرحه

والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء (الطبعة الأولى بالقاهرة) ٢٧/٣ و امرأة الجنان ٤٢٨/٦ وشذرات الذهب ٢٧٩/٤ وديوانه طبع بالقاهرة . وراجع كتابه الاعتبار (نشر جامعة برنستون) وفيه معلومات كثيرة عن سيرته وحياته . وطبع له في القاهرة لباب الآداب وكتاب المنازل والديار .

(١) انظر في أسامة وشعره تهذيب تاريخ دمشق لابن عساکر ٤٠٠/٢ ومعجم الأدباء ١٨٨/٥ والخريدة (قسم الشام) ٤٩٩/١ والنجوم الزاهرة : الجزءين الخامس والسادس في مواضع متفرقة (انظر الفهرس) والبدایة والنهاية لابن كثير ٣٣١/١٢ والسلوك للمقرئى ١٢٥/١

بالنصر كان حزنه على أبيه إذ علم أنه توفي في العام السابق لتلك المعركة. وصمم على المكث في مسقط رأسه لحمايته غير أن عمه لم يتركه طويلا ، فقد أمره هو وإخوته بالرحيل عن القلعة ، ففرقوا في البلاد . ومضى أسامة إلى دمشق ولقيه حاكمها معين الدين أنر مدير دولة أولاد طُغْتِكِين لقاء حسنا ، وظل الجوبينها صافيا حتى سنة ٥٣٩هـ. إذ اكفهرَّ الجو ولم يجد أسامة بُدًّا من مفارقة دمشق . فرحل إلى القاهرة. ومعه أمه وزوجه وأبناؤه وأخوه محمد ، وكان الخليفة الفاطمي حينئذ الحافظ (٥٣٤ - ٥٤٤ هـ) فأكرمه وأمر له بإقطاع سنِّيٍّ عاش به حياة رَغْدَة .

وخلف الحافظ ابنه الظافر (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ) واتصل إكرامه وإكرام وزيره العادل بن سلار لأسامة ، ويقول المؤرخون إنه لم يف للعادل ، فقد أوغر صدر عباس الصنهاجي ابن زوجته عليه فقتله وخلفه على الوزارة . ولم يلبث أن أوغر صدر عباس وابنه نصر على الخليفة الجديد الظافر فقتلاه . وتطورت الأمور فتولَّى الفائز بن الظافر الخلافة وهو صبي يجوب في الخامسة من عمره ، وكاتب أهل القصر طلائع بن رُزَيْك الوالي بالصعيد ، فقدم في جيش إلى القاهرة ، وهرب عباس وابنه نصر وأسامة ، وولوا وجوههم إلى الشام . وأسرت أخت الظافر ، فكتبت إلى حملة الصليب بعسقلان - وكانوا قد استولوا عليها حديثا - تعدهم بأموال طائلة إن هم ردوا إلى القاهرة - الوزير وابنه نصرا ، والتقوا بهم وواقعوهم ، فقتل عباس ، وُردَّ نصر إلى القاهرة ، وفرَّ أسامة في نفر معه إلى دمشق . وحاول أسامة أن يوثق صلته بحاكمها الجديد نور الدين الذي استولى عليها في سنة قدومه سنة ٥٤٩ هـ ، ويبدو أنه كسب حينئذ رضاه ، وكاتب طلائع بن رزيك الوزير بمصر ليرسل إليه أسرته ، فأرسلها بحرا غير أن سفينتها أصابها عطب في مياه عكا وكانت مع الصليبيين ، فنهبوا كل ما كان مع الأسرة من مال ومتاع ، وتجمشت الأسرة كثيرا من الصعاب حتى وصلت دمشق وكان لذلك أثر أليم في نفس أسامة .

ونزلت بأسامة في سنة ٥٥٢ هـ فاجعة أشد هولا ، إذ دمرت الزلازل قلعة شيزر وأتت عليها ونزح عنها أهله وتشتتوا في البلاد ، وتملكها نور الدين خشية عليها من حملة الصليب ، ويبدو أن أسامة كان يأمل أن يرد نور الدين الحصن عليه وعلى أسرته ، ولعل ذلك ما جعله يقول فيه :

سلطاننا زاهدٌ والناس قد زهدوا له فكلُّ على الخيرات منكمشُ
أيامه مثلُ شهر الصومِ طاهرةً من المعاصي وفيها الجوعُ والعطشُ

أما أن أيام نور الدين البطل المغوار مدوَّخ الصليبيين طاهرة فهذا صحيح إلى أقصى حد ، وأما

أن فيها الجوع والعطش فغير صحيح إذ فيها غنائم لا تحصى أخذت قهراً من حملة الصليب ، وفيها غير بلد عربي رُدَّ منهم إلى أهله . وقد شارك هو نفسه نور الدين في بعض انتصاراته عليهم ، وحضر معه حصاره لحصن حارم سنة ٥٥٩ للهجرة . وأدته موجدته - في رأينا - من نور الدين إلى أن يبرح دمشق إلى حصن كَيْفًا بالموصل ويتخذها دار مقام له ، وفيها يعكف على جمع ديوانه وتأليف كتبه ، حتى إذا استولى صلاح الدين على دمشق سنة ٥٧٠ استدعاه . ولَبَّاه مَبْتَهِجَا ، فأعطاه دارا بدمشق وإقطاعا لمعاشه وفسح له في مجالسه ، حتى إذا كانت سنة ٥٨٤ للهجرة لَبَّى نداء ربه عن ستة وتسعين عاما .

ورتب أسامة ديوانه على الموضوعات ، فباب للغزل وباب للمديح وباب للشكوى وباب للفخر وباب للوصف إلى غير ذلك من أبواب ، ولم يفرد للجهاد بابا وكأنه ترفع عنه إباء واحتشاما وحياء . وأهم أبواب شعره باب الفخر ، إذ كان فارسا شجاعا ، وشارك في حرب حملة الصليب منذ شبابه دفاعا عن مسقط رأسه ، وجلَّى في معارك عماد الدين زنكي ضدهم ، وكأنه ظل طوال حياته شاهرا سيفه في وجوههم حتى بلغ السبعين ، يقول :

لخمسَ عشرةَ نازلتُ الكُماةَ إلى أن شِيتُ فيها وخيرُ الخيلِ ما قرَّحا (١)
أخوضها كشهابِ القذْفِ مبتسا طَلَقَ الحَيَا وَوَجْهَهُ الموتُ قد كَلَّحا (٢)
بصارمٍ من رآه في قَتَامٍ وَغَى أفرى به الهامَ ظن البرقَ قد لحا (٣)
فَسَلْ كُماةَ الوغَى عني لتعلم كم كربٍ كَشَفْتُ وكم ضيقٍ بيَ انْفَسَحا

فهو قد نازل كُماة الحرب أو شجعانها منذ سنته الخامسة عشرة ، وظل ينازلهم حتى اشتعل رأسه شيئا لا يبين ولا يضعف بل تشتد قواه كما تشتد قوى الخيل حين يعلو سنها وتصبح قارحة مستمة سنوات فحولتها . وإنه ليخوض أهوال الحرب كشهاب ساطع باسم الثغر متهلل الوجه وقد كشر الموت عن أنيابه . وإن سَيْفَهُ ليلمع في غبار الحرب - وهو يحطم به الرءوس حطما - كبرق يسطع ، وما من شجاع إلا وهو يعلم كثرة ما كشف من كرب وهموم في الحرب وكثرة ما انفصح له فيها من مضايق ومازق . ومن قوله في تنكيله بحملة الصليب في غير موقعة :

(١) الكُماة : الشجعان . قرح الفرس : بلغ الخامسة من عمره

(٣) قَتَامٍ وَغَى : غبار حرب . أفرى الهام : أشق الرءوس

(٢) طلق الحيا : مستبشر الوجه . كلح : عبس

كم قد أبدتُ بسيفي كلَّ مفتخرٍ حامى الحقيقة يومَ الجَحْفَلِ اللَّجْبِ (١)
 وكم تركتُ بنى الإفرنجِ في رُعبٍ فصرتُ أَدْعَى لديهم جالبَ الرُعبِ
 وكم جرت إليهم جَحْفَلًا لَجِبًا بالسَّابِرِيَّةِ والمَازِيِّ واليَلْبِ (٢)

وهو يقول إنه كثيرا ما قضى قضاء مبرما على كل شجاع يفخر بشجاعته حاميا حمى أهله يوم
 النزال الطاحن . ويقول إنه كثيرا ما أنزل الرعب في قلوب حملة الصليب حتى سموه - جزعا -
 جالب الرعب ، وكم قاد إليهم جيوشا غفيرة شاكية السلاح تقتلهم وتسفك دماءهم . ويقول :

سَلُّ بِي كَمَاةَ الرُّوعَى فِي كُلِّ مَعْرَكٍ يَضِيقُ بِالنَّفْسِ فِيهِ صَدْرُ ذِي البَاسِ
 يُنْبِئُوكَ بِأَنِّي فِي مَضَابِقِهَا ثَبْتُ إِذَا الخُوفُ هَزَّ الشَّاهِقَ الرَّاسِي

فهو يجلّى في المعارك حامية الوطيس التي تبلغ فيها الروح الحلقوم ويرى الكماة فيها الموت
 نصب أعينهم ، فإنه حينئذ يشق الجاهم ويدق الأعناق رابط الجأش ثابت الجنان حتى حين يهز
 الخوف والفرع الجبال الرواسي من الكماة العتاة .

ولأسامة قصيده نظمها على لسان نور الدين مفاخرها معددا لانتصارات البطل على حملة
 الصليب وتمزيقه لصفوفهم وقد بلغت أكثر من تسعين بيتا وفيها يقول :

أَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَنَا الأَمْرُ لَتَحْيَا بِنَا الدُّنْيَا وَيَفْتَخِرَ العَصْرُ
 جَعَلْنَا الجِهَادَ هَمًّا وَاشْتَغَلْنَا وَلَمْ يُلْهِنَا عَنْهُ السَّمَاعُ وَلَا الحَمْرُ
 بِنَا أُيِّدَ الإِسْلَامُ وَازداد عِزَّةً وَذَلَّ لَنَا مِنْ بَعْدِ عِزَّتِهِ الكُفْرُ
 بِنَا اسْتَرَجَعَ اللهُ الهِلَادَ وَأَمَّنَ ال عِبَادَ فَلَا خُوفَ عَلَيْهِمْ وَلَا قَهْرُ

وحقا كان نور الدين مفخرة للعصر في ذلك قلاع الصليبيين وحصونهم ، وبه استرجع كثير من
 بلاد الشام وأمن فيها الناس ، ووضع المكس أو الضرائب عن التجار وانتعشت الحياة وازداد
 الإسلام عزة . ونور الدين - بلدون ريب - هو الذي هيا لصلاح الدين حكم مصر وانتصاراته
 المدوية على الصليبيين واسترجاعه القدس الطاهر وتقليمه لأظافرهم . ويقول أسامة حين أقعدته
 سنواته السبعون عن الاشتراك في نزال الصليبيين ووهنت منه رجلاه وقواه ، فلم يعد يستطيع

(١) حامى الحقيقة . حامى الحمى . الجحفل . اللجب : الجيش الكثيف كثير الضجيج
 (٢) السابرية : الدرع المحكمة النسج . الماذي : السلاح . اليب . الترس .

ركوب الخيل ليكون له شرف النضال عن حمى وطنه :

رجلاى والسبعون قد أوهنتُ قواى عن سعى إلى الحربِ
 وكنت إن ثوبَ داعى الوغى لبَيْتُه بالطَّعنِ والضُّربِ (١)
 أشقُّ بالسيفِ دُجى نَقَعها شقُّ الدياجى مُرسلُ الشُّهبِ (٢)
 أنازلُ الأقرانَ يُرديهمُ من قبلِ ضربي هامهم رُعْبى (٣)

فقد وهن عظمه وضعفت مئته ، ولكن لاتزال روحه قوية ، وإنه ليذكر ماضى فروسيته المشرف وكيف أنه كان حين يدعو الداعى للحرب يبادر إليها يطعن ويضرب يمينا وشمالا يشق الرءوس فى مثار النقع وغبار الحرب شق الشهب لحجب الظلام فاتكا بالأقران ، بل إن رعبهم منه ليفتك بهم قبل سيفه فتكا ذريعا .

ابن (٤) عَنِين

هو محمد بن نصر بن الحسين المشهور باسم ابن عَنِين ، يرجع بنسبه إلى الأنصار ، نزل أجداده الأولون الكوفة ، وتركها أسرته إلى زَرْعٍ في حوران بالشام . وهاجر منها أحد أجداده الأقربين واستقر فى دمشق ، وفيها ولد لإبيه سنة ٥٤٩ للهجرة ، وكان منزله جنوبي الجامع الأموى ، فبعد أن حفظ القرآن أخذ يختلف إلى شيوخه وفى مقدمتهم الحافظ أبو القاسم بن عساكر . وكان فطنا ذكيا وسرعان ما جرى الشعر على لسانه وهو فى السادسة عشرة من عمره . ولا نعرف الأسباب التى جعلته يتجه بشعره فى بواكير حياته إلى الهجاء ، ربما كان عدوانيا بطبعه ، وربما رجع ذلك إلى أنه نشأ فى أسرة متواضعة ، وأن أباه لم ينشئه على حب الخير والشعور بالمرءة والكرامة والرغبة فى التسامى وطلب المعالى ، وقد صرَّح بذلك فى بعض شعره قائلا فيه :

وجئبني أن أفعلَ الخيرَ والدُّ ضئيلٌ إذا ما عُدَّ أهلُ المناسبِ

والنجوم الزاهرة ٢٩٣/٦ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى
 ٢٦٤/٨ ، ٣٩٨ ، ٤٦١ ومفرج الكروب لابن واصل
 ٢٨٦/٢ والشذرات ١٤٠/٥ ومقدمة ديوانه لمحققة الخليل
 مردم (نشر دار صادر بيروت) .

(١) ثوب : دعا
 (٢) النقع : غبار الحرب
 (٣) يردبهم : يهلكهم
 (٤) انظر فى ابن عنين وشعره ابن خلكان ١٤/٥ ومعجم
 الأدباء ٨١/١٩ والبداية والنهاية لابن كثير ١٣/١٣٨

بِعَيْدٍ عَنِ الْحَسَنِ قَرِيبٌ مِنَ الْخَنَا وَضَيْعٌ مَسَاعِي الْخَيْرِ جَمُّ الْمَعَايِبِ
إِذَا رَمَتْ أَنْ أَسْمُو صَعُودًا إِلَى الْعَلَا غَدَا عِرْقُهُ نَحْوَ الدَّيَّةِ جَاذِبِي

ويبدو أنه أراد بهجائه للناس الانتقامَ لضعة أسرته وأبيه ، ومن العجب أن صلاح الدين الأيوبي البطل المغوار الذي أذلَّ حملة الصليب ودفع جموعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه واستولى على بيت المقدس المعظم منهم وغيره . هذا البطل الذي احتل السويداء من أفئدة المسلمين حين استولى على دمشق وابن عنين في العشرين من عمره لم يبادر إلى مدحه ، بل على العكس عمد إلى هجائه هجاء مقذعا هو ووزيره القاضي الفاضل وكتبه عماد الدين الأصبهاني وغيرهما من كبار حاشيته ورجاله وفيه يقول :

سَلْطَانُنَا أَعْرَجٌ وَكَاتِبُهُ ذُو عَمَشٍ وَالْوَزِيرُ مُنْحَدِبٌ

وكان القاضي الفاضل أحدب وكان من خيرة الرجال وصفوة الكتاب الشعراء كما كان سيوسا حاذقا بتدبير الدول . وذاعت لابن عنين في دمشق قصيدة طويلة يقال إنها بلغت خمسمائة بيت سماها مقراض الأعراض ، وضجَّ الناس من لسانه وبهتانه ، ورفعوا شكواهم منه إلى صلاح الدين ، فأمر بنفيه عن دمشق ، فمضى على وجهه يحوب البلاد من الشام إلى العراق والجزيرة وأذربيجان وخوارزم وخراسان وما وراء النهر وغزنة ودخل الهند . ثم رحل إلى اليمن وحاكمها من قبل صلاح الدين أخوه طُغْتِكِين (٥٧٧ - ٥٩٣ هـ .) فوفد عليه ، وقدم إليه مداخحه فلقبه لقاء كريما وخفَّ على قلبه فاتخذته ندما ، وأخذ يكثر من مديحه وطغتكين يكثر من عطائه ، حتى أثرى ، وكثرت يده المال ، فرأى أن يستثمره ، وتحول تاجرا يتردد بعروضه بين اليمن ومصر في العقد التاسع من القرن السادس .

وكان العزيز عثمان بن صلاح الدين ينوب عن أبيه بمصر حتى إذا توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩ أصبح العزيز عثمان سلطانها ، ونرى ابن عنين يشكو منه لمطالبته بدفع ضريبة عن عروض التجارة التي يحملها إلى مصر ، ولا نعرف هل هذه الشكوى كانت في أيام نيابته عن أبيه أو في أيام سلطنته ، وهو فيها يهجوهُ بالشحِّ بينما يمدح عمه العزيز طغتكين بالكرم ، يقول :

مَا كُلُّ مَنْ يَتَسَمَّى بِالْعَزِيزِ لَهُ فَضْلٌ وَلَا كُلُّ بَرِّقٍ سُحْبَةٌ غَدِيقَةٌ (١)
بَيْنَ الْعَزِيزِينَ بَوْنٌ فِي فَعَالِهَا هَذَاكَ يُعْطَى وَهَذَا يَأْخُذُ الصَّدَقَةَ

(١) غدقة : غزيره المطر .

وهو هجاء لاذع للعزيز عثمان إذ يجعله - لشدة شحه - شحاذا يأخذ الصدقة . ويبدو أنه ظل بمصر بعد وفاة العزيز طفتكين سنة ٥٩٣ ومكث بها مدة انعقدت فيها صداقة بينه وبين شعرائها ، يقول ابن خلكان : « اتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاكهاة ومحاورات يروق سماعها ، ودخل في ذلك الوقت شرف الدين بن عنين فاحتفلوا به وعملوا له دعوات، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش». وتوفي العزيز عثمان سنة ٥٩٥ وتولى بعده أخوه الأفضل وتطورت الظروف وتحول ملك صلاح الدين في مصر والشام إلى أخيه الملك العادل ، فولّى على مصر ابنه الكامل وعلى دمشق ابنه المعظم عيسى . وحنّ ابن عنين إلى العودة إلى دمشق فأخذ يستعطف العادل أن يعود إليها وأذن له في العودة ولزم ابنه المعظم عيسى (٥٩٧ - ٦٢٤ هـ) يمدحه ، وقربه منه واتخذة بأخرة من أيامه وزيراً له ، حتى إذا توفي رثاه رثاء حارا . وأبقى له منزله. ابنه داود (٦٢٤ - ٦٢٦) وخلفه الأشرف موسى فلزم بيته واصطلحت عليه الأمراض ، وتوفي سنة ٦٣٠ عن ٨١ عاما .

والديوان موزع على أبواب المديح والرثاء والحنين إلى دمشق والوقائع والمحاضرات مما يتصل بظروفه والأحداث اليومية ، ثم الدعابة والتهكم والسخرية والألغاز والهجاء . وألحق محقق الديوان بتلك الأبواب مستدركا بما عثر عليه من شعر ابن عنين في كتب التاريخ والأدب . وهو في مقدمة شعراء دمشق بزمنه إن لم يكن سابقهم المجلّى ، إذ كانت ملكته الشعرية خصبة ، غير أنه استغلها أكبر استغلال في الهجاء مما جعل صلاح الدين ينفية - كما مر بنا - عن دمشق ، وحتى من أكرمه كان يهجوهم غير مراعاة فيهم إلا ولا ذمة ، إذ كان ما يلبث أن يعرض أيديهم التي امتدت لإكرامه ، من ذلك هجاؤه للسلطان العادل الذي فتح له أبواب دمشق ، إذ ما لبث أن قال فيه بعد دخولها :

إن سُلطاننا الذي نرتجيه واسعُ المال ضيقُ الإنفاقِ
هو سيفٌ كما يقالُ ولكنْ قاطعٌ للرسومِ والأرزاقِ

وكان العادل يلقب سيف الدين ، وأنقذه من تشتهه وضياعه في البلاد وردّه إلى دمشق حيية قلبه ومهوى فتّاده التي طالما تغنى بالحنين إليها ، ومع ذلك جزاه بالهجاء . وحقاً له فيه مدائح رائعه ، ولكن كان ينبغي أن يرد شيطان هجائه عن الإلمام بساحته . وأكرمه المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق إكراماً إلى أقصى حد حتى جعله نديمه ومؤنسه ووزيره ومستشاره ، ومع

ذلك لم ينج من هجائه إذ يقول حين ولاه مع البها بن أبي اليسر التنوخي أمر الرعية :

أرى ابن عيينٍ والبها مذ تولىا على الناس ولئى الخَيْرُ عن كل مُسلمٍ
فوالله ياعيسى بمن شئتَ منها لُعنتَ ولو كنت المسيحَ بن مريمٍ

وحقاً هجا نفسه معه ، ولكن هذا لا يعفيه من قسمة له بأنه لعن لتوليته هو وصاحبه . وهجا نفسه فى ديوانه غير مرة ، وكأنه يعيد لنا الخطيئة شاعر الهجاء القديم وهجاءه لنفسه ، وأيضاً فإنه استعار منه - كما مر بنا - هجاءه لأبيه . وأهداه طيب عيون - أو كما كانوا يقولون كحال - خروفاً هزيباً جداً فكتب إليه أهجية طويلة يقول فيها :

أتانى خروفٌ ما شككتُ بأنه حليفٌ هوى قد شفّه الهجرُ والعذلُ
إذا قام فى شمسِ الظهيرةِ خلتهُ خيالاً سرى فى ظلمةٍ ماله ظلُّ
فناشدته ما تشهى قال قتهُ وقاسمته ما شفّه قال لى الأكلُ
وظلُّ يراعيها بعينٍ ضعيفةٍ وينشدها والدمع فى الحدِّ منهلُّ
أتتُ وحياضُ الموت بينى وبينها وجادت بوصلٍ حين لا ينفع الوصلُ

والبيت الأخير لأعرابى وضعه بدقة فى موضعه من القطعة ، وقد جعل الحروف الهزيب نضراً عشق شفه الهجر واللوم ، ويقول كأنه خيال فى ظلام ليس له ظل ، وهى صورة بديعة ويستحلفه ما يشتهى فيقول قته أو عشب يابس وأحضرها له ، فظل يراعيها بعين ذابلة توشك أن تودع الحياة ودموعه منهلة على خدوده ، فقد أتته وهوى يكاد يلفظ أنفاسه . وجادت عليه بوصل لم يعد ينفعه فروحه فى الحلقوم .

ويصور ابن عيين بخيلاً شحيح النفس كان يدعو أصدقاءه مرة كل عام ضجراً متبرماً ، متمنياً أن لا تتكرر هذه الدعوة أبداً ، ومُدَّت المائدة وأخذ الأصدقاء يتناولون الطعام ، ويصفه ابن عيين حينئذ قائلاً :

عهدى به واليدُ اليمنى يكفُّ بها غرَبَ المدامعِ والأخرى على الكبدِ
يقول للخبز : لا يبعد مداك ولا أختى عليك الذى أختى على لُبِّدِ

ولبد آخر نسور لقمان فى قصة مشهورة ، وهذا الشحيح يستر غرب دمه بيد ويضع الأخرى

على كبده خشية تفتته داعيا لخبزه أن لا يأتي الدهر عليه كما أتى على لبد . وكان يهاجى رشيد الدين عبد الرحمن النابلسي ويزعم أنه صُفِعَ وأنه معتاد الصنوع دائما يقول :

تعجَّب قومٌ لصفعِ الرشيدِ وذلك مازال من دابِهِ
رحمتُ انكسارِ قلوبِ النُّعالِ وقد دَنَسوها بأثوابِهِ
فوالله ما صَفَعوه بها ولكنهم صَفَعوها به

وله أهاج كثيرة في القاضي الفاضل وكبار رجال الدولة بدمشق وجهابذة قضاتها وشيوخها ، وهو فيها أو على الأقل في بعضها يفحش إفحاشا شديدا ، مما دفعنا إلى إخلاء هذا الكتاب منها ، لا لفحشها فحسب : بل لأن ما يخلو منها من الفحش أيضا إنما هو افتراء وبهتان .

ابن^(١) النحاس

هو فتح الله بن النحاس الحلبي المعروف باسم ابن النحاس اشتهر بطوافه في البلدان الشامية والمصرية والحجازية ، كان جميل الصورة في صباه ومطالع شبابه ، ثم أصيب بمرض بدّل محاسنه وزهده في الحياة . ونراه في شعره ميرث تلك الأيام أسفا محزونًا ، ويقال إنه تزوّى بزى الزهاد ورحل عن بلده ، ودخل دمشق فاستقبله أدباؤها وشعراؤها استقبالا كريما . وكان لهم مجالس يتطرحون فيها الشعر ، وكانوا يجتمعون في نزه دمشق ، ويتحاورون ويتحدثون ويذكرون كثيرا من الدعابات والفكاهات . وانعقدت صلة متينة بينه وبين ابن منجك الذي تحدثنا عنه بين شعراء المديح ، وله فيه مدائح كثيرة . ورحل عن دمشق إلى القاهرة فوجد من أدباؤها أهلا ومكانا طيبا ، وهاجر منها إلى مكة ، وألقى عصا تسياره بالمدينة ، إلى أن توفي سنة ١٠٥٢ للهجرة . ويقول فيه المحبي في كتابه : نفحة الريحانة : « أنا لا أجد عبارة تفي في حقه بالمدح ، فأرسلت اليراع وما يأتي به على الفتح ، وناهيك بشاعر لم يطنّ مثل شعره في آذان الزمان ، وساحرٍ إذا أُشربتُ كلماته العقول استغنت عن الكئوس والندمان » .

وابن النحاس شاعر مجيد ، بالقياس إلى زمنه أيام العثمانيين ، وشعره استنفده في المديح ، ويكثر في مقدماته من الغزل ، وقد يفرع إلى الفخر بمثل قوله :

(١) انظر في ابن النحاس وشعره سلافة العصر ص ٢٧٦ وخلاصة الأثر ٢٥٧/٣ ونفحة الريحانة ٥٠٧/٢ .
وديوان ابن النحاس مطبوع قديما في بيروت بالمطبعة الأنسية .

ألا إن لي نفسَ الوقورِ وعَفَّةَ الـ تقديرِ وقلبي في المهماتِ قَلْبُ
وما كلُّ مَعْسولِ اللَّمَى يَسْتَفْزِنِي ولا كلُّ مطلوبٍ لَدَى مَحَبِّ (١)
وأحتملُ المكروهَ ممن يَمَلُّنِي ولم أَلِوْ جِيْدَ الوُدِّ عمن يَنْكَبُ
إذا أنا لم أدفع عن النفسِ ضَيِّمَهَا فلا انجَابَ عنها من دُجَا الضَّيِّمِ غَيْهَبُ
ولا وَطِئْتُ خَدَّ الفَيَافِي رِكَائِي ولا سَالَ حَزْنٌ بِالْمَطِيِّ وَسَبَّسَبُّ

وهو يقول عن نفسه إنه وقور عفيف قلب يحتمل في قوة للأمر ، ولا يستشير به جمال المرأة ولا يطلب ما يطلبه الناس ، بل يطلب الأمان الكبار ، ويحتمل الأذى ممن ينصرف عنه ، ولا ينصرف عمن يُعرض عنه من الأوداء الأصدقاء ، ويدعو على نفسه إن لم يدفع الضيم الساقط عليه أن لا ينجاب عنه دجاء المظلم ، وأن تن قواه فلا تطأ الفيافي ركائبه ولا يسيل بها حزن من الأرض ولا مفازة . ويقول من قصيدة ثانية :

يادهرُ مثلي لا يُقَدُّ قَلُّ عن سَنَامِ المجدِ جَنَبُهُ
أنا لا أبالي إن رُمِيْتُ سَبُّ وسبِّ عِرْضِي مَنْ أَسْبُهُ
العينُ يدميها الذُّبَابُ بُ وَيُعْجِزُ الآسَادَ ذَبُهُ
والتُّبْرُ يعلوه التُّرَابُ بُ وفضله باقٍ ولَبُهُ
تكني فتى العِرْفَانِ خِ لَأَنَا فضائله وكُتِبُهُ
وارقبْ خُفُوقِي إن سَكَدَ سَتُّ فعاصفي يُرْجِي مَهَبُهُ
والبدرُ يشرق في المطَا لِع بعد ما أخفاه غَرَبُهُ
والروضُ يذبل ثم تُكُ سَي النَّوْرَ والأوراقَ قُضْبُهُ

وهو يقول للدهر إن شيئاً لا يستطيع أن يزعزعه عن مكانه من سنام المجد ، وإنه ليرمي ، ولا يهيمه ما قد يلقي عليه من أذى السب والشتم ، مثله في ذلك مثل العين يدميها الذباب وحتى الأسد لا تستطيع ذبه ولا دفعه ومثل التبر يعلوه التراب وتظل له قيمته ونفاسته . ويفتخر بفضائله ومعارفه ، ويقول لخصمه : ترقب حركتي ، فإني كعاصف ساكن لا يلبث أن يثور ويندفع ، وما مثلي إلا كمثل البدر يخفيه مغربه ولا يلبث أن تم أضواؤه الآفاق ، أو كمثل الروض تذبل

(١) اللمى : سمرة حسنة في الشفة

أشجاره ، حتى إذا كان الربيع كسى غصونه الأوراق والأزهار الأرجة . ويقول :

لا أقبل الضيم كيف أقبله؟ والمجدُّ ياباه فيَّ والحسبُ
والشمسُ صَوْنًا لضوءِ طلعتها قبل لِحاقِ الظلامِ تحتجبُ

يقول إنه لا يقبل الضيم وكيف يقبله ومجد آباه وعشيرته يستدير من حوله هالة منيرة تحول بينه وبين الرضا بالهوان . وإنه ليصون نفسه وخصالها الكريمة كما تصون الشمس ضوءها ، بل إنها لتحتجب قبل أن يلحقها الظلام ويرخي الليل سدوله على الآفاق .

٣

شعراء المراثى والشكوى

المراثى قديمة في الشام منذ عصر بني أمية فقلما كان يموت خليفة أموى إلا ويرثيه الشعراء من الشام والعراق والحجاز ، ويدخل عصر الولاة ومنذ أواخر القرن الثاني تشارك الشام بقوة في الشعر العربي ، ولا يلبث أبو تمام الدمشقي أن يحمل راية الشعر وزعامته لا في الشام وحدها بل أيضا في العالم العربي جميعه ، وتحتل المراثى بابا كبيرا في ديوانه ، ويخلفه تلميذه البحترى المنبجى الحلبي المتوفى سنة ٢٨٤ للهجرة وتشغل المراثى حيزا كبيرا في شعره . وولتقى في أوائل هذا العصر : عصر الدول والإمارات يكشاجم . وله رثاء في أبيه وأمه ، وأروع من رثائه فيها رثاء أبي فراس لأمه حين جاءه نعيها في أسر الروم ، فأحس في عمق بفجيئته فيها وهو غائب عنها لا يملك إلا أن يذرف الدموع الحارة . وله مرثية بديعة في أخت له يقول فيها^(١) :

أتزعم أنك خدُنُ الوفاءِ وقد حَجَبَ التُّرْبُ من قد حجبُ
فإن كنت تصدقُ فما تقولُ فمُتْ قبل موتك مع من تُحبُ
وكنْتُ أقبلكِ إلى أن رمتكِ يدُ الدهر من حيث لا أحتسبُ
فلا سلمت مقلَّةً لم تُسحَّ ولا بقيت لِمَّةً لم تُشبُ
ولو رُدَّ بالرزءِ ما تستحقُّ لما كان لي في حياتي أربُ

وهو يمتنى لو غُيب التراب مع شقيقته وصنّو روحه حيا لها ووفاء ، ويأسى لنفسه أنه لم يستطع أن يرد عنها سهام المنيّة التي أصابتها في الصميم تحت بصره ، ولم يعد يملك لها إلا دموعا منهجرة ويتمنى أن لا يتوقف انهبأرها ، لعلها تشقى غلّة نفسه وحرقة قواده ويقول لو أن الرزء فيها يرد إلى أخيه الحياة لما كان له في حياته أرب ولتلتئم روحه فداء لها .

ولأبي العلاء مرثية رائعة لأمه ، وكان قد بلغه نعيها وهو في طريقه إليها من العراق ، ويقول في مطلعها إنه سمع يلداهية أصمّت أذنه وصكّت سمعه ، ويأسى أن تتقدمه إلى الموت ، ويُعظم أن يرثيها بلفظ يمر بلسانه ويسلك مسالك الطعام ، ويقول إن الفاظ رثائه تحطم نواجذ أضراره فضلا عن مقدم أسنانه ، وينشد^(١) :

وَمَنْ لِي أَنْ أَصَوِّغَ التُّهَيْبَ شِعْرًا قَالَيْسَ قَبْرَهَا سِنَطَى نِظَامِ
مَضَتْ وَقَدْ اكْتَهَلْتُ وَخَلْتُ أَنِي رَضِيعٌ مَا بَلَّغْتُ مَدَى الْفِطَامِ
فِيَارْكِبَ الْمَثُونِ أَمَا رَسُولٌ يَبْلُغُ رَوْحَهَا أَرْجَ السَّلَامِ
ذَكِيًّا يُصْحَبُ الْكَافُورُ مِنْهُ بِمَثَلِ الْمِسْكِ مَفْضُوضَ الْخِتَامِ

وهو يكبرها عن أن يرثيها بالفاظ ، إذ هي جديرة بأن يصوغ لها النجوم الساطعة عقود رثاء تزين جدتها الطاهر ، ونحس في عمق - وهو في سن الكهولة - كأن السنوات الطويلة التي فصلته عن صدر أمه من القصر ليست إلا أياما قصيرة إذ لا يزال يشعر كأنه رضيع فقد أمه ، وهو في حاجة شديدة إليها ، رضيع ضاع أي ضياع . ويتوسل إلى قوافل المنون التي تسرى في ليل الأبدية أن تحمل منه إلى أمه سلاما ذكيا عطرا يتشرأريجه من حولها ويسطع سطوعا . ويقول الماهر الدمشقي المتوفى سنة ٤٥٢ في مرثية له^(٢) :

بِرغمي أن أعترف فيك دَهْرًا قليلا فكره بمعنفيه
وأن أرعى النجوم ولست فيها وأن أظأ التراب وأنت فيه

ويقول الباخريزي تعليقا على البيتين : « هذا أرق ما يكون في المرأى ، إذ يكاد يفجر عيون الأحجار ، فتسيل بمدود الأتهار ، بل بأمواج البحار » .

وتنشب الحروب الصليبية ، وفي بعض حملات آبق أمير دمشق على حملة الصليب سنة ٥٠١

يخون الحظ قائدا من قواده يسمى قول بن عثمان ، فيقتله الصليبيون ، ويكيه ابن الخياط شاعر دمشق بمثل قوله (١) :

يَاللِّرِّجَالِ لِنَازِلِ لَمْ يُحْتَسَبْ وِلْحَادِثِ مَا كَانَ بِالْمَتَوَقَّعِ
تَاللَّهِ مَا جَارَ الزَّمَانَ وَلَا اعْتَدَى بِأَشَدِّ مِنْ هَذَا الْمَصَابِ وَأَوْجَعِ
يَا قَوْلُ قَوْلَةَ مُكَمِّدٍ مُسْتَنْزِرٍ مَاءِ الشُّونِ لَهُ وَنَارَ الْأَضْلَعِ
أَشْكُو إِلَى الْأَيَّامِ فِيكَ رَزِيَّتِي لَوْ تَسْمَعُ الْأَيَّامُ شَكْوَى مَوْجَعِ
صُلِّ بَعْدَهَا يَادَهْرُ أَوْ فَانْكُفْ وَخُذْ مَنْ شَتَّ يَاصْرَفَ الْمَنِيَةَ أَوْدَعِ

وهي مرثية رائعة تمتلئ بأبيات تصور لوعات الدمشقيين في هذا البطل وكارثتهم وفجيعتهم التي لا تماثلها فجيعة . وإن الشاعر ليستقل الدموع الغزار فيه وما وراءها من نار موقدة في الصدور كمدًا عليه ، وليُنزل الدهر بالدمشقيين بعدها فواجع أوفليكف ، فلن يصيبهم مثلها فاجعة أو كارثة .

وتوفي نور الدين محمود سنة ٥٧٠ هـ فاهتزت الشام لفقدته هزة شدة ، وفي رثائه يقول العماد الأصمباني في إحدى مرثيته (٢) :

يَا مَلِكًا أَيَّامُهُ لَمْ تَزَلْ لِفَضْلِهِ فَاضِلَةٌ فَآخِرَهُ
غَاصَتْ بِحَارُ الْجُودِ مَذْ غِيَّتْ أَنْمُلُكَ الْفَائِضَةُ الزَّآخِرَهُ
مَلَكْتَ دُنْيَاكَ وَخَلَّفْتَهَا وَسَرْتَ حَتَّى تَمْلِكَ الْآخِرَهُ

وتوفي بعده صلاح الدين بدمشق ، وكانت لوفاته أوائل سنة ٥٨٩ رنة حزن عميقة في جميع القلوب والديار لكثرة فتوحاته ، وقد أزاح الصليبيين عن صدر الشام وافتتح بيت المقدس ولم يبق معهم إلا عكا وأنطاكية وبعض حصون وبلدان قليلة ، وبكاه الشعراء وفي مقدمتهم عماد الدين الأصمباني ، وله فيه مرثية بديعة ختم بها كتابه البرق الشامي ، وفيها يقول (٣) :

أَيْنَ الَّذِي شَرَّفَ الزَّمَانُ بِفَضْلِهِ وَسَمَتْ عَلَى الْفَضْلَاءِ تَشْرِيفَاتُهُ

(١) ديوان ابن الخياط ص ٢١٣ والخريدة بداية

بالقاهرة) ٢٢٨/١ .

شعراء الشام ص ٢٠٩ .

(٣) انظر نهاية كتاب البرق الشامي للعماد والروضتين

٢١٥/٢ والنجوم الزاهرة ٦٠/٦

(٢) الروضتين لأبي شامة (طبع مطبعة وادي النيل

لا تحسبوه ماتَ شخصا واحداً قد عمَّ كلَّ العالمين مائة
لو كان في عصر النبيِّ لأُنزِلتْ في ذِكْرِهِ من ذكره آياته
ياراعياً للدين حين تمكنتُ منه الذئابُ وأسلمته رُعائه
فعلى صلاح الدين يوسفَ دائماً رِضوانُ رَبِّ العرشِ بل صلواتُهُ

وحقا حامى صلاح الدين عن الإسلام حماية هائلة ، عرضنا لها في حديثنا عن السياسة بالشام
ومصر ، حماية جعلته في الذروة من أبطال العرب الفاتحين ، مع ما عمَّره من المدارس والمساجد في
كل بلد بمصر والشام ، ومع كثرة ما وقفه عليهما من أموال ، ومع دولته الواسعة لم يخلف ملكا
ولا دارا ولا بستانا ولا مزرعة ، إنما خلف بطولةً أحنى لها حملة الصليب رءوسهم .
ولا يكاد يتوفى حاكم طوال هذا العصر ولا وزير ولا عالم ولا قاض إلا ويرثيه الشعراء ، من
ذلك قول الشهاب محمود في ابن صَصْرَى قاضي دمشق لأكثر من عشرين عاما المتوفى سنة ٧٢٣
للهجرة^(١) :

قاضي القضاة وَمَنْ حَوَى رُتْباً سَمَتْ عَنْ أَنْ تُسَامَ سَنَّا وَبَزَّتْ مَنْ سَعَى
شَيْخُ الشُّيُوخِ العارفين وَمَنْ رَقَى رُتْبَ السلوكِ تعبداً وتورُّعا
حاوى العلوم بما تفرَّق في الوَرَى إلا الذي منها إليه تجمَّعا

وطبيعي أن يصفه بالتقوى والورع والعلوم الشرعية والفقهِ بها فقها دقيقا . ويقولون إنه كان
يجمع بين الحسينين : المعرفة بالمنقول والبراعة في المعقول أو ما يحتاج إلى عقل وفهم وقياس
وبصيرة . ويلقانا رثاء كثير أيام العثمانيين ، من ذلك قول أحمد بن محمد الحسني الحلبي المتوفى سنة
١٠٥٦ في رثاء أخيه^(٢) :

رُزْمَةُ أَلَمٍ وحسرةٌ تتوالى ومصيبةٌ قد جَدَّتِ الآمالا
وفراقُ أَلْفٍ إن أردتُ تصبِّرا عنه أردتُ من الزمان محالا
كنا كعُصْنَى دَوْحَةٍ قطع الردى منها الأغصنُ الأَرطَبَ الميالا
أو كاليدِينِ لذاتِ شَخْصٍ واحدٍ كان اليمينَ لها وكنْتُ شمالا

وكان وتر الشكوى من الدهر والممدوحين والناس مشدودا في أحوال كثيرة إلى قيثارات الشعراء

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٢٢/٩

(٢) نفاحة الرحانة للمعجبى ٥٣٩/٢

يلحّنون عليه نوائب الدهر وتغافل للملوحين ويؤس حظوظهم في دنياهم وما يتجرعون من صاب
الدنيا وعلقمها المرير ، وما يبلون في الناس من الطمع والحقد والأقانية مما يوهي العلاقات حتى بين
الأقرباء ، وعملاً النفوس شقاء وعتاء والقلوب حسرات ولوعات ، من ذلك قول أبي فراس (١) :

أراني وقومي فرقتنا مذاهبُ وإن جمعتنا في الأصول المتاسبُ
فأقصاهم أقصاهم من مساعي وأقربهم مما كرهت الأقاربُ
غريبٌ وأهلي حيثما كرت ناظري وحيدٌ وحولي من رجال عصابُ
وأعظم أعداء الرجال ثقائبها وأهون من عاديته من تحاربُ

وهو يصور المحنة في الناس حوله ، فهم جميعاً قومه يرجعون إلى أصل واحد ونسب واحد ،
وأقربهم منه لا يحبون له الخير ، ويحبه له البعداء ، مما يجعله يشعر في عمق بالغرابة بين أهله وذويه
وعصاباته ، وهو ذلك ويقلقه ويفزعاه . وإنه ليوغل في فهم الناس فيشعر بغير قليل من قلق
النفوس وضيق الصدر ، فإن من يصادقك إنما يصادقك على الخداع ، وهو لذلك ليس صديقاً ،
بل هو أعظم أعدائك لأنك تأمنه وتجعله محل ثققتك ، وهو لا يريد لك خيراً بل يريد لك الشر
والأذى ، وهو لذلك أعدى أعدائك ، أما العدو الحقيقي فأنت تعالته العداوة وتجاهره بالحرب
والخصومة ، فلن يصيبك منه أذى لأنك محترس منه دائماً متى شره وحياتته وغدره . ومخاطب أبو
العلاء الدهر بقوله (٢) :

يادمرُ يامنجز إبعاده ومخلفَ اللأمول من وعده
أى جديدٍ لك لم تبله وأى أقراتك لم ترده
تستأثر العقبان في جوها وتترل الأعصم من قتله (٣)
إن زمانى برزاياه لى صيرتى أمرح في قده (٤)
أفضل ما فى النفس يعغالها فتستعيد الله من جنده
وربّ ظمان إلى موردٍ والموت لويعلم فى ورده

وهو يشكو من الدهر وأنه ينجز دائماً الإبعاد والإنذار بالشرور والخطوب ، ويخلف دائماً

(١) ديوان أبي فراس ٢٠/٢

(٢) سقط الزند ١٠١٢/٢

(٣) الأعصم : الوعل - الفتد : قفة الجبل

(٤) الفتد : ما يتقلد من الجلد ويشتد به الأسير

الوعد بالخيرات والطيبات ، وانه لياتي دائما على كل جديد وكل قرن يدعى أنه يماثله في القوة أو الشجاعة ، فالكل أسراه : العقبان في أجوائها العليا والعُصم أو الوعول في أعالي الجبال ، فلا أحد ينجو من صولته . ويقول إنه ألف رزاياه ونكباته حتى صارت قيدا أو قيادا له ولحياته ، وصار من طول ألقته لها يستحبها ويمرح فيها . ويعجب أن يكون أفضل ما في النفس من حواس البصر والسمع وغيرها يغتاله أو يهلكه ما سلط عليه من آفات الهوى ، ويجعلها كأنها جنود لله إذ تنتقم له من الإنسان بسوء سلوكه وأعماله . وهو لذلك يستعيد من شرها ، ويقول رب ظامئ إلى مورد يريد أن ينهل منه ، فيكون فيه هلاكة . ويقول أسامة بن منقذ^(١) :

حذرتني تجاربي صُحبة العا لم حتى كرهتُ صحبة ظلي
ليس فيهم خلُّ إذا ناب خطبٌ قلتُ مالي لدفعه غيرُ خلي
كلهم يبدلُ الودادَ لدى اليُسْرِ ولكنهم عِدِّي للمقلِّ
فاعتزلهمُ ففى انفرادك منهم راحةُ اليأسِ من حذارٍ وذلِّ

وقد بلغ أسامة من ابتلائه للناس واختبارهم أن أصبح يمقتهم ويمقت كل ما في العالم حتى ظله يكره أن يصحبه خوفا أن يكون فيه ما في الناس من عدم الوفاء وخيانة الصحبة . ويقول إنه ليس في الناس خل صادق العهد في النعماء والبأساء ، بل إذا نابت ضراء لم يسعفك ولم يساعدك ، إنما يعرفك في اليُسْرِ ، أما في العسر فلا يودك ولا يعرف لك طولا ولا فضلا ولا يسدُّ لك ثلثة ولا يقدم لك عوناً ، فاعتزل الناس وائأس من أن يردوا لك معروفا أو جميلا تعيش آمنا عزيزا . ويقول ابن عُنين في التَّشوق إلى دمشق بعد أن ظل منفيا عنها طويلا شاكيا محزوناً لغربته وما لقي فيها من ضنك العيش بعد أن طُوف في العراق وإيران وخراسان والهند واليمن^(٢) :

فَسَقَى دَمَشَقَ وَوَادِيَّهَا وَالْحِمَى متواصلُ الإرعادِ مُتَفَصِّمُ العرى
فَارَقْتُهَا لَا عَنْ رِضَى وَهَجْرَتِهَا لَا عَنْ قَلْبِي وَرَحَلْتُ لَا مَتَخِيرًا
أَسْعَى لِرِزْقٍ فِي الْبِلَادِ مَشْتَتٍ وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يَكُونَ مَقْتَرًا
لَا عِشْتِي تَصْفُو وَلَا رَسْمُ الْهَوَى يَعْفُو وَلَا جَفْنِي يَصَافِحُهُ الْكَرْى

فهو يدعو لدمشق - وكان يكثر من الحنين إليها - أن يسقيها سحاب متواصل الإرعاد

(٢) ديوان ابن عُنين ص ٤

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥٢٥/١

أو الإمطار ، منقصم العرى واهيه يهطل مدرارا . ويقول إنه برغمه فارقتها قسرا ، وهو إنما فارقتها لهجوه أهلها وإفحاشه في هجوه . ويقول إنه جاب البلاد يسعى لرزقه فكان لا يصيب منه إلا الكفاف وإلا ما يسد رمقه ، فرزقه دائما مقتر أو قليل ، وعيشته دائما نكدة ، وهواه معلق دائما بدمشق ودايما مسهد لا يلم بجفونه الكرى أو النوم لما ملكت عليه من شغاف قلبه .

وكان شعراء الشام وأدباؤه كثيرا ما يتزلون القاهرة في عهد الأيوبيين والمماليك ويحتون إلى الشام وبلدانه ورياضها الفيحاء شاكين من الغربة وأن عيونهم لا تكتحل بمناظر وطنهم ومشاهده الجميلة ، فضلا عن رؤية الأهل والأصدقاء . ونزل القاهرة ابن حجة الحموى صاحب خزانة الأدب المتوفى سنة ٨٣٧ وكان أحد ندماء السلطان المؤيد وولى عدة وظائف لعهدده ، ويقول متشوقا إلى بلدته حماة شاكيا غربته وطول فراقه لأهله (١) :

ياساكنى معنى حماة وحقكم من بعدكم ماذقت عيشا طيبا
أرض رصعت بها ثدى شيبتي ومزجت لذاتي بكاسات الصبا
وقد التفت إليك يادهرى بطو ل تعبى ويحق لى أن أعتبا
قررت لى طول الشتات وظيفه وجعلت دمعى فى الخدود مرتبا

وهو يشكو من غربته عن ملاعب صباه وشبابه وديار أحبائه فى حماة مسقط رأسه ، ويعاتب الدهر الذى قضى عليه بفراقها وطول تشتته بعيدا عن قره عينه ، وإنه ليبكيها بدموع غزار . ولذلك عاد إلى حماة بمجرد أن توفى السلطان المؤيد سنة ٨٢٣ للهجرة .

وتظل الشكوى من الزمان والناس طوال العصر ، ومرت بنا ترجمة لحسين بن الجزرى أيام العثمانيين ، وله يشكو شكوى مرة من الناس منشدا (٢) :

قد صرت أحترز الأنام وغدرهم إن الطبيب يخاف مس الداء
وقطعت باليأس الرجاء لديهم واليأس يجدع أنف كل رجاء
ولطالما أصفيت قبلك خلتي من لا أراه موافقا لإخائى
وبلوت منه وده فرأيتته متلوننا كتلون الحرباء

لقد جرب الناس طويلا فرآهم غادرين ماكرين لا يصونون عهدا ولا يحفظون ودا ، فيئس

منهم يأسا لا يداخله أى رجاء ، يأسا لا أمل معه فى وفاء ولا ما يشبه الوفاء ، فقد طالت تجربته وطال اختباره ورجع دائما خائبا بل رجح شاعرا بمرارة ، لرؤيته الصديق وقد تلون ألوانا كألوان الحزباء ، إذ تتلون فى ساعات النهار ألوانا مختلفة . فاتخذ منها مثلا لتلونه . ونقف قليلا بإزاء نفر من شعراء الشكوى والرتاء .

ابن سنان ^(١) الخفاجى

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبي تلميذ أبى العلاء المعرى ، وكان يتشيع وأنشدنا له فى حديثنا عن شعراء التشيع شعرا شيعيا ، ولا نعرف تاريخ ميلاده . ويبدو أنه أحب خوض معمعان السياسة إذ نراه فى حاشية محمود بن نصر بن صالح حين صار إليه أمر حلب سنة ٤٥٢ وقد بعث به رسولا إلى صاحب القسطنطينية ملك الروم يستنجد به على عمه عطية بن صالح ، وظل عندهم مدة وكتب إلى أهل حلب قصيدته المعروفة :

هذا كتابى عن كمال سلامةٍ عندى وحالٍ شرحها فى الجملة
همٌ وإقتارٌ وعمرٌ ذاهبٌ وفراقٌ أوطانٍ وبُعْدٌ أحيّةٍ

وعاد إلى حلب فى عهد أميرها شمال بن صالح سنة ٤٥٣ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه عطية واستولى عليها منه ابن أخيه محمود بن نصر سنة ٤٥٤ ورأى أن يولى فى كل قلعة من قلاع إمارته حلبيا بحيث تكون ذريته وأبناؤه تحت يده . وطلب من وزيره ابن أبى الثريا أن يختار له من يوليه « عَزاز » فقال : لا أجد لذلك إلا أبا محمد بن سنان الخفاجى وكان أبو نصر بن النحاس حاضرا فصوّب الرأى فيه ، فأحضره محمود ، وولاه قلعة عزاز بعد أن امتنع ، وأخيرا أجاب . وبعد سنوات خشيه ابن سنان على نفسه واستوحش منه ، فاستدعاه محمود مرارا إلى حلب وابن سنان يتعلل عليه ولا يحضر ، وكان أبو نصر بن النحاس صديقه فكان يكتب إليه يحذره . ومع ذلك اضطر - بأمر محمود - أن يحمل إليه طعاما مسموما وكان ذلك سبب موت ابن سنان سنة ٤٦٦ ويقال إنه لما أحسّ بالموت أنشد .

خَفَ مَنْ أَمِنْتَ وَلَا تَرَكْنِي إِلَى أَحَدٍ
فَمَا نَصَحْتُكَ إِلَّا بَعْدَ تَجْرِبِ

الزاهرة ٩٦/٥ وكتابتنا البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢ . وديوانه مطبوع بالمطبعة الأنسية ببيروت .

(١) انظر فى ابن سنان الخفاجى وشعره زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ، الجزء بين الأول والثانى (انظر الفهرس) وفوات الوفيات ٤٨٩/١ والنجوم

وكان مثقفا ثقافة أدبية وبلاغية علمية كما يتبين من وضعه لكتاب سر الفصاحة ، وهو كتاب نفيس . وديوانه مطبوع قديما ، ويكثر الرثاء فيه وهو يفتتحه بمرثية في الكاتب علي بن محمد بن عيسى العمري ، وكان عطية بن صالح يضطغن عليه لوقوفه مع محمود بن نصر في حصاره للحلب فقتله وصلبه ، وفي رثاء ابن سنان له يقول :

ومعدّلٍ جارٍ على غلوائه يُروى حديثُ نَداه عن أعدائه
عَجَلَتْ عليه يدُ الحِجَامِ وعوده رِيَّانُ من خَمَرِ الشبابِ ومائه
عَجَبًا لحدِّ السيفِ كيف أصابه ومضاهُوه في الرُّوعِ دون مَضائه
ولصعبٍ ملأَ الزمانَ هديرُه قاده بعد شِياسه وإيائه
إن يرفعوه فقد غنوا بعلائه أويشهُروه فقد كفوا بثنائه

وابن سنان يؤنن صديقه تأيينا حزينا قائلا : إنه كان بحرا فياضا في الجود وطالما كان الناس يلومونه ويروون أحاديث كرمه الذي شهد به أعداؤه . ويقول إن الموت اختطفه شابا غضبا نصرا ، ويعجب كيف أصابه السيف وعزمه في الحرب وسفك الدماء أقوى من عزمه . وقد كان صعب القيادة يهدر هدير الفحول ويزأر زئير الأسود . ويقول إن كانوا قد رفعوه في الصلب ، فقد أغناهم علاؤه في السماكين ، وإن كانوا قد شهروا به فقد امتلأت الدنيا بالثناء عليه .

وقال يرثي جماعة من أهله وأصدقائه :

أيها الظاعنون لازل للغيِّ سِ رواحُ عليكمُ وبكورُ
لستُ أرضى بالدمع فيكم فهل يمُّ لك رِيَّ البحورِ إلا البحورُ
قد رأينا دياركم وعليها أثرٌ من عُفاتكم مهجورُ
عَرَصاتُ كأنهن ليالٍ فارقتها عند الكمالِ البدورُ
بانَ ذلُّ الأسي عليها فللغيِّ سِ بكاءٌ وللنسيمِ زفيرُ
يانجومَ العُلا غرِبتم وما في اللِّ سيل من بعدكم نجومٌ تغورُ

وهو يدعو لأجداتهم أن تظل تمطرها السحب في البكور والرواح بل حرى أن تُروى البحور من فيها من مجور الكرم . ويقول إنه مرَّ بالديار فرأى آثار العفاة أو طلاب النوال قد هُجرت منذ مات أصحابها ، وقد أظلمت عرصاتُ وساحاتها بمغيب بدورها ، وبدا ذل الأسي والحزن عليها

والسحب تبكى بدمع مدرار ، وللرياح زفير وشهيق . ويقول لقد غربت نجومكم وما أظن بعدها في الليل نجوم تغور في سماء المجد والعلاء . وقال يرثى والدته حين توفيت بعد قدومها من حج بيت الله :

أبكيك لو نهضتُ بحقكُ أدمعُ وأقول لو أن النوائبَ تسمعُ
لا يُعْبَطَنَّ على البقاء مرزاً إن المودعَ إلفه لودعُ
قُبْحًا ليومكُ فالنوائبُ بعده جَلَلٌ وكلُّ رزيةٍ لا تَفْجَعُ (١)
لو كان ينفعني السلوُ نبذته أسفاً عليكُ فكيف إذ لا ينفعُ
عجباً لمن يُبقي ذخائرَ ماله ويظلُّ يحفظهن وهو مضجعُ
ولغاflٍ ويرى بكلُّ نَيْبَةٍ مُلْقَى له بَطْنُ الصَّفائِحِ مضجعُ (٢)
ياقبرُ فيك الصالحاتُ دفينَةٌ أفما تضيقُ بينَ أو تتصدعُ

وهو يقول إن أي دموع له لاتفى بحقوق أمه عليه وأي أنين له لاتسمعه النوائب ، ويقول إن أحدا لا يُعْبَطُ على بقائه ، فما تلبث رحي الموت أن تطحن الباقيين المودعين . وما أقبح اليوم الذي سمع فيه رزء أمه . فالنوائب بعده صغيرة والرزايا لا تفجعه ، ولو ينفعه السلو لسلا ، ولكنه لا ينفع أي نفع . ويعجب لمن يجمع المال وعماء قليل يضيع ، وللغاfl عن الموت وفي كل عطفة بطريق من طرقه مضجع معد له : حفرة وصفائحها من الحجارة . ويلتفت إلى قبر أمه ويعجب أنه لا يتصدع وفيه هذه الأم الكريمة . وفي ديوان ابن سنان وراء ذلك مدائح وغزليات وفيه عظات بديعة .

الغزّي (٣)

هو إبراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبى الغزّي ، ولد بغزّة في فلسطين سنة ٤٤١ للهجرة وبها نشأ وتعلم ، وسال الشعر على لسانه ، حتى إذا بلغ من عمره أربعين عاما دخل دمشق وسمع من شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وأقام بها في المدرسة النظامية سنين كثيرة ، ومدح ورثى غير مدرس ، ثم مضى إلى إيران وخراسان وامتدح بهما جماعة من الحكام والرؤساء . ويقول العماد الأصهباني في الخريدة : جاب البلاد وتغرب ، وأكثر التنقل والحركة وتغلغل في أقطار كرمان بفارس وأقطار

صفيحة وهي العريض من الحجارة والألواح .

(٣) انظر في الغزى وشعره الخريدة (قسم الشام) ٣/١

وما بعدها وابن خلكان ٥٧/١ والنجوم الزاهرة ٢٣٥/٥

(١) جلل : يأتي بمعنى عظيم ومعنى صغير حقير

فاللغة من ألقاظ الأضداد .

(٢) الثنية : الطريق والعطفة فيه . الصفائح جمع

خراسان . ومن مداحه ناصر الدين مُكْرَم بن العلاء وزير كَرْمَان ، وعماد الدين طاهر قاضي القضاة بشيراز . ثم أوغل شرقا منتقلا بين الحكام والقضاة والوزراء إلى أن توفي سنة ٥٢٤ بين مرو وبلخ بخراسان ، ونقل جثمانه إلى بلخ ودُفِن بها عن ثلاثة وثمانين عاما .

وكان شاعرا بارعا وأكثر شعره في المديح . وله غزل بديع أنشدنا منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل ، وبيت في أشعاره شكوى كثيرة ، إذ كان يحس دائما بغرته وأنه لا يأخذ من الدنيا ما يأمله . شاعرا بأن سوق الآداب كسدت وأن الاجواد المؤمنين قتلوا في البلاد ، وفي ذلك يقول :

قالوا هجرت الشعر؟ قلت ضرورة بابُ الدواعي والبواعث مُغْلَقُ
خَلَّتِ الديارُ فلا كريمٌ يُرْتَجَى منه النَّوالُ ولا مَليحٌ يُعْشَقُ
ومن العجائب أنه لا يُشْتَرَى ويُخَانُ فيه - مع الكساد - وَيُسْرَقُ

وهو لا يشكو من كساد الشعر فحسب . بل يشكو أيضا من أنه يسرق ، وباب السرقات الشعرية في النقد العربي باب واسع . ويقول العماد تعليقا على هذه الأبيات : « الغزى حسن المغزى وما يعز من المعاني الغر معنى إلا إليه يُعزى ، يُعنى بالمعنى ويحكم منه المبنى ، ويودعه اللفظ إيداع الدر الصدف ، والبدر السدف » ويورد طائفة من روائع أبياته منها قوله :

إني لأشكو خطوبًا لا أعينها ليرأ الناس من لومي ومن عذلي
كالشمع يبكي ولا يدري أعبرته من صحبة النار أم من فرقة العسل

فخطوبه كثيرة بحيث لا يستطيع أن يعين منها خطبا دون خطب ولا أن يعلل لخطب دون خطب ، فثله كالشمع لا يعرف هل يبكي من فرقة الرحيق أو من صحبة الحريق . ويقول شاكيا ضجرا من الأيام :

حملنا من الأيام مالا نُطيقه كما حمل العظم الكسير العصائب
وليل رجونا أن يدب عذاره فما اختط حتى صار بالفجر شائبا
فلا تحمد الأيام فيما تُفيده فما كان منها كاسيا كان سالبا

والصور في الأبيات بديعة ، فقد حمل من الأيام خطوبًا جعلته أشبه ما يكون بعظم كسير شددت عليه العصائب وهو يتصور ألما ، ويصور قصر الليل فما اختط عذاره الأسود حتى أسرع إليه الشيب . ويقول لا تحمد الأيام فيما تحمله إليك من نفع فإنها تنفث فيه سموما ، وكل ماتظنه منها

كاسيا يسلبك الكساء المظنون ، فإذا بك تعرّى حرمانا وابتئاسا . ويقول :

الحظُّ من جَوهرِ الأشياءِ سلّه ولا تسألُ من الله قَدًّا زانه الهَيْفُ
فالقوسُ في قبضة الرامي لعزتها والسهمُ من هونه يُرمى به الهدفُ
لم يُبق لي زمني شيئا أُسرُّ به فالحمدُ لله لافوزٍ ولا أسفُ
عرى أكابره من ثوب محمّدةٍ فالقومُ في السابغاتِ اللبسُ الكُشفُ
لم يقنعوا بحجاب البخل فاحتجبا كما غلا بعد سوء الكيلة الحشفُ
وإن جرى غلطٌ منهم بمكرمةٍ فيفضة العقر لا يُرجى لها خلفُ
أعجبُ بهم قطُّ في الآراء ما اتفقوا على صوابٍ وفي التقصير ما اختلفوا

فهو يشكو حظّه التعس وأن الإنسان حرى أن يطلبه من ربه لا أن يسأل حبا وما يشبه الحب ، فالحظ مدار الحياة وقطبها ، يرفع الأدنى ويخفض الأعلى ، وما أشبه الغزى بقوس عزيز في قبضة الرامي تصوب منه السهام الهينة فتصيب الهدف ، ألا ما أتعس الحياة ! . ويقول إن الزمن قضى على كل ما يدخل على نفسه السرور ، فلم يعد هناك شيء ينتظر أن يظفر به أو يأسف على ضياعه . ويقول إن الزمن عرى أكابره من ثياب المحامد ، وهم إن بدوا كاسين فحقيقتهم عارون مجردون من كل محمّدة ، وكأنما لم يكفهم حجاب البخل فاحتجبا عن الناس جامعين بين سوءتين ، كما يجمع بائع التمر بين حشفه أو أردئه وسوء كيله أو ميزانه . وإن غلط أحدهم وجاء بشيء كان ذلك بيضة العقر التي لا تبيض الدجاجة بعدها . ومن عجب أنهم لا يتفقون في الرأي على شيء سوى ما كان من بخلهم وشح نفوسهم . يقول :

وجفّ الناسُ حتى لو بكينا تعذّر ما تُبلُّ به الجفونُ
فما يندى لمدوحِ بنانٍ ولا يندى لمهجوِّ جبينِ

فالناس قد جفوا بعد خصب وإيناع وورد وريحان حتى لو بكى الباكون ما وجدوا دموعا تبلّ جفونهم ، إذ لم يعد هناك ممدوح يندى بنانه ، ويغدق على الناس نواله ، وأيضا لم يعد مهجوو بجيل يندى جبينه خجلا وكسوبا . ويقول :

حبلُ المنى مثلُ حبلِ الشمس متصلا يرى وإن كان عند اللّمسِ مَبتوتا

فلا تَقُلْ لَيْتَ صَرَفَ الدَّهْرِ سَاعِدُنِي فَإِنَّ فِي لَيْتٍ أَوْمًا يَقْطَعُ اللَّيْتَا^(١)

والصورة في البيت الأول بديعة ، فحبل المني كحبل الشمس مبتوت غير موصول ، فلا تقل أحداث الدهر ساعدتني فإن في ليت أوما أو عطشا شديدا دون ريه انبتات الليت أو صفحة العنق . فدع المني والتمني فإنها يتعبان ولا يثمران شيئا . ووراء هذه الشكوى من الزمن والناس في شعر الغزى مدائح وغزليات - كما قلنا - رائعة ، وهو ديوان كبير جمعه بنفسه في نحو خمسة آلاف بيت ، ومنه نسخ كثيرة في مكتبات العالم .

فتيان^(٢) الشاغوري

هو فتیان بن علی الأسدي الشاغوري وُلد في أوائل العقد الرابع من القرن السادس الهجري ببانياس على ساحل حمص ، وانتقل به أبوه صبيا إلى دمشق ، وسكن الشاغور إحدى ضواحيها حيثئذ وهي الآن من أحيائها ، وألحقه بكتاب حفظ فيه القرآن ، حتى إذا أمّ حفظه أكب - مثل لِداته - على دروس الشيوخ اللغوية والشرعية في الجامع الأموي ، وحين أتقن العربية وعلومها فكر في أن يصبح معلما لها ، يعلمها الناشئة ويديريهم عليها . واختار قرية الزبداني بالقرب من دمشق مقاما له لجمال الطبيعة فيها ، فسكنها واتخذ لنفسه كتّابا يعلم فيه الناشئة ، وله في هذه القرية أشعار بديعة تصور مفاتن الطبيعة فيها . ومنذ أخذ صلاح الدين في أواسط العقد الثامن من القرن يواقع الصليبيين ويسحقهم بجيشه المظفر نراه مثل غيره من شعراء الشام يشيد به وبانتصاراته في مدائح كثيرة . وكان صلاح الدين قد أعطى ابنه الأفضل نور الدين دمشق منذ سنة ٥٨٢ وظل بها بعد وفاة أبيه حتى سنة ٥٩٢ ، واتخذ الأفضل مودود بن المبارك - وهو أخو عز الدين فرخشاہ ابن عم الأفضل لأمه - شحنة دمشق أو بعبارة أخرى ضابطا لشئونها ومصرفا لها . ويلتحق فتیان بخدمة مودود . ويقول مترجموه إنه اتخذ له حلقة لتعليم العربية بالجامع الأموي ، ونظن ظنا أنه ابتدأها في أثناء تلك الخدمة أي منذ العقد التاسع من القرن السادس ، إن لم يكن بعد هذا التاريخ .

(١) أوما : عطشا شديدا . اللَّيْت : صفحة العنق .

(٢) انظر في فتیان الشاغوري وشعره الخريدة (قسم

الشام) ٢٤٧/١ وابن خلكان ٢٤/٤ والنجوم الزاهرة

٢٧٤/٦ ومطالع البدور للغزولي ٢٨/١ والشذرات

٦٣/٣ . وديوانه طبعه مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق

أحمد الجندي وتقديمه .

وكان فتيان يمدح مجانب صلاح الدين بعض قواده وكاتبه عماد الدين الأصبهاني والأفضل نور الدين وأتاه غازی صاحب حلب منذ أعطاها له أبوه سنة ٥٨٢ حتى وفاته سنة ٦١٣ . أما مودود بن المبارك فله فيه أكثر من عشرين قصيدة ، ويقول مترجموه إنه عهد إليه - فيما عهد - بتعليم أولاده الخط والعريّة . ونراه حين أصبح العادل مالك زمام الدولة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين يخصه ببعض مدائحه ويكثر من مديح وزيره المصري صفي الدين بن شكر ، ويبدو أنه كان يرسل إليه بمدائحه ، لأنه لم يغادر الشام طوال حياته . وكان العادل قد جعل دمشق لابنه المعظم عيسى ، وله فيه عشر مدائح ، كما أعطى العادل ابنه الأشرف موسى الرها والجزيرة وله فيه نحو خمس عشرة ملحة . ومدح كثيرين من البيت الأيوبي في مقلعتهم صاحب حياة تقي الدين عمر (٥٧٤ - ٥٨٧ هـ) أعطاها له عمه صلاح الدين ، ومدح صاحب بعلبك فرّوخشاه (٥٧٥ - ٥٧٨ هـ) وابنه بهرام شاه (٥٧٨ - ٦٢٧ هـ) . وعلى هذا النحو ظل يقدم مدائحه للأيوبيين حتى وفاته بدمشق سنة ٦١٥ . وقد أنشدنا له في حديثنا عن شعراء التشيع أشعارا تدل بوضوح على تشيعه . وطبعي - وهو شاعر مدح كبير - أن تكون له مراتي لمن لبى نداء ربه من ممدوحيه ، وخاصة من كان وثيق الصلة بهم ، وكذلك لكبار رجال زمنه وشيوخه وعلماؤه الأعلام . ومن أروع مراتيه مرثيته لشيخه الخافظ اللورخ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ ، ويقول العماد الأصبهاني إنها مشتملة على حقيقة الشيخ وطريقته ووفاته ووفاته ، وفيها يقول :

أى ركنٍ وهى من العلماء	أى نجمٍ هوى من العلياء
إن روضة الإسلام بالخافظ العا	لم أسمى من أعظم الأرزاء
أقوت بعده ربوع الأحاديث	حى وأقوت معالم الأنبياء
كان من أعلم الأنام بأسما	رجال الحديث والعلماء
كان علامةً وتسابيةً لم	يخف عنه شيء من الأشياء
أنت أعلى من أن تُحدّ بوصفٍ	بلغته بلاغة البلغاء

وفيان في المرثية محزون القواد مكيبر لتفجيرة دمشق في محدثها الذى لا يبارى ومؤرخها الذى لا يبارى . وهو في البيت الثانى يصور في ألم إقفار المدرسة التورية من محدثها الأكبر وإقواء أو إقفار دمشق من مؤرخها العظيم صاحب تاريخها الذى يقال إنه كان يقع في ثمانين مجلدا . وحقا كان من أعلم علماء عصره - إن لم يكن أعلمهم - بالحديث النبوى ورجالها وتاريخ دمشق وأعلامها من

مختلف الأجيال ، مع الحلم ومع التقوى والورع ، ومع ما ألقى عليه من محبة أهل زمنه وإجلالهم .
ويتوفى بعده في السنة التالية القاضي ابو الفضل كمال الدين محمد بن الشهرزوري وكان قد ولي
القضاء لعهاد الدين زنكي في الموصل ، وتوفى فالتحق بابنه نور الدين فولاه القضاء في دمشق
وارتقى عنده إلى درجة الوزارة ، وأقره صلاح الدين بعد وفاة نور الدين على عمله ومنصبه ، ولم
يلبث أن توفى . وفيه يقول فتيان من مرثية طويلة :

عدم الإسلام معدوم المثال وهوت من أوجها شمسُ المعالي
ولسانُ الشرع قد ألبسَ عيًّا بعد أن كان جريئًا في المقال
وسماءُ الدين قد ران على بدرها التَّقْصَانُ من بعد الكمال
والقضايا قاضياتُ نَحْبَهَا إثرُهُ حُزْنَا على تلك الخلالِ
ماتَ من كان لأهل العلم كَهْفًا وثمَّالًا مُحْسِنًا أَيُّ ثَمَّالٍ (١)

وهو يبكي الإسلام والقضاء وعلوم الشريعة فيه ، إذ كان له القضاء والفتوى كما كان له الفقه
والشريعة . وكانت له فضائل كثيرة بجانب علمه وفقهه ، إذ كان جوادا وغيثا مدرارا ، كما كان
مرجعا للعلماء - كما يقول فتيان - وثمَّالًا وسندا لهم وموثلا . ويتوفى تقي الدين عمر صاحب حَمَاة
فيؤبنه بمرثية يقول فيها :

أباحَ ثغورَ الكفرِ بالسيفِ عَنَوَةً وسدَّ ثغورَ السِّلمِ بالطَّعْنِ في الثَّغَرِ
وكيف يُلامُ المسلمون على الأسي وقد عدم الإسلامُ ناصرَه عُمَرُ
لقد كانَ يلقى المرهفاتِ بوجهه وسُمِّرَ القنا بالصِّدْرِ في الوِردِ والصِّدْرُ (٢)
وكان يردُّ الجَحْفَلَ المَجْرَّ وحده يَمْسُونُ بالأيدى الظهورَ من الخَوَرِ (٣)

وهو يشيد ببسالته في حرب حَمَاة الصليب ويصور حزن المسلمين عليه ، إذ خسروا فيه بطلا
من أبطالهم طالما دَوَّخ الصليبيين ، وطالما نازلهم راميا بنفسه في أتون الحرب مقبلا دائما معرّضا
وجهه للسيوف وصدره للرماح ، وكم ردّ من جحافلهم الكثيرة وولوا أديبارهم فرعين مروّعين .

ويتوفى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ، فيؤبنه بمثل قوله :
لن كان خَلَقُ الخَلْقِ من طينِ آدمٍ فمن نورِ خَلْقِ الله خَلَقُك يا غازي

(١) الثمَّال : الملجأ والغيث

(٣) الحجر : الكيف

(٢) المرهفات : السيوف . القنا : الرماح

فن لليتامى والأرامل بعده يقوم بإكرام عليهم وإعزاز
مضى ملكه المحروس من عيب عائب ومن عبث الزارى ومن عنت الزارى

وكان الغازى مهيبا حازما راعيا لشعبه يكسو العارى ويطعم الجائع على الهمة حسن التدبير
والسياسة ، محبا للعلماء ، مجزلا العطاء للشعراء ، فحصى ملكه - كما يقول فتیان - من عيب
العائب وزراية المزرى وعنت الرازى أو الممتحن المختبر .

ولفتیان بجانب مراثيه شكوى مريرة من الدهر والناس والحظ المقسوم كقوله :

علام تحركى والحظ ساكن ومانهت في طلب ولكن
أرى ندلاً تقدمه المساوى على حر تؤخره المحاسن

وهى شكوى قديمة عند الشعراء حين يقعد بهم الحظ ولا ينالون مايتمنون أو ما يرون أنهم
جديرون به . ويبلغ بهم ذلك أن يقولوا مايقوله فتیان من أن لافائدة فى الحركة وأن المساوى تقدم
أصحابها بينما تتأخر المحاسن بأهلها وهو بعد في الشكوى وإغراق فى التشاؤم .

مصطفى^(١) البابى

هو مصطفى بن عبد الملك - وقيل عثمان - البابى ، ولد بالبواب إحدى قرى حلب فى القرن
الحادى عشر الهجرى أيام العثمانيين ، ونشأ بحلب وتعلم على شيوخها وأدبائها ، وتركها إلى دمشق
سنة ١٠٥١ للهجرة وأقام بها مدة يأخذ عن أدبائها وشيوخها ، ورحل إلى إستانبول وأفاد من
علمائها وعين قاضيا لطرابلس وتنقل قاضيا فى بلدان الدولة العثمانية بالعراق والحجاز فى المدينة
المنورة ، وتوفى بمكة فى أثناء حجه سنة ١٠٩١ .

وكان البابى شاعرا مجيدا ، ويشغل المديح أكثر ديوانه على عادة الشعراء فى تلك الحقب ،
ويتخلل المديح أسراب من الشكوى . وقد يفرد للشكوى بعض القصائد ، من ذلك قوله من
قصيدة استهلها محزوننا لتحول عهد مية ، ويقول إنه مازال يبكى الأطلال حتى بكته بدمعها إشفاقا
عليه ، ويلتفت إلى الدهر شاكيا .

سنة ١٨٧٢ وطبع مع ديوان ابن الجزرى وفتح الله بن
النحاس باسم العقود الدرية بتحقيق الطباخ .

(١) انظر فى مصطفى البابى وشعره نفحة الريحانة
٤٣٣/٢ وخلاصة الأثر ٣٧٧/٤ . طبع ديوانه فى بيروت

أَيُّ ذَنْبٍ نَعَابِ الدَّهْرِ فِيهِ وَعَتَابُ الأَيَّامِ دَائِمٌ عُضَالُ
 أَنَا مَا بَيْنَ فِرْقَةٍ تَجْمَعُ السُّقْمَ حَمٌّ وَيُتَعَدُّ تَلْتَوِي بِهِ الأَجَالُ
 وَخَطُوبٍ أَلْفَتْهَا يَسْتَعِيدُ الدَّ خَوْفٌ مَتَاهَا وَتُدْعَرُ الأَهْوَالُ
 وَأَمَانٍ تَجَاذِبُ الدَّهْرَ ذَيْلَ الدَّ حِظٌّ وَاللَّهْرُ جَاذِبٌ جَدَّالُ
 هِمَّةٌ أَرَقَّتْ جَفُونَ الأَمَانِي بِوَعُودِ اللِّدَّهْرِ فِيهَا مِطَالُ
 أَمْتَنِي مِنَ الزَّمَانِ وَفَاءً وَوَفَاءُ الزَّمَانِ أَمْرٌ مِحَالُ

يقول إن ذنوب الدهر عنده كثيرة فلا يدرى لكثرتها ، أي ذنب يعاتبها فيه هل يعاتبها في فرقة الأحباب أو فيما ينزله به من خطوب يستعيد الخوف من شرها وتتفرع الأهوال . وتلك أمانيه ماتزال تجاذب الدهر ذيل الحظ تريد أن تجذبه إليها والدهر أشد جذبا ، بل إنه جدال يصرع من ينازعه ، وفي صدره همة تورق جفون الأمانى بما تعرضه عليها من وعود مايزال الدهر لا يبق بها ، وكان وفاءه أمر محال . ويقول من قصيدة يشكو فيها من الزمان :

صَاحِبِي أُنْبِيَا لَنَا خَارِجَ العَا لَمْ دَارًا فَيَسِّرَ دَارُ التَّرْحَامِ
 وَاصْدُقَانِي أَلْسَمَا بَيْنَ اللَّيْلِ وَنَهَارٍ مَالِي حَلِيفُ ظَلَامِ
 وَاسْتَعْبِرَا لِقَلْتِي هَجْمَةً عَدَّ لَمْ مَتَامِي يَعُودُ لَوْ فِي مَتَامِ
 مِنْ أَمُورٍ تَقْدِي العِيُونَ وَأُخْرَى تَصْدَعُ السَّمْعَ مِثْلَ وَخْرِ السَّهَامِ
 مَشْرَبٌ كُلُّهُ قَدِّي سَوْغَتَهُ إِفٌّ هَدَى النَّفُوسَ للأَجْسَامِ
 مِنْ أَرَادَ العَيْشَ الهَنَى فَلَا يُعَدُّ حَلُّ فِكْرَا قَالِ العَيْشُ عَيْشُ السَّوَامِ

وقد بلغ به ذم العالم وكل ما فيه من أناسي وغير أناسي أنه يود لو خرج من هذا العالم جميعه ، ويتساءل أليس يوجد مع الليل نهار بل إنهما يتعاقبان فلماذا هو يعيش في ليل مسهدا لا ينام ولا تغفل عينه ، فهل يجد هجمة أو لحظة من نوم حتى ولو في الخيال والتمام ، وهيات فإن الدنيا مليئة بما يقدي العيون ويصك الأسماع من آلام ، حتى لكانها مورد من غسلين أوزقوم ، وكل ذلك بسبب الأجسام وما تطلب من متاع مادي . ويقول من أراد أن يعيش هنيئا فلا يفكر ، فالعيش عيش الجهال ومن يشبهون السوام الراعية من الإبل . وكل ذلك تشاؤم شديد ، والغريب أنه كانت فيه مع ذلك كله نزعة صوفية جعلته يمدح القطب الرباني عبد القادر الجيلاني صاحب الطريقة الجيلانية فضلا عما في ديوانه من مدائح نبوية وتوسلات ربانية .

شعراء الطبيعة ومجالس اللهو

لشعراء الشام من قديم عناية بوصف طبيعة بيئتهم ومشاهدها الخلابية ، ومرت في كتاب العصر العباسي الأول عناية أبي تمام بوصف الطبيعة في مقدمات مديحه أو مستقلة في بعض أشعاره ، من ذلك وصفه للربيع ، وكذلك وصفه للطير وأحاسيسه ، على نحو ما عرضنا هناك من تصويره لُقَمْرِيٍّ وقَرِيَّةٍ يتساقيان رحيق الهوى ، بينما هو محزون شديد الحزن . ووقفنا في كتابنا العصر العباسي الثاني عند براعة البحترى في وصفه للطبيعة وكان يحسن تصوير مناظرها الساحرة . وولتقى في أوائل عصر الدول والإمارات بكشاجم وله كتاب في الصيد سماه المصايد والمطارد وهو منشور ، وله قصائد مختلفة في وصف كلاب الصيد وجوارح الطير وقصائد كثيرة في وصف الرياض والسحب والأمطار من مثل قوله :

غَيْثٌ أَتَانَا	مُؤَذِّنٌ بِخَفْضِ	مَتَّصِلُ الْوَيْلِ	حَيْثُ الرَّكُضِ
يَضْحَكُ فِي بَرْقِ	خَفِيِّ الْوَمُضِ	كَالْكَفِّ فِي	انْبِسَاطِهَا وَالْقَبْضِ
وَالْأَرْضُ تُجَلِّي	بِالنَّبَاتِ الْغَضِّ	فِي حَلْيِهَا	الْمَحْمَرِّ وَالْمَبِيضِ
وَأَقْحَوَانٍ	كَاللُّجَيْنِ مَحْضِ	وَنَرَجِسٍ ذَاكِي	النَّسِيمِ بَضِّ
مِثْلَ الْعَيُونِ	رَنَّتْ لِلْغَمُضِ	تَرْنُو وَيَغْشَاهَا	الْكُرَى فَتُغْضِي

وهو مطر متصل الويل يؤذن - كما يقول - بخفض العيش واتساعه ويسره والبرق يلمع بين السحب ويتوارى كالقفص تنبسط وسرعان ما تنقبض ، والأرض كأنها في حفل عرس تجلي بأزهارها وورودها والأقحوان يتلأأ كالفضة الخالصة والزرجس العطر النضر مثل العيون تنكسر جفونها للنوم ، وهي تارة ترنو وتارة تستسلم للنوم فتغضى أو بعبارة أخرى تطبق جفونها الناعسة ، وتنسب إلى سيف الدولة الحمداني الأبيات التالية في قوس قزح^(١) :

لَقَدْ نَشَرْتُ	أَيْدِي الْجَنُوبِ	مَطَارِفًا	عَلَى الْجَوِّ دُكْنًا	وَالْحَوَاشِي	عَلَى الْأَرْضِ
يَطْرُزُهَا	قَوْسُ الْغَمِّ	بِأَصْفَرِ	عَلَى أَحْمَرٍ	فِي أَخْضَرٍ	تَحْتَ مُبْيَضِّ

كأذيال خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فِي غَلَاتِلِي مَصْبَغَةٍ وَالْبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضٍ

يقول : رياح الجنوب نشرت على الجو ثيابا دكناء مغبرة ملأت الآفاق بالطول والعرض وحواشيا على الأرض ، وقوس قزح يطرزها بألوانه البهيجة الكهرمانية والياوتية والزمردية ، وكأنما شابة جميلة أقبلت في غلالات أو ثياب رقيقة صُبِغَتْ بألوان مختلفة بالطول والعرض وبعضها أقصر من بعض . وهي صورة بديعة . ويقول العرقلة من شعراء الخريدة (١) :

الشام شامةٌ وَجَنَّةِ الدنِيا كما إنسانٌ مقلتها الغَضِيضَةُ جَلَّتُ
من آسِها لك جَنَّةٌ لا تنقضي ومن الشقيق جهنمٌ لا تحرق
فعلام تصحو والحمامُ كأنها سكرى تغنى تارة وتصنق
وتلوم في حب الديار جهالةً هيات يسلوها فوادٌ شيقٌ

وهو يجعل الشام خالاً في وجنة الدنيا ويجعل «جَلَّتْ» اسم دمشق القديم إنسان مقلتها الغضيضة التي ترمقها باستحياء ، لجمال أزهارها من آس وغير آس ، وكأنما تخدر بجبالها أحاسيس مشاهدها ، فلا يصحو ، والحمام من حوله فرح بهيج يغنى ويصفق طربا . وإن الشام لخليقة بحب أهلها وفتنتهم بها لجمال مناظرها الطبيعية .

ويقول فتيان الشاغوري في وصف قرية الزبداني بشهر كانون شتاءً والثلوج تتراكم على أشجارها ونباتاتها في شهر كانون زمن الشتاء مهيبته لازدهار أزهارها في زمن الربيع (٢) :

قد أجمدَ الخمرَ كانونٌ بكل قَدْحٍ وأحمدَ الجمرَ في الكانون حين قَدْحُ
ياجَنَّةَ الزَّبَداني أنت مسفرةٌ عن وَجْهِ حُسنٍ إذا وَجْهُ الزمان كَلَحُ
فالثلج قُطنٌ عليكِ السُّحْبُ تَنديفه والجو يحلجه والقوسُ قوسُ قُزحُ

وقد صور فتيان كل ما يحمل ماء في الزبداني بأقداح تحمل خمرا ، وقد جمدها القَرَّ الشديد وأحمد الجمر في الكانون أو الموقد حين اتقد . ويتصور قرية الزبداني جنة من جنان الدنيا ، وما يلبث أن يصور الثلج وهو يتساقط كالريش من السحب مثل قطن ، والسحب تندفه بقوس قزح . والجو يحلجه . صورة بديعة .

(٢) الديوان ص ٩٤ وابن خلكان ٢٥/٤

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢١٧/١

ويقول الوداعي على بن المظفر في مناظر رأس العين بعبك^(١) :

ياحادى الأظعان إن شارفتُ من بَعَلْبِكَ سَفَحَ لُبْنَانِهِ
فاقرأ تحياتي على نازلٍ في مَحْجِرِ العين كإنسانه
والروضُ يُهدى مع نسيم الصبا نَشْرُ خُزَامَاهُ وريحانهِ
وراسلَ القُمَيْرِيُّ ورقاءهُ شَدَّوْا على أوتار عيدانهِ

وقد أشار الوداعي إشارة واضحة بمحجر العين إلى رأس العين منزل صاحبتة ، وأبدع في البيت الأخير إذ جعل القمرى المترنم على عيدان الأشجار يراسل صاحبتة شدوا وغناء على أوتار تلك العيدان . وتكثر مثل هذه الطرائف التصويرية عند معاصريه في زمن الماليك ، وبعدهم في زمن العثمانيين كقول فتح الله بن النحاس في وصف الربيع^(٢) :

نثر الربيعُ ذخائرَ الندى سَوَّارَ من جَيْبِ الغَوَادى
والوَرْدُ مَحْضُوبُ البنا نِ مَضْرُجُ الوَجَناتِ نادى
حَرَسْتُهُ شوكةُ حُسْنِهِ من أن تُمدَّ له الأيادى
والعندليبُ أمامه بِفصيحِ نَعْمَتِهِ ينادى
من رام يَعْبَثُ بالحدودِ د فدونها خَرَطُ القَتَادِ^(٣)

والصور في الأبيات جيدة فالربيع ينثر الأزهار من حبيب السحب الغوادى والورد أحمر البنان والوجنات تلمع عليه لألى الندى ، والشوك يحرسه من قطف الأيادى والعندليب ينادى : دون هذه الوجنات خرط القتاد ، وهو مثل يضرب للشئ لا ينال إلا بمشقة شديدة ، والقتاد : نبات صلب له شوك الإبر وخرطه : انتزاع إبره .

وبجانب وصف الطبيعة كان للهو مجالسه في متنزهات الغوطة بدمشق وغير الغوطة بالشام ، إذ تمتلئ بالبساتين ، وكان له مجالس أخرى في الأديرة ، مما أتاح لنظم خمريات كثيرة تارة تكون مستقلة وتارة تمتزج بوصف الطبيعة أو بالغزل ، وتمادى بعض الشعراء في مجونه وأسرف في هزله على نحو ما نقرأ من أشعار لأبي الرقعمق^(٤) الأنطاكى شاعر المعز الفاطمى وأبنائه ووزرائهم ، وكان

(١) خزانة الأدب للحموى ص ٣٤٢

(٢) الديوان ص ٢٣ ونفحة الريحان ٥١٢/٢

(٣) دونه خرط القتاد: مثل يضرب للشئ لا ينال

إلا بمشقة شديدة.

(٤) انظر في أبي الرقعمق اليتيمة ٣٢٦/١ وابن خلكان

١٣١/١ والعبر ٧٠/٣ والشذرات ١٥٥/٣.

لا يستحي من التصريح بالفحش والمآثم على شاكلة أبي الحجاج ماجن العراق الذي تحدثنا عن مجونه وهزله في الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ومن نظيف مجونه قوله (١) :

توهَّمتُ أمرا فلم أنبسي بحرفٍ وناديتُ بالأكؤس
حُميًّا كأن سَنَا نورها سنا بارقٍ لاح في الحِندس (٢)
يُعاطيكها رَشَاءُ طرفُهُ سريعٌ إلى تلفِ الأنفُسِ
يَحَدُّ يروك توريده وعينٍ تنوبُ عن التَّرجِسِ

وهو يقول إن بعض الأوهام ساورته فلم ينس بنت شفة أو كلمة وانصرف إلى الخمر معشوقته التي تلعب حُميًّا بخياله ، فيظن كأن ضوءها ضوء برق لمع في دجى الليل ، وإن ساقية ساحرة الطرف لتقدمها إليك فتصيبك في الصميم بخد مورِّدٍ وعين فاتنة .
ويقول الغزى الذي مرت ترجمته (٣) :

قُمْ نَفْتَرِعْهَا كَأَنَّهَا الذَّهَبُ بِكْرًا ، أَبُوهَا وَأُمُّهَا الْعِنَبُ
أَرْقَ مِنْ عَبْرَةِ الْيَتِيمِ وَمِنْ عِبَارَةِ الصَّبِّ قَلْبَهُ وَصَبُّ
مَدَامَةٌ تَصْقَلُ الْقُلُوبَ إِذَا رَانَتْ عَلَيْهَا الْهَمُومُ وَالرَّيْبُ
كثُوسُهَا أَنْجَمٌ نَضِلُّ بِهَا لَا يَهْتَدِي مِنْ تَضَلُّهُ الشُّهُبُ
لَا فِدَمَ فِينَا وَلَا فِدَامَ لَهَا عُرُوسٌ دَنٌّ عَقُودُهَا الْحَبِّبُ

وهو يقول لصاحبه قم نفترعها أو نفتضها ونشرها ، إنها في رأيه -كعروس بكر- أبوها وأمها العنب ، رقيقة رقة عبرة اليتيم وعبارة الصب أو ألحج الوصب الموجه قلبه . ويقول إنها تجلو القلوب وتكشف عنها الهموم والريب أو الشكوك ، ويعجب من كثوسها أن تكون أنجما ولا تهدي ، بل تضل صاحبها وأي ضلال بينا عادة النجوم أن تهدي ، ومن تضله لا يهتدي أبدا ، لأنه فقد هداه . ويذكر أن ليس في رفاقه قدم أو أحرق وأنه لا فدام لها أو مصفاة إذ هي شديدة الصفاء ، ويقول إنها عروس دَنٌّ عقود جيدها لآلى الحبيب التي تعلقو كثوسها حين يمتزج بها الماء . ويدعو فتيان الشاغوري صديقا إلى نزهة قائلا (٤) :

(٣) الخريدة (قسم الشام) ١٨/١

(٤) الديوان ص ٢٦٨

(١) اليتيمة ٣١٢/١

(٢) حميا الخمر: سورتها وشدها . سنا : صوء .

الحندس . دجى الليل الشديد السواد .

بادرُ إلينا فإن الراحَ ممكنةٌ والكأسُ دائرةٌ والشَّمْلُ مُجْتَمِعُ
ويومنا طيبٌ صافي الأديم وما فيه هواءٌ ولا في رأسه قزَعُ
والطير ترقصُ في الأغصان من طربٍ تكاد منه على هاماتنا تقعُ

وفتيان يصور لصاحبه مافيه من أنس مع رفاقه ، فالكأس دائرة بينهم واليوم من أيام الربيع
لا فيه عواصف ولا في سمائه قزَع أو قطع من السحاب المنتشر المنذر بالمطر ، والطير ترقص على
الأغصان طربا وفرحا بالربيع حتى تكاد لشدة فرحها وطربها تقع على هاماتهم أو رؤوسهم .
وتكثر مقطعات الشعر في مجالس اللهو سواء في الخمر أو في الطبيعة ويشتهر بنظمها أربعة يفرد
لهم الحموى في خزائنه فصولا طويلة هم مجير الدين بن تميم ، وسنخصه بترجمة ، وبدر الدين
يوسف بن لؤلؤ الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ والقاضي محيي الدين بن قرناص الحموى معاصره وعلى بن
المظفر الوداعي المتوفى سنة ٧١٦ ، ومن طريف ما أنشده الحموى لابن لؤلؤ الذهبي قوله (١) :

باكرٌ إلى الروضة نستجلها فثغرُها في الصبح بسامُ
والنرجسُ الغضُّ اعتراه الحيا فغضُّ طرفا فيه نسقام
وبلبلُ الدَّوحِ فصيحٌ على الأ يكة والشَّحْرورُ تمام
فعاطني الصَّهباء مشمولةٌ عذراء فالواشون نُوام
واكتمُ أحاديث الهوى بينا فني خلال الروض نَمَام

وهو خفيف الروح مثل زملائه المذكورين وكانوا جميعا يعنون بالتورية التي أشاعتها مصر منذ
العصر الفاطمي عناية واسعة ، وقد ورى في البيت الثاني بكلمة الحيا وهو الخجل عن الحيا بمعنى
المطر . وجعل للبلبل لجمال غنائه وشدوه الفصاحة وللشحرور وهو نوع من العصافير المتممة . ضرب
من المقابلة . وجعل الصهباء مشمولة أو باردة طيبة واستتم الصورة بأنها بكر أو عذراء والواشون
نوام . وعاد إلى التورية في البيت الأخير بكلمة نَمَام - وهو ضرب من السعتر مزهر - عن التمام
الحقيقي من الأشخاص . ويقول محيي الدين بن قرناص (٢) :

روضةٌ من قَرَقَفٍ أنهارها وغناء الورق فيها بارْتِفاعُ
لا تَلْمُ أغصانها إن رقصتْ ففهي ما بين شرابٍ وسماع

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٠

(١) خزانة الأدب للحموى ص ٣٢٦

وقد ورى محبي الدين بكلمة قرقف وهو الماء البارد الصافي عن الخمر وهو اسم من أسمائها ، واستتم الصورة إذ جعل أنهار الروضة خمرا مسكرة بأن الحمام فيها أخذة السكر ، بل إن الأغصان نفسها التي رويت من تلك الأنهار سكرت فرقصت ، فلاعجب أن يشدو الحمام شدوا عاليا . وأنشد الحموي في خزانته لابن قرناص مقطعات بديعة كثيرة في الرياض ومثله الوداعي ، وهو يكثر من التورية كثرة مفرطة .

ويظل الغرضان : وصف الخمر ووصف الطبيعة حين طوال أيام المالك وبالمثل أيام العثمانيين من مثل قول علي بن محمد الحشري الشامي المتوفى سنة ١٠٩٠ للهجرة (١) :

قُمْ هَاتِيهَا وَضَمِيرُ اللَّيْلِ مَنْشَرُحُ وَالْبَدْرُ فِي لُجَّةِ الظُّلْمَاءِ مُسْتَبِحُ
عَجَلٌ بِهَا وَحِجَابُ اللَّيْلِ مَنْسَدَلٌ مِنْ قَبْلِ يَدُو لَنَا فِي وَكْرِهِ الصُّبْحُ
وَاسْتَضْحَكَ الدَّهْرَ قَدْ طَالَ الْعُبُوسُ بِهِ لَا يَضْحَكُ الدَّهْرُ حَتَّى يَضْحَكَ الْقَدْحُ
وَلَا يَطِيبُ الْهُوَى يَوْمًا لِمَغْتَبِي حَتَّى يَكُونَ لَهُ فِي الْيَوْمِ مُصْطَبِحُ

وهو يخاطب ساقيا أن يناوله كأس الخمر والليل من حوله ، مبتهج وأضواء البدر تلمع في جوانبه ويطلب إليه أن يسرع بها وحجاب الليل منسدل عليه قبل أن يرفرف الصبح بجناحيه فيملا الدنيا أنوارا . ويقول إن الدهر لا يقبل عليه ويضحك إلا إذا ضحك الكأس في يده ، ويزعم أن الهوى لا يطيب لمن يشرب الخمر غبوقاً وهو شرها بالعشى حتى يكون له منها صبوح وهو شرها في الصباح . ونقف عند نفر من شعراء الطبيعة واللهو .

الوأواء (٢) الدمشقي

هو محمد بن أحمد الغساني المشهور بالوأواء الدمشقي ، من أهل دمشق ، وُلد بها ونشأ ، وكان ابنا لشخص من عامة الشعب . يدل على ذلك ما رواه الثعالبي في اليتيمة من أنه لُقِبَ بالوأواء لأنه كان مناديا بسوق الفاكهة ، أو كما كانوا يسمونها دار البطيخ ، ينادي على الفواكه جلبا للمشتريين . وقد ذكرنا مرارا في حديثنا عن الشعراء أنهم - في أغلب الأمر - كانوا من عامة الشعب وكانت لهم ملكات هياتهم لنظمه بل للتفوق فيه . يلقانا ذلك في بغداد وفي القاهرة وفي

(١) طبعه المجمع العلمي العربي بدمشق بتحقيق د. سامي

الدهان وراجع مقدمته له .

(٢) نضحة الرخانة ٣٥١/٢

(٣) انظر في الوأواء وشعره اليتيمة ٢٧٢/١ والمحمدون

من الشعراء للقفطي وفوات الوفيات ٣٠١/٢ وديوانه

جميع بلدان العالم العربي . ومكّن لهم ذلك أن التعليم كان يعقد بالمساجد ، وكانت دائماً هي وحلقات الشيوخ مفتوحة للناشئة ينهلون منها كما يريدون ، فكان من له استعداد حسن للتعلم من أبناء العامة ما يزال يتردد عليها حتى يحسن ما يريد من الفقه مثلاً أو من رواية الشعر . ودائماً كان يتخرج في هذه الحلقات كثيرون شعراء وغير شعراء على نحو ما تخرج الوأواء المنادي على الفاكهة في حلقات الشيوخ بمساجد دمشق .

وليس بين أيدينا ولا في ديوان الوأواء ما يوضح متى وُلد . وأيضاً ليس في الديوان أخبار وأحداث تاريخية تصور حياته ، وكل ما فيه أنه لزم شريفاً من سادة دمشق ووجهائها بمدحه ، وأنه أعطاه في أول مدحة له عشرين ديناراً ، فأخذ يشتهر اسمه بين الشعراء . ومدحه بثلاث قصائد أخرى ، دل فيها على شاعرية جيدة ، ويذكرون أن اسم هذا الشريف العقيق أحمد بن الحسين العلوي ، فهو من أشرف العلويين وربما كان نقيبهم بدمشق . ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان جواداً ممدّحاً ، وكان على صلة بسيف الدولة في أول إمارته لحلب في العقد الرابع من القرن الرابع الهجري . وربما كان هو الذي قدّم الوأواء إليه حين زار دمشق بين سنتي ٣٣٣ و٣٣٤ . وفي ديوانه ثلاث قصائد في مديحه ، ولذلك عدّ من شعرائه . ومن عطايا سيف الدولة والعقيق أخذ الوأواء يعيش للشعر متكسباً به ، وكانت فيه نزعة قوية للمتاع بالحياة ، مما جعل أكثر شعره يدور حول محاور ثلاثة : الغزل والخمر ووصف الطبيعة ، وكثيراً ما يمزج بينها جميعاً مثل قوله في الفصيذة الأولى من ديوانه :

حاز	الجمالَ	بأسره	فكأنما	قُسمتُ	عليه	محاسنُ	الأشياء
متبسّمٌ	عن	لؤلؤٍ	رطبٍ	حكى	برداً	تساقطَ	من عقود سماء
تُغنى	عن	التفاح	حمره	خده	وتنوب	ريقتُهُ	عن الصّهباء
فأمزجُ	بمائك	نارَ	كأسِك	واسقني	فلقد	مزجتُ	مدامعي
واشربُ	على	زهر	الرياض	مدامةً	تنفي	الهموم	بعاجل السّراء
لطفتُ	فصارتُ	من	لطيف	محلّها	تجرى	مجارى	الروح في الأعضاء

والوأواء معروف بكثرة تصاويره في أشعاره ، فساقيته الخمر تبسم عن أسنان لؤلؤية كأنها حبات برد تساقطت من عقود في السماء ، وحمرة خدها نضرة كحمرة التفاح ، وريقها كأنه الصهباء أو الخمر . ويطلب إليها أن تمزج الخمر الحمراء بالماء كما امتزجت مدامعه بالدماء . ويقول لصاحبه اشرب على زهر الرياض الذكي الرائحة تلك الخمر التي تجلب السرور كما يقول ، ويزعم

أنها تجرى في جسمه مجرى الروح في الأعضاء . ومن قوله في وصف الراح :

وبنتِ كَرَمٍ كأنها لَهَبٌ تكاد منها الأكفُ تَلْتَهَبُ
تلعب في كأسها إذا مُزجتُ كأنما يستفزُّها طربُ
في عَرَصَةِ الكأسِ حين تمزجها سماءُ تَبْرِ نجومها ذهبُ

وهو يتحدث عن الخمر باسم بنت الكرم ، ويقول إنها حارة كأنها لسان لهب ، وإن الأكف في زعمه تكاد تلتهب لشدة حرارتها . ويزعم أنها تلعب في كأسها حين يمازجها الماء فيطفو حبابها وتضطرب بعض الاضطراب ويجعل للكأس عَرَصَة أو ساحة ويقول إنها تشبه فيه - بزعمه سماء فضية من فئات التبر ، نجومها - أي حبابها - ذهب . ويقول من قصيدة :

اسقياني ذبيحة الماء في الكأ س وكُفَّا عن شُرْبِ ماتسقياني
إنني قد أمنتُ بالأمس إذ م ستُّ بها أن أموت موتا ثاني
اسقيني القهوة التي تبتُّ الور د - إذا شئت - في خدود الغواني
في رياضِ تريك في الليل منها سُرُجًا من شقائق النعمان
كتبها أيدي السحاب بأقلام دموعٍ على طروس المغاني

وهو يتصور مزج الماء بالخمر إعدادًا لشرها ذبحًا ، ويطلب إلى صاحبيه أن لا يسقيه الماء وإنما يسقيه دم الخمر المسفوح . ويزعم أنه لاخوف عليه فقد أماته بالأمس ولن يموت ثانيا ، ومثله من مدمني الخمر يموتون مرارا . ويقول إن القهوة أي الخمر تضرِّج خدود الغواني بالخمرة فتصبح كالورد ، ويقول إنه يحتسيها في رياض تنير بها ليلا الورود المعروفة باسم شقائق النعمان . ويزعم أن أيدي السحاب كتبت تلك الشقائق بأقلام تستمد من محابر غريبة هي دموع العشاق التي استحالت دما قانيا وقد دُؤنت على طروس ، هي صحف المغاني أو الرياض . ودائما يعنى الوأواء في شعره بالتصاوير والأخيلة ، ومن أكبر الأدلة على ذلك بيته المشهور :

فأمطرتُ لؤلؤًا من نَرْجِسٍ وَسَقَّتْ وَرْدًا وَعَعَضَتْ عَلَى العُتَابِ بِالْبَرْدِ

فقد استعار اللؤلؤ للدمع والنرجس للعين والورد للخد والعتاب للأصابع والبرد للإنسان ، وهي صور لا تحمل شعورًا ، فضلا عن وجد ، غير أن معاصريه كانوا يعجبون بها عنده ، وقد بنى الحريري على هذا البيت نفسه مقامته الثانية . وذكر صاحب فوات الوفيات أنه بارح الدنيا في عشر التسعين وثلاثمائة ، وأكد أن كلمة التسعين مصحفة عن كلمة السبعين .

ابن (١) قُسَيْمِ الحَمَوِيِّ

هو مسلم بن الحَضِر بن قُسَيْمِ التَّنُوخِي الحموي ، ولد ونشأ بجحاة ، ويقول العماد : « كان ثالث القيسراني وابن منير بلغ إلى درجتها .. وفاق شعرهما شعره ، لكنه خانه عمره ، وفلَّ شَبَا (حدَّ) شبابه ، وحل شعوب (الموت) بشعابه ، وذلك في سنة نيف وأربعين وخمسمائة » . والعماد يقول إنه توفي شابا ويبدو أن ميلاده لا يعدو العقد الأول من القرن السادس الهجري كما يبدو أن موهبته الشعرية نضجت مبكرة ، وسرعان ما عمد إلى التكسب بشعره فمدح صاحب حياة ، وتطلع إلى الشهرة بين الشعراء وأحس من واجبه أن يسهم بشعره ضد حسنة الصليب ، وكان عماد الدين زنكي قد أخذ في منازلهم . وحدث أن خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه جيش كثيف سنة ٥٣٢ لغزو الشام واستولى على بُزَاغَةَ وحاصر حصن شَيْرَزَ بالقرب من حماة فاستغاث صاحبه سلطان ابن منقذ بزنكي فأسرع إليه في عساكره ، واضطر ملك الروم إلى الانسحاب ، فغنم زنكي وعساكره من جيشه غنائم كثيرة سوى مجانيقه وآلات حصاره للحصن ، ومدحه الشعراء وفي مقدمتهم ابن قسيم بقصيدة رائعة استهلها بقوله :

بعزمك أيها الملك العظيم تذلُّ لك الصعابُ وتستقيمُ

وكان ابن قسيم حينئذ في ريعان شبابه ، وطارت قصيدته كل مطار ، وفي عام ٥٣٤ حاصر زنكي دمشق ، وأعلن له أنزُّ مدبر دولة أبناء طغتكين وقائد جيشهم دخول دمشق في طاعته . وفي هذه الأثناء يفد ابن قسيم على دمشق ويمدح عماد الدين زنكي ويبدو أنه ظل بها مدة فإننا نراه يطرح شاعرها ابن منير مرارا ، وأيضا فانه يمدح أنزُّ مدبر دولة آبق بن محمد بن بوري ، وكان زنكي قد ارتضى أن تظل بها أسرة طغتكين والقائم على دولتهم أنز . فاتصل به ابن قسيم ومدحه ، وأسبغ عليه الجوائز كما أسبغها عليه من قبله زنكي ، وله فيه مدحة أرخها العماد الأصبهاني بسنة ٥٤٢ . ولانرتاب في أنه ظل متصلا بزنكي يمدحه وخاصة حين استولى على الرُّها سنة ٥٣٩ وبمجرد أن توفي زنكي سنة ٥٤١ رجع جوسلين صاحب الرُّها إليها بالاتفاق مع من بها من الأرمن ، وأسرع إليه نور الدين في عسكره ، فهرب جوسلين . وافتتح نور الدين الرُّها ثانية ،

(١) انظر في ابن قسيم وشعره الخريدة (قسم الشام) لأبي شامة ٣٢/١

٤٣٣/١ ومفرج الكروب لابن واصل ٨٢/١ والروضتين

وهنا ابن قسيم بهذا الفتح المبين بقصيدة رائعة . وتوفى الشاعر سريعا في نفس السنة ويقول العماد الأصبهاني : إنه مات شابا .

وقد استعرض العماد في خريدته ديوان شعره واقتطف منه مختارات كثيرة ، وهي تدور حول الغزل ووصف الطبيعة والخمر ، ويبدو أنه كان يغرق في اللهو والمجون ، وإنه ليدعو بعض صحبه لمشاركته فيما يقترف منها بمثل قوله :

خَيْرٌ مَا أَصْبَحْتَ مَخْلُوعَ الْعِدَارِ فأنفِ عنك الهمَّ بالكأسِ المُدارِ
 قم بنا ننتهب اللذة في ظلُّ أيام الشباب المستعارِ
 إنما العارُ الذي تحذره أن ترأى من لباس العار عارى
 وسعيدٌ من تقضى عمره بين كاسات رُضابٍ وعُقارِ (١)
 في اصطباحٍ واغتباقي واقترأ بـ واغترابٍ وانتهاكِ واستتارِ

وهو يصرِّح - ولا يخفى - بأنه يشرب الخمر المحرمة ، غير آبه لما يجُرُّه عليه ذلك من عار بين أصحابه ، إذ يجد فيها هناءته وسعادته ، وهو لذلك يعكف عليها صباحا ومساء أو اصطباحا واغتباقا كما يقول ، ويعكف عليها قارًّا في بلدته حماة ومغتربا في دمشق وغير دمشق ، وهو يشربها متواريا ومجاهرا بعصيان ربه منتهكا لحرماته . ومن قوله في خمريه ثانية .

باكرا شمسَ القناني تُدركا كلَّ الأمانى
 ونحذا في لذة العيبِ شـ على رَغْمِ الزمان
 قهوةً ألبسها المز جُ قيصا من جُمان (٢)
 كخدود الورد من تحـ ستِ تُغور الأقحوان
 إنما البُغية أن أصـ سبَحَ مخلُوعِ العنانِ

وهو يدعو إلى المتاع بالخمر ، ويصورها بصور جميلة ، إذا مزجت بالماء وكأنما لبست قيصا لؤلؤيا . ويصورها في حمرتها والماء آخذ بتلايبها بثغور من الأقحوان الأبيض تعلوها خدود وردية . ولا يلبث أن يعلن في أبيات تالية عصيانه لربه ، فكل ما يبغيه أن يظل سادرا في خلع عنانه - أو كما قال في المقطوعة السابقة - في خلع عذاره منتهكا ساجدا في قبلة الكأس لتسييح مثاني العود

(٢) الجمان : اللؤلؤ

(١) الرضاب : الريق . العقار : الخمر .

وأوتاره . وكأنه يعيد لنا صورة أو صورة من خمريات أبي نواس المتهتكة الخليفة المارقة .
ولابن قسيم بجانب مجونه وغزلياته أشعار في وصف الطبيعة وأشجارها وأزهارها وثمارها من
ذلك قوله يصف رمانة :

ومحمرّة من بنات الغصو نِ يمنعها ثقلها أن تميدا
منكّسة التاج في دستها تفوق الخدود وتحكى النهودا
تُفضّ فتفتّر عن مَبْسَمِ كأن به من عقيق عقودا
كان المقابل من حبّها ثغورٌ تقبلُ فيها خدودا

وتصويره للرمانة بأنها منكّسة التاج في دستها أو صدرها تصوير بديع لأنها تهدل وتهدل في
غصنها وعلى صدرها بقية نوارها . ويتصور حباتها عقودا من عقيق ، وكأنها تحمل بتلك الحبات
وما يحيط بها من خيوط بيضاء ثغورا تقبل خدودا . وكان ابن قسيم شاعرا مجيدا ، ومرّ بنا أنه كان
يتشيع وأنشدنا له أبياتا من شعره الشيعي .

مجير^(١) الدين بن تميم

هو مجير الدين محمد بن يعقوب المعروف بابن تميم ، ولد بدمشق ونشأ بها ، وسال الشعر على
لسانه وانتقل الى مدينة حماة وعمل في جيش صاحبها الملك المنصور سيف الدين محمد
(٦٤٢-٦٨٣هـ) جنديا ، إحساسا منه بفتوته وشجاعته ، ويصور إقدامه وبسالته في شعره
قائلا :

دَعْنِي أَخَاطِرُ فِي الْحُرُوبِ بِمُهْجَتِي إِمَّا أَمُوتُ بِهَا وَإِمَّا أُرْزَقُ
فَسَوَادُ عَيْشِي لَا أَرَاهُ أَيْضًا إِلَّا إِذَا أَحْمَرَ السَّنَانُ الْأَزْرَقُ

وقربه منه الملك المنصور وأصبح له اختصاص به . ويقول صاحب فوات الوفيات : « هو في
التضمين الذي عاناه غمضلاء المتأخرين (من الشعراء) آية ، وفي صحة المعاني والذوق اللطيف
غاية ، لأنه يأخذ المعنى الأول ويحلّ تركيبه وينقله بألفاظه إلى معنى ثان ، حتى كأن الناظم

والنجوم الزاهرة ٣٦٧/٨ وفي مكتبة جامعة القاهرة مصورة
لمختارات من ديوانه بخط الصفدي في ٤٧ ورقة

(١) انظر في مجير الدين بن تميم وشعره فوات الوفيات
٥٣٨/٢ وخزانة الأدب للحموي ص ٣١٩ - ٣٢٥

الأول ، إنما اراد به المعنى الثانى وقد أكثر من ذلك حتى قال :

أطالع كل ديوانٍ أراه ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى فشعري نصفه من شعر غيرى

ويقول أيضا صاحب الفوات فيه « كان جنديا محتشما شجاعا مطبوعا كريم الأخلاق بديع النظم رقيقه لطيف التخيل » ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان من الشعراء المعدودين » . ولا نعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فكانت سنة ٦٨٤ للهجرة .

ومحير الدين بن تميم من أصحاب المقطعات الطريفة فى الغزل والطبيعة والخمر ، ولا يبارى فى ابتكار الصور والأخيلة وحشد التوريات فى مقطعاته ، مع الظرف وخفة الروح والتعليقات الحسنة ، ونقتطف بعض أمثلة من أشعاره ، من ذلك قوله فى الساقية والطبيعة من حولها :

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى ودمعها بين الرياض غزير
كان نسيم الروض قد ضاع منها فأصبح ذا ييكى وذاك يدور

ولكلمة « ضاع » معنيان : معنى سطوع الرائحة الطيبة التى يحملها نسيم عن الأزهار ، ومعنى الفقد والهلاك ، وبذلك تمت لابن تميم التورية التى يريد بها من استخدامه للكلمة ، وقد اراد المعنى الثانى . ويقول مفاخرنا بين الأرض والسماء :

يا جاعل الأفق مثل الأرض حُجَّتْهُ بالشمس إذ بزغت والبدر حين وضح
كم من شمسٍ وأقمارٍ إذا سرحتْ فى الأرض طرت إليها خفَّةً وفرح
ولا تقل : قزح فى الجو زينه فى كل غصن ترى فى الأرض قوس قزح

فهو يعارض من يعلى السماء على الأرض بحجة بزوغ الشمس والقمر فيها قائلًا إن فى الأرض شمسًا وأقمارًا من النساء والفتيات أجمل وأكثر حسنا . ويقول لصاحب السماء : لا تحتج بجبال قوس قزح ، فأغصان الرياض فى الطبيعة تحمل ما لا يحصى من أقواس قزح نضرة أرجة . ويقول :

سبقت إليك من الحديقة وردة وافئك قبل أوانها تطفيلًا
طمعت بلثمك إذ رأيتك فجمعت فمها إليك كطالب تقبيلًا

وهي وردة في بدء تفتحها وهي لاتزال في كمّها ، مما جعله يعلل تجمعها قبل أن تفتح هذا التعليل البديع الدالّ على لطف تخيله كما قال صاحب فوات الوفيات . ويقول في وصف ناعورة أوساقية :

ناعورةٌ مذ ضاع منها قلبها ناحت عليه بآنةٍ وبكاءٍ
وتعلّلت بلقائه فلاجل ذا جعلت تُدير عيونها في الماء

فقواديسها لاتهوى فارغة طلبا للماء والصعود به ، وإنما تهوى بحثا عن قلبها الذي ضاع منها ، وجعل لحونها الحزينة أنينا وبكاء عليه . ويقول :

لَمْ لا أَمِيلُ إلى الرِّياضِ وزهرِها وأقيمُ منها تحت ظلِّ ضافي
والغُصْنُ يلقاني بشغْرِ باسمِ والماءُ يلقاني بقلبِ صافي

والشعر الباسم هو الأقحوان المتفتح والشعراء يشبهونه بالشعر كثيرا ، وفي البيتين رقة ودقة حس وخفة روح . وقد يخلط الطبيعة بالغزل كما في قوله :

كيف السبيلُ لأن أقبلَ خدَّ مَنْ أهوى وقد نامتُ عيونُ الحرسِ
وأصابعُ المنثورِ تُومي نحونا حسداً وتغميزُها عيونُ النرجسِ

والمنثور زهر ذكي يزهر في أعلى سيقانه ، شبه ابن تميم بالأصابع ، وتشبيه الشعراء للنرجس بالعيون قديم . وقد استغلها جميعا في هذا التعليل ، إذ لا يستطيع الاقتراب من صاحبته . ويقول في الخمر مداعبا :

روحي الفداء لمن أدار بلحظه صهباً في عقلي لها تأثيرُ
فاعجبُ له أنني يصونُ بلحظه مشمولاً وإنّاؤها مكسور

وكلمة « مكسور » إما من كسر الإناء بمعنى تهشمه وتحطمه ، وإما كسر ما فيه من الخمر بالماء وهو كسر حميّاها وثورته ، وهو المعنى المراد في البيت . ويقول أيضا في الخمر :

وليلةٌ بتُّ أسقى في غياها راحاً تسلُّ شبابي من يدِ الهرمِ
مازلت أشربها حتى نظرتُ إلى غزالةِ الصبحِ ترعى نرجسَ الظلمِ

ويريد بالغزالة الشمس وبنرجس الظلم النجوم . ولم يكن ماجتًا مثل ابن قسيم ، ولا ندرى هل كان يشرب الخمر حقا أو كان ينظم فيها محاكاة لدمنيها نظرفا . ومن طرائفه في الرياض قوله
 بعثَ النسيمُ رسالةً بقدمه للروض فهو بقربه فرحانُ
 ولطيب ما قرأ الهزارُ بشدوه مضمونها مالت له الأغصانُ
 والهزار : طائر حسن الصوت يشتهر بلحونه الكثيرة . وواضح مافي ميل الأغصان لسماع شدو الهزار من عنصر المفاجأة ، وكل مقطوعات تميم تقوم على هذا العنصر وما يحدث في النفس من هزة الارتياح والسرور لسماع مثل هذه المفاجآت الكثيرة عنده ، وقد أنشد منها صاحبها الفوات والخزانه بدائع كثيرة .

ابن النقيب ^(١)

هو عبدالرحمن بن محمد الحسيني الملقب بابن النقيب ، ولد في دمشق سنة ١٠٤٨ للهجرة لأبيه النقيب الشريف ، وعنى بتربيته ، فحفظ القرآن الكريم ، واختلف إلى شيوخ أيامه بالإضافة إلى أبيه وما كان يلقنه من اللغة والحديث . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، واتجه بها إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس والغزل مع الإلمام بالمديح ، ولم يكن في حاجة إلى تكسب به ، ولذلك يمكن أن تعد مدائحه في باب الإخوانيات ، وهي ليست الجواهر في ديوانه المنشور ، إنما الجواهر فتنته بالطبيعة الدمشقية ومنتزهاتها وبجمال الدمشقيات ووصف الراح من خلال الطبيعة الفاتنة . ويقول المحبى « ما أذكره له تشبيه زهر (حسان) أوزهر ، أو وصف روض مطلق على نهر ، وهو من أغرى بهذين النوعين ، وذلك أما ليل غريزي في فطرته ، أو لأن دمشق متروحة فكرته » . ولم يطل به الدهر بين هذه المفاتن التي كانت تحلب له . فقد توفي في الثالثة والثلاثين من عمره سنة ١٠٨١ للهجرة . ومن قوله في نهر وروض على حافظيه :

النَّهْرُ يَصْدَا بِهَاتِيكَ الظَّلَالِ كَمَا
 وَالزَّهْرُ يَفْرَشُ فِي شَطْبِهِ مَارِقَتُ
 رَيْبَعَةُ الوَشْيِ لا يَنْفِكُ زِبْرَجُهَا
 يَصْدَا مِنَ الغَمْدِ حَدُّ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
 فِيهَا السَّحَابُ مِنْ رَيْطٍ وَمِنْ حَبْرٍ
 يَجْلُو لَنَا مِنْ جِلاهَا أَحْسَنَ الصُّورِ ^(٢)

مردم للديوان .

(٢) الزبرج : الحلية من الوشى أو الجواهر .

(١) انظر في ابن النقيب وشعره خلاصة الأثر ٢/٣٩٠ ونفحة الریحانة ٢/٣٤ وديوانه (طبع الجمع العلمي العربي في دمشق) وانظر مقدمتي أحمد الجندي وخليل

ويشبه الشعراء الأنهار الضيقة والجداول بالسيوف لشدة لمعانها . وقد جعل ابن النقيب النهر يصدأ كما تصدأ السيوف ، أما هي فتصدأ بأغادها ، وهو يصدأ بظلال الأشجار من حوله ، والزهر يفرش في شطيه مارقت أو نقشت فيها السحائب من رَيْطٍ وَحِبْرٍ أو ملاءات مخططة وحريرية ذات وشى ربيعي لا يزال زبرجه ونقشه يجلو من حَلَى الطبيعة وجواهرها أجمل الصور ..
ويذكر مجلسا من مجالس أنسه في بعض متنزهات دمشق قائلا :

ومجلسٍ حَفَّتِ العِصُونَ بنا فيه ووجهُ الرياض مبهجٌ
كأن أوراقها يرفُّ بها فوق الندامى نَسِيمُها الأريجُ
خُضْرٌ من الأزرٍ لاتزال بها مناكبُ الراقصات تختلج

وهي صورة بديعة ، إذ يجعل أوراق الاغصان - حين يرفّ نسيمها فوق الندامى - كأنها أزر أو شيلان تُظِلُّ مناكب الراقصات المختلجة المتحركة في أثناء رقصها ودورانها فيها . ويقول في بدر يلوح ويحتجب من خلال أغصان :

كأنما الأغصانُ يثنيها الصبا والبدرُ من خللٍ يلوح ويُحجَبُ
حسناً قد عامتْ وأرختْ شعرها في لُجَّةٍ والموجُ فيها يلعبُ

والصورة أيضا بديعة ، فالبدر وهو يظهر ويغيب من خلال الأشجار كحسنا في لُجَّةٍ مرخية ذوائب شعرها وموج أضوائها من حولها يلعب في فضاء الطبيعة الساحرة . وكان مغرى بوصف زهرة القرنفل ، يصفها بيضاء وحمراء وبيضاء مشربة بحمرة كقوله :

وزهرٍ قرنفلُ في الروض يَحْكِي عَقِيقَ دمٍ على صفحاتِ ماءٍ
رأى وَجَنَاتٍ من أهوى فأغضى فبان بوجهه أثرُ الحياء

فاحمرار القرنفل إنما هو حياء وخفر منه حين رأى وجنات صاحبتة ، فأغضى عينيه وقارب بين جفونه استحياء . وله وراء شعر الطبيعة واللهمو والمجون موشحات مختلفة منها ما عارض به لسان الدين بن الخطيب في موشحته : « جادك الغيث إذا الغيث همي » . وله أيضا شعر دورى تتألف المنظومة منه بيتين بيتين . وبدون ريب كان شاعرا بارعا ، وحقا ما يقوله المحبي من أنه كان يتخيل التخيلات البعيدة البديعة في التشايبه العجيبة .

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

الشام من قديم دار عبادة ونسك وتقشف ، وبها كان مهبط ديانتين : الديانة اليهودية والمسيحية ، ومربنا في الفصل الأول استعراض لنسآكها الأولين ورفضهم للمتاع الدنيوى وإقبالهم على ما عند الله من ثواب الآخرة . وحين قام نظام الرهبنة فى المسيحية شاعت فيها الأديرة وشاع فيها النسك . وتعمها أضواء الإسلام ، وتشيع فيها تعاليمه الزاهدة وينزلها كثيرون من زهاد الصحابة وأتقيائهم النسآك وتشيع فيها التقوى ، وتصبح ساحة كبرى من ساحات العبادة ، كما تصبح مباءة لكثيرين من صلحاء الأمة ، وتتطير على ألسنتهم كلمات زاهدة تقية كثيرة ، عرضنا لأطراف منها فى غير هذا الموضع ، وطبيعى أن يجد ذلك صداه فى الشعر والشعراء الشاميين . ويلقانا فى ديوان أبى تمام باب للزهد ، ويظل الشعراء بعده ينظمون فيه كقول أبى فراس (١) :

أما يردع الموت أهلَ النهى ويمنع عن غيبه من غوى
فيا لاهياً آمناً والحجام إليه سريع قريب المدى
إذا مامرت بأهل القبور تيقنت أنك منهم غدا
فلا أمل غير عفو الإله ولا عمل غير ما قد مضى

وأبو فراس يقول : الموت خير واعظ للإنسان وإنه لجدير أن يردع الغوى عن غيبه ويرده إلى رشده ، ويعجب من لاه آمن على نفسه ولا يفكر فى هول ماينتظره من موت يوشك أن ينزل به ، وغدا يطير إلى رمسه ، ولا أمل له سوى عفوره فحرى به أن يكف عن كل موبقة ويأخذ من يوم حياته ليوم مماته ، وإنه لقريب . ويتعمق أبو العلاء التفكير فى الحياة والموت نهاية كل حى وينشد (٢) :

هى النفس تهوى الرحب فى كل موطن
وهل يرتجى خضر الملابس ظاعن
نواب أقت فى النفوس جرائحاً
لى القوت فليغمر سرنديب حظها
فكيف بها إن ضاق فى الأرض قبرها
وقد مزقت فى باطن التراب غيرها
عصى كل آس فى البرية سبرها
من الدر أو يكثر بغانة تبرها

(٢) اللزوميات (طبع مطبعة المحروسة) ٣١٢/١

(١) الديوان ٦/٢

وأبو العلاء يضع أمام الإنسان مصيره وأنه لا بد مفارقاً للدنيا الرحبة الواسعة إلى القبر الضيق المظلم . وربما كان يَكْنَى عن كل متاع الحياة بخضر الثياب يلبسها ظاعن راحل عن دنياه إلى قبر موجش تغبرُّ فيه هذه الثياب وتمزَّق تمزيقاً . ويقول تلك نواب تصيب النفوس في الصميم وتحدث فيها جراحا عميقة يستعصي سبَّرها ومعرفة غورها على كل طيب ، ويذكر أنه لا يفكر في طيبات الحياة ولا تمر بخاطره ، إذ هو قانع بقوته وما يسدُّ رمقه ، ولتمتليئ سرنديب - أو كما تسمى الآن بيلان - بمغاوص لآلئها من الدرر وليكثر بغانة في غربى إفريقيا التبر كما يقولون ، فحسبى قوتى . ومررنا أنه كان زاهدا في الدنيا ونعيمها ، مكتفيا بالعدس والتين . ومررنا أيضا أن ديوانه اللزوميات في مجلدين ، وقد بناه على تمجيد الله والتحذير من الدنيا ومتاعها الزائل كما قال في مقدمته . ويقول ابن سنان الخفاجي (١) :

استغفر الله القديم وعُدَّ به من شرِّ غاوٍ في الحطامِ منافسٍ
وافعلُ جميلا لا يضيعُ صنيعه واسمَحْ بقوتك للضعيف البائسِ
واقنعْ ففي عيش القناعة نعمةً لاتتقى كفَّ الزمان الخالسِ
لا تفخرنَّ وإن فعلتَ فبالثقى ناضلٌ وفي بَدلِ المكارمِ نافسِ

وهو يستغفر الله من شر كل غاوٍ منافس في حطام الدنيا ومتاعها الزائل ، ويوصى بفعل الجميل ومدَّ اليد بالقوت للبائس الفقير . ويوصى أيضا بالقناعة ويقول إنها نعمة لأن الإنسان معها لا يخاف على شيء يختلسه منه الزمن ، ويوصيه أن لا يفتخر إلا بالتقى ولا ينافس إلا في المكارم والحمد . ويقول الحسن بن طارق الحلبي من شعراء الخريدة (٢) :

عمرتَ دارَ فناءٍ لابقاءِ لها ظنًّا بأنك عنها غيرُ منتقلٍ
أتعبتَ نفسك لا الدنيا ظفرتَ بها وأنت لاشكُّ في الأخرى على وجَلٍ
دارُ الإقامة أولى بالعمارة من دارِ نعيمك، فيها غيرُ متصلٍ
فاعمَلْ لنفسك ماترجو النجاةَ به فليس يُنجيك إلا صالحُ العملِ

وهو يزهّد في الدنيا والعمل على تحقيق المآرب فيها مع نسيان الآخرة دار الإقامة الحقيقية التي ينبغي أن يعمل لها الإنسان ، وهي حقا الأجدر بأن يقدم لها كل ما يستطيع من تقوى وعمل صالح حتى يفوز برضوان ربه .

ويقول الإمام النووي الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٦٧٦ للهجرة^(١) .

وجدتُ القنَاعَةَ أصلَ الغِنَى فصرتُ بأذيالها مُمْتَسِكُ
فلاذًا يراني على بابهِ ولاذًا يراني به منهُمكُ
وعشتُ غِنياً بلا درهمٍ أمرُّ على الناسِ شَبَهُ المَلِكِ

وكان محيي الدين النووي إماما ورعا زاهدا مثابراً على التقوى والقناعة ، فلا أحد من الحكام - كما يقول - يراه على بابها طالبا حاجة ، ولا أحد يراه مشغولاً به منهمكا ، فانهماكه إنما هو في العبادة والتجهد والنسك وفتوى الناس في أمور دينهم وتدريس الفقه والحديث النبوي آخذاً نفسه في حياته بالتقشف الشديد . ويقول مصطفى البابي الذي مرت ترجمته : إن الأرض مقبرة كبرى تطؤها أقدامنا غير واعين ، بل إنه يبعد في خياله قائلاً .

قد غَنِينَا عن الدروس بما تُمُّ لى علينا صحائفُ الأيامِ
من عَظَاتٍ تُتَلَى بغير لسانٍ وسطورٍ خُطَّتْ بلا أقلامِ
ولو أَنَّ العيونَ زالَ غَشَاهَا لرأتُ كلَّ أَخْمَصٍ فوق هامِ (٢)
بل وفي كل وردةٍ أَلْفُ خَدِّ وقضيبِ يَمِيسُ أَلْفُ قوامِ

فالحياة قصيرة والمصير للجميع الموت ، وحرى بالإنسان أن يفكر في هذا المصير المقدم عليه ، وكم ملايين بل مئات الملايين ماتوا وواراهم أهلهم التراب ، حتى لكأن أي مكان لا ينخلو منهم ، وحتى لكأننا نطوهم بأقدامنا ، فهم منبثون في كل بقعة وفي كل مكان . ويقول البابي لوزالت الغشاوة عن أعيننا لرأينا - ويالهول مانرى - أقداما تطأ رعوسا ، ولهالنا أن الورد النبات من الأرض يستمد حمرة من أَلْفِ خَدِّ ، وبالمثل قضيب الأغصان الأهيف المائس المختال يستمد اختياله من أَلْفِ قَدِّ . ويلاحظ المحبي أن المشهور في هذا المعنى قول أبي العلاء .

خَفَّفِ الوَطءَ ما أَظنُّ أديمَ آلِ أرضٍ إلا من هذه الأجسادِ

(١) الكشكول (طبعة عيسى الحلبي) ٣٠١/١

(٢) الأخمص : باطن القدم : الهام : الرأس .

وقول مهيار :

رُويْدًا بأخْفافِ المطىِّ فإنما تُداسُ جباهُ في الكرى وخذودُ
وكان الباي نظر إلى معنى البيتين جميعا ، ويضيف المحبى أن مترع هذا كله قول المتنبي :

ويَدْفَنُ بَعْضُنَا بَعْضًا ويمشى أواخرنا على هام الأوالى

والأوالى : الأوائل . ولا يكتفى المحبى بذلك ، بل يقول أن معنى بيتى الباي دقيق ، وفي رباعيات عمر الخيام بالفارسية من نوعه أشياء كثيرة ، وبذكر أنه ترجم له رباعية تحمل هذا المعنى على هذه الصورة :

في الاعتبار بمن مضى من قبلنا عَيْرٌ وتلك هدايةُ المسترشدِ
فلكم طوتُ تِرباؤنا أما وهل مَيِّتٌ بغيرِ ثرائها لم يُلْحَدِ
حتى كأن شَقِيْقَها دمُ أسرةٍ سفكتُ دماءَهُمُ عيونُ الخردِ
وبنفسجُ الروضِ الندى كأنه خِيْلانُ وجناتِ الخدودِ الورْدِ

فالشقيق الأحمر القاني يستمد مما سفكته عيون الجميلات من دماء العشاق ، والبنفسج الأحمر القاتم يستمد من خيلان وجناتهن . وكل ذلك بعد في التصور والخيال . وكان يرافق الزهد منذ القرن الثالث الهجرى نساك - كما مر بنا في الفصل الأول - أقرب إلى المتصوفة منهم إلى الزهاد في مقدمتهم ابن الجلاء ، وكانت الشام ساحة كبرى للنساك يؤمونها . طوال هذا القرن والقرون التالية من العراق وإيران ومصر . واشتهرت جبال لبنان وأنطاكية بكثرة من كانوا يقيمون بها للنسك والعبادة ، وامتد ذلك إلى دمشق وجبالها وغيرها من بلاد الشام . وذكرنا في الفصل الأول نزول الغزالي بها سنة ٤٨٨ هـ وأنه أخذ يستضيء بقوة بما كتبه أبو نصر السراج والقشيري في الوصل بين أهل الشريعة من الفقهاء وأهل الحقيقة من المتصوفة ، فلا شريعة بدون عمل القلب وصدق السريرة ولا تصوف بدون أداء الفرائض والنوافل . وبذلك سدَّ الثلمة التي كانت تفصل بين الجماعتين وأحكم الروابط الدينية بينها . وزادها دعماً نزول حملة الصليب بديار الشام مما جعل حكام دمشق التابعين للدولة السلجوقية يكثرون من بناء الخانقاهات والرباطات للمتصوفة . وتبعهم في ذلك نور الدين حين أصبحت الشام في قبضته ، بل لقد اتسع في العناية بهم ورصد النفقات عليهم . وظلت هذه العناية متصلة في عهد صلاح الدين وخلفائه

الأيوبيين والمماليك مما أتاح للتصوف ازدهارا عظيما .

وكان قد أخذ يظهر في التصوف تياران كبيران : تيار سني كانت تتبعه جماهير الشعب ، وفيه تأسست طرق صوفية متعددة ، من أهمها الطريقتان القادرية والرفاعية على نحو ماصورنا ذلك في غير هذا الموضع . وكان بجانب هذا التيار تيار فلسفي يقوم على أفكار الحلول والاتحاد بالله ، ولم تكن له شعبية التيار الأول ، وقد مثله في القرن السادس الهجري يحيى السهروردي الذي ترجمنا له في إيران وأنشدنا بعض أشعاره . ومثّل هذا التيار في القرن السابع محيي الدين بن عربي الذي نشأ في الأندلس ، ثم رحل إلى البلاد العربية والأناضول وألقى عصاه في دمشق ، وله كتب كثيرة من أهمها الفتوحات المكية . وله أيضا دواوين بديعة ، لأبياتها ظاهر وباطن ، ظاهر يتفق مع السنة وباطن يتفق مع تصوفه الفلسفي . وشُغف كثيرون من أهل الشام بأدبه وشعره منهم من يقف به عند ظاهره ومنهم من يتغلغل في أعماقه . وأخذت أشعاره وتعاليمه الصوفية الفلسفية ، وبالمثل أشعار السهروردي وأيضا أشعار ابن الحلاج الصوفي المتفلسف القديم تؤثر هي وأشعار التيار الصوفي السني في كثيرين بحيث أصبح للشام تراث صوفي شعري . وبدون ريب أكد هذه النزعة الصوفية في الناس ظهور الطريقة القلندرية التي ظهرت في القرن السابع الهجري مع ماداخلها من انحرافات ذكرناها في الفصل الأول ، وأيضا ظهور الطريقتين النقشبندية والبكتاشية لأواخر زمن المماليك . وسنترجم فيما بعد لثلاثة من شعراء الصوفية الذين تمثلوا التيار الصوفي الفلسفي ، وهم ابن سوار وعفيف الدين التلمساني وعبد الغني النابلسي ، أما ابن عربي فعداه في الأندلسيين ، وقد نزل دمشق بأخرة من عمره .

وكان يقترن بتزعتي التصوف والزهد مديح نبوي كثير ، وهو قديم منذ عهد الرسول ﷺ ومديح حسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما من الشعراء له تنويها بخلق الكرم ورسالته العظمى وجهاده في سبيل الله وفتوحه . وحين نشطت الحركات الشيعية نشط معها مديحه ، إذ انبث كثير منه في مدائحهم لأئمتهم العلويين وفي مرثيتهم للحسين علي نحو ما نجد عند الصنوبري الذي ترجمنا له في كتاب العصر العباسي الثاني .. ولأبي العلاء في اللزوميات قصيدة في مديحه ، وفيها يشيد به ورسالته النبوية الخالدة قائلا :

دعاكم إلى خير الأمور محمدٌ وليس العوالي في القنا كالسوافل
حداكم على تعظيم من خلق الضحى وشهب الدجى من طالعاتٍ وأفل
فصلّى عليه الله ما ذرّ شارقٌ ومأفت مسكا ذكره في المحافل

وعوالى القنا أو الرماح هي الماضية القاطعة ، ويذكر أنه دعا إلى توحيد الله الذى خلق الشمس وماتغمربه الكون من الضياء وخلق النجوم التى تبرز تارة وتأفل تارة ثانية ، فهو مدبر الكون وملكوته . ويدعو الله أن يحفّه ببركاته بماطلعت شمس وماعطر ذكره المحافل بمسك لا يضاويه مسك .

ويستخدم المديح النبوى مع الحروب الصليبية وحروب التتار ، إذ أحس الشعراء - بحق - أنها حروب موجهة للإسلام ورسوله الكرم ، فأخذوا يشيدون به وينوهون بمعجزاته وسيرته الذكية من مثل قول ابن الساعاتى شاعر صلاح الدين فى مدحة نبوية (١) :

هو البشيرُ النذيرُ العدلُ شاهدهُ	وللشهادة تجريحُ وتعديلُ
لولاه لم تك لاشمسُ ولا قمرُ	ولا الفُراتُ وجاراه ولا النيلُ
مرتلُ الوحي يتلوه ويدرسه	ولم يكن لكلام الله ترتيلُ
وسيدُ الرُّسلِ حقا لاخفاء به	وشافعُ فى جميع الناس مقبولُ
بثتُ نبوته الأخبارُ إذ نطقتُ	فحدثتُ عنه توراة وإنجيلُ

ويقول ابن الساعاتى هو البشير النذير الذى أشاع العدل فى أمته ، ويستلهم القائلين بالحقيقة المحمدية وأن الرسول عليه السلام علة الكون ووجوده ، فلولاه لم تك شمس ولا قمر ولا حياة فى الأرض ولا أنهار ، ويقول إنه أول رسول رتل الكلام ، وإنه لسيد الخلق وشافع أمته يوم القيامة ، وبه تحدثت الأخبار فى التوراة والإنجيل مبشرة برسالته العظمى . ويقول فتيان الشاغورى من مدحة نبوية مؤملا شفاعته فى يوم الحشر متمنيا زيارته (٢) :

أؤملُ من خير الأنامِ شفاعَةَ	بها فى نعيم الجنان أخلدُ
وَدِدْتُ باني زرتُ قبرك راجلا	وقبَلْتُ تُرْبًا أنت فيها موسى
ومرغْتُ خدي عند قبرك ضارعا	بأرض حصاها لؤلؤ وزبرجدُ
وذاك ضريحُ يحسدُ المسكُ تُرْبَهُ	وكلُّ شريفِ القدر لاشك يحسدُ

وهو يؤمل فى شفاعته الرسول بالغفران ودخول الجنان ، يوم يطول وقوف الناس فى الحشر ، ويقول لو استطاع لزار القبر راجلا وقبله وعفر خده بما حوله من التراب ضارعا متوسلا بأرض

(٢) ديوان فتیان ص ١٠٩

(١) ديوان ابن الساعاتى ٤٨/١

حصاها لؤلؤ وزبرجد وإن المسك ليحسد ترابه على ما يحمل من طيب لا يماثله طيب . وللسخاوى
على بن محمد شيخ القراء بدمشق المتوفى سنة ٦٤٣ قصاد سبع في المديح النبوى . وفي مدحة نبوية
يقول الشاب الظريف منوها بالبقعة مثنوى الرسول الكريم^(١) :

أَرْضَ الْأَحْبَةِ مِنْ سَفْحٍ وَمِنْ كُتْبِ سَقَاكِ مِنْهُرُ الْأَنْوَاءِ مِنْ كُتْبِ^(٢)
يَاسَاكِنِي طَيْبَةَ الْفَيْحَاءِ هَلْ زَمَنُ يُدْنِي الْحَبَّ لَنَيْلِ الْحَبِّ وَالْأَرْبِ
أَرْضٌ مَعَ اللَّهِ عَيْنُ الشَّمْسِ تَحْرُسُهَا فَإِنْ تَغَبُّ حَرَسَتْهَا أَعَيْنُ الشُّهْبِ

وهو يدعو لأرض الحبيب المصطفى أن تهطل عليها الأمطار سفوحا وكثبانا من كتب أو قرب
لتظل تزهر بالشذى العطر ، ويتمنى زمنا يحقق أربه وأمنيته من زيارة الجذث الطاهر . ويقول إن
عين الشمس تحرسه نهارا وتحرسه أعين النجوم الساطعة ليلا حراسة يرعاها الله جلّ علاه .
وللشهاب محمود ديوان في مديح الرسول ﷺ سقط من يد الزمن واحتفظ كتاب المدائح
النهائية النبوية لإسماعيل النهاني بطائفة من مدائحه ، وفي إحداها يصور الشهاب محمود ساعة
وصول ركبته إلى المدينة المنورة حين بدا لهم العقيق في غريبها ولم يلبثوا أن زاروا القبر الزكى ،
يقول^(٢) :

وَإِذَا شَارَفُوا الْعَقِيقَ تَرَاءَتْ مِنْ رُبَاهِ سَنَا الْقِبَابِ الزُّهْرِ
وَتَلَقَّاهُمْ بِشِيرِ التَّلَاقِ بِقَبُولِ تَسْرَى قُبَيْلِ الْفَجْرِ
وَشَدَا الرُّوضَةِ الَّتِي بَيْنَ أَزْكَى مِنْبَرٍ فِي الدُّنَا وَأَشْرَفِ قَبْرِ
جَذَا ذَاكَ مِنْ مَقَامِ كَرِيمٍ يُشْتَرَى يَوْمَهُ بِكُلِّ الْعُمُرِ

وهو يصور فرحة ركبته أو قافلته بقرب لقاء الرسول حين أشرفوا على العقيق ورأوا قباب مسجده
قبيل الفجر . والقبول أو ريح الصبا العليل تبشرهم بالتلاقي وعطر الروضة النبوية يفوح ، وهو يشير
إلى الحديث النبوى : « ما بين قبري والمنبر روضة من رياض الجنة » ويقول إن فرحة المثول أمام
القبر الطاهر يُشترى يومها بالعمركله . ولكمال الدين محمد بن على الزملكانى المتوفى سنة ٧٢٧
للهمجة مدحة نبوية رائعة يقول فيها^(٣) :

(٣) فوات الوفيات ٤٩٧/٢

(١) ديوان الشاب الظريف ص ٤

(٢) المجموعة النهائية ١٧٣/٢

محمدٌ خيرُ خلقِ الله كلَّهمِ وفاتحُ الخيرِ ماحي كلِّ إشراركِ
 قد نال مرتبةً ما نالها أحدٌ من أنبياءِ ذوى فضلٍ وأملاكِ
 يا صاحبَ الجاهِ عند اللهِ خالقهِ ماردٌ جاهك إلا كلُّ أفاكِ
 ها قد قصدتك أشكو بعض ما صنعتُ بي الذنوبُ وهذا ملجأُ الشاكِ
 عليك من ربِّك الله الصلاةُ كما منا عليك السلامُ الطيبُ الزاكي

والزملكاني يقرر حقيقة كبرى ، فمحمد عليه السلام خير خلق الله وماحي الكفر والإشراك وقد نال مرتبة لم ينلها الأنبياء ولا الأملاك أو الملائكة . ويتوسل إليه أن يستغفر له ربه وأن يحط عنه أوزاره كما يتبين من أبيات تالية ، وقد زاره وحط رحاله في حماه لنوال هذا الأمل المنشود . وتكثر مثل هذه الاستغاثة في المدائح النبوية كما يكثر معها طلب الشفاعة . ويقول مصطفى البابي من مدحة نبوية بديعة^(١) :

إليك رسولَ الله قد جاء ضارعاً أخو عثرةٍ يرجو الإقالة مذنبُ
 فبابك بابُ الله ما عنه مهربُ وطالبه من غير بابك يُحجبُ
 أغنني تداركني أجرني فإنني لقي، إن تراخى عنه لطفك يعطبُ
 وأبعدُ شيء أن تضيق برحبها شفاعتك العظمى بنا فهي أرحبُ

وهو يضرع إلى الرسول الكريم أن يستغفر له ربه ليقيله ويخلصه من ذنوبه ، ويستغيث به لئلاً أن يكون شفيعه يوم القيامة ، يوم يطول وقوف الناس في المحشر ، والجميع يضرعون إلى الله أن يخلصهم وينجيهم من النار ، وسعيد من يشفع له الرسول في هذا اليوم ، فيفوز برضوان ربه . وللبابي يتوسل^(٢) :

ياحىُّ ياقيوم قد بهرَ العقولَ سنًا بهائكُ
 إني سألتك بالذى جمعَ القلوبَ على ولائكُ
 نورِ الوجودِ خلاصةِ الـ كونينِ صفوةِ أنبيائكُ
 إلا نظرتَ لمستغيـ ثِ عائِدِ بك من بلائكُ
 فالطفُ به فيما جرى في طيِّ علمك من قضائكُ

(٢) الديوان ص ٥ ونفحة الريحانة ٤٣٤/٢

(١) الديوان ص ٤ ونفحة الريحانة ٤٣٧/٢

والبابي يجأر إلى ربه ضارعا متوسلا برسوله الذي جمع أمته على الولاء له ، ويقول إنه نور الوجود ، فنوره يشاهد في كل نور : في نور الشمس والقمر والكواكب والنجوم وهو خلاصة الكونين وصفوة الأنبياء والمرسلين ، ويتخذة وسيلة إلى ربه وشفيعه ، حتى يلطف به في قضائه وما جرى في طي علمه . وحرى أن نترجم لنفر من المتصوفة وأحد شعراء الزهد والمديح النبوي وهو أول من نقف عنده .

عبد (١) العزيز الأنصاري

هو شرف الدين صاحب عبد العزيز بن محمد بن يونس الأوسى الأنصاري ، كان أبوه من فقهاء دمشق ، وحين عهد بقضائها في عهد صلاح الدين إلى ضياء الدين الشهرزوري سنة ٥٧٢ جعله من نوابه . ودار العام فاستعفى ضياء الدين من القيام على القضاء ، ولانعرف هل ترك والد الشاعر القضاء أو أنه ظل يعمل فيه مع ابن أبي عصرون خليفة ضياء الدين . وأكبر الظن أنه بقي في منصبه مدة ، أو لعله عمل في منصب آخر . ويقولون إنه كان يشتغل بالتجارة في سوق الخواصين ولاندرى هل كان يجمع بين عمله في القضاء وبين التجارة أو كان يزاؤها حين يعنى منه . وولد له ابنه عبد العزيز سنة ٥٨٦ وطبيعي أن يُعنى القاضي بترية ابنه ، فأخذ يرعاه حتى حفظ القرآن الكريم ورأى أن يتزود من حلقات الشيوخ بدمشق فدفعه إليها وأكبَّ عبد العزيز على تلك الحلقات ينهل منها ، حتى إذا أحس أبوه أنه استوعب ما فيها نزل به بغداد فاستمع بها إل شيخ المدرسة النظامية ، وكان لا يزال في نحو العشرين من عمره . وسكن الأب حياة وتولى قضاءها لعهد صاحبها السلطان المنصور الأول (٥٨٧-٦١٧هـ) وسكنها معه ابنه عبد العزيز ، ويقربه منه المنصور وينظم فيه بعض مدائح وكذلك في زوجته عصمة الدين ، ويتوفى المنصور ويغتصب إمارة حياة بعده السلطان قلعج أرسلان (٦١٧-٦٢٦هـ) ويظل بها عبد العزيز . وتولى الإمارة السلطان المظفر بن المنصور الأول (٦٢٦-٦٤٢) فابتسمت الدنيا له إذ اتخذ المظفر وزيره ومستشاره وشاعره ، ويتوفى ويخلفه ابنه السلطان المنصور (٦٤٢-٦٨٣هـ) وكان صبيا في العاشرة

٢٥٨/٨ والنجوم الزاهرة ٢١٤/٧ والخزانة للحموي ص ٢٤٩ ، ٣١٤ وديوانه (طبع مجمع اللغة العربية بدمشق) بتحقيق د . عمر موسى

(١) انظر في عبد العزيز الأنصاري وشعره فوات الوفيات ٥٩٨/١ وذيل مرآة الزمان ٢٣٩/٢ والعبير ٢٦٨/٥ وتذكرة الحفاظ ١٤٤٣/٤ وطبقات الشافعية

من عمره وربما يكون سكن الشاعر لبلبك ودمشق الذي ذكره مترجموه في هذا التاريخ . وكان يلمُّ بحلب ، ونجده سنة ٦٤٧ في صحبة أميرها الناصر يوسف في زيارته لمصر . ويعود إلى حجة وتنعقد صلة وثيقة بينه وبين سلطانها المنصور إلى توفى سنة ٦٦٢ للهجرة .

وكانت تُعقدُ في هذه البلدان جميعا لعبد العزيز الأنصاري الحلقات لسماح الحديث عنه ، ومن سمعه منه الحافظ الدمياطي محدث مصر واليونيبي محدث دمشق ، ويقول ابن تغرى برى عنه : « برع في الفقه والحديث والأدب وأفتى ودرس وتقدم عند الملوك وترسل عنهم غير مرة ، وكان شاعرا بارعا » وينقل صاحب الفوات عن الصفدى في وصف شعره وشاعريته قوله : « لا أعرف في شعراء الشام بعد سنة خمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح ولا أصنع ولا أسرى ولا أكثر ، وإن له في لزوم مالا يلزم ديوانا كبيرا ، وما رأيت له شعرا إلا وعلقتة ، لما فيه من النكت والتوريات الفائقة والقوافي المتمكنة والتركيب العذب واللفظ الفصيح والمعنى البليغ » وهو يمتاز بجمال موسيقاه وعضوبة ألفاظه وحسن جرسها حسنا بديعا .

وطبيعي والأنصاري شيخ الشيوخ الفقيه المحدث أن يعنى في شعره بالمديح النبوى والزهد والوعظ ، ومن قوله في أول مدحة نظمها للرسول الكريم وقد أنشدها تجاه حجرته الشريفة :

يا خاتمَ الرُّسُلِ الكرامِ وفارجَ الـ
ها قد وردنا من ضريحك مورداً
كُربِ العِظامِ بفعلهِ والمَقولِ
نُشْفَى به من كل داءٍ مُعْضِلِ
أدعوك للجلِّي وتلك شفاعَةٌ
لم ترُضَ لى أنى أخاف وأنت لى
ولقد أتيتك مادحا لتجيزنى
فى الحشرِ كاساتِ الرِّحيقِ السَّلْسَلِ

وهو يستغيث بالرسول الكريم ﷺ خاتم الرسل ومفرج الكرب الذى ورد على جدته الطاهر ومعينه العاطر الذى يشفى من كل داء عضال أن يكون شفيعا له يوم الحشر وأن يتيح له فيه - حين يشتد بالناس أوار العطش وهيبه - كاسات من الرحيق الصافي . ويقول في مدحة نبوية ثانية :

ويلأى من نومى المشرّد
غُصْنُ نَقًّا حَلَّ عَقْدَ صَبْرِي
وآه من شملي المبدّد
بلينِ خَصْرٍ يكاد يُعْقَدُ
فن رأى ذلك الوشاح الـ
صَّائِمَ صَلَّى على مُحَمَّدَ

أشرف مَنْ في النهار ناجى وخير مَنْ في الدُّجى تهجدٌ
وغيرُ بدعٍ لمستجيرٍ به إذا نال كلُّ مقصِدٌ

وموسيقى الأبيات بديعة . وقد تخلص تخلصاً رائعاً من الغزل إلى مديح المصطفى بذكر وشاح صاحبه الصائم كناية عن نحول خصرها مع لينه ، فمن رآها - كما يقول - صَلَّى على الرسول إعجاباً بها واستحساناً لها ، ومضى يذكر مناجاة الرسول نهاراً وتهجده ليلاً وأن من يستجير به ينال كل مأمول ومطلب . وله مدحة عارض بها مدحة كعب بن زهير للرسول مقتبسا منها الشطور الثانية لقصيدته ، فإن لم يقتبس شطرا اقتبس قافية .

وزهديات الأنصاري كثيرة ، وكان يصدر فيها عن زهد حقيقي في متاع الحياة الدنيا . وفي إحداها يقول :

مُلْكُ القنَاعَةِ عِزٌّ يُذْهِبُ الذَّلَّةَ فَن حَوَى كَنْزَهُ لَمْ يُؤْتِ مِنْ قِلَّةِ
تَبًّا لَدَى طَمَعٍ مُسْتَعْبِدٍ وَمَنِي لَا تَسْتَقِرُّ عَلَى رِيٍّ بِلَا غَلَّةِ
يَسُومُ إِبْلَاعَهُ مِنْ رِيْقِهِ بَلَاءً وَليْسَ يَرَوِي وَلَوْ أْبْلَعْتُهُ دِجْلَةَ
فَانْقَعُ غَلِيْلِكَ مِنْ نَهْلٍ بِلَا عَلَلٍ وَاقْنَعْ إِذَا أَكَلْتَ أَغْنَتْكَ عَنْ أَكْلَةِ

فالقناعة - في رأيه - عز مابعده عز ، ومن حوى كنزها الذي لا يفنى لم يشك من قلة ، ويقول تبًّا لصاحب طمع يستعبده ومنى لا تروى أبدا فداثما صاحبها يعاني من غلة العطش وحرارته ، ودائما يريد أن يبل ريقه ، إذ لا يروى أبدا ولو أبلعته نهر دجلة ، فاكتف بأن تنقع حرارة ظمئك من النهل أو الشربة الأولى من الماء ولا تطلب العلل أو الشربة الثانية منه . واقنع بكفاف العيش ، وطوبى لمن زهد وقنع وأعرض عن متاع الدنيا الزائل . يقول :

وَإِنِغِ أُخْرَى دَائِمٌ فِيهَا نَعِيمٌ وَشِقَاءٌ
وَتَنْصَلُّ مِنْ خَطِيئَاتِهَا النَّارُ جَزَاءٌ
وَإِذَا صَحَّ لَكَ الْقَوْتُ عَلَى الدُّنْيَا الْعَفَاءُ
كُلُّ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا قُصَارَاهُ الْفَنَاءُ
وَلِأَهْلِ الْخُلْدِ فِي الْخُلْدِ وَوَلِلَّهِ الْبِقَاءُ

وهو ينصح الإنسان أن يسلو الدنيا ويطلب الأخرى دار النعيم للأتقياء والشقاء للعصاة ، وأن

يتوب إلى ربه مستغفرا من خطيئاته وذنوبه . ويقول له يكفيك من دنياك القوت الكفاف ، وإذا حصلت عليه لا تتعلق من الدنيا بشيء فكل ما فيها هالك وفان ، والسعادة إنما هي لأهل الجنة والله البقاء والدوام .

وفي الديوان أشعار كثيرة على طريقة لزوم مالا يلزم . ومر بنا أن الصفدى قال إن له فيها ديوانا كبيرا . وقد عرض له الحموى فى خزائنه طائفة من تورياته وطائفة أخرى من أشعاره وافرة النغم حسنة الجرس والاداء .

محمد^(١) بن سوار

هو محمد بن سوار بن إسرائيل بن الحَـضِر الشيبانى الدمشقى المولد والدار والوفاة ، ولد سنة ٦٠٣ للهجرة . وتوفى سنة ٦٧٧ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لداته من الناشئة ، واختلف إلى حلقات الشيوخ ، ويبدو أنه شَغف بالتصوف منذ أوائل حياته ، ونظن ظنا أنه لزم ابن عربى المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ غير أن مترجميه يقولون إنه لزم على بن الحسين الحريرى المتصوف المتوفى سنة ٦٤٥ ومما يشهد لقولهم مرثيته له ، وهو فيها يبكيه بكاء حارا بمثل قوله :

خَطْبُ كَمَا شَاءَ الْإِلَهُ جَلِيلُ ذَهَبَتْ لَدَيْهِ بَصَائِرُ وَعَقُولُ

ويعمّ بالخطب كل قطر ويزعم أن الحقائق الصوفية أصبح عليها ذلة وخمول وأن السالكين إلى التصوف غَوَى نهجهم وضلوا السبيل وسُدِل الحجاب الإلهى دون أبصار المتصوفة وخُتِمَت دنان نحر الحب الربانى . وإذا رجعنا إلى الحريرى عند من ترجموا له وجدنا فقهاء دمشق يفتون بقتله - كما أفتى فقهاء حلب بقتل السهروردى - لما اشتهر عنه من الإباحة وقذف الأنبياء والفسق وترك الصلاة ، مما يجعلنا نظن ظنا أنه يتأثر السهروردى المقتول . ويبدو أن ملازمة ابن سوار للحريرى لم تؤد به إلى انحرافات ، والسبب فى ذلك أنه كان متصوفا حقا ، إذ يقولون إنه تجرّد ولبس المرقعات الصوفية ورحل فى البلاد على قدم الفقر والتصوف . ولقى - فيمن لقى - شهاب الدين السهروردى الصوفى السنى البغدادى وسمع عليه وأجلسه فى ثلاث خلوات . ولقى أيضا ابن الفارض متصوف

لحريرى فى الفوات ٨٨/٢ وكذلك ترجمة محمد بن عبدالمعنى فى الفوات ٤٥٨/٢ .

(١) انظر فى محمد بن سوار وشعره وأخباره فوات الوفيات ٤٣١/٢ والنجوم الزاهرة ٢٨٢/٧ وشذرات الذهب ٣٥٩/٥ والوفى ١٤٣/٣ وراجع ترجمة على بن الحسين

مصر المشهور ، ويذكر الرواه لذلك قصة هي أن ابن سوار حجج ، فرأى ورقة ملقاة فيها قصيدة - وكانت لابن الخيمي المتصوف المصري تلميذ ابن الفارض - فادعاها لنفسه ، فراجعه ابن الخيمي وعبثا حاول أن يقنعه ، فتحا كما إلى ابن الفارض فطلب إلى كل منهما أن ينظم قصيدة على نفس الوزن والروى ، وكانت القصيدة بائية ، فنظم كل منهما على غرارها قصيدة ، فحكم ابن الفارض بأن القصيدة لابن الخيمي .

ولم نصل بين ابن سوار والسهروردي البغدادي لأنه كان سني التصوف وتصوف ابن سوار فلبسني ويتصل مباشرة بتصوف ابن عربي وما فيه من فكرة وحدة الوجود ، ولذلك وصلناه به ، كما يشهد بذلك شعره من مثل قوله :

إن أمَّ صحبي سَمْرًا أو أراكُ فإنما مقصدهم أن أراكُ
وإن ترنمتُ بذكر الحمى فإنما عقْدُ ضميري حياكُ
وإن بكى صبُّ حبيبا فما أحسب إلا أنه قد بكاكُ
ملأت كلَّ الكون عشقا فما أعرف قلبا خاليا من هواكُ

فصحبه إن أموا به شجر السمر والأراك فمقصدهم أن يرى ربه محبوبه الذي يحل في كل مكان ، وهو حين يذكر في غزله الحمى إنما يريد حماه ، بل إن كل من بكى حبيبا إنما يبكيه لأنه يحل في جميع الأشخاص والأشياء ، فما يعشق الناس شخصا أو شيئا إلا ويعشقونه ، وكان كل شيء مرآة له ، إذ يترأى في كل الوجود . ويقول من قصيدة ثانية :

يامنُ يشير إليهم المتكلمُ وإليهم يتوجه المتظلمُ
وعليهم يحلو التأسفُ والأسى ويلدُّ لوعات الغرام المعرمُ
هذا الوجودُ وإن تعدد ظاهرا وحياتكم ما فيه إلا أنتمُ
وإذا نطقتُ في صفات جمالكم وإذا سألتُ الكائنات فعنكمُ
وإذا سكرتُ فن مدامة حبكم وبذكركم في سكرتي أترنمُ
وإذا نظمتُ تغزلا في صورة فلاجل حُسْنِكُم المحجب أنظمُ
أنتم حقيقة كلِّ موجودٍ بدا ووجودُ هدى الكائنات توهمُ

والأبيات صريحة في أنه مؤمن بوحدة الوجود . فالله يحل في الوجود جميعه ، وكل ما فيه من

أشخاص وأشياء مظاهر له ، وهو لذلك إن تحدث عن جميل أوسأل كائنا من الكائنات إنما يسأل الله ويتحدث عن جماله المشاهد في كل جميل . وهو إذا سكر فسكروه من خمر الحب الإلهي الذي يترنم به ويشدو آناء الليل وأطراف النهار . وهو إذا تغزل في صورة واستشعر وجدا إنما يستشعر الوجد الرباني . وإنه لينبث في كل موجود وحدة متصلة بين الله ومخلوقاته . وهي نفس الأفكار التي تلقانا عند ابن عربي ، ولذلك تكلم فيه أهل السنة ، ورموه بأنه يؤمن بالاتحاد بين الله والموجودات . وعلى هذه الشاكلة قوله :

خَلا مِنْهُ طَرْفِي وَأَمْتَلَا مِنْهُ خَاطِرِي فَطَرْفِي لَهُ شَاكٍ وَقَلْبِي شَاكِرٌ
وَلَوْ أَنِّي أَنْصَفْتُ لَمْ تَشْكُ مُقَلَّتِي بِعَادَا وَدَارَاتُ الْوَجُودِ مَظَاهِرُ

فالله يمتزج بروحه ولا يراه ، لذلك طرفه يشكو وقلبه يشكر ، ويقول إنه كان جديرا بمقلته أن لا تشكو بعاد الحبيب لأن دارات الوجود جميعا من حوله مظاهره ، فكيف لا تبصره وهو متحد بكل الكائنات مشاهد في كل الأشياء . وكان للمتصوفة لأيامه ليال يحيونها بالدفوف والذكر وإنشاد الشعر عليه إلى السحر ، ويروى أنه حضر مع نجم الدين بن الحكم الحموي ليلة من تلك الليالي فغنى المغنى من شعره :

وَمَا أَنْتَ غَيْرُ الْكَوْنِ بَلْ أَنْتَ عَيْنُهُ وَيَفْهَمُ هَذَا السِّرَّ مَنْ هُوَ ذَاتُهُ

فقال ابن الحكم : كفر ، فقال ابن سوار : لا ، ما كفر ، لكن أنت ماتفهم ، وتشوش المجلس . وفي البيت وفي بقية الشعر ما يدل على ابن سوار يريد أن يقول - على أساس ما يزعمه من فكرة وحدة الوجود - إن الله هو الكون أو الوجود بجميع ما فيه ، والفكرة بأساسها - كما يرفضها ابن الحكم - يرفضها - كما ذكرنا ذلك أيضا - أهل السنة وأصحاب التصوف السني .

عفيف^(١) الدين التلمساني

هو سليمان بن علي بن عبد الله الكوفي التلمساني ، وتدل نسبته إلى تلمسان في الجزائر على أنه مغربي الأصل ، كما تدل نسبته إلى الكوفة على أن بعض آبائه نزل الكوفة واستوطنها فيما يبدو ،

الزاهرة ٢٩/٨ والشذرات ٤١٢/٥ وديوان الحقائق
ومجموع الرقائق لعبد الغني النابلسي ص ٢٨٩ ، ٣٢٦ .
وديوان عفيف الدين طبع قديما بالقاهرة وبيروت .

(١) انظر في عفيف الدين وأشعاره وأخباره فوات
الوفيات ٣٦٣/١ وراجع فيه ترجمة ابن الخيمي ٤٦٣/٢
وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٦/١٣ والنجوم

ولا نعرف شيئاً عن نشأته ، ويبدو أنه نشأ بدمشق وأنه اختلف إلى حلقات علماءها يأخذ كل ما عندهم ، ولعل ذلك ما جعله يؤلف في كل علم كما يقول صاحب الوفيات . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وعُرف فضله وأدبه ، ويقول مترجموه إنه خدم بعدة جهات يقصدون عدة مناصب ، وأغلب الظن أنها جميعاً كانت في دمشق وفي دواوينها وخاصة في بيت المال . وأخذ مبكراً يتصل بالمتصوفة ولزم صدر الدين القونوي أحد أتباع ابن عربي ، ويبدو أنه اعتنق مذهبه في وحدة الوجود على يده . ونزل معه في العقد السادس من القرن السابع خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، ومكثا بها مدة ، رُزق في أثناءها بابنه الشاب الظريف سنة ٦٦٦ وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل . ولقى في القاهرة مع أستاذه صدر الدين القونوي ابن سبعين الأندلسي ، وكان على شاكلة القونوي وابن عربي يؤمن بوحدة الوجود ، فأكدّها في نفس عفيف الدين . وعاد إلى دمشق ، وتارة كان يعمل بها في الدواوين ، وتارة ثانية كان يفرغ للتصوف داعياً إلى طريقة ابن عربي ، ومذهبه في وحدة الوجود . وترك دمشق مدة إلى الأناضول ، أو كما كانت تسمى حينئذ بلاد الروم ، وعمل فيها أربعين خلوة صوفية ، يخرج من واحدة ويدخل في أخرى . ويقول مترجموه إنه كان حسن العشرة كريم الأخلاق له حرمة ووجاهة ، ولعله لذلك لم يتعقبه الفقهاء ، وظل موزعاً بين عمله في دواوين دمشق وعمله في ميدان التصوف حتى توفي سنة ٦٩٠ للهجرة .

وكان تصوف عفيف الدين - كما ذكرنا آنفاً - تصوفاً فلسفياً على طريقة ابن عربي ، مما جعله يُعنى بشرح أعقد كتبه في التصوف ونقصد كتابه : « فصوص الحكم » وفي مكتبة ولي الدين بإستانبول مخطوطة منه . وأشعاره الصوفية أشعار غزلية حسية على طريقة ابن عربي في ديوانه « ترجمان الأشواق » من مثل قوله في قصيدته التي نظمها على غرار قصيدة ابن الخيمي المذكورة آنفاً في ترجمة ابن سوار :

لولا الحيمى وظباء بالحيمى عرب	ما كان في البارق النجدى لى أرب
وفي رياض بيوت الحى من إضم	ورد جنى ومن أكمامه الثقب
لاتقدر الحجب أن تخفى محاسنه	وإنما في سناه الحجب تنحجب
ياسالما في الهوى مما أكابده	رفقا بأحشاء صب شفه الوصب
هل السلامة إلا أن أموت بهم	وجدأ وإلا فبقياى هى العطب

وعفيف الدين يستشعر وجد المحبين إزاء محبوبه الربانى ، ويتحدث عنه حديثاً رمزياً ، فلولا

حماه ما كان له أمل وراء البارق النجدى ، ولا كان له ولوع بورد الخدود فى رياض بيوت الحى من لاضم . ويتصور كأن الأقنعة أو الحجب التى تُسدل على تلك الخدود هى أكمام الورود ، ويقول إن الحجب لاتستطيع أن تخفى محاسنه إذ تذوب فى سناه وضيائه المشرق . ويذكر أن أحشائه تستشعر أوجاع حبه وأن سلامته إنما هى فى أن يموت فى حب ربه وجدا وهيامًا ، وإلا فبقاؤه هلاكه ، ويقول إن السكارى يفيقون من سكرهم ، وهو لايفيق مما شرب من دَنّ هذا الحب الإلهى :

لا تحسبوا أنى عن حبكم سالى وحقكم لم يزل حالى بكم حالى
يا ساكنين قوادى وهو منزلكم لاعشتُ يوما أراه منكم حالى
أنتم بقلبي أدنى من جوانحه حقًا على رغم حسّادى وعُدّالى
أوضحتمّ لمحبيكم طريقكم حاشاكم تهجرونى بعد إيصالى

وفى البيت الأول تورية واضحة فى كلمة « حالى الثانية » إذ ليس المراد معناها الظاهر كما فى « حالى السابقة » وإنما المراد أن حاله لايزال بحبه لربه حاليا أومزدانا بحلى بديعة . ويقول إن محبوه الإلهى حال بفؤاده وأنه أدنى لقلبه من جوانحه ومايحيط بها من صدره ، وكأنما يشير إشارة إلى فكرة الاتحاد بالذات الإلهية التى كان يؤمن بها ابن عربى . ويتضرع إلى محبوه الربانى أن لايهجره بعد وصله . ويقول :

يا أصيحابى بذى سلم من أصيحابى وما السلم
أنا عنى اليوم فى شغل فاذكرونى إن نسيتم
وأشيعوا فى الحمى خبرى وأذيعوا السرّ واكتتموا
لايرانى الحبّ مُنئنيًا بعد ملاحته لى الخيم
كنتُ قبل اليوم فى حلم وتسقضى ذلك الحلم
فزمانى كله طرب دونه الأوتار والتقم

إنه على وشك أن يتحقق أمله فى الوصول إلى محبوه الإلهى . وهو لذلك يخاطب أصحابه بذى سلم أحد المواضع النجدية التى يذكرها أصحاب الغزل العذرى . ويرجع إلى نفسه وقد لاحت له أخيام محبوه ، كما يقول ، فيعلن أنه فى شغل عن أصحابه وعن السلم ، وأنه لن يثنى عن طريقه إلى محبوه الذى طالما حلم بوصله ولقائه ، وقد انقضى عهد الحلم . وهو لذلك فرح

مبتهج ، وزمانه من حوله كله طرب طربا يفوق طرب الأوتار والأنغام واللحون . ولما في هذه القطعة وسابقتها من وجد صوفي مندلع خَمَّسها عبدالغني النابلسي مع أبيات متصلة بهما لم ننشدها ، وهو وجد كان لا يزال يملأ قلب عفيف الدين غبطة وابتهاجا .

عبدالغني^(١) النابلسي

هو عبدالغني بن إسماعيل النابلسي الدمشقي الحنفي ، كان أبوه من فقهاء دمشق الأحناف ، وكانت له حلقة بجامعها الأموي . ودرس فيها بالمدرسة القيصرية وجامع السلطان سليم ، ورحل إلى حلب والقسطنطينية والقاهرة واستقر بدمشق . وولد له فيها ابنه عبدالغني سنة ١٠٥٠ للهجرة ، وعُني بتعليمه بعد حفظه للقرآن الكريم ، فلقنه المذهب الحنفي ، ودفعه إلى حلقات العلماء في دمشق يأخذ عنهم العربية والفقه والحديث النبوي والتفسير ، وأكبَّ على كتب الصوفية يقرأها . وسرعان ما نضج علميا وهو لا يزال في العشرين من عمره فأخذ يقرأ الدروس ويلقيها على طلابه ، مما جعله يكثر من التأليف والتصنيف حتى لتبلغ مصنفاته ٢٢٣ مصنفا ، وقد استغرقت في كتاب سلك الدرر للمرادى سبع صفحات . واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ يعنى بالتصوف ، فانتظم في الطريقة القادرية ثم في الطريقة النقشبندية ، وله فيها مخطوطة بدار الكتب المصرية عنوانها : مفتاح المعية في الطريقة النقشبندية ، ثم جذبته إليه مذهب ابن عربي الصوفي الفلسفي ، وكأنما عاش به وفيه وله ، إذ يصدر عنه بوضوح في ديوانه الصوفي . ديوان الحقائق ومجموعة الرقائق ، وهو فيه يجاهر بأنه يؤمن بوحدة الوجود التي آمن بها من قبله إمامه ابن عربي ، ويردّد دائما : ليس في الكون سواه ، فلا موجود إلا به ، وما الكائنات إلا صورة له ، يتجلّى فيها بأسمائه وصفاته ، يقول :

إنه	الله	وجود	واحد	حكمة	في	حرام	وحلال
وهو	حق	وسواه	باطل	قال	في	السبع	الطوال
أيما	أنتم	تولوا	ثم	الاله	الحق	محمود	الفعال

الرقائق في صريح المواجيد الإلهية والتجليات الربانية والفتوحات الأقدسية . طبع قديما بمصر بالمطبعة الأشرفية في ٤٧١ صفحة من القطع المتوسط .

(١) انظر في عبدالغني النابلسي وأستعاره وأخباره كتاب سلك الدرر ٣/٥٣٠ ومفحة الرحانة ٢/١٣٧ وتاريخ الجبرتي ١/١٥٤ وله ديوان الحقائق ومجموع

وهو يستدل على صحة القول بنظرية وحدة الوجود بقوله تعالى في سورة البقرة : (ولله المشرقُ والمغربُ فأينما تولُّوا فثم وجه الله) والآية إنما تشير إلى ان أى مكان من المشرق والمغرب يأمرهم الله باتخاذها قبلة تكون هناك جهته التي أمرهم بالاتجاه إليها لا أنه موجود فيها حالاً بها ومتحد معها كما يذهب النابلسي وابن عربي زاعمين أن ذاته هي ذات جميع الكائنات ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ويقول النابلسي متحدثاً بلسان الذات العلية :

ألا إن ذاتي ذاتُ كلِّ الخلائقِ وسلَّ عنه ذا علمٍ كريمٍ الخلائقِ
ولا صفةٌ إلا ومنى تعيَّنتُ لموصوفها إذ كنتُ أصلَ الدقائقِ
أنا الجوهرُ السَّاري بغيرِ سِرايةٍ ألوحُ وأخفي في جميعِ الحقائقِ
أنا النورُ نورُ العَيْنِ مني تكوَّنتُ عيونُ البرايا من مشوقٍ وشائقِ

فالله جوهر الوجود ، يلوح ويخفي ولاسواه ، إذ كل ما في الكون مظاهر له ، يصبغها بوجوده . ويحاول النابلسي جاهداً أن يفرِّق بين القول بالحلول وأن الله يحلُّ في جميع الموجودات وبين ما يزعمه هو وابن عربي من وحدة الوجود ، وإنما لتبلغ به أن يقول في مخاطبة ربه ، « ها أنت أنا وليس في الحضرة ثاني » أو كما يقول :

اثنان نحن وفي الحقيقة واحدٌ لكنْ أنا الأدنى وأنت الأكبرُ

فهو والله واحد بل جميع الكائنات والله - جل جلاله - واحد . وهي نفسها فكرة وحدة الوجود التي يحاول جاهداً الخلاص منها ولاخلاص فهو غارق فيها . وهو بذلك من أصحاب التصوف الفلسفي على طريقة ابن عربي . وله شرح على ديوان ابن الفارض حاول أن يحيله رموزاً خالصة على نحو ما نجد في شرحه لأول بيت في القصيدة البائية بالديوان :

سائقَ الأظعانِ يطوى البيدَ طيُّ مُنعمًا عرَّجَ على كُثبانِ طيُّ

يقول : « سائق الأظعان هو الله تعالى ، والأظعان : الناس وكثبان طي كناية عن المقامات المحمدية التي عددها كرمال الكثيب ، فكأنه يلتمس من الله تعالى أن يوصله - كما يوصل جميع المؤمنين - إليها » . وابن الفارض لم يقصد إلى شيء من هذا كله ، إنما خاطب سائق الأظعان المتجه إلى منازل طي على حافتي نجد والحجاز ليتمهَّل قليلاً حتى يجيئ من يمر بهم في طريقه إلى الحجاز معبراً بذلك عن حنينه إليه . وطبيعي وهو قد قرأ ابن الفارض وابن عربي وتمثل كثيراً من

أشعار المتصوفة محمسا لها ومشطرا كما يتضح في ديوانه الصوفي أن نراه تارة يتغزل في بثينة وعلوة وسلمى وزينب وسعاد ، وهي كلها رموز للذات الربانية ، وتارة ثانية يصف الخمر وساقيا وكأسها وشرابها وحبابها وما تحدث في روحه من نشوة وفي عقله من شطح . ونراه يهاجم علم الكلام والمتكلمين إذ يدعون إلى ضرورة العلم بالله عن طريق النظر العقلي الفلسفي لا كما يؤمن المتصوفة بأن هذا العلم إنما يستمد من القلب ، وشتان بين علم العقل والفلسفة وعلم المحبة القلبية . وله قصيدة بديعة في الاستغفار من ذنوبه وخطاياها امتدت إلى ٩٢ بيتا تلاها بالصلاة على الرسول الكريم وآله وأصحابه والتابعين وقصيدة ثانية توسل فيها بأسماء الله الحسنى أن يدفع عنه كل شر ويسبغ عليه كل خير ، وختمها أيضا بالصلاة على رسول الله وآله وأصحابه ، وله في الرسول غير قصيدة نبوية وغير موشح وقد افتتح موشحا له بقوله :

نورُ طَـةِ المصطفى منه جميعُ الكائناتِ وبه كان الترقى في جميع الدُّرجاتِ

ونحسُّ في الموشح إيمانه بفكرة الحقيقة المحمدية السارية في الكون بأسره التي تحفظ عليه كيانه وتصون وجوده ، فكل وجود مستعار من وجوده وكل نور مستمد من نوره . وفي الديوان موشحات ودوبيتات أو رباعيات كثيرة ، وتكثر مثلها المواليا العامية ، وفي الديوان أيضا منظومة صوفية من وزن « كان وكان » العامي .

٦

شعراء شعبيون

لأنقصد بشعبية الشعراء في الشام أنهم نشأوا في بيئاتها الشعبية من سلالة عامتها ، فذاتما جمهور الشعراء في كل بلد عربي انحدروا من أسر شعبية ولم ينحدروا من أسر أرستقراطية ، وإذا استثنينا أبا فراس وبعض أفراد أشهرته الحمدانية ممن أنشد أشعارهم الثعالبي . وأيضا بهرام شاه الأيوبي صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ للهجرة ونقرأ من أفراد أسرته ممن ترجم لهم العماد في خريدته بقسم الشام ومن جاء بعدهم مثل الملك الأشرف صاحب « حصن كيفا » حفيد الملك العادل أخى صلاح الدين المتوفى سنة ٦٣٦ إذا استثنينا هؤلاء الأمراء وهم قلة بجانب الكثرة الغامرة من الشعراء وجدنا من عداهم من أبناء الشعب . وكان بينهم غير شاعر يحترف عملا يكفل له عيشه ، مثل يحيى الخباز الحموي الذي أنشد له صاحب الخزانة طرائف كثيرة من تورياته ، وبالمثل صنع مع

شمس الدين محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٨١١ واشتهر باسم صنعته . شمس الدين المزين : لا نريد إذن بشعبية الشعراء التالين نشأتهم في أوساط شعبية ، وإنما نريد أنهم اتخذوا لغة الشعب العامية لسانا لهم في أشعارهم .

وكانت قد أخذت تشيع في الشعر لهذا العصر فنون شعرية عامية هي : الزجل والموالي ، والقوما والكان وكان ، ومعروف أن الزجل نشأ في الأندلس أولا عند ابن قزمان وصحبه في القرن الخامس ثم شاع في البلاد العربية . أما المواليا والقوما والكان وكان فنشأت أولا بالعراق ثم أخذت تشيع في البلاد العربية منذ القرن السابع . وربما كان الزجل أكثرها شيوعا في الشام يدل على ذلك أكبر الدلالة أننا نجد صفي الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة في كتابه : « العاقل الحلبي » ينوه بشيوع الزجل لزمنة هناك ، ويقول إنه لقي من أعلامه بدمشق شهاب الدين أحمد الأمشاطي إمام هذا الفن الشعبي بها كما لقي بحلب راوية ثقة من أكبر رواة هو ابن الضرير الشيخ الصالح إمام الفردوس ، وكان قد جلب لنفسه نسخة وثيقة مقابلة على الأصل من ديواني الزجالين الأندلسيين الكبيرين : ابن قزمان ومدغلييس حملت إليه من المدرسة الأشرفية بدمشق . ويذكر صفي الدين أنه كان قد حصل على الديوانين في زيارته لمصر (٧٢٣ - ٧٢٦ هـ) غير أنها كانا بخط مغربي تعسر قراءة بعضه ، فصصح الديوانين بمقابلة نسخة ابن الضرير ومراجعته ، وأجاز له بخطه مانقله عن نسخته ، وعرفه بمشايع الزجل في حلب . ومن أعلامه البارعين حينئذ بحجة علاء الدين بن مقاتل ، وسترجم له عما قليل . ولعلنا لانعجب بعد أن رأينا إقبال أهل الشام على قراءة ابن قزمان ورواية أزجاله أن تكون هي القطر الوحيد الذي احتفظ إلى عصرنا بمخطوطة أزجال ابن قزمان الوحيدة التي عثر عليها جنزبرج سنة ١٨٩٦ ونشرها بطريقة الزنكغراف . ولعل من الطريف أن نعرف أن . . فقيها محدثا كبيرا هو شمس الدين بن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة ألف شرحا على بردة البوصيري باسم رقم البردة ، استشهد فيه بشعر أهل زمنه فيما عرض له من أنواع البديع وأيضا استشهد بطائفة من محاسن أزجالهم^(١) ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة من هذا الشرح . وهو اعتراف فوي بالزجل وصلاحيته ليكون مادة لتعليم البلاغة والتطبيق على محسناتها المختلفة .

وكانت المواليا شائعة أيضا ، وإن لم يقصر بعض الشعراء نفسه على النظم فيها . وكانما كان الشعراء يضيفونها إلى شعرهم الفصيح استطرافا ، وقلما تُصاغ صياغة فصيحة ، إذ تطرد فيها

(١) انظر خزانة الأدب للحموي ص ٦ . ١٧٦

العامية ، ومما يلقانا من طرائفها قول جوبان بن مسعود الدمشقي المتوفى في حدود سنة ٦٨٠ للهجرة^(١) :

أفارقهُ وأول إني قد أتسلّيتُ وريحتُ قلبي وزال الهم واتخَلَّيتُ
واذكر مساويه في حقّ إذا وليتُ وإذا رجعتُ نِسيتُ الكلّ واتخَلَّيتُ

والتورية واضحة في كلمة « واتخَلَّيتُ » المكررة قافيةً للبيتين ، والأولى من التخلّي بمعنى أنه أصبح خالياً من الهم والغم ، والثانية كلمة عامية من الخلل ، تقول العامة أصابه خلل واختل عقله . ويريد أنه إذا لقي صاحبه أصابه ذهول ، فنسى كل ما كان فيه من فكر فيها وسلوى عنها وُبعد عن الهم .

ونلتقي بمعاصره عز الدين بن السويدي المتوفى سنة ٦٩٠ وهو من سلالة سعد بن معاذ الأوسي سيد قومه الصحابي الجليل . وكان شيخ الأطباء بدمشق ، وكان - كما يقول بعض من ترجموا له - من أسرع الناس بديهة في قول الشعر وأحسنهم إنشادا ، وله مواليا^(٢) :

البدر والسَّعدُ ذا شِبْهكُ وذا نَجْمكُ والقَدُّ واللَّحْظُ ذا رِمْحكُ وذا سَهْمكُ
والبغضُ والحبُّ ذا قِسمي وذا قِسمكُ والمسكُ والحسنُ ذا خالكُ وذا عَمكُ

فصاحبه تشبه البدر ونجمها أو حظها السعد ، وقدها مستو ممشوق مثل الرمح ولحظها فاتك قاتل مثل السهم ، والبغض قسمها ونصيبها والحب قسمه ونصيبه ، والمسك خال الحسن على وجنتها والحسن يعم كل أعضائها وفي كلمة « عمك » تورية واضحة . وله مواليا أخرى فكهة :

ذى قايله لاخْتها والقصد تُسمعنا ما النحو؟ قالت لها : نِحْنَا بأجمعنا
الرفع والنصب نا وانتي ومن معنا للججر ، والزوج حرف جاء للمعنى

والدعابة للنحو والنحاة واضحة ، وكلمة نحنا هي نحن بالفصحى . ونظّم أصحاب المواليا في جميع أغراض الشعر من غزل ومديح وهجاء وخمر وطبيعة ، واستغلّوها المتصوفة فنظموا مواليات كثيرة . ونلتقي في ديوان عبد الغني النابلسي بنحو ثمانين مواليا نكتفي منها بقوله^(٣) :

(١) فوات الوفيات ٢١٨/١

تغرى بردى ١٢٧/١

(٢) راجع في هذه المواليا وتاليها المهمل الصافي لاس

(٣) ديوان الحقائق للنابلسي ص ٢٦٨ .

ألباطن السابق الظاهر هو المسبوق والكل واحد فكن أعلى من العيوق
 واخرج عن الكل أنت الكل يامعتوق أما الجميع هو الخالق أو المخلوق
 فليس في الكون إلا وجود واحد هو وجود الله المتمثل في جميع مخلوقاته ، أو بعبارة أخرى
 هي وحدة وجود تغمر الكون كله .

ومعروف أن القوما اخترعها المغنون والمنشدون ببغداد لإيقاظ الناس كي يتناولوا سحورهم
 استعدادا للصوم ، وكانوا ينجتمون كل بيتين منها أو دور بكلمة « قوما للسحور » ومن هنا أخذت
 اسمها وشاعت في البلدان العربية . أما الكان وكان فقد اخترع البغداديون وزنه لنظم الحكايات
 والخرافات وأحداث التاريخ ، ثم اتسعوا به فنظموا فيه المواعظ والزهديات والحكم كما مر بنا في
 قسم مصر . ولاين الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ منظومة^(١) منه صور فيها أحداث وباء الطاعون الذى
 امتُحنت به الشام ومصر سنة وفاته . وفي ديوان عبدالغنى النابلسى منظومة صوفية منه في
 عشرين^(٢) بيتا تصور عقيدته في وحدة الوجود . وحرى بنا أن نتحدث بكلمة بجملة عن
 أبى العلاء بن مقاتل الزجال .

أبو^(٣) العلاء بن مقاتل

هو على بن مقاتل الحموى ولد سنة ٦٧٤ بجماة ، ويقول ابن حجر إنه « تعانى الأدب فتعلم
 الشعر قليلا ، وغلب عليه نظم الأزجال فاشتهر بها ، وأزجاله في ديوان مفرد في مجلدين .. وكان
 هذا الفن قد انتهى إليه في زمنه .. وكانت وفاته في أوائل سنة ٧٦١ » ويذكر ابن حجر أن له
 زجلا مشهورا في الملك المؤيد صاحب حماة (٧١٠ - ٧٣٢) أنشده إياه وعنده ابن نباتة والصفى
 الحلبي . وكان الصفى قد نزل حماة ومدح المؤيد وابنه الأفضل في أواخر العقد الثانى وأوائل الثالث
 من القرن الثامن . ويشيد به ابن حجة الحموى في خزانته قائلا : « وكان الشيخ علاء الدين بن
 مقاتل إذا ذكر الزجل كان ابن بجدته وأبا عذرتة ، ومن سلّمت إليه مقاليد هذا الفن .. وأورد
 الشيخ صلاح الدين الصفدى نبذة من غرر أزجاله في تذكرته وتاريخه تغنى عن الإكثار في
 ترجمته » . وينشد الحموى زجله المشهور آنف الذكر وهو يستهله على هذا النمط :

للحموى ص ٤٧ ، ٥٠ ، ١٧٦ والدرر الكامنة في أعيان
 المائة الثامنة لابن حجر ٢٠٨/٣ وأنشد النواجى له في كتابة
 عقود اللآل ستة أزجال (انظر الفهرس)

(١) تنمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردى
 ٣٠٢/٢ .

(٢) ديوان الحقائق للنابلسى ص ٣٥٦ .

(٣) انظر في أبى العلاء بن مقاتل وأزجاله خزانة الأدب

قلبى يحب تَيَّاهَ ليس يعشق إلا إياه فاز من وقف وحيَّاهَ يرصد على مُحَيَّاهِ
 بَدْرَ السَّمَا لو يطبع من رام وصالُّو يعطُّبُ
 صغِيرَ يَحْيَرِ فى أمرو غزال قهر بِسُمُرُو ليث الهوى ونمرو فاعجب لصغر عمرو
 ريم ابن عشرٍ وأربع أرْدَى الأسود وأرعب
 أذكر نهار تبعتو وروحي كنت بعنو وخيِّب مافيه طمعتو فقال وقد سمعتو
 ارجع ولالى تتبع أخشى عليك لتتعب
 كم قدامو وخلفو مشيت مطيع لخلقو ورُمْتُ لثم كَفُو قال دَعْ مُنَاك وكَفُو
 فَإِنَّ لثم إصْبَعُ من الثريا أصعب

.. وبمجرد أن نسمح هذا الصوت نعرف أن صاحبه زجال مبدع لقدرته على اختيار الألفاظ بحيث يعانق بعضها بعضاً منذ الدور الأول « فتَيَّاه » تجذب إياه و « حيَّاه » تجذب محياه ، وبالمثل « يطبع » فى القفل تجذب يعطب . وكأننا فى مرقص للألفاظ وبذلك يتسق النغم فى الزجل اتساقاً بديعاً ، وكأنه عطر للآذان تستروحه مع روعة التصاوير وخفتها ورشاقتها ، فصاحبته بدر فى السماء لاتصل إليه الأيدي ، وهى غزال تقهر بعينها الكحيلتين أو السمراوين .. مع صغرها الليوث والنمور . وتهلكها وترعبها رعباً . ونصحته أن لا يتبعها ، فأمله فيها سراب كاذب . ويحاول لثم كفها أو أنملا من أناملها فتقول له الثريا وأخواتها من نجوم السماء أقرب لك . وهى صنعة زجلية رائعة منتهى الروعة . وقد تلاعب بالجناس المقلوب فى الأفعال تلاعباً يدل على مبلغ مهارته ، فيطبع تقابلها يعطب ، وأربع تقابلها أربع ، وتتبع تقابلها تتعب وإصبع تقابلها أصعب . وبذلك كله يتحول الزجل باللغة اليومية العادية التى لا تحتوى فناً إلى لغة زجلية شجية النغم كأنها تغريد عندليب مع ما يحمل العندليب أنغامه من تلاوين الصور والأخيلة ، وبحق يقول صاحب الخزانة عن هذا الزجل : « سارت به الركبان » . وأنشد له صاحب الخزانة زجلين آخرين بديعين .

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

الرسائل الديوانية

عرفت الشام الرسائل الديوانية منذ عهد معاوية أول خلفاء بني أمية ، لما كان من اتخاذه لديوان الرسائل ، واتخذ معه ديوانا للخراج وديوانا ثانيا للخاتم (١) أو ختم الرسائل التي تصدر عنه إلى الولاة ، وهمنا خاصة الديوان الأول : ديوان الرسائل ، إذ مضى معاوية ومن تلاه من الخلفاء الأمويين على اختيار من يقومون عليه ، بحيث يكونون في الذروة من البيان والبلاغة لترجمهم ، وقد ظلوا طوال القرن الأول يختارونهم من العرب ، ويذكر الجهشيارى أثباتاً طويلة بأسمائهم . أما ديوان الخراج فكان يقوم عليه كتاب من الموالي فأصبح كتابه من العرب ، وسرعان ما عني الكتاب الأجانب بتعلم العربية وأخذوا يشاركون في ديوان الرسائل (٢) .

وما نصل إلى زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٤ - ١٢٤ هـ) حتى يصبح زمام ديوان الرسائل في دمشق بيد مولى لهشام هو سالم (٣) ، وكان يتقن اليونانية ونقل عنها بعض رسائل لأرسططاليس (٤) ، ومعنى ذلك أنه كان مثقفا ثقافة عريضة بالعربية والإسلام واليونانية ، وعده صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأول في تاريخ العرب وأدبهم ويقول إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة (٥) واحتفظ الطبري برسالة له كتبها عن هشام إلى خالد القسرى ، وهي تحمل عناية واضحة بالأسلوب وما يوفره له من الازدواج والترادف الصوتي . وتبعه في النهوض بالرسائل

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبي) ص ٢٤ .
(٢) انظر في ذلك الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ١٠٣ .
(٣) الجهشيارى ص ٦٢ .
(٤) الفهرست ص ١٧١ .
(٥) انظر الفهرست ص ١٧١ ، ١٨٢ .

السياسية تلميذان : أحدهما من بيته هو ابنه عبد الله ، وثانيهما من غير بيته هو عبد الحميد الكاتب الذي انتهت إليه رئاسة ديوان الرسائل في أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وهو أبلغ كتاب الدواوين وأشهرهم حتى زمنه ، لبلاغته وقد ضربت بها الأمثال ، فقيل : « بُدئت الكتابة بعبد الحميد وتُختمت بابن العميد »^(١) ويقول ابن النديم : « عنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسل »^(٢) ويقول المسعودي إنه « أول من استخدم التحميدات في الكتب »^(٣) واشتهر برسالة وجّه بها إلى الكتاب ، وهي تدل على نمو طائفتهم وأنهم أخذوا يشكّلون فئة بارزة في حياة الدولة والمجتمع ، وفيها ينصحهم أن يلموا بالثقافة الإسلامية والعربية والأجنبية^(٤). وكان يعرف الفارسية ، ويقول صاحب الصناعتين إنه استخراج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحوّوها إلى اللسان العربي^(٥) وذكر الجاحظ أنه ترجم بعض كتب من الفارسية . وتحتفظ الكتب الأدبية ببعض رسائله السياسية ، ومنها رسالة^(٦) طويلة كتب بها عن لسان مروان بن محمد إلى ابنه وولى عهده عبد الله حين وجّهه لمحاربة بعض الخوارج ، وهي أشبه بكتيب يشتمل على دستور محكم لقواد الدولة يضع لهم نظاما دقيقا لجيوشهم وتدير شؤونها من الوجهتين المادية والحربية . هو مجرد أن تحولت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين وحلت بغداد محل دمشق أصبحت هي والشام جميعه ولاية تابعة للعباسيين ، ولم يعد لديوان الإنشاء كبير أمر في عصر الولاة والطولونيين والإخشيديين ، بل لقد تعطل تماما ، ولم نعد نسمع للدمشق أو للشام بكاتب كبير ، إذ تحولت الكتابة الديوانية وتحول معها ديوان الإنشاء إلى بغداد ، وأصبحنا طوال القرون : الثاني والثالث والرابع مشدودين إلى ديوان بغداد وكتّابه العظام ، وأخذت الدولة الطولونية تعنى في الفسطاط بهذا الديوان وظهر فيه ابن عبدكان وأضرابه ، واستمر هذا النشاط زمن الإخشيديين ولكن شيئا منه لم يسقط إلى الشام ، إذ كانت حينئذ ولاية تابعة للطولونيين والإخشيديين جميعا ، وظل كثير من بلدانها تابعا لمصر في زمن الدولة الفاطمية ، ولم ينشأ حينئذ في دمشق أو غيرها ديوان إنشاء ينهض الكتاب فيه بالكتابة الديوانية ، حتى إذا أظلمت دمشق حكم دولة الأتابكة البوريين (٤٩٧ - ٥٤٩ هـ) رأيناها تعنى

(١) اليتيمة للثعالبي (تحقيق محمد محيي الدين

١٧٨/٣

عبد الحميد) ١٥٤/٣ .

(٤) الجهشيارى ص ٧٣ وما بعدها

(٢) الفهرست ص ١٧٠ .

(٥) الصناعتين (طبعة الحلبي) ص ٦٩

(٣) مروج الذهب للمسعودي (طبعة دار الرجاء)

(٦) صبح الأعشى للقلقشندي ١٩٥/١٠ وما بعدها .

بهذا الديوان ، ويشتهر ببلاغه الكتابة فيه كتاب مختلِفون ، لعل أهمهم سنى الدولة^(١) ابن أخى الشاعر ابن الخياط الذى ترجمنا له بين شعراء المديح ، ويذكر له العباد قطعا مختلفة من منشوراته وتقاليده ، من ذلك قوله فى منشور بالوزارة :

« لما كان محله عندنا خطيرا ، ومكانه لدنيا مكينا أثيرا ، لاقرين يجاربه ، ولا نظير يماثله
وأياربه ، ولا متناول يطمع فى إدراك معاليه ، شددنا بركنه أركانها ، وسددنا به مكانها ، وعولنا
عليه فيها ، واستنهضناه لتوليها ، ورأيناها كفاها وكافيا » .

وكتاباتة على هذا النحو دائما مسجوعة سجعاً فيه غير قليل من الرشاقة والعدوية . وكتب بعده
لسلاطين دمشق البوريين عبد الله بن أحمد الحميدى المعروف باسم ابن النقاد^(٢) الكاتب
الدمشقى ، وظل يكتب لهم إلى أن تملكها منهم نور الدين محمود ، وكتب له مدة يسيرة ، وتوفى
سنة ثمان أوتسع وستين وخمسمائة ، ولم يذكر العباد شيئا من كتاباته .

ويُظنُّ حلب ودمشق . وبلدان الشام الشمالية عهد نور الدين (٥٤١ - ٥٦٩ هـ) وكان
وزيره ومستوفى دواوينه وكتابة الإنشاء فيها خالد بن محمد بن القيسرانى ، وهو ابن الشاعر المترجم
له بين شعراء المديح ، ويقول العباد فيه : « كان نور الدين رفعه واصطنعه ، وبلغ منه مبلغا من
الأمركأنه أشركه فى الملك معه »^(٣) ويذكر له ابن واصل توقيعاً كتبه باسم نور الدين لرفع المكوس
والضرائب الباهظة عن كاهل رعيتة فى البلدان التى أظلمها حكمه جاء فيه^(٤) .

« وقد علمتم - معاشر الرعايا وفقكم الله ورعاكم - ما كان مرتبا من المظالم المجحفة بأحوالكم
والمكوس المستولية على شطر أموالكم ، والرسوم المضيقة عليكم فى أرزاقكم ، والمئون التى
تساهمكم فى منافع أملاككم ، واستمرار ذلك عليكم إلى أن فوّض الله - عزَّ وجلَّ - لنا - تدبير
أموالكم ، واسترعانا على كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولا فأولا ، ولم نبتغ فى
إقراره على وجوهه شُبُهة ولا تأولا » .

ويلى ذلك بيان بما أسقط نور الدين عن كل بلد من المكوس والضرائب . وكان من كتابه
أبو اليسر^(٥) شاكر بن عبد الله المعرى كاتب الإنشاء بدمشق ، واستعفاه من الخدمة سنة ٥٦٣

(٤) انظر مفرج الكروب لابن واصل ٢٧٠/١ وما
بعدها .

(٥) الخريدة (قسم الشام) ٣٥/٢ وراجع فى أبى
اليسر تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥٠٤ .

(١) انظر فى سنى الدولة الخريدة (بداية الشام) ص
٢٢٧ .

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٣١٤/١ وتهذيب تاريخ
ابن عساكر ٢٧٧/٧ والنجوم الزاهرة ٦٥/٦ .

(٣) الخريدة ١٢٥/١ .

فأقام العماد الأصبهاني مقامه ، وأضاف إليه - كما هو معروف - التدريس في مدرسته المعروفة باسم المدرسة النورية الشافعية . ووصله القاضي الفاضل بصلاح الدين فرسم باست كتابه في ديوانه بالشام ، وسنفرده له ترجمة مجملية ، وهو أكبر كتاب الدولة الأيوبية في دمشق والشام غير منازع . وتحول الشام إلى إقطاعات بعد زمن صلاح الدين ، حتى ليوشك أن يكون لكل بلد أمير أيوبي ، ويتخذ كل أمير لنفسه كاتب رسائل نابه ، وكان بينهم غير مصري مثل ابن النيه كاتب الأشرف موسى ، وهو مشهور بين شعراء الغزل في مصر ، ومثل عبد الرحيم بن علي بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ صاحب ديوان الإنشاء للمعظم عيسى الأيوبي صاحب دمشق ، وله كتاب في عمل الدواوين وتقاليد الكتابة الديوانية لزمن الدولة الأيوبية سماه « معالم الكتابة ومغانم الإصابات » وهو مطبوع قديما ببيروت ، وهو أحد مصادر كتاب صبح الأعشى للقلقشندي . ويكثر منذ هذه الدولة ودولة المماليك أن يعهد برياسة ديوان الإنشاء بمصر إلى من يظهرون تفوقا في إسناد هذا الديوان إليهم بدمشق ، ونذكر منهم تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبي المنشئ المتوفى سنة ٦٩١ للهجرة ، عمل في ديوان الإنشاء بدمشق ، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة في عهد الظاهر بيبرس وقلاوون ، وظل يترقى إلى أن ولي كتابة السر ، ويقول ابن تغري بردي : « لكلامه رونق وطلاوة » ويذكر من إنشائه كتابا عن قلاوون إلى صاحب اليمن بفتحها لطرابلس واستيلائه عليها من أيدي الصليبيين نوه فيه باستعلاء قلاوون على غيره من الحكام القاعدين عن منازل حملة الصليب الغارقين في اللهو ، يقول (١) :

« وكانت الخلفاء والملوك ما فيهم إلا من هو مشغول بنفسه ، مكب على مجلس أنسه ، يرى السلامة غنيمة ، وإذا عن له ووصف الحرب لم يسأل منها إلا عن طرق الهزيمة ، قد بلغ أمله من الرتبة وقنع من ملكه بالسكّة والخطبة ، وأموال تُنهب ، وممالك تذهب . »
ويريد بالسكّة ضرب النقود ونقش أسمائهم عليها كما يريد بالخطبة دعاء خطباء المساجد لهم في ختام خطابهم يوم الجمعة . وتولى بعده كتابة السر في القاهرة ابنه عماد الدين حتى توفي سنة ٦٩٩ وشغل مكانه أخوه علاء الدين علي في عهد محمد الناصر بن قلاوون .

وأكبر كتاب الشام الذين رأسوا ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة الشهاب محمود المتوفى سنة ٧٢٥ ، وقد مرت ترجمته بين شعراء المديح واحتفظ القلقشندي في صبحه بنماذج كثيرة من رسائله

(١) النجوم الزاهرة ٣٢٣/٧ وراجع في ترجمته ٣٤/٨

ونوحياته الديوانية ، وذكر هو نفسه منها طائفة في كتابه « حسن التوسل إلى صناعة التوسل » وذكر ابن حجر عن الصفدي أن رسائله تدخل في ثلاثين مجلداً وأن بعض الفضلاء اختار منها مجلدين ، ومن قوله في التهئة بتقليد سيف^(١) :

« وقلده مِنَّا : سيفاً تلمع مخايل النصر من غمده ، وتشرق جواهر الفتح في فرنده ، وإذا سابق الأجل إلى النفوس عرف الأجل قدره فوقف عند حدّه ، ومتى جرده على ملك من ملوك العدا وهت عزائمهم ، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قوادمه ، وعلم أنه سيفنا الذي على عاتق الملك الأعز نجاده وفي يد جبار السموات قائمه » .

ومن كبار كتاب الشام الذين عملوا فيها وفي مصر في دواوين الإنشاء صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ وسنخسه بكلمة ، ومنهم ناصر الدين محمد بن محمد الحموي المعروف بابن البارزي المتوفى سنة ٨٢٣ تولى قضاء حماه ثم كتابة سرها وصحب السلطان المؤيد شيخ أيام نيابته بدمشق ، وقدم معه إلى مصر حين تسلطن عليها سنة ٨١٥ وعينه كاتب السربها إلى أن توفى ، وقد احتفظ القلقشندي له بعهد عن الإمام المستعين (الخليفة العباسي المقيم بمصر حينئذ) للسلطان المؤيد شيخ ، وفيه يقول^(٢) :

« الحمد لله الذي جعل الدين بنصره مؤيدا ، وانتضاه لمصالح الملك والدين فأصبح ومن مرهفات عزمه بادئة بائدة العدا ، وفتح على فقر الزمان بشيخ ملك زويت له عوارف العدل ومعارف الفضل ، فاستغنى ولله الحمد - بسعيد السعدا ، وأصلح فساد الأحوال بأحكام رأيه وإحكام حكمه ، فأصبحت مأمونة الرداء ، آمنة من الردى ، وامتن على أولياء الدولة الشريفة بمن لم يزل سَهْمُ تديره الشريف فيهم مسددا » .

وقدرة ابن البارزي الإنشائية تتضح في هذه السطور ، إذ يطيل سجعاته وقد جعل الدال قوافيها جميعا ، وهو إنما يطيل سجعاته ليضيف إليها الجناس كما في « بادئة وبائدة » و « أحكام وإحكام » و « الرداء : الثوب (كناية عن الأحوال) والردى : الهلاك . ويفسح أيضا للسجع الداخلي في السجعة مثل : « عوارف العدل ومعارف الفضل » .

(١) حسن التوسل إلى صناعة التوسل طبع المطبعة الوهية ص ١٠٠ . وفرند السيف : لمعان صفحته . والقوادم : ريشات الطائر الكبار في جناحه . ونجاد : الزاهرة ١٦١/١٤ .

السيف : حائله .

(٢) صبح الاحشيق ١٢١/١٠ وانظر في ترجمته النجوم

الزاهرة ١٦١/١٤ .

وعين ابن البارزى فى ديوان الإنشاء أديبا مواطنا له هو ابن حجّة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ وسنفرد له كلمة قصيرة ، وخلف ابن البارزى فى كتابة السراىنه كمال الدين ، وكان تارة يُعزّل وتارة يعود إلى كتابة السراىنه حتى وفاته سنة ٨٥٦ .

وراء هؤلاء الكتاب الديوانيين الذين بلغ من نبوغهم فى الكتابة الديوانية أن نقلتهم الدولة إلى القاهرة فى ديوانها الكبير كتّاب كثيرون كانوا يكتبون لحكام البلدان الشامية ، وأهمهم كتّاب ديوان دمشق إذ كان بها نائب السلطان ، وكان ديوانها لذلك أهم الدواوين الشامية ، ونذكر من كتّابها علاء الدين على بن محمد بن سلّمان المعروف بابن غانم المتوفى سنة ٧٣٧ ومن نثره فى وصف قلعة (١) :

« لاترى العيونُ لبعده مرماها إلا شزرا ، ولا ينظر سكانها العدد الكثير إلا نزرا ، ولا يظن ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بما لها من الأبراج ، ولها من الفرات خندق يحفها كالبحر إلا أن هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » .

ونذكر من أهم كتّاب السراىنه فى دمشق أو بعبارة أخرى رؤساء ديوان الإنشاء بها حفيد تاج الدين بن الأثير المذكور آنفا ، وهو كمال الدين محمد بن إسماعيل ثم ابنه عبد الله ، تولّى كتابة السراىنه بدمشق فترة وعزّل سنة ٧٦٤ وتولاها فتح (٢) الدين بن الشهيد حتى توفى سنة ٧٩٣ وكان بارعا فى الشعر وكتابة الرسائل ، ونظم السيرة لابن هشام فى رجز بلغت عدته خمسين ألف بيت . ومنهم صدر الدين على بن محمد المعروف بابن الأدمى المتوفى سنة ٨١٦ ولى نظر جيش دمشق ، ثم كتابة سراىنه ثم قاضى قضائها ، ونقله معه المؤيد شيخ حين أصبح سلطانا لمصر سنة ٨١٥ وجمع له بين القضاء والحسبة وفيه يقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان إما مابارعا أديبا فصيحاً ذكيا (٣) » . وما زالت الكتابة الديوانية مزدهرة بدمشق إلى أن استولى عليها العثمانيون سنة ٩٢٢ وأصبحت اللغة التركية اللغة الرسمية للدواوين فيها وفى غيرها من بلدان الشام . ونقف قليلا عند ثلاثة من كتّابها النابهين .

(١) فوات الوفيات ١٥٩/٢ . النظر الشزر : المستهين ،

(٢) النجوم الزاهرة ١٢٥/١٢

(٣) النجوم الزاهرة ١٢٢/١٤ .

فوات : حلو . أجاج : شديد الملوحة .

العماد^(١) الأصبهاني

هو عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ، ولد بأصبهان سنة ٥١٩ وقدم به أبوه إلى بغداد واستقر بها . وانتظم هوفى سلك المدرسة النظامية مع لداته من الناشئة ، وتفقه بها ، وثقف علوم العربية ، وعاد مع أبيه إلى أصبهان سنة ٥٥٢ ، ولم يلبث أن رجع إلى بغداد ، واتصل بوزيرها عون الدين بن هبيرة فولاه نظر البصرة ثم نظر واسط . وتوفى ابن هبيرة سنة ٥٦٠ وسُجن العماد فيمن سُجن من أتباعه ، ورُدَّت إليه حرته سريعا ، غير أنه لم يستطع أن يستردَّ مكانته ، ورأى أن يفارقها ، وولَّى وجهه نحو دمشق ، ونزلها سنة ٥٦٢ وكانت قد أصبحت تابعة لنور الدين محمود ، وقلَّته قاضي دمشق كمال الدين بن الشهرزوري إلى أمير مهم من أمراء نور الدين هو نجم الدين أيوب ، فاكسب حظوته وحظوة ابنه صلاح الدين ، ثم قدمه القاضي إلى نور الدين فأعجب به واتَّخذه صاحب سره ، وبعث به رسولا إلى الخليفة المستنجد ببغداد ، ونجح في مهمته . وعاد ففوض إليه نور الدين سنة ٥٦٧ التدريس في مدرسته النورية التي أنشأها بدمشق لدراسة الفقه الشافعي ، وقد سماها من أجله تكريما له المدرسة العمادية . ولم يلبث أن أضاف إليه رئاسة ديوان الإنشاء . ولما توفى نور الدين سنة ٥٦٩ عزلت حاشية ابنه اسماعيل العماد من وظائفه ، فترك دمشق قاصدا بغداد ، ومرض في طريقه إليها بالموصل ، وعلم أن صلاح الدين قدم من القاهرة إلى دمشق للاستيلاء عليها ، فعاد تَوًّا ، والتقى بصلاح الدين في حمص ، وقدمه إليه وزيره القاضي الفاضل ، ورغبه في إلحاقه معه بخدمته ، فاستكتبه صلاح الدين وظل يلزمه في الشام ورحل معه ذات مرة إلى الديار المصرية . ولما توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩ كتب من بعده لابنه نور الدين حاكم دمشق ، حتى إذا استوزر ضياء الدين بن الأثير استعفاه من عمله . وزار مصر حينئذ ، ثم عاد إلى دمشق ، فلزم داره يصنف ويؤلف حتى توفى سنة ٥٩٧ .

والعماد الأصبهاني أديب كبير : كاتب وشاعر ، وكان له ديوان كبير في أربعة مجلدات وديوان صغير كله رباعيات ، وقد أنشدنا بعض شعره في حديثنا عن شعراء المديح والرثاء ، وكان يجيد الفارسية

الشافعية للسبكي ١٧٨/٦ والهداية والنهاية ٣٠/١٣ ومرآة الجنان ٤٩٢/٣ والشذرات ٣٣٢/٤ والجزء السادس من النجوم الزاهرة (انظر فهرسه) . وفي كتابه : البرق الشامي والخريدة أخبار وأشعار كثيرة له .

(١) انظر في ترجمة العماد : معجم الأدباء ١١/١٨ وابن خلكان ١٤٧/٥ والروضتين في مواضع مختلفة والجزء الثاني من مفرج الكروب لابن واصل وعبر الذهبي ٢٩٩/٤ والوافي بالوفيات ١٣٣/١ وطبقات

لغة موطنه ، ومنها نقل كتاب كيمياء السعادة للإمام الغزالي . ومُرَّبنا في حديثنا عن التاريخ وكتبه ذكر مؤلفاته التاريخية : كتاب البرق الشامي الذي وصف فيه أحداث حياته منذ انتقاله من العراق إلى دمشق وأثناء خدمته لنور الدين وصلاح الدين وفتوحاتها وهو في سبعة مجلدات ، وكتاب الفيح القسي في الفتح القدسي في وصف فتح صلاح الدين لبيت المقدس ، وكتاب نصرة الفطرة وعُصرة القَطْرَة في تاريخ السلاجقة ووزرائهم : وذكرنا - في غير هذا الموضع - أن الفتح البنداري اختصره باسم « زبدة النصرة ونجبة العصرة » وأنه طبع في القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . والكتاب الرابع كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ، وهو في شعراء القرن السادس من الأندلس إلى أواسط آسيا حتى تاريخ كتابته في أوائل العقد الثامن من القرن السالف . وله وراء ذلك كتب تاريخية لم تصلنا منها كتاب العُقبى والعُقْبَى في بيان الأحداث التي تلت وفاة صلاح الدين حتى سنة ٥٩٢ وكتاب نحلة للرحلة وصف فيه رحلته إلى مصر بعد وفاة صلاح الدين ، وكتاب خطفة البارق وعطفة الشارق في ذكر أحداث من سنة ٥٩٣ حتى سنة وفاته . وقد عمم العماد في كتاباته التاريخية السجع وبعض المحسنات البديعية وخاصة الجناس ، مما يدل - رغم ما فيها من تكلف - على مهارة أدبية رائعة .

وكانت له رسائل ديوانية كثيرة تشغل المجلدات الضخام ، وكان كلما فتح صلاح الدين فتحاً دَحَرَ فيه حَمَلَة الصليب ومُزَقهم تمزيقا كتب بذلك إلى الخليفة ببغداد وإلى القائمين على البلدان من الحكام ، يشير بالنصر المبين في سبيل الدين . ونقتطف قطعة من كتاب عن صلاح الدين إلى الخليفة يخبره فيه بضم الموصل - بعد موت صاحبها غازي بن مودود - إلى دولته ومملكته ، يقول فيه العماد :

« لاخفاء أن مصر لإقليم عظيم وبلد كريم ، أنقدها الله من عبيد بني عُبيد الفاطميين وأطلقها بمطلقات أعثتنا إليها من عناء كل قيد ، وفيها شيعة القوم ، وهم غير مأموني السر إلى اليوم . وطوائف أقاليم الروم والفرننج بها مطيفة فمن حقها أن يتوافر عسكرها ، فلو حصل - والعياذ بالله - بها فتق لأعضل رثقه ، واتسع على الراقع خرقه ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام وثغور الاسلام إلى استصحاب العسكر المصري إليها ، وله خمس سنين في بَيْكارها (حربها) منتقما من كفارها متحملا لمشاقتها على غلاء أسعارها . »

وقد جانس العماد في أول القطعة بين « عبيد وعبيد » وبين « أطلقها وبمطلقات » . وتدل القطعة دلالة واضحة على أن جيش صلاح الدين المدمر لحملة الصليب كان مصريا على الأقل في

جمهوره الأكبر . ويذكر صاحب الروضتين كثرة ما كان يكتبه العماد من البشارات في كل انتصار لصالح الدين على حملة الصليب ، وما كان أكثر انتصاراته ، ويذكر أنه حين فتح بيت المقدس كتب العماد سبعين بشارة ، وكانت البشارات رسائل طويلة يصف العماد فيها المواقع وصفا تفصيليا . ويسوق المؤرخون بشارته بهذا الفتح العظيم التي كتب بها إلى الخليفة ببغداد ، وفيها يقول ، بعد إطنابه في تميمها وشكر الله على سابغ نعمائه على الإسلام والمسلمين .

« هذا الفتح العظيم ، والتنجح الكرم ، قد انقضت الملوك الماضية ، والقرون الخالية ، على حَسْرَةٍ تَمْنِيهِ ، وجيرة تَرْجِيهِ ، ووحشة اليأس من تَسْنِيهِ (انفكاك عقده) وتقاصرت عنه طوال الهمم ، وتحاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم ، فالحمد لله الذي أعاد القدس (الشريعة) إلى المقدس ، وأعادته من الرّجس ، وحقق من فتحة ما كان في النفس ، وبدّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس ، وجعل عزّ يومه ماحياً ذلّ أمس ، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهاد والضلال من البطرك والقسّ ، وعبدة الصليب ومستقبلي الشمس .. وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد (يريد يوم الأحد) وقع من كان يقول : إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد ، وأعان الله بإنزال الملائكة والروح ، وأتى بهذا النصر الممنوح ، الذي هو فتح الفتوح » . والطباق كثير في القطعة ، والجناس يُنثر فيها من حين لآخر . وقد يُكثر منه في بعض رسائله كثرة مفرطة ، بل هو أهم محسن بديعي أكثر من استخدامه ، وعابه الصفدي بهذا الإكثار ، متمثلاً بقوله في جواب مكاتبة :

« وقف الخادم على الكتاب وأفاض في شكر فضل فيضه المستفيض ، وتبلّج (إشراق) وجهه وجاهته وتأرّج (انتشار) نبأ نباهته ماعرفه من عوارفه (فواضله) البيض » .

يقول الصفدي معقبا على هذه السجعة الطويلة وجناساتها الكثيرة : « انظر إلى قلق هذا التركيب وتعسّفه في هذا الترتيب » . ويقول السبكي معلقا على كلام الصفدي : « الأمر كما وصف ، ولقد مجّ سمعى فواتح أبواب كتاب خريدة القصر ، لما يكثر فيها من الجناس وردّ العجز على الصدق » . على أن الصفدي نفسه يلاحظ أنه « حين يخلو كلام العماد المسجوع في رسائله وكتبه من الجناس الكثير يعذب في السمع وقعه ، ويتسع في الإحسان صُقعُه (جانبه) ويرشف اللب مُدامه ، ويكون عند مَنْ له ذوقٌ أطيب من تغريد حمامه » .

الصفدي^(١)

هو صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي ، ولد بصفد في فلسطين سنة ٦٩٦ وعُني في أول حياته بصناعة الرسم ، ثم اتجه إلى علوم الشريعة والعربية ، وتنقل بين دمشق والقاهرة يأخذهما عن كبار العلماء ، وأولع بالأدب . وكان أول ماولى من الأعمال كتابة الدرّج بموطنه صفد ، يكتب ما يوقّع به كبار الكتاب في دواوينها لجودة خطه ، ثم انتقل إلى القاهرة وشغل نفس العمل بدواوينها . ومضى يختلف إلى حلقات العلماء والأدباء بها ، وتركها إلى دمشق ، وكان رئيس الديوان بها حينئذ الشهاب محمود إذ نُقل إليها من القاهرة منذ سنة ٧١٧ وأعجب بالشاب الصفدي . وعيّن في كتابة الدّست ، حتى يعاونه في عمله وما يتصل به من إنشاء بعض الرسائل ، وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن نباتة ، وتخرج على يديه شاعرا ، كما تخرج على يدى الشهاب محمود كاتباً مجيداً . وتوفى الشهاب محمود سنة ٧٢٥ على نحو ما مرّ بنا في ترجمته ، وظل الصفدي يعمل في دواوين الشام ، وعيّن رئيساً لديوان الإنشاء بحلب وقتاً ، وعاد إلى دمشق وإلى وظيفته بها في كتابة الدّست مساعداً لرئيس ديوان الإنشاء بها وخاصة في كتابة التواقيع والمراسيم الخاصة بتعيين القضاة وكبار الموظفين . وأضيفت إليه حينئذ وكالة بيت المال ، واستمر في الوظيفتين إلى أن توفى بدمشق سنة ٧٦٤ وكان قد تصدى قبيل وفاته في الجامع الأموي للتدريس ، وكان يحضر حلقة دروسه أحيانا بعض شيوخه مثل الذهبي وابن كثير .

ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان إماما بارعا كاتباً ناظماً ناثراً شاعرا ، وديوان شعره مشهور بأيدي الناس وهو من المكثرين . ويقف الحموي في خزائنه مرارا ليذكر أن ابن نباتة لاحظ كثرة سرقاته لمعاني شعره وأنه ألف كتابا في سرقاته منه سماه « خبز الشعير » يشير بذلك إلى أن عمله مذموم نفس مذمة خبز الشعير وأكله : وشعره في جملته متوسط وهو يكثر فيه من التورية ، ومن طريف ماله قوله :

بَسَّهْمِ الْحَاظِهِ رِمَانِي فَذُبْتُ مِنْ هَجْرِهِ وَبَيَّنَّهُ

وشذرات الذهب لابن العماد ٦/٢٠٠ والدر الطالع ١/٢٤٣ وخزانة الأدب ص ١٧ وفي مواضع متفرقة من صبح الأعشى وخاصة ١٢/٨٦ ، ٣٥١ .

(١) انظر في الصفدي وترجمته النجوم الزاهرة ١١/١٩ والدرر الكامنة لاس ححر ٢/١٧٦ والبداية والنهاية لاسن كثير ١٤/٣٠٣ وطبقات الشافعية للسبكي ١٠/٥ وما بعدها .

إن متَّ مالى سواه خَصْمٌ فإنه قاتلى بعينه
ويعد من أكبر المصنفين فى التراجم والأدب والبديع والنقد ، وعلى رأس مصنفاته فى التراجم
كتاب الوافى بالوفيات ، وهو فى نحو ثلاثين مجلدا ، ونشرت طائفة من أجزاءه . واستخلص منه مع
إضافات جديدة كتابه « أعوان النصر وأعيان العصر » من الأدباء والشعراء وهو فى ستة مجلدات ،
وفى دار الكتب المصرية منه مجلدات متفرقة . وألف فى مشاهير المكفوفين كتابه : نكت الهميان فى
نكت العميان ، وهو منشور . وله التذكرة الصفدية وهى مختارات أدبية وكتاب تشنيف السمع فى
انسكاب الدمع : دمع المحبين والعشاق ، وله فى المحسنات البديعية كتاب فض الختام عن التورية
والاستخدام وكتاب جنان الجناس ، وله فى النقد نصرة الناثر (وهو ابن أبى الحديد) على المثل
السائر لابن الأثير ، والغيث المسجم فى شرح لامية العجم ، وهو شرح ملىء بالملاحظات
النقدية ، وبه دفاع بديع عن ابن سناء الملك إزاء ما اتهمه به خصومه من استخدام بعض الألفاظ
العامية ، وشرح رسالة ابن زيدون الجدية بشرح سماه « تمام المتون » . وله وراء ذلك كتب أخرى
سقطت من يد الزمن ، كما أن له بعض مقامات ، ويقال إنه كتب وصّف مئين من المجلدات
وخلّف كثيرا من الرسائل بينها مجموع باسم ألحان السواجع فى مجلدين سجل فيه الرسائل المتبادلة
بينه وبين أدباء عصره .

وكانت رسائل الصفدى الديوانية تشغل مجلدات كثيرة ، ولم يحتفظ منها القلقشندى إلا
برسائل قليلة ، من ذلك توقيع لأمين الملك ومدبر شئون دمشق من أمن وضرائب وأوقاف وغير
أوقاف ، وله يقول باسم صاحب الأمر :

« لما كانت دمشق فى الدنيا أنموذج الجنة التى وُعد بها المتقون ، ومثال النعيم للذين عند ربهم
يُرزقون ، وهى زهرة ملكنا ودرة سلكتنا . . تعين أن نتدب لها من جربناه بعدا وقربا ، وهززاناه
مثقفاً^(١) وسللناه عَضبا^(٢) وخبأناه فى خزائن فكرنا فكان أشرف ما يُدخِر ، وأعز ما يُحِبُّ ، كم
نهى فى الأيام وأمر ، وكم شد أزرًا لما وزر ، وكم غنيت به أيامنا عن الشمس وليالينا عن القمر ،
وكم علا ذرى رتب تعز على الكواكب الثابتة فضلا عن يتنقل فى المباشرات^(٣) من البشر ،
وكم كانت الأموال جُمادى^(٤) فأعادها ربيعا غرد به طائر الإقبال وصفر . فليتلق هذه الولاية
بالعزم الذى نعده ، والحزم الذى شاهدناه ونشهده ، والتدبير الذى يعترف الصواب له

(٣) المباشرات : الأعمال

(٤) جمادى : يريد قليلة

(١) مثقفا : سيفا مصقولا

(٢) عضبا : قاطعا .

ولا يجحده ، حتى يثمر الأموال في أوراق الحُساب ، وتزيد نموا وسموا فتفوق الأمواج في البحار وتفوت القطر من السحاب .

وواضح مافي السجعة الأولى من اقتباس لبعض ألفاظ القرآن الكريم ، ويلتمس الصفدى بعض صور الطباق والجناس ولكن دون إسراف ، كما يلتمس بعض الاستعارات ، ويبدو فيها غير قليل من التكلف ، كما يبدو التكلف أحيانا في اجتلاب السجعات . ومن توقيعاته توقيع كتب به لكاتب السر بدمشق : ناصر الدين محمد بن يعقوب بالتدريس في المدرسة الناصرية الجوانية جاء فيه :

« إن مدارس العلم الشريف لها الذكر الخالد والشرف الطارف والتالد ^(١) بها تتبين فوارس الجلاذ في مضائق الجدال ، وتتجلى بدور الكلام في مطالع الكمال ، وتبدو شمسو الجمال فيما لها من فسيح المجال . والمدرسة الناصرية - أثاب الله تعالى واقفها - هي الواسطة في عقودها . والدرة الثينة بلا كُفء لها بين قيم نقودها ، قد تدبج فيها البناء وتأرج عليها ^(٢) الشاء ، وتخرج عنها الحسن فإن له بها مزيد اعتناء .. فلذلك رُسم بالأمر العالى أن يعاد إلى تدريسها لأن العود أمدح وأحمد ، والرجوع الى الحق أسعف وأسعد .

وواقع مافي التوقيع على هذا النحو من التصنع للجناس المقلوب في مثل « جلاذ وجدال » و « كلام وكمال » و « جمال ومجال » و « أمدح وأحمد » و « أسعف وأسعد » كل ذلك ليقع من نفس رئيس ديوان الإنشاء موقعا حسنا . ولم يكن الصفدى يتكلف دائما مثل هذه الكلف في جناساته ، بل هي تأتي عنده نادرة إذ كان حسبه أن يأتي بالجناسات الطبيعية دون هذه المشقة في التكلف . وكثير من جوانب توقيعاته سلس سائع . وكان محببا إلى أهل زمنه حسن المعاشرة جميل المودة .

(١) الطارف والتالد : الحادث والقديم .

(٢) تأرج عليها : عطرها :

ابن حجة^(١) الحموي

هو تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله المعروف بابن حجة الحموي ، ولد بحجة سنة ٧٦٧ ونشأ بها ، ودرس على شيوخها وأساتذتها ، وأخذ عنهم فنونا من العلم والأدب ، وارتحل إلى دمشق والقاهرة يتزود من حلقات علمائها وأدبائها . وانعقدت صلات كثيرة بينه وبين بعض أدباء مصر من مثل ابن مكناس الذي مرت ترجمته ، وعاد إلى دمشق وأخذ يتردد بينها وبين القاهرة ، ويبدو أنه عمل في دواوين حجة ثم دمشق حين كان يتولى ابن البارزي مواطنة كتابة السربها ، وكانت قد توثقت علاقة ابن البارزي بالمؤيد شيخ حين أصبح نائبا لسلطان مصر بدمشق ، فلما استدعى إلى مصر لتولى السلطنة اصطحبه معه واتخذه كاتب سره كما مر بنا ، واصطحب ابن البارزي معه ابن حجة وولاه كتابة الإنشاء بالقاهرة سنة ٨١٥ فبلغ ذروة مجده الأدبي ، وظل قائما على هذا العمل طوال حياة ابن البارزي وحكم المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) وظل كاتباً للإنشاء بعده عاما وأشهرا وشهد حينذاك تحول السلطة من الملك المظفر ابن المؤيد إلى الملك الظاهر ططر فابنه الملك الصالح وتولى السلطان برسباي سنة ٨٢٥ وتوقف أمره ، فعاد سريعا إلى موطنه حجة ، وظل بها مكباً على التصنيف والتأليف حتى توفي سنة ٨٣٧ هـ .

واشتهر بقصيدته : البديعية في المديح النبوي وما حمل أبياتها من محسنات البديع لزمه ، وهي في مائة واثنين وأربعين بيتا وكل بيت يحمل محسنا من تلك المحسنات . وشرحها شرحا مطولا ، متوسعا في سرد الشواهد الشعرية والنثرية الكتابية مع مالا يكاد يحصى من ملاحظات على استخدام الشعراء للمحسنات البديعية ، بحيث أصبح الشرح - كما سماه - خزانة أدب . وتعد مرجعا أساسيا للشعر والشعراء في زمن الأيوبيين والمماليك حتى أيامه . وله في البديع كتاب كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام . وله كتاب أدب طريف سماه « ثمرات الأوراق » طبع مرارا يعرض فيه مختارات نثرية وشعرية وكثيرا من المحاضرات والمساجلات ، مع الإلمام ببعض القواعد المهمة التي ينبغي ان تراعى في الكتابة الديوانية ، ومع الإلمام أيضا ببعض رسائل القاضي الفاضل وابن نباته وأيضا ببعض رسائله . والكتاب في مجموعة أشبه بكتب المحاضرات والنوادر . واختصر بعض

٢٨٩/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٢١٩/٧ والنجوم
الزاهرة ١٨٩/١٥ .

(١) انظر في ابن حجة وترجمته وشعره ونثره كتابه خزانة
الأدب في مواضع كثيرة ، والبدر الطالع للشوكاني ١٦٤/١
والضوء اللامع للسخاوي ٢٧٧/٦ والروض العاطر للنعماني

الأعمال ، من ذلك اختصاره للصادح والباغم لابن الهبارية بإشارة من ابن البارزى سنة ٨١٣ كما ذكر في الخزانة بباب لإرسال المثل ، وسمى مختصره تغريد الصادح وصدّره من نظمه بأبيات تقوم مقام الديباجة . وله كتب متعددة مذكورة في كتاب البدر الطالع سقطت من يد الزمن . وله مقامة سنعرض لها في غير هذا الموضع ، وكان شاعرا ، كما كان كاتباً ، وأنشد في الخزانة كثيرا من شعره ، ويقول الشوكاني : « قد يأتي في نظمه بما هو حسن وبما هو في غاية الركة والتكلف .. ونثره أحسن من نظمه » . وفي الخزانة رسائل كثيرة له ، وخاصة في أبواب براعة الاستهلال والسجع وحسن الختام . وفي « ثمرات الأوراق » كما أسلفنا - بعض رسائله ، وجمع ما أنشأه أولا بالشام ثم ما أنشأه في عهد المؤيد ثم في عهد الملوك المظفر والظاهر ططر والصالح في كتاب سماه « قهوة الإنشاء » في مجلدين ، ومنه مخطوطة في دار الكتب المصرية ، وفي الدار أيضا كتاب له محفوظ بأسم تاهيل الغريب يشتمل على كثير من رسائله ومكاتباته مع الأدباء ، ونقتطف قطعة من بشارة له بوفاء النيل كتبها سنة ٨١٩ عن الملك المؤيد شيخ :

« ونبدي لعلمه الكرم ظهور آية النيل الذي عاملنا الله فيه بالحسنى وزيادة ، وأجراه لنا في طرق الوفاء على أجمل عادة .. دقّ قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع^(١) عليه ، وقبل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلو فالت غصونها إليه .. وحضن مشتهى الروضة في صدره وحنّا عليها حنو المرضعات على الفطيم :

وأرشفنا على ظمياً زلالاً ألدُّ من المدامة للنديم

وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات ، وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحلو النبات ، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالق النوى والحب ، فأرضع في أحشاء الأرض جنين النبات وأحيا له أمهات العصف والأب .. ونسى الزهر بحلاوة لقاءه مرارة النوى ، وهامت به مخدّرات^(٢) الأشجار فأرخت صفائر فروعها عليه من شدة الهوى .. ودارت دوائره على وجنات الدهر عاطفة ، وثقلت أرداف أمواجه على خصور الجوارى واضطربت كالحائفة » .

والسجع فيه عدوبة ودلالة واضحة على طواعيه قوافيه لابن حجة ، وأنه كان كاتباً مجيداً إن لم يكن بارعاً ، وأطال السجعات ليحملها ما يريد من التوريات ، وهي كثيرة في القطعة ، وما نمضي فيها حتى يذكر مديد النيل أو امتداده والمديد من بحور الشعر ، يستغل ذلك في التورية بكلمة

(١) يريد قلع السفن وشرعها

الرجال . والاستعارة واضحة

(٢) المخدّرات : النساء يلزمن بيوتهن احتجاباً عن

الآبيات فلا يريد آبيات الشعر إنما يريد الدور والمساكن . واختار أمهات العصف ، وهو ورق الشجر والزرع مما تأكله الأنعام ليجلب كلمة الأب مورياً بها فهو لا يريد الأب الحقيقي كما يظن من ذكر الأمهات ، وإنما يريد الأب بمعنى العشب أخذاً من قوله تعالى : (وفاكهةً وأباً متاعاً لكم ولأنعامكم) واختار مع حلاوة اللقاء مرارة النوى ، وهو لا يريد نوى التمر الحقيقي وإنما يريد النوى بمعنى البعد لأن وفاء النيل وفيضانه يكون من عام إلى عام ، وبالمثل يمكن أن يكون في كلمة الهوى تورية لأن لها معنيين : العشق والريح ، وأيضا في كلمة الجوارى تورية إذ لا يريد الجوارى الحقيقيات مع ما يوشح لها من ذكر الخصور وإنما يريد السفن الجارية . وكان تعيين كبار موظفي الدولة من وزراء وقضاة وغير قضاة يصحبه تقليد بتعيينهم في شكل رسالة مطولة يكتبها منشي الديوان ، ولا بن حجة تقليد طويل كتبه لجلال الدين البلقيني الشافعي بقضاء القضاة وفيه يقول مصورا علمه :

« هو أبو العلماء الذي وُلد من الأم أفراحهم ، وأبو المهات الذي شَهَرَ من العُدَّة الكاملة في ميدان الفرسان سلاحهم ، وإليه انتهت الغاية فإنه ما برح يأتينا في وجيز تقريبه بالعجاب ، ويغنيننا عن موضح القشيري فإنه يغذينا في إبانته باللباب .. وقد وقع التمويه في الفروق بينه وبين الغير عند أهل التبصرة والهداية ، وهو نهاية المطلب وعيون المسائل وتاج رءوسها والمذهب الذي تهذيبه في أدب القاضي كفاية ، وهو البحر الذي مادخلنا بسيطه المبسوط إلا قالت التورية إنه في البسيط كامل ، ولانظرنا إلى حليته الجلالية إلا غنينا عن المصباح بنوره الشامل » .

والقطعة مليئة بتوريات عن أمهات الفقه الشافعي ، وقد بدأها في السجعة الأولى بذكر كتاب الأم للإمام الشافعي ، وتلاه بالإشارة إلى كتاب الغاية في اختصار النهاية للعز بن عبد السلام ، والنهاية هي نهاية المطلب في دراسة المذهب لإمام الحرمين الجويني ، وأشار معه في نفس السجعة إلى وجيز الإمام الغزالي وتقريب القفال الشاشي ، ثم ذكر اللباب وهو لباب الألباب للآمدي في علم الأصول ، وأضاف إليه الإبانة مشيراً إلى كتاب الإبانة في فقه الشافعية للفراني ، ولم يلبث أن أشار إلى التبصرة لأبي إسحاق الشيرازي ونهاية المطلب المذكورة آنفاً والمذهب لأبي شامة المقدسي والتهذيب للبعوي وأدب القاضي للماوردي والبسيط للغزالي والشامل لإمام الحرمين الجويني . وقد بلغ ابن حجة من دقة الصنعة أن من يقرأ الإشارة إلى هذه الكتب وغيرها مما جاء في التقليد لا يتنبه إليها إلا بعد روية وتأمل فيما ابتغاه عنها من توريات .

الرسائل الشخصية

مرّ بنا أن الشام هي التي وضعت التقاليد الأولى للكتابة الديوانية بحكم اتّخاذ الأمويين دمشق حاضرة للدولة الإسلامية الضخمة الممتدة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس ، وتها لها حينئذ من كبار الكتاب من لا تزال أسماءهم تتردد على الألسنة مثل سالم مولى هشام ، وعبد الحميد الكاتب وله رسائل شخصية بدیعة^(١) تتداولها كتب الأدب تتميز بأسلوبها الجزل الناصع مع السلاسة والعدوبة ومع ما عُرِف به من إحكام الترادف حتى يروع الآذان كما يروع الأذهان . ومن البلغاء الذين اشتهروا بروعة كتاباتهم في القرن الثاني الهجري وأوائل الثالث العتّابي كلثوم بن عمرو ، وله بدوره - رسائل شخصية^(٢) تموج بالتصاوير ودقائق الأفكار مع حسن التعبير وجمال الصياغة . وكان السجع منذ القرن الرابع أخذ يشيع في الرسائل الديوانية ، فشاع في الرسائل الشخصية لسبب طبيعي هو أن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين ، وقد أصبح السجع ديدنهم ولغتهم في كتاباتهم فعمّموه في رسائلهم الشخصية . ولعل كاتباً في بلاط سيف الدولة الحمداني لم يشتهر بالكتابة كما اشتهر أبو الفرج عبد^(٣) الواحد بن نصر المعروف بلقبه « البيّغاء » المتوفى سنة ٣٩٨ للهجرة وكان شاعراً مبدعاً وكاتباً بارعاً ، وفي كتاباته يقول الثعالبي « نثره مستوف أقسام العذوبة وشروط الحلاوة والسهولة » ويتضح ذلك فيما روى الثعالبي من رسائله كقوله مثنياً ، مطرباً .

« شهابُ ذكاء ، وطوّد وفاء ، وكعبة فضل ، وغمامة بذل ، وحسام حق ، ولسان صدق ، فالليالي بأفعاله مشرقة ، والأقدار لخوفه مطرقة ، تحمده أولياؤه ، وتشهد له بالفضل أعداؤه » .
وقوله : « من كان جميل رأياً سيدنا عُدَّتْه ، أمن من الدهر شدته ، ومن فزَعَ إلى إحسانه ، استظهر على زمانه ، ومن توجه برغبته إليه ، لم تقدم الأيام عليه » .

(٣) انظر ترجمته ورسائله في البيّغاء ٢٣٦/١ وما بعدها ، وراجع ترجمته في تاريخ بغداد ١١/١١ والمنتظم ٢٤١/٧ وعبر الذهبي ٦٨/٣ وابن خلكان ١٩٩/٣ .

(١) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت (طبع ونشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي) ٤٣٤/٢ وفي مواضع متفرقة .
(٢) جمهرة رسائل العرب ٤٧٤/٣ وما بعدها .

(١) رسائل أبي العلاء

لأبي العلاء رسائل أدبية مشهورة مثل رسالة الغفران ورسالة الملائكة ، وله بجانب ذلك رسائل شخصية كثيرة ، عُنت بطبعها المطبعة الأدبية ببيروت لأواخر القرن الماضي سنة ١٨٩٤ وطبعها مرجليوث في أكسفورد بعد ذلك بأربع سنوات ، وحققها الدكتور عبد الكريم خليفة ونشرها بعمان في الأردن سنة ١٩٧٦ وقد بلغت عنده ٤٢ رسالة . وأولها رسالة المنيح وهو القِدْح الثامن من قِداح الميسر التي ليس لها نصيب في القمار ، وكأنه كنى به عن نفسه في تلك الرسالة التي وجّه بها إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ردًا على رسالة أرسل بها أبو القاسم إليه . ونراه يستهل رسالته بقوله :

« إن كان للآداب - أطال الله بقاء سيدنا - نسيم يتضوع^(١) ، وللكاء نار تشرق وتلمع ، فقد فَعَمْنَا^(٢) على بُعد الدار أَرَجُ^(٣) أدبه ، ومحا الليل عنا ذكاؤه بتلهبه ، وخَوَّل^(٤) الأسماع سُوفًا^(٥) غير ذاهبة ، وأطلع في سويداوات القلوب كواكب ليست بغاربة ، وذلك أنا - معشر أهل هذه البلدة - وهب لنا شرف عَظِيم ، وأتقنا إلينا كتاب كريم ، صدر عن حضرة السيد الحَبْر^(٦) ، ومالك أعنة النظم والنثر ، قراءته نُسْكُ ، وختامه بل سائره مِسْكُ ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . جَلَّ^(٧) عن التقييل فظلاله المقبلة ، ونزّه أن يتبدل فنسخة المبتدلة ، وإنه عندنا لكتاب عزيز . ولولا الإلاحة^(٨) ، على ماضن من الملاحه ، والخشية على دُجَى مداده من التوزع ، ونهار معانيه من التشتت والتقطع ، لعكفت عليه الأفواه باللثم ، والموارن^(٩) بالانتشاء^(١٠) والشم ، حتى تصير سطور له لَمَى^(١١) في الشفاه ، وخيلانا على مواضع السجود من الجباه ، ولولا ما حظره الدين من القمار لضربنا عليه بالسبعة الفائزة ، والثلاثة التي ليست لحظ

- | | |
|--------------------------|-----------------------------------|
| (١) يتضوع : يفوح . | (٧) جل : تنزه |
| (٢) فعمنا : ملأ أنوفنا . | (٨) الإلاحة : الإشفاق |
| (٣) أرج : شدى | (٩) الموارن : الأنوف . |
| (٤) خول : أعطى . | (١٠) الانتشاء : شم الطيب ونحوه . |
| (٥) سُوفًا : أقرطا | (١١) اللمى : سمرة حسنة في الشفة . |
| (٦) الحبر : العالم | |

بالحائزة .. فيا شرفه من صك بالفخر ، ييجح به على النطراء حيرى^(١) الدهر ، موشحاً بكل شذرة أعذب من سلاف العنقود ، وأحس من الدينار المنقود ، فجاء كلوائح البروق ، أويوح^(٢) عند الشروق .

وإذا مضينا بعد ذلك في قراءة رسالة المنيح - وهي طويلة - أخذت أمواج الألفاظ الغريبة تتوالى ، حتى ليصعب على أى عالم لغوى أن يمضى فيها دون أن يعود إلى المعاجم يستبين منها ما يقرأ لا من حين إلى آخر ، بل مع كل سجعة ، بل مع غير لفظ في كل سجعة ، وكأنما كان يطلبه طلباً في سجعاته ، أو كأنما كان يعده زينة ينبغي أن لا تخلو منه سجعة . وهو لذلك يملأ الرسالة بالألفاظ الغريبة المبعدة في الإغراب مما قرأه في الشعر القديم وفي كتب اللغة ، ولا يهمله أن تكون الكلمة مما دُون في المعاجم ، بل لعله كان يطلب ذلك استكمالاً لغرابتها ، ومن هنا تصبح قراءته صعبة إلى أقصى حدود الصعوبة . ولم يكن يكتفى بذلك في بعض رسائله ، فقد كان يضيف صعوبة ثانية هي حشد ألفاظ المصطلحات العلمية وخاصة مصطلحات العلوم اللغوية على نحو ما نقرأ في رسالته المعروفة برسالة الإغريض وهو ما ينشق عنه الطلع من الحبيبات ، والرسالة موجهة أيضاً إلى أبى القاسم المغربي وفيها يقول :

« حرس الله سيدنا حتى تُدغم الطاء في الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء .. وهما في الجهر والهمس ، بمنزلة غدٍ وأمس ، وجعل الله رتبته التي هي كالفاعل والمبتدأ ، نظير الفعل في أنها لا تنخفض أبداً ، فقد جعلني إن حضرت عُرف شانى ، وإن غبت لم يُجهل مكاني ، كيا في النداء ، والمخدوف من الابتداء ، إذا قلت زِيدُ أقبلُ ، والإبلُ الإبلُ ، بعد ما كنت كهاء الوقف ، إن أُلقيتُ فبواجب ، وإن ذُكرت فغير لازم^(٣) ، إني وإن غدوتُ في زمن كثير الدد^(٤) كهاء العدد ، لزمتم الذكر فأتتُ بالمنكر ، مع إلفِ يراني في الأصل كألف الوصل ، وتكون تارة حرف لين ، وتارة مثل الصامت^(٥) الرصين ، فهي لا تثبت على طريقة ، ولا تُدرَكُ لها صورة في الحقيقة »

وهو يدعو لأبى القاسم أن تظل تحرسه عناية الله إلى أبد الأبدين أو كما يقول إلى أن تدغم الطاء

(١) ييجح : يفخر . حيرى الدهر : أهد الدهر .

(٢) يوح : اسم الشمس .

(٣) لارب : لازم .

(٤) الدد : اللهو واللعب .

(٥) الحروف المحققة مما سوى حروف اللين والمد .

في الهاء وهي لا تدغم فيها أبداً ، إذ الطاء حرف مجهور الصوت - كما يقول - والهاء حرف مهموس لا يكاد صوته يبين ، فهما من طبيعتين مختلفتين ولذلك لا يدغان أبداً ولا يتحدان كالأمس والغد . ويدعو أبو العلاء له أن تصبح رتبته أرفع الرتب في الدولة ، كرتبة الفاعل والمبتدأ في النحو ، إذ هما بسبب رفعهما في أعلى الرتب . ويدعو له أن لا يلحقه خفض في رتبته كالفعل لا يلحقه خفض ولا جرُّ أبداً . ويقول إن أبا القاسم جعله معروفاً رفيع الشأن حضر أو غاب مثل ياء النداء فكانها محفوظ ذكرت مع المنادى أو لم تذكر ، ومثلها المبتدأ ذكر أو حذف فكانه محفوظ . فتقول : محمد أي يا محمد ، وتقول كتاب الأدب أي هذا كتاب الأدب . ويقول إنه كان قبل أن يضعه أبو القاسم في منزلته الرفيعة كالهاء التي تلحق ببعض الكلمات في الوقف ، مثل : لِمَ تقول فيها لمه ، فهي تطرح وتذكر دون أن يكون لها شأن في الكلمة . ويقول إنه كان يشعر بنبو مكانه على نحو ما يلاحظ في هاء العدد أوثائه من ثلاثة إلى عشرة ، فإنها تلحق عددها مع المذكر وتطرح مع المؤنث ، وكان القياس في العربية العكس . ولا يكتفي بذلك فيقول إنه كان كآلف الوصل مع أصحابه ، تذكر حين الابتداء بالساكن وتسقط في درج الكلام . ويقول إن حاله كانت مثل الهمزة تبدل أحياناً عينا في لغة تميم ، فيقولون في أن عَن ، وقد تنطق بين الهمزة المحققة وأختها المسهلة أو كما يقول « بين بين » وقد تسهل تماماً فتصبح حرف لين مثل سال في سأل ، وقد تحقق وخاصة في أول الكلمات فلا تسهل مثل أمر ، فهي كما يقول أبو العلاء لا تثبت في العربية على طريقة .

وأبو العلاء بذلك يصعب نثره على قارئه ، بحيث لا يستطيع قراءته وفهمه إلا العالم اللغوي لكثرة الألفاظ الغريبة فيه ، وليس ذلك فحسب ، فإن هذه القطعة في الرسالة لا يستطيع أن يفهمها إلا من عرف مصطلحات علمي النحو والصرف ، وقد مضى في الرسالة يستظهر مصطلحات علم التجويد والقراءات وعلم العروض وتلاحين الموسيقى ومصطلحات علم الفلك مع معارف كثيرة عن الخيل والحيوان . وله مناظرة طويلة بين الصاهل والشاحج أو بين الفرس والبغل ، وهو كتاب نفيس نشرته بنت الشاطي بدار المعارف . وتتكاثر في الرسالة المعارف عن المرأة وجليها ولا بأس من إيداعها شيئاً من التاريخ . وكل ذلك يصعبها : سجع وأوابد لفظية وأوابد أو مصطلحات علمية ومعارف شتى . وكأنما استأثرت بالشرط الأكبر من هذا كله الرسالة الإغريقية . وتقل المصطلحات العلمية في بقية رسائله غير أنه لا يزال يستظهرها فيها من حين إلى حين ، ومرجع ذلك إلى أنه كان يكتب برسائله إلى علماء في عصره ، فكان يسوق إليهم هذه

المصطلحات تصويرًا لمهارته البيانية. وتحفل الرسائل بنقد خلقي واجتماعي وسياسي وأدبي ، وأكثرها في الثناء على من يكتب إليهم ، وبينها رسائل شفاعة وتهنئة وتعزية وشوق ، وتكتظ بسجعيات بديعة كقوله في فواتح رسالة كتب بها من بغداد إلى خاله أبي طاهر المشرف بن سبيكة الحلبي :

« شوقى إلى سيدى الشيخ شوقُ البلاد المُمحلة ، إلى السحابة المُمسحلة^(١) ، وانتفاعى بقربه انتفاع الأرض الأريضة ، بالأمواه الغريضة^(٢) ، وتشوفى لأخباره تشوفَ راعى أنعام^(٣) أجذب فى عام بعد عام ، لبارق^(٤) يمان ، هؤلُه مرتقب مُمان^(٥) . وأسفى لفقده أسف وَحشِيَّة^(٦) ، رادت^(٧) بالعشِيَّة ، فخالفها السُّرحانُ إلى طَلَا^(٨) راد فحار^(٩) فهى تطوف حول أميل^(١٠) ، وترى صبرها ليس بجميل . وتذكرى لأوقاته تذكر الفطيم ثدى الوالدة ، والمقسم بالملح لبنى خالدة وانتظارى لقدمه انتظار تاجر مكة وَفَدَ^(١١) الأعاجم ، وربَّ الماشية ظهورَ النَّبْتِ الناجم^(١٢) . »

وبدون ريب تُعدُّ رسائل أبي العلاء الشخصية فى الذروة من البلاغة ، وهو دائماً يُعنى فيها بالسجع إلا قليلا ، وقد يلتزم فيه مالا يلزم كما فى هذه القطعة ، فإن السجعتين فيها تتفقان لافى الحرف الأخير فحسب المقابل للروى فى الشعر ، بل فى حرفين أو ثلاثة حروف ، ودائما نلتقى فى رسائله بالألناظ الأبدية الممعنة فى الغرابة وإن لم تمنع فيها بهذه القطعة . وهو يستغل فى سجعاته معارفه الكثيرة التاريخية وغير التاريخية على نحو مايلقانا فى هذه القطعة من إشارته إلى أن العرب كانوا يتعاقدون ويتعاهدون على الملح ، وذكر عهدًا لهم أقسموا فيه بالملح لبنى خالدة وهى خالدة بنت أرقم أم كردم وكريدم ابنى شعبة الفزاريين . والجناس الناقص مثل : « المححلة والمسحلة » واضح فى القطعة ، وكان يوشى سجعاته به وبغيره من محسنات البديع وخاصة الطباق والتصاوير .

- | | |
|---|---|
| (١) المسحلة : الممطرة | (٧) رادت : ذهب تطلب الكلاً |
| (٢) الأريضة : الطيبة . الغريضة : المبكرة | (٨) الطلا : ولد البقر . السرحان : الذئب |
| (٣) الأنعام : الابل . | (٩) حارها : تحير |
| (٤) البارق : السحاب يلمع فيه البرق ، وجعله يمينا حتى لا يخلف مطره | (١٠) أميل : كئيب عال |
| (٥) ممان : متناول | (١١) يريد : قاوم وفود الحجيج الأجانب |
| (٦) يريد بقرة وحشيه | (١٢) الناجم : الذى لاساق له |

(ب) رسائل متنوعة

طبيعي أن تكثر الكتابات الشخصية على السنة الأدباء ، شاكرين صنيعا أو مهنتين على منصب كبير أو معاتين أو مثنين مادحين أو معتذرين أو مستعطفين أو معزين عن خطب ألم بأصدقائهم أو في فقيده عزيز ، وتارة يؤننون وتارة يبكون وقد خنقتهم العبرات . وكثيرا ما كانوا يتراسلون ، من ذلك مراسلات الطغرثي الشاعر الكاتب والغزّي إبراهيم بن عثمان الذي مرت ترجمته بين الشعراء ، ويقول العماد الأصماني : « كانت بينهما مكاتبات مفيدة وبينهما لنسب الفضل المؤدّة الوكيدة » ويسوق العماد للغزّي رسالة اعتذار كتب بها إلى صاحبه جاء فيها ^(١) :
لسان الحسود - أدام الله أيام المجلس السامي دام ساميا ، وليبّضة المجد حاميا - إذا علق
بِعرض الكرام كان كالنار في المندي ^(٢) ، ييوح بسرّ طيه الحقيّ .. فإن وقع من السفهاء إفاك
فداعيته ما ظهر لهم من انتائه ، وانتساب مُزنته إلى سمائه .
وانتخاب الغزّي لألفاظه واضح ، فهو يجيد الكتابة كما يجيد الشعر ، وهو يعنى فيها بالتصاوير ، وكان خصب الخيال ، ومرت بنا في ترجمته روائع طريفة من أشعاره . وكان ابن منير الطرابلسي الذي ترجمنا له بين الشعراء نزع عن دمشق إلى قلعة شيزر في الشمال خوفا من ابن الصوفي وزير حاكمها آبق ، وحاول صديق له هو زين الدين بن حلیم أن يسترجعه إلى دمشق فكتب إليه يستدعيه ، وأجابه ابن منير برسالة طويلة معتذرا يقول فيها ^(٣) :
« إن جراحى إلى الآن لم تذق حلاوة الاندمال ، وقروحها تزداد قرحا مع الحلّ والترحال ،
وبين جوانحي من الأين ^(٤) ، لما لقيتُ بدمشق من العبن ، مالا يحلّه إلا عقْد الكفن ، ولا يرفع
حدّته إلا التيمم بصعيد ^(٥) المدفن . ويلقاك فلان وفلان من كل ذى خلق دميم ^(٦) ، وخلق
ذميم ، وأصل لثيم ، وفرع زنيم ^(٧) ، ووجه لطميم ، وقفا كلم ^(٨) ، وهلم جرا من عذاب أليم ،
وصراط في الود غير مستقيم » .
ولغة ابن منير لغة أدبية بديعة ، وكما كان شاعرا بارعا كان كاتبا بارعا ، تواتيه الكلمة وتنزل في

(٥) الصعيد : التراب

(٦) دميم : قبيح . ذميم : مذموم

(٧) زنيم : دعى

(٨) كلم : جريح

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢٧/١

(٢) المندي : عود الطيب

(٣) الخريدة (قسم الشام) ٩٢/١

(٤) الأين : العناء .

مواقعها ومستقرها من السجع الرائع الذي لا تطول عباراته ، فإذا الكلمات وكأنها تتلاقى وتتعانق لجمالها في الجرس وحسن الأداء . ويورد العماد في الخريدة مراسلة بين القاضي الفاضل وزير صلاح الدين وكاتبه وبين أسامة بن منقذ ، ويذكر أولاً كتاب القاضي الفاضل ثم يذكر جواب أسامة ، وله يقول من رسالة طويلة مادحا مثنيا على بلاغته ، متحدثا عنه بضمير الغيبة^(١) :

« ماعسى أن يقول مطريه ومادحُه والفضل نُغْبَة من بحره الزاخر ، وقطرةٌ من سحابه الماطر ، تفرَّد به فما له فيه من نظير ، وسبق من تقدَّمه في زمانه الأخير ، فتق عن البلاغة أكمامًا ترينت الدنيا منها بالأعاجيب ، وأتى بآياتٍ فصاحةٍ كادت أن تُتلى في المحارب ، إذا استنطقتُ ازدحمتُ عليها العقول والأسماع ، ووقع على الإقرار بإعجازها الاتفاق والإجماع . . هو سحر لكنه حلال ، ودُرٌّ إلا أن بحره حلُّو سلسال . »

ونمضى إلى أيام الممالك ويلقانا الشهاب محمود رئيس ديوان إنشائهم في دمشق والقاهرة وقد ترجمنا له بين شعراء المديح ، وله - كما أسلفنا - كتاب في رسوم الكتابة الديوانية ، وبه كثير من رسائله الرسمية ، وبعض رسائله الشخصية أو الإخوانية ، سماه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » وله بجانبه كتاب ثان سقط من يد الزمن سماه « زهر الربيع في الترسل البديع » وعنه ينقل كثيرا القلقشندى في الجزء التاسع من صبحه ، ومما نقله عنه رسالة في التهئة بعيد الأضحى جاء فيها^(٢) :

« جعله الله أبرك الأعياد وأسعدها وأيمن الأيام وأمجدها ، وأجمل الأوقات وألذها وأرغدها ولا برح مسرورا مستبشرا ، منصورًا على الأعداء مقتدرا ، مسعودا محمودا ، معانا بملائكة السماء معضودًا ، مهنتًا بالسعود الجديدة والجدود السعيدة ، والقوة والناصر ، والعمر الطويل الوافر . . ألبسه الله من السعادة أجمل حلَّة ، ومنحه من المكارم أحسن خلَّة . »

وكان الشهاب محمود يعنى بتزيين سجعاته بمحسنات البديع وألوانه الزاهية من جناس وغير جناس ، وكان يشغف شغفا شديدا بصور الجناس المعكوس كما نرى في قوله : « مهنتًا بالسعود الجديدة والجدود السعيدة » .

ونلتقى بعمر بن الوردى وكان شاعرا وأديبا كاتبًا ، وله تعزية بوفاة الفقيه الشافعي شرف الدين البارزى المتوفى سنة ٧٣٨ ، وفيها يقول^(٣) :

(٣) انظر ديوان عمر بن الوردى ، طبع الجوائب في مجموعة سنة ١٣٠٠ هـ ص ١٦٣

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥٤١/١

(٢) صبح الأعشى ٤٦/٩

« بلغني انهدادُ الطود الشامخ ، وزوالُ الجبل الراسخ ، الذي بكته السماء والأرض ، وقابلت فيه المكروهَ بالندب وذلك فرض ، فشرقت^(١) أجفان المملوك بالدموع ، وأحرق قلبه بين الضلوع ، فالعلوم تبكيه ، والمحاسن تعزّي فيه ، والأقلام تمشي على الرؤوس لفقده ، والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده . . ولاخاصاً إلا حزن قلبه ، ولعاماً إلا طار لبّه » .

وكان يجنح في نثره وشعره إلى استخدام المصطلحات العلمية ، وقد تصنع في هذه القطعة القصيرة لحشد المصطلحات الفقهية : المكروه والندب والفرض ، وأيضاً فإنه كان يعنى بجلب صور مختلفة من التوريات ، وواضح أنه ورى هنا بالمصطلح الفقهي : الندب عن معناه الحقيقي وهو بكاء المتوفى وتعداد محاسنه . وجعل الأقلام تمشي على رؤوسها حزناً وهي فعلاً تمشي على رؤوسها أو بعبارة أخرى تكتب برؤوسها ، فاستغل ذلك في تعزيتيه .

ولابن حجة الحموي رسالة يصف فيها سكيناً أهداها إليه بعض أصدقائه جاء فيها قوله^(٢) : « المملوك يُنهي وصول السكين التي قطع بها أوصال الجفأ ، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البرء والشفأ ، وتالله ما غابت إلا وصلت الأقلام من تقشيرها إلى الحفأ . . ماشاهدها موسى إلا سجد في محراب النصاب^(٣) ، وذلك بعد أن خضعت له الرؤوس والرقاب . . أنملة صبح تقمّعت بسواد الدجى ، فعوذتها بـ (الضحى والليل إذا سجاً) . . تطرف بأشعتها الباهرة عين الشمس ، وبإقامتها الحدّ حافظت الأقلام على مواظبة الخمس » .

والتكلف واضح في القطعة ، فقد ذكر الجفأ أي البعد ، وفكر في سجعة معه فجاء بالشفأ والجفأ وأصله رقة الخف ويريد المبالغة في تشذيب الأقلام ، وكل ذلك تكلف ، ولم يلبث أن جنح إلى التورية بموسى الرسول لما ذكر معه من السجود والمحراب عن موسى الخلاق . وكان نصاب السكين أسود فحاول أن يستغل ذلك ليقتبس فاتحة سورة الضحى ، وعاد إلى التورية بإقامة الحد على الجناة وهو يريد إقامة حد السكين ، وورى أيضاً بمواظبة الخمس إذ لا يريد المعنى المتبادر من مواظبة الصلوات الخمس ، إنما يريد مواظبة الأصابع الخمس على الكتابة بتلك الأقلام .

ونمضى إلى أيام العثمانيين ونظّل نقراً رسائل شخصية متعددة في تراجم الأدباء ، من ذلك قول مرعي الكرمي المتوفى سنة ١٠٣٣ للهجرة في معاتبته^(٤) :

(٣) نصاب السكين . مقبضها

(١) شرقت : غصت .

(٤) نفضة الريحانة للمبجى ٢٤٧/١

(٢) خزنة الأدب للحموي ص ٢٥ ، ٥٢٧

« الصديقُ لفظ على الألسنة موجود ، ومعناه في الحقيقة مفقود ، فهو كالكبريت الأحمر ، يُذكر ولا يُبصر ، أو كالعقواء والغول ، لفظ يوجد بلا مدلول . وهذه شيم غالب أبناء الزمان ، من الأخلاء والإخوان ، فثلهم . . كلعع السراب ، المستحيل فيه الشراب ، أو كالحَيال الذي يبدو في المنام ، وهو في الحقيقة أضغاث أحلام » .

ويسوق المحبي في نفحة الريحانة رسائل مختلفة لأبيه وجدّه ، منها رسالة هزلية لأبيه كتب بها على لسان فرس إلى مفت بالقسطنطينية . وانعقدت صداقة وثيقة بين المحبي وبين عبد الغنى النابلسي الصوفي ، وله يقول متوددًا مثنيًا مشيدًا بنسكه وتصوفه وسلوكه الروحي (١) :

« مولاي الذي سار في بروج الفضل مسير الشمس ، وقامت فضائله في جسم العالم مقام الحواس الخمس ، لازال في السكون والحركة ، مرافق اليمن والبركة ، يفرح به كل قطر ينزله ، كأنه البدر والدنيا منازل ، ومن شايعه مسعود يومه وغده ، وله من العيش أهناه وأرغده . . أنا شعبة من دَوْحِكَ (٢) ، وغصن من سَرَحَتِكَ (٣) ، بل نَبْتُ سَقْتِهِ أياديك ، وزهر تفتح بما أفاضته غواديك » (٤) .

ويطبع نثر الرسائل الشخصية حينئذ بنفس الطوابع التي رأيناها في أيام المالك ، فهو يعتمد دائما على السجع ، ويوشى بالبديع ومحسناته .

٣

المقامات

كان لبديع الزمان الهمداني فضل سبق الى استحداث فن المقامات في العربية ، وقد بناه على أقاصيص تصور حياة أديب متسول لا يزال يحتمل على سامعيه بعباراته المسجوعة الرشيقة كي يسبغوا عليه شيئا من عطائهم يعينه على سدّ حاجاته في الحياة . وجعل له راوية يتابعه ويقص حكاياته وأخباره من بلدة إلى أخرى . وتبعه الحريري فأوفى بهذا الفن على الغاية ، سواء من حيث جمال القصّ فيه أو من حيث الحوار بين الراوي والأديب المتسول أو بين الأديب وبين من يعرض عليهم أفانين بلاغته . وطبيعي أن لاتعرف الشام - مثل بقية البلدان العربية - المقامات قبل بديع

(١) نفحة الريحانة ١٣٩/٢

(٣) السرجة : الشجرة الطويلة العظيمة

(٢) الدوحة : الشجرة الكبيرة المتشعبة

(٤) الغوادى : السحب

الزمان ، بل أيضا قبل الحريري المتوفى سنة ٥١٦ للهجرة ، ويبدو أنها ظلت طويلا لا تعرفها أو على الأقل لا تحاول محاكاة الحريري وبديع الزمان فيها ، وكأنما اشتغالها بالحروب الصليبية ثم المغولية حتى منتصف القرن السابع الهجري ألهها عن هذا الفن ، حتى إذا أخذت الأحوال السياسية تستقر فيها لأيام الممالك وجدناها تعنى به ، وتلقانا نماذج متنوعة من هذه العناية منذ النصف الثاني من القرن السابع ، وهي نماذج تختلف عن صورة المقامات عند بديع الزمان والحريري ، إذ لا تعتمد مثلها على أديب متسول وقصّ احتيالاته الأدبية قصّا حواريا ، إنما تعتمد على الوصف أو المناظرة بين بعض الأشخاص أو بين بعض الأزهار أو بعض الثمار ، وقد تعنى بالوعظ أو بعرض بعض المسائل في العلوم المختلفة ، من ذلك مقامة في المفاخرة بين التوت والمشمش لتاج الدين بن عبيد الصرخدى المدرس بالمدرسة النورية بدمشق المتوفى بعد سنة ٦٧٠ ومن ذلك أيضا مقامة في مصر والنيل والروضة لمحمد بن عبد الرحمن بن قُرْناص الحموي المتوفى حوالى سنة ٦٧٢ . وتلقانا مقامة للشاب الظريف محمد بن عفيف الدين التلمساني الذي ترجمنا له بين شعراء الغزل سماها مقامة أو مقامات العشاق ، وفيها يصور شغفه باللهو والتنزه في الرياض ولقاءه فيها ذات مرة لعاشقين وكيف حاورهما حوارًا طريفًا ، وهو يفتتحها على هذا النمط (١) :

« لم أزل مذ بلغت سن التمييز ، أتولّع بنظم الأراجيز ، ومذ شبّ عمري عن الطّوق ، مُغرى بالغرام والتّوق ، وأهيم بالشّمول (٢) والشمائل ، وأشرب في زجاجة صفراء كالأصائل ، وأقدم على رشف ثغور البيض .. وأتنزه في كل ناد وواد .. فخرجت بعض الأيام إلى الغياض (٣) ، وولجت (٤) بين حياض ورياض » .

ويذكر صاحب فوات الوفيات للشهاب محمود الذي مرت ترجمته بين الشعراء مقامة تسمى مقامة (٥) العشاق ، ولعله حاكى بها مقامة الشاب الظريف . ولعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ أكثر من مقامة . وسنخصه بترجمة قصيرة ، وللصفدى معاصره الذي مرت ترجمته مقامة سماها « رشف الرّحيق في وصف الحريق » وصف فيها حريق دمشق الذي أتى على كثير من أحيائها وأسواقها وعمائرها لسنة ٧٤٠ ومن قوله في تلك المقامة الملتاعة (٦) :

(١) انظر المقامة ملحقة بديوان التلعفري (طبع المطبعة الأدبية بيروت) .
 (٢) الشمول : الخمر .
 (٣) الغياض : أماكن الشجر الملتف
 (٤) ولج : دخل
 (٥) فوات الوفيات لابن شاعر ٥٦٥/٢
 (٦) الجزء الأول من مسالك الأبصار (طبع دار الكتب المصرية) ٢٠١/١

« سألت عن الخبر ، ممن غبر ، فقال إن الحريق وقع قريبا من الجامع ، وأنظر إلى شبح الجو كيف انتشرت فيه عقائق^(١) اللهب اللامع ، فبادرت إلى صَحْنِه والناس فيه قطعة لحم ، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم ، ورأيت النار وقد نشرت في حداد الظلام مُعَصَفَرَاتٍ^(٢) ذوائبها ، وصعدت إلى السماء عَذَبَاتُ ذوائبها . . وعلت في الجو كأنها أعلام ملائكة النصر ، وكان الواقف في الميدان يراها وهي (ترمى بشرير كالقصر) ، فكم زمر أوضحت لذلك الدخان جاثية ، وكم نفس كانت في النازعات وهي تتلو (هل أتاك حديث الغاشية) ولم تزل النار تأكل مايلها وتفنئ مايسفلها ويعتليها . »

وواضح في سجعاته طلبه للجناس . فهو يجانس بين الخبر وغبر ، والجامع واللامع ، واللحم والشحم ، ويمضي في مثل هذه الجناسات الناقصة ، واشتهر لزمه بالتصنع الشديد للجناس . وجعلته عنايته بالجناس يستخدم كلمة ذوائبها مرة من الذوبان جمعاً لذائب ومرة بمعنى مقدم الشعر في الرأس جمع ذؤابة وجعله هذا المعنى يتصنع لذكر العذبات وهي أطراف العائم التي تطرح عليها ، وتكلف أشد التكلف حين ذكر ملائكة النصر مع هذا الحريق الذي إبتليت به دمشق وأهلها بلاء عظيماً . وإنما أغراه به محاولته اقتباس الآية القرآنية (ترمى بشرير كالقصر) وهي في وصف جهنم ومايتصاعد من شررها ووقودها كالقصر في ارتفاع بنائه وعلوه الشاهق . وقد مضى يتصنع لذكر طائفة من أسماء السو ، فذكر (الزمر) أي الجماعات و (الدخان) و (الجاثية) من الجثو وهو الجلوس على الركب من شدة الهول ، كما ذكر (النازعات) والآية الأولى في سورة (الغاشية) والغاشية القيامة .

وواضح أن المقامة أشبه برسالة اتخذت موضوعاً لها وصف حريق دمشق ، وأكثر المقامات حينئذ كانت على هذه الشاكلة ينقصها القصّ والحوار ، وكأنها تختص بموضوع أدبي تعالجه . وغلب عليها ذلك أيضاً في أيام العثمانيين وولتقى في نفحة الريحانة للمحبي بمقامة سميت بالمقامة الربيعية لعبد الرحمن بن محمد الدمشقي من بني النقيب ، وفيها تتوالى تشبيهات الزهور والطيور على هذا النحو^(٣) .

« نَرَجِسُ نَعْتَهُ الْفَتُورُ ، وورد كأنما انتزع من أوجه الحُور . »

(١) عقائق : جمع عقيق وهو حجر كريم أحمر شبه
(٢) معصفرات : مصبوغة بالعصفر ، وهو صبغ أصفر
(٣) نفحة الريحانة ٣٥/٢

وشقيقٌ كأنه أقداح العقيق^(١) ، قد رسب بقرارتها مسكٌ فتيق
 وآذريون^(٢) كأنه مداهن عَسْجِدٍ ، على سواعد زبرجد
 وسوسن كيباض السوالف ، أوجياد^(٣) الوصائف
 وقرنفلٌ كأنما توقد بالجمر ، وانعقد من الخمر»
 ويظل طويلا في وصف الأزهار ، ويخرج منها إلى وصف الأطيوار ، بمثل هذه الأسجاع المليئة
 بالتشبيات والاستعارات .

وروى المحبي لعبد الغنى النابلسي الصوفي الذي مرت ترجمته مقامة وصف فيها نزهة مع صديق
 عثرا فيها على قصر على البنيان فدخله ، يقول^(٤) :

« فصعدنا إلى قصر مشيد^(٥) ، مزخرف الجوانب بألوان الأطلية وأنواع الشيد^(٦) ، فيه الغرف
 الرفيعة ذات التزيين ، والمقاصير المصنوعة لقاصرات^(٧) الطرف عين . قد طلّت شباييكه على
 تلك الأرجاء الموفقة ، والجداول المتدفقة ، وأرضه مفروشة بأفخر الوشي والديباج ، وقد أطلقت
 فيه مباخر الطيب فزاد في الابتهاج .. فحلت أنا وصاحبي على تلك الأرائك الممنوعة^(٨) ،
 والفرش المرفوعة ، نتناشد الأشعار ، ونتشبت بأذيال الأفكار» .

ويلقاه هو وصاحبه رفيق ، فيسأله أين كنت ؟ ومن أين توجهت ؟ ومايلبث أن يقول له :
 « ما ذلك القصر الموصوف سوى جبتى هذه وثوبى هذا الصوف ، والشبايك جيوبه وأطواقه ،
 ولا عجب أن نفتح فيه مباخر الطيب فإنها قراطيسه وأوراقه » . وكأن كل مافي المقامة رموز
 صوفية جلاها عبد الغنى النابلسي في تصاوير الرياض والقصر وتهاويله . وحرى بنا أن نقف قليلا
 عند ابن الوردى أهم كتاب المقامة الشاميين .

(٦) الشيد : كل ما طلى به البناء من جص وغيره
 (٧) قاصرات الطرف : خجلات حبيبات . عين :
 جميلات واسعات الأعين .
 (٨) الأرائك : مقاعد منجدة . الممنوعة : أى عن الناس

(١) العقيق : حجر كزيم أحمر . فتيق : فاتح .
 (٢) الآذريون : زهر شنديد الصفرة . والعسجد : الذهب
 (٣) جياذ هنا : جمع جيد أى عتق .
 (٤) نفحة الرحانة ١٥٢/٢ وما بعدها
 (٥) مشيد : عال مرتفع .

ابن (١) الوردى

هو زين الدين عمر بن المظفر المعروف بابن الوردى ، ولد في المعرة بلدة ابي العلاء سنة ٦٨٩ وبها نشأ ودرس على شيوخها ، ويقول ابن حجر في الدرر : بل نشأ بحلب وهي حاضرة إقليم المعرة ، وخاصة على قاضيها وفتيها ومفتيها الشافعي شرف الدين البارزى . وتنقل في بلاد الشام يأخذ عن شيوخها ، وعُرف فضله في الفقه والفتوى ، فولاه ابن الزملى كاني قاضي قضاء الشام قضاء حلب ، وكان شاعرا . وله في ابن الزملى كاني مدائح كثيرة ، اعترافا منه بصنيعه : ورأى ابن الزملى كاني فيما بعد عزله عن حلب وتوليته قضاء منبج ، فامتعض ابن الوردى لنفسه أن يعزل عن حلب ويؤلى قضاء بلدة صغيرة من بلدان إقليمها ، وعبثا حاول أن يسترضيه وأن يرده إلى حلب ، فاعتزل القضاء وعاش للتأليف ونظم الشعر وصوغ النثر حتى توفي سنة ٧٤٩ . وله مؤلفات علمية مختلفة شعرا ونثرا ، فقد نظم كتاب الحاوى في الفقه الشافعي في منظومة بلغت أكثر من خمسة آلاف بيت ، وله مصنفات لغوية ونحوية ، منها شرح على ألفية ابن مالك وآخر على ألفية ابن معطى . وهو معدود في شعراء القرن الثامن النابيين ، ويقول ابن شاکر : « أجاد في المنثور والمنظوم ، فنظمه جيد إلى الغاية وفضله بلغ النهاية » . وديوانه كبير وهو مطبوع في الآستانة من قديم ، وله بعض رباعيات وبعض موشحات ، أنشد منها السبكي في ترجمته ، وله خمس مقامات ، ورسائل كثيرة منشورة مع ديوانه ، وفي رأينا أن نثره أروع من شعره ، ولذلك اخترنا أن نتحدث عن أبداع ماله من كتابات أدبية ، ونقصد مقاماته .

وأولى المقامات في الديوان المقامة الصوفية ، ومنها يُجرى ابن الوردى حوارا بين مواطن له من المعرة سافر إلى بيت المقدس وبين عشرة من الصوفية في مقدمتهم شيخ كبير ، وكانوا يتبادلون فيما بينهم أحاديث وكلمات صوفية رمزية ، وأشركوا معهم في الحديث هذا الوافد المعرى ، وأخذ يسألهم عن أحوالهم ورموزهم وإشاراتهم وتصوير ثيابهم وعاداتهم والشيخ يجيب . وأحيانا ينتقد صوفية زمنه وأنهم لا يتبعون المنهج السديد لأسلافهم حتى ليقول : « إن المتصوفة اليوم أصحاب

والبدر الطالع ٥١٤/١ والشذرات ١٦١/٦ وديوانه ومعه مقاماته ورسائله مطبوع في الآستانة سنة ١٣٠٠ للهجرة .

(١) انظر في ابن الوردى وترجمته طبقات الشافعية للسبكي ٣٧٣/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٧٢/٣ وفيات الوفيات ٢٢٩/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/١٠

أكل وشرب ونوم ، يروون الأقوال ولا يتبعون الأفعال ، وافقوا أسلافهم ملبسًا ، وخالفوهم أنفسا . والمقامة طريفة في عرضها لأحوال الصوفية في تلك الأيام ، وحرى بنا أن نذكر فاتحتها لنقف على أسلوب ابن الوردى في مقاماته ، يقول (١) :

« حكى إنسان ، من معرّة النعمان ، قال : سافرت إلى القدس الشريف ، سفر منكر بعد التعريف ، فاجتزت في الطريق بواد وقانا لفحة الرّمضاء (٢) ، وقال : حكمت على الوادى الذى تروع حصاه حالية العذارى فقلنا دائم الحكم والإمضاء ، وإذا عين كعين الخنساء تجرى على صخر ، ويقول ماؤها أنا سيد مياه هذا الوادى ولا فخر ، فروّيت كبدَ صَادٍ (٣) من تلك العين ، ولكن نُغصّ منظرها الحسن بذكر ظمًا الحسين . »

وقد تصنع ابن الوردى في أول مقامته لمصطلح التعريف والتكثير في النحو ، ولم يلبث أن اقتبس في وصف الوادى ألفاظ بيتين مشهورين من الشعر في وصف واد للمنازى معاصر أبي العلاء إذ يقول

وقانا لفحة الرّمضاء وادٍ سقاه مضاعف الغيث العميم
تروع حصاه حالية العذارى فتمسّ جانب العقد النظيم

واشتهرت الخنساء بكثرة بكائها على أخيها صخر فاستغلّ ابن الوردى ذلك في التورية عن هذه العين الحقيقية التى تجرى مياهها على الصخر ، ويقول إن منظرها الحسن ذكره بحادثة الحسين ومقتله في كربلاء وطلبه الماء من أعدائه ومنعه عنه وروحه تصعد إلى بارئها . ولم نغص في قراءة المقامة لئلا وهو يقتبس آى الذكر الحكيم ويتمثل بالأشعار والحكم والأمثال ، مما جعل الكتابة حينئذ تتوء بكلف كثيرة .

وسمى ابن الوردى مقامته الثانية المقامة الأنطاكية ، واتخذ فيها أيضا شخصا من المعرة يزورها ويصف محاسنها ومحاسن الطبيعة من حوله ، ويحمد الله على أن ردها من حملة الصليب إلى العرب ، ويأسى لما فيها من تباغض بين العرب والروم .

والمقامة الثالثة سماها المقامة المنبجية ، ومنبج إحدى القرى الكبيرة في حلب ، وفيها يحكى أيضا شخص من المعرة أنه دخلها فرثى لما أصاب مساجدها وأبنيتها من دثور . وكان حملة الصليب قد استولوا عليها قديما وعاثوا فيها . ويلم ابن الوردى بمدرستها النورية ، فإذا مدرستها

(١) الديوان (فى مجموعة طبعة الجوائب) ص ١٣٣ (٣) صاد : عطشان شديد العطش

(٢) الرّمضاء : شدة الحر

القاضي حدث السن ، فظن أنه ليس بشيء ، فلما سأله عن حاجته قال : « نحن عشرة ذوو نسب وأولو علم وأدب ، وقد أنشد كل منا بيتي شعر ، سامها^(١) فضل شعر ، وأقام وزنها ، وقال إنهما وإنهما ، وأنا رسول أصحابي إليك لتنصف بيننا وقد دُلت عليك » فقال له : قل ما أردت أن تقول ، فأخذ يعرض عليه أبياتا في الغزل وغير الغزل ، والقاضي يعلق تعليقات نقدية بديعة . وحينئذ رجع المعري إلى نفسه يلومها لسوء ظنها بالمدرس ، وأطال شكره .

وسمى المقامة الرابعة المشهية وفيها يلتقي شخصٌ معريٌّ أميرا يحدثه عن الاحتفالات والمواسم حول بعض الأضرحة ومايجرى فيها من اللهو واختلاط النساء بالرجال كأعياد النصارى والمجوس ، وينهاه الأمير عن الاشتراك في هذه البدع المحرمة ، وينوه بقاضي القضاة ابن الزملاكاني الذي أمر بإبطلها وشدد في النكير عليها ، ويدعو له قائلا :

« لازال نداءه^(٢) مثل حرف النداء ، كفيلا بضم الأقربين والبعداء ، من وُصل به نال عُرُفا^(٣) ، واكتسب تابعه على اللفظ والمحل عطفًا ، حتى يكون علمه علما منصوبا ، وعواطفه للمعارف خبرا مبتدأ به منصوبا ، ولا يبرح مرفوعا بفعل الحسنى ، وسيوف بحوثة ماضية فهي على الفتح تُبْتَى » .

وواضح مدى ماتكلفه ابن الوردى من حشد مصطلحات النحو في عبارات الثناء على ابن الزملاكاني وسجعاته ، فلازال ابن الزملاكاني مثل حرف النداء في النحو ينادى به القريب والبعيد ، والتابع مفرد التوابع ، وهى العطف والنعته والتوكيد والبدل ، ولذلك ذكر مع التابع العطف ، وجلب من النحو كلمة « منصوبا » واراد بها ان العلم مرفوع ، وذكر المعارف والخبر والمبتدأ والنسب والرفع والمضى والبناء على الفتح . كل ذلك حشده في هذه السجعات القليلة ، ولم يكن يصنع ذلك دائما ولكن من حين إلى حين تلقانا في نثره هذه الرقع التى تدل على التكلف الشديد .

ومقامته الخامسة في وصف حريق دمشق الذى وصفه معاصره الصفدى . ومرت بنا قطعة من وصفه ، وسمى ابن الوردى هذه المقامة باسم « صفو الرحيق فى وصف الحريق » ورواها عن شخص يسمى غيث بن سحاب عن ندى بن بحر ، والصلة بينها وبين رسالة الصفدى فى الموضوع نفسه قوية ، ويبدو أن الصفدى اقتبس كثيرا منه حتى عنوان مقامته وهو « رشف الرحيق فى

(٣) العرف : المعروف

(١) سامها فضل شعر . غالى بها فى الشعر

(٢) نداءه : كرمه

وصف الحريق» . وله رسالة بديعة في وصف وباء الطاعون الذي فتك بآسيا وامتد من الصين والهند إلى الشام ومصر لسنة ٧٤٩ ويسمى ابن حجر مقامة ، وتسميتها - كما جاء في الديوان - باسم رسالة أولى لغياب الرواية والحوار فيها ، ومثلها رسالته التي كتب فيها مفاخرة بين السيف والقلم ، وهي رسالة طريفة .

٤

المواعظ والابتهالات

فرض الإسلام الوعظ في خطب المساجد كل يوم جمعة وفي العيدين : عيد الفطر وعيد الأضحى ، ومعنى ذلك أن جميع البلدان الإسلامية طوال الأزمنة المختلفة كانت تموج بخطب الوعظ وإن لم تكن كتب الأدب بتسجيلها ، لأنها كانت أكثر من أن يحيط بها حصر أو استقصاء ، غير أنها بقيت منها شظايا ، وأول ما يلقانا من ذلك في الشام خطب الخلفاء منذ معاوية ، ولعمر بن عبد العزيز من ذلك الحظ الأوفر . وكان القصاص منذ معاوية يعظون الناس ، وقد أمر معاوية أن يكون ذلك مرتين : مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب وعيّن للقصاص مراتب (١) خاصة . ويشتهر في زمن عمر بن عبد العزيز غير واعظ مثل رجاء بن حيوة المتوفى سنة ١١٢ ومثل غيلان الدمشقي وكانت له رسائل مليئة بالوعظ . وظلت الشام تمتلئ بالوعاظ طوال القرن الثاني وفي مقدمتهم الأوزاعي صاحب المذهب المشهور . وبالمثل ظل الوعظ حياً مزدهراً في القرنين الثالث والرابع ، ويلقانا في حلب لزمن سيف الدولة واعظ كبير هو عبد الرحيم بن محمد المعروف باسم ابن نباتة ، وسنقف قليلاً عند خطبه ، ولانلبث أن نلتقى بأبي العلاء ، والعظات وتمجيد الله والزهد في متاع الدنيا يكثر في أشعاره وكتبه ، ومانفتح الصفحة الأولى من اللزوميات حتى نجده يقول : « إن من هذه الأوراق ما هو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد .. وبعضها تذكير للناسين ، وتنبيه للرقدة الغافلين ، وتحذير من الدنيا » . وله بجانب اللزوميات ديوان ثان في العظة والزهد والاستغفار سماه : « استغفر واستغفرى » سقط من يد الزمن ، وكان يشتمل كما يقول مترجموه على نحو عشرة آلاف بيت . وكان له في النثر دعاء

(١) انظر في ذلك كتابنا الفن ومذاهبه في النثر العربي

(طبع دار المعارف - الطبعة التاسعة) ص ٧٥

يعرف بدعاء ساعة ودعاء يعرف بدعاء الأيام السبعة ، وكتاب يعرف بالسجعات العشر في الوعظ ، وكتاب يعرف بسيف الخطب ، وفيه خطب الجمع والعيدين والخسوف والكسوف والاستسقاء وعقد الزواج ، وقد بنى سجعها على الحروف السهلة مثل الهمزة والباء والتاء والذال واللام والميم والنون ، لأن الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون ليّنا سهلا . وله كتاب تاج الحرة ، وهو في عظات النساء خاصة . وكل هذه الكتب سقطت قديما من يد الزمن ، وبقي من عظاته قسم كبير من كتابه الفصول والغايات ، وسنخصه بحديث عما قليل .

ويحتدم الوعظ منذ نزول الصليبيين الشام لبث الحمية الدينية في نفوس الناس ، حتى يجاهدوا في سبيل الله ، ويضربوا حملة الصليب الضربات القاضية . واشتهر كثيرون حينئذ بروعة وعظهم ، منهم بنو العديم في حلب لعهد نور الدين ، ومنهم ابن نجا خطيب دمشق المولود بها سنة ٥٠٨ والمتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٩ ، ومنهم محيي الدين محمد بن الزكي قاضي دمشق وخطيبها ، وهو الذي خطب أول جمعة صُلِّيت بالقدس بعد فتحه ، وسلم بخطبته .

ومن الوعاظ المشهورين حينئذ المهذب الدمشقي الذي لقيه العماد الأصبهاني - كما يقول بخريدته - بدمشق سنة ٥٧١ وسلم برسالة أدبية له ذكرها العماد ويُعدُّ سبط ابن الجوزي يوسف بن قزوغلي أكبر واعظ شهدته دمشق طوال النصف الأول من القرن السابع الهجري حتى وفاته سنة ٦٥٤ وقد نزلها سنة ٦٠٠ واتخذها مسكنا ودار إقامة . وكان قد نشأ في حجر جده ابن الجوزي واستمع إلى مواعظه الرائعة التي نوهنا بها في حديثنا عن العراق ، وطارت شهرته في الوعظ كما طارت شهرة جده ، وكان يحضر مجلسه القضاة والأشراف والأعيان « ونالته السعادة والوجاهة عند الملوك ، لاسيما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فإنه كان عنده بالمنزلة العظمى ، وكان له لسان حلوف في الوعظ والتذكار ولكلامه موقع في القلوب ^(١) » ويصف أبو شامة مجلس وعظه في كتابه « ذيل الروضتين » فيقول : « كانت مجالس وعظه من محاسن الدنيا ولذاتها . وكان يزدحم في مجلسه مالا يحصى من الخلق رجالا ونساء ، والنساء بمعزل عن الرجال في جامع دمشق ، وجامع الجبل ، حضرتُ مجالسه صغرى وكبرى في الموضوعين مرارا ، وكان لا يفارق أحد مجلسه إذا انفضَّ إلا وشوقه مستمر إلى عودته في الأسبوع الآخر . وكان يجلس [للوعظ] كل سبت وتُبَسَّطُ السجادات والحُضْرُ والبسط في كل المواضع القريبة من المنبر ما بينه وبين القبلة في يوم الجمعة ،

(١) النجوم الزاهرة ٣٩/٧

وبييت الناس ليلة كل سبت حلقا ، يقرءون القرآن بالشموع ، كل ذلك فرحا بمجلسه ومسابقة إلى الأماكن ^(١) .

ومن كبار الوعاظ في أوائل أيام المماليك ابن غانم المقدسي ، وله حوار طريف مع إبليس سماه « القول النفيس في تفليس إبليس » وهي رسالة صغيرة ، أراد بها أن يُعلم شياطين الإنس من أتباعه ضلالهم ومدى مايتخبطون فيه من الغي . وأطرف من هذه الرسالة رسالة له سماها « كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار » وستحدث عنها بين الرسائل الأدبية . ومن خطباء دمشق ناصر الدين ابن البارزي المتوفى سنة ٨٢٣ ولى خطابة الجامع الأموي فترة ، ويقول ابن حجة : « لما فوضت إليه خطابة الجامع الأموي لم يبق أحد من أعيان دمشق إلا حضر في تلك الجمعة لأجل سماع خطبته ، وكانت براعتها (فاتحتها) : الحمد لله الذي أيد محمدا بهجرته ، ونقله من أحبّ البقاع إليه لما اختاره من تأييده ورفعته ^(٢) » . ولاريب أن الخطابة الدينية اطردها ازدهارها أيام العثمانيين ، وأن كانت كتب التراجم لم تصور ذلك تصويرا واضحا . ونقف عند طائفة من خطب المواعظ ورسائلها وكتبها البديعة .

(١) خطب ابن نباتة الفارقي ^(٣)

ابن نباتة الفارقي هو الخطيب عبد الرحيم بن محمد ، وفيه يقول ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة . وقع الإجماع على أنه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته ، وكان خطيب حلب أيام سيف الدولة الحمداني وكان كثير الغزوات ، ولهذا أكثر ابن نباتة من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ، ويحثهم على نصره سيف الدولة . ولد سنة ٣٣٥ وتوفى سنة ٣٧٤ . وخلفه في الخطابة ابنه أبو طاهر محمد المتوفى سنة ٣٩٠ ثم حفيده أبو الفرج طاهر المتوفى عام ٤٢٠ . وطُبعت خطبهم جميعا مرارا ، وطُبعت خطب عبد الرحيم مفردة وقد جعلها على عدد جُمع السنة ابتداء من شهر المحرم إلى نهاية شهر ذي الحجة ، ومن قوله في الخطبة الثالثة لشهر صفر ، بعد حمد الله والصلاة على رسوله الكريم :

« أيها الناس ! تنزهوا عن حب الدنيا فإن متاعها قليل ، وتزودوا بتقواكم فإن السفر طويل ، ولا تطمعوا في هذه الدنيا فإن البقاء فيها مستحيل ، كيف لا والمنادي ينادي كل يوم يا عباد الله

(١) ذيل الروضتين (طبعة سنة ١٩٤٧) ص ٤٩ (٣) انظر في ابن نباتة الفارقي ابن خلكان ١٥٦/٣

(٢) خزنة الأدب ص ٢٠ وعبر الذهبي ٣٦٧/٢ والشذرات ٨٣/٣

الرحيل الرحيل ، هو الموت الذى مافيه فوتٌ ولا تعجيل ، ولا يقبل الله فيه الفداء ولا يرضاه من بديل ، كم ألحق عليلا بصحيح وصحيحا بعليل ، وكم أخذ قريبا من قريب وخليلا من خليل ، فكيف تطمعون فى الدنيا بالإقامة فيها وقابض الأرواح عزرائيل ، فلإى متى هذه الغفلة والقساوة ولم يبق من العمر إلا القليل ، ثم ترجعون إلى ربكم المتعالى فى كماله عن الشبيه والمثيل .
ولغة ابن نباتة فى خطابه عذبة سائغة ، وقد بناها على السجع شأنه فى ذلك شأن الخطباء والكتاب فى العصر ، فقد عم السجع حتى فى الكتابات التاريخية كما مرنا عند العماد الأصهبانى ، وسجعه يلد الآذان حين تصغى إليه ، لسهولته وخفته وبراعته فى صوغه حتى لتتوالى الخطبة مسجوعة على روى واحد ، ويقول فى الخطبة الثانية من خطب شهر رمضان :

« عباد الله إن شهركم هذا شهر البركات والسرور ، شهر ضاعف الله أجره وهو بالخيرات مغمور ، والتجارة فيه لن تبور .. عباد الله ! أوصيكم بالإكثار من كل عمل مبرور ، وأنها كم أن تُحْبَطُوا صيامكم بالغيبة والنميمة وقول الزور .. يامفطرا بالحرام لأى شىء يكون الإفطار والسحور ، يا غافلا عن طاعة الله ماهذه الغفلة والفتور ، يهاثما فى تيه الهوى أما تخشى ظلمات القبور .. ياماثلا إلى زهرة الدنيا ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، ياعادلا عن طريق الهدى متى تهتدى ليوم النشور » .

وبهذه اللغة الصافية الحلوة كان ابن نباتة يعظ الناس فى أيام الجمع ، فيبلغ الأعماق من قلوبهم وأفئدتهم ونحس بصلة قوية بين خطبه وخطب على بن أبى طالب فى نهج البلاغة ، وبدون ريب كان يتأثر فى خطابه ببيانه الرائع .

(ب) الفصول^(١) والغايات

هذا كتاب جميعه وعظ لأبى العلاء المعرى قصد به إلى تمجيد الله العلى الأعلى ، بدأ تأليفه قبل ذهابه إلى بغداد وأتمه بعد رجوعه ، وقد أثار ضجة حوله منذ ظهوره ، إذ زعم بعض خصومه منذ زمنه إلى أنه وضعه معارضة^(٢) للقرآن الكريم ، ونجد تلميذه ابن سنان الخفاجى الذى مرت ترجمته ينفى عنه بشدة هذه التهمة^(٣) ، ولعل من أسبابها أنه سمى الكتاب :

طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١١ ودمية
القصر ١/١٣٠ وتعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢١
(٣) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٤٢٦

(١) انظر الفصول والغايات (طبعة محمود زناى) وقد
نشر القسم الأول منها وينتهى فى الغايات إلى حرف
الحاء .
(٢) راجع سفرنامه لناصر خسرو (الترجمة العربية

« الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات » وهو لا يريد محاذاة القرآن في أسلوبه وإنما يريد محاذاته في تمجيد الله وتحميده والثناء عليه ، وهو نفسه يقول في كتابه : « علم ربنا ما علم ، أنى ألفت الكلم ، أمل رضاه المسلم ، وأتقى سخطه المؤلم ، فهب لي ما أبلغ به رضاك من الكلم والمعاني الغراب » . والكتاب جميعه وعظ وزهد وخوف من الله وتقوى وورع وعبادة ونسك ، مع الشعور الدائم بالتقصير إزاء ربه وعبادته المثلث حتى ليقول^(١) :

« لو نقلت مياه اللُّجج على منكبي في قُداف^(٢) ، وأفرغته على مناكب الجبال ، وجرت كُتبان الأرض وصرائمها^(٣) في جرٍّ أو مشاة^(٤) ، فألقيتها في الخُضر^(٥) الدائمات ، حَفْدًا^(٦) لله كنتُ أحدَ العجزة المقصّرين ، ولو أذن لي وأيدتُ فاتبنتُ مراهص^(٧) من الثرى الأسفل إلى الثريا ، ومن الوتد ، المتخذ من عود إلى وتد السُعود^(٨) ، لم أؤد ما يوجبه جلال الله ، فكيف وأنا أقصر الصلاة ، وأداني بين الركعات » .

وهو يقول : مها تنسك ومها أدى من العبادات والأعمال فإنه لن يبرحه شعوره بعجزه وقصوره إزاء جلال الله وهيبته العظمى ، حتى لو نقل مياه اللجج الزاخرة على منكبه في جرار تلو جرار مفرغا لها على مناكب الجبال ، وحتى لو جركتبان الأرض كئيبا وراء كئيب في زنايل وألقاها في لجج البحار تقربا إلى ربه ، وحتى لو ابتنى من الثرى طبقات بعضها فوق بعض وبلغ بها عنان السماء إلى الثريا أو لو اتخذ من أوتاد العيدان أو تادا يتراكم بعضها فوق بعض ، حتى يصل إلى وتد السعود ، لظل شاعرا بوهنه وقصوره أمام ماتوجهه تجلة الله وعظمته . وإنه ليصبح مبتهلا إلى ربه في جزع لا يدانيه جزع : « إن كان الدمع يطفئ غضبك فهب لي عينين كأنهما غمامتا شتى^(٩) تَبْلان^(١٠) الصباح والمساء^(١١) » إنه سيظل ماعاش باكيا ذارفا الدموع سائلا من ربه رضاه ورضوانه . ولهذا الصيحة أخوات كثيرة في الكتاب ، فأبو العلاء فيه دائما يناجى ربه ضارعا بل وجلا خائفا .

(١) الفصول والغايات ٥٩/١

(٢) قداف : جرة

(٣) صرائم : جمع صريمة وهي القطعة من الرمل

(٤) جر ، مشاة : زيل

(٥) الخضر : اللجج

(٦) حفدا : خدمة

(٧) مراهص : طبقات

(٨) وتد السعود : سعد الأخبية : نجوم معروفة

(٩) شتى : من الشتاء ويريد سحابا دائم المطر

(١٠) تبلان : تهطلان ، من الويل وهو المطر الغزير

(١١) الفصول والغايات ٢٥٩/١

والكتاب منقسم إلى ثمانية وعشرين فصلاً بعدد حروف المعجم ، وكل فصل لحرف ينقسم إلى فقر ، وكل فقرة تنتهى بالحرف الذى اختاره للفصل ويسمى غاية ، ويلتزم أبو العلاء قبل غايته الألف دائماً . وليس هذا كل ما صعبه على نفسه فى الكتاب ، فقد التزم فى كثير من الفقر أن تشارك سجعاتها فى حرفين أو أكثر على طريقة مانعرف فى لزومياته . والتزم بجانب ذلك أن يجلب إلى سجعات الكتاب كثيرا من الألفاظ الغريبة ، وإنها لتغلب على سجعاته غلبة شديدة ، حتى يمكن أن نقول إنها إحدى خصائصه أو أحد التزاماته . وعلى عادته فى أشعاره كثيرا ما يضيف بعض ألوان البديع وخاصة الجناس . وكما رأينا فى اللزوميات يكثر فى الفصول والغايات من ذكر المصطلحات العلمية يجلبها من جميع العلوم ، وكأنما يراها وشيا خليقا أن يضاف إلى فصوله وغاياته وفقره فيه ، من ذلك قوله مستظهِراً لبعض مصطلحات علم الصرف^(١) .

« لا تجعلى ربُّ معتلاً كواو يقوم ، ولا مبدلاً كواو موقن من الياء ، ولا أحب أن أكون زائدا مع الاستغناء ، كواو جدول وعجوز ، فأما واو عمرو فأعوذ بك ربُّ الأشياء ، إنما هى صورة لاجرس لها ولاغناء ، مشبهها لا يحسب من التسمات » .

وعلماء الصرف يقولون إن واو يقوم أصلها يقوم فاستقلت الضمة على الواو فنقلت إلى ما قبلها واعتلت ، وأن كلمة « موقن » أصلها ميقن ، فقلبت الياء واوا لسكونها وانضمام ما قبلها ، وأن الواو فى جدول وعجوز زائدة لأنها مشتقتان من الجدول والعجز . ومعروف أن واو عمرو تكتب ولا تنطق تمييزاً للكلمة من كلمة عمر . وكل ذلك يحشده أبو العلاء فى بعض وعظه بل إنه ليحشد كثيرا من دقائق المصطلحات العلمية لم نر حاجة إلى ذكرها . وحسبنا ما قدمناه لناخذ صورة عن كتاب الفصول والغايات ، وفى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » كلمة عنه أكثر بسطا وتفصيلا وتحليلا .

(١) الفصول والغايات ١/١٤٢

(جـ) خطبة القدس بعد فتحه لمحبي الدين بن الزكي

أما الخطيب فهو محبي^(١) الدين محمد بن الزكي على من سلالة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، كانوا قضاة في دمشق ، وكانت ولادته سنة ٥٥٠ هـ ، وكانت له عند صلاح الدين منزلة عالية ، فلما صارت له حلب وواه قضاءها ، حتى إذا فتحت القدس ، وكان محبي الدين حاضرا فتحتها تطاولت الأعناق إلى الخطابة بها في أول يوم جمعة ، وأعد من كانوا في حضرته خطبا بليغة يخطبون بها في هذا اليوم واختار صلاح محبي الدين ، فألقى خطبة ضافية ابتدأها بفاتحة الكتاب ثم تلاها بالتحميدات في أول سور الأنعام والإسراء والكهف والنمل وسبأ وفاطر ، ثم شرع في الخطبة . وقال^(٢) فيها .

« الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذى قدر الأيام دولابعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله .. أحمدته على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ..

أيها الناس أ بشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة^(٣) ، من الأمة الضالة ، وردّها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتدائها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإمارة^(٤) الشرك عن طريقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه .. ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فى شرفها مبار . وهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء ، وتبلّجت^(٥) بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرب به عينا الانبياء المرسلون .. فاحفظوا - رحمكم الله - هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التى من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ومواقعة الردى ،

١١٠/٢

(١) انظر ترجمة محبي الدين فى طبقات السبكي

(٣) الضالة هنا : كل ماضل وضاع ، وفى المثل :

١٥٧/٦ وابن خلكان ٢٢٩/٤ وعبر الذهبى ٢٠١/٤

الحكمة ضالة المؤمن

والبداية والنهاية ٣٢/١٣ والنجوم الزاهرة ١٨١/٦

(٤) إمارة : تنحية وإبعاد

والشذرات ٣٣٧/٤

(٥) تبلجت : أشرفت

(٢) انظر الخطبة كاملة فى ابن خلكان والروضتين

ورجوع القهقري .. الله أكبر ، فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، وأذل الله من كفر .
والخطبة طويلة ، وقد اكتفينا منها بهذه الشظايا الرائعة التي تصور فرحة السلمين بهذا الفتح
المبين والنصر العظيم ، وكأنما عادت المعجزة النبوية وأيام بدر وفتوح الشام ومصر والقادسية
وهجمات خالد والصحابة الأولين ، وما النصر إلا من عند الله .

(د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار

مؤلف هذا الكتاب الطريف ابن^(١) غانم عبد السلام بن أحمد المقدسي الواعظ المشهور
لزمه المتوفى سنة ٦٧٨ ، والكتاب في ٣٠ صفحة ، ذكر في مقدمته مايفصح عن موضوعه قائلاً :
« قد وضعت كتابي هذا مترجماً عما استفدته من الحيوان برمزه ، والجماد بغمزه ، وماخاطبتني به
الأزهار بلسان حالها ، والشحارير عن مقار ارتحالها . وسميته كشف الأسرار عن حكم الطيور
والأزهار ، وجعلته موعظة لأهل الاعتبار ، وتذكرة لذوى الأبصار والاستبصار » . ويقول إنه
خرج يوماً ليتأمل في الطبيعة وأسرارها ، وانتهى إلى روضة رقّ نسيمها وغنّى عندليها ، وكان
وحيداً وأخذ كل ما حوله يخاطبه بلسان الحال دالاً على القدرة الإلهية وحكمة الله في خلقه وعظيم
صنعتة ، وسجل من ذلك عظات بليغة على السنة الأزهار ثم السنة الطير ثم السنة الحيوان . وبدأ
بالنسيم رسول كل محب إلى حبيبه ، وحامل شكوى كل عليل إلى طبيبه ، ثم تركه إلى الأشجار
وأحد عشر نوعاً من الأزهار استهلها بالورد قائلاً على لسانه « أنا الضيف ، فاغتنموا وقتي فالوقت
سيف ، أعطيت نفس العاشق وكُسيّت ملاحه المعشوق ، وأنا الزائر وأنا المزور ، ومن طمع في
بقائي فإن ذلك زور ، ثم من علامة الدهر المكثور ، والعيش المحرور ، أني حيثما نبت رأيت
الأشواك تراحمني وتجاورني ، فأنا بين الأدغال مطروح ، وبنبال شوكي مجروح . وهذا دمي على
عندمي يلوح ، وهذا حالي وأنا أطف الأوراد ، وأشرف الورداد ، فمن صبر على نكد الدنيا بلغ
المراد » .

وختم ابن غانم الكلمة بالعظة التي يريد بها ، وجعل الورد ضيفاً على الطبيعة ، لأن مدة بقائه
فيها قصيرة ، واستغل ماينبت حوله من شوك ليدل على أن الدنيا مهما أذقت الناس فيها من حلاوة
العيش لا بد أن تجتمع إليهم شيئاً من مرارته فليست الدنيا ورداً خالصاً ولا حياة لإنسان فيها دائماً

لابن العماد ٣٦٢/٥ .

(١) انظر في ابن غانم وترجمته البداية والنهاية لابن
كثير ٢٨٩/١٣ ومرآة الجنان لليافعي ١٩٠/٤ والشذرات

مشرقة زاهية بل لا بد من ظلمة تغشاها ، بل هي مزيج من خير وشر وأمل ويأس وسرور وخزن ، وجرى بالإنسان فيها أن يصبر ويصابر حتى يبلغ مأموله . ويقول على لسان شجر البان الذي طالما ذكر المحبون في لينه وتمايل أغصانه محبوباتهم .

« انظر إلى الورد وقد ورد ، وإلى البرد وقد شرد ، وإلى الزهر وقد أتقد ، وإلى الحبّ وقد انعقد ، وإلى الغصن اليابس قد اكتسى بعدما انجرد ، وإلى اختلاف المطاعم ومشربها قد اتحد ، واعلم أن خالقها أحد ، وصانعها صمد ، وموجدتها بالقدرة قد انفرد ، لا يشاركه في ملكه أحد ، ولا يفتقر هو إلى أحد (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) .

وهي عظه بليغة على لسان البان ، فالربيع أقبل ، وأقبل الورد معه ، وشرد الشتاء والبرد : وأضاء الزهر بألوانه واتقد ، وحب التمار قد انعقد ، واكتست الغصون بعد العرى وسقوط الأوراق عنها ، ودبت فيها نضرة الحياة ، وما أعظم قدرة الله فالنباتات والأشجار تسقى بماء واحد وتختلف ثمارها وطعومها بين حلو وحامض ، وكل ذلك شاهد على قدرة الله التي لا يشركه فيها أحد ، إنه واحد صمد ليس كمثل شيء وهو على كل شيء قدير .

وينتقل ابن غانم من الحكاية على لسان الأزهار إلى الحكاية على لسان الأطيوار ، ويستهل كلامها بكلام الهزار وهو طائر حسن الصوت متعدد الألحان وعلى لسانه يقول :

« أنا العاشق الولهان ، أنا الهائم اللهفان ، إذا رأيت فصل الربيع قد حان ، تجدني في الرياض فرحان ، وفي الغياض ^(١) أردد الألحان . وأرقص على الأغصان كأن الزهر والنهر لي عيدان ^(٢) ، وانت تحسبني في ذلك عاتبا ، لا والله العظيم ولست في يميني حائنا ، أنا أنوح حزنا لا طربا ، وأبوح ترحا لا فرحا ، لأجد روضة إلا نُحْتُ على اضمحلالها ، ولا خضرة إلا تبلبلت على زوالها ، لأنى مارأيت قط صفوة إلا تكدرت ، ولا عيشة حلوة إلا تمررت ، فقرأت في تمثال العرفان ، كل من عليها فان » .

والهزار في أول العظة فرح بمقدم الربيع ، وسرعان ما يفكر في انتهائه ، فيندب وينوح ، إذ لا يجد روضة إلا وتضمحل بعد ازدهارها . ويتسع تفكيره حتى يشمل الحياة ، فإذا كل ما فيها من صفاء لا يلبث أن تغشاه كدرة قائمة ، وكل ما فيها من عيش حلوا لا يلبث أن ينقلب عيشا مرا ، بل إن كل ما فيها هالك فان . وسعيد من كتبت له السعادة ، وشقي من كتب له الشقاء . وينتقل إلى

(١) الغياض : جمع غيضة وهي الشجر الملتف المعروفة

(٢) عيدان هنا : جمع عود ، وهو الآلة الموسيقية

الحيوانات ويختم حديثه عنها بكلام على لسان الغملة إذ تقول :
 « إذا رماك الدهر برمى فقم له ، وإذا رأيت من تهبأ للسير فسير قبله ، ولاتكن في تدبير
 عيشك أبله ، تعلم منى قوة الاستعداد وتحصيل الزاد للمعاد .. كلفت جمع المثونة بتيسير المعونة ،
 وأعطيت قوة الشم من الأماكن البعيدة فأدركت بالشم من بُعد الفراسخ ، مالم يدركه ذو العلم
 الراسخ ، ثم أعطيت بالتقدير ، حسن التدبير ، فأدبر ما أدخره من الحب لقوتي ، في بيوتى » .
 والكتاب بذلك كتاب تعليم ووعظ ودفع للإنسان يسير في الطريق السديد ، واعياً لحكمة الله
 في خلقه ، متعظاً بما تورده عليه الحيوانات والأطيوار والأزهار من مواعظ وحكم وأمثال وأضواء
 تنير له دنياه ، وتعهده إعداداً حسناً لأخراه . ولغة الكتاب سهلة بسيطة قريبة من لغة الحياة اليومية
 لأنه أريد به إلى الوعظ والإرشاد ، وهو حقاً مسجوع ، ولكن ليس فيه ألفاظ آبدة غريبة ،
 وتخلله أبيات شعرية سائغة ، تدل على حسن ذوق المؤلف ودقة اختياره . وبجانب الأبيات
 المختارة أبيات من نظمه تدل على أن ابن غانم كان يحسن الشعر والنثر جميعاً .

٥

أعمال أدبية : رسائل وغير رسائل :

خلفت الشام في هذا العصر أعمالاً أدبية كثيرة ، ويلقانا في مفتحه كشاجم ، وله كتاب
 المصايد والمطارد عرض فيه الصيد وآلاته وما قيل فيه من الأشعار عرضاً طريفاً ، وله بجانبه كتاب
 في البيزة أو بعبارة أخرى في جوارح الصيد ، وكتاب في أدب النديم . ولأبي العلاء المعرى أعمال
 أدبية نثرية كثيرة ، لعل أهمها رسالة الغفران ، وسنم بها عما قليل ، وفي خريدة القصر قسم الشام
 رسالة أدبية بديعة هي رسالة النسر والبلبل ، وسنفرد لها كلمة موجزة ، وفي الخريدة أيضاً
 رسالة ^(١) طريفة ليعمر بن عيسى المتوفى شاباً سنة ثمان أو تسع وستين وخمسمائة ، وموضوعها
 معاشره الإخوان واغتنام الفرصة قبل أن تصبح غصبة في دنيا لا يدوم نعيمها ولا تندمل كلومها ،
 وعنده أن الفرصة هي الإقبال على اللهو والقصف والصيد والقنص . ويفيض في وصف الصيد
 وماركبوا فيه من خيل وما حملوا فيه معهم من فهود وكلاب وبزاة وشواهين ، ويطلق في بيان صيد

(١) انظر الرسالة في الخريدة (قسم الشام)

له مع بعض رفاقه إلى نحو عشرين صحيفة ، وهي رسالة أدبية بارعة كتبها أديب حاذق في فنه وسجعاته وجرسها الموسيقى وفي تصاويره وتلاوينه .

وربما كان أهم من عني في القرن السادس الهجري بكتابة أعمال نثرية أدبية أسامة بن منقذ الذي مرت ترجمته بين الشعراء ، وله كتاب العصا جمع فيه ما نظم من شعر ، وهو منشور ، وله كتاب لباب الآداب ، وهو زاخر بالأشعار والحكم والنوادر والآداب الفردية والاجتماعية ، جعله في سبعة كتب : في الوصايا والسياسة والكرم والشجاعة والآداب والبلاغة والحكمة ، واشتمل منها كتاب الآداب على خمسة عشر فصلا : في الأدب وكتان السر والأمانة والتواضع وحسن الجوار وحفظ اللسان والقناعة والصبر والحياء وترك الرياء والإصلاح بين الناس والتعفف عن السؤال والتحذير من الظلم والإحسان والحض على فعل الخير . وعادة يورد في كل كتاب ما يتصل به من القرآن والأحاديث النبوية والأشعار وما روى عن العرب والعجم من أقوال . ولأسامة كتاب ثالث هو المنازل والديار ألفه بعد حدوث زلزال شديد سنة ٦٥٢ أتي على حصن شيزر موطنه وأحاله أنكاثا وأنقاضا ، ويقول في مقدمته : « دغاني إلى جمع هذا الكتاب مانال بلادى وأوطانى من الخراب ، فإن الزمان جرّ عليها ذيله ، وصرف إلى تعفيتها^(١) حوله وحيله^(٢) ، فأصبحت (كأن لم تغن بالأمس) موحشة العرصات بعد الأنس ، قد دثر عمرانها ، وهلك سكانها ، فعادت مغانيها^(٣) رسوما ، والمسرات بها حسرات وهموما » وهو كتاب ضخيم في نحو ٥٠٠ صفحة ، اختار فيه أطرف ماله ولسابقيه من أشعار بديعة ، وقد جعله في ستة عشر فصلا : في المنازل والديار والمغاني والأطلال والربيع والدمن^(٤) والرسم والآثار والمساكن والأرض والأوطان والمدن والبلاد والديار والبيت وبكاء الأهل والإخوان . وأطرف أعماله الأدبية جميعا كتابه الاعتبار وهو سيرة شخصية وسنخسه بكلمة . ونمضى إلى زمن الماليك ويلقانا بدر الدين بن حبيب وكتابه نسيم الصبا ، وهو أشبه بمقالات أدبية في الطبيعة والطيور والحيوان والأخلاق وسنلم به عما قليل . وولتقى في زمن الماليك بابن حجة الحموى وكتابه « ثمرات الأوراق » وقد طبع مرارا وهو أشبه بكتب المحاضرات ، فيه نثر ورسائل وشعر ونوادر وعظات وأخبار وقصص عن الأجواد والبخلاء والعلماء والحمقى والأطباء ، مع بعض الأحداث في زمن المؤلف وبعض الحكايات والفكاهات .

(٣) مغانيها : منازلها
(٤) الدمن : آثار الديار

(١) تعفيتها : دثرها وطمسها
(٢) الحيل : الجهر والقوة

وبأخرة من عصر الماليك نلتقى بابن عرب شاه وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » وسنفرده له كلمة .

ونتقدم إلى أيام العثمانيين ، وملتقى ببهاء الدين العاملي الذي ترجمنا له بين شعراء الشيعة ، وله المحلاة ، وهي كتاب شعر ونثر وحكم وأمثال ومواعظ وأخبار ونوادير ، وأهم منها كتابه الكشكول ، وهو في مجلدين ، وبه شذرات من مختلف العلوم الإسلامية والرياضية والطبية ، ومن بحوث التاريخ والفلسفة والتصوف ، ويفيض بمختارات بديعة من الشعر لمتصوفة ومتفلسفة ولشعراء الغزل والحماسة والحكمة ، وحرى بنا أن نلم بما وعدنا بالحديث عنه من أعمال أدبية .

(١) رسالة^(١) الغفران

رسالة طويلة في نحو مائتي صفحة من القطع الكبير أملاها أبو العلاء ردا على رسالة لعلي بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح ، وهي تنقسم قسمين : قسما يتحدث فيه عن نهوض ابن القارح من قبره يوم البعث ويتصور له نزهة في الجنة يلقي بها طائفة من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ويسألهم : بِمَ غُفِرَ لَهُمْ ، ويتردد السؤال فيما بعد مما جعل الرسالة تسمى رسالة الغفران ويرد أبو العلاء بن القارح إلى يوم المحشر ليصور أهواله وأهوال الصراط مع الناس انتظارا لمصيره وقد ظل في المحشر واقفا حتى تعب من شدة الحر والظما ، وكان معه صك التوبة ففكر في دخول الجنة عن طريق خداعه لسدنتها ونظّم القصائد الطوال في مدح رضوان ولم يفهم عنه شيئا ، وتركه إلى سادن آخر ، فنبهه إلى أن يتشفع بالرسول ﷺ وحاول الوصول إليه . ولقى حمزة بن عبد المطلب فتوسل به إلى الإمام علي بن أبي طالب ، ورأى أبا علي الفارسي يحاوره نفر من شعراء البادية في تأويله لبعض كلامهم ، وطلب علي بن أبي طالب منه شاهدا على توبته فاستشهد بقاض من حلب ، وسقاه على من الحوض ، وقال له : لاسييل إلى دخول الجنة قبل الحساب ، ورأى استخدام الحيلة فتعلق بركاب إبراهيم بن الرسول ﷺ : ويسأله رضوان هل معك من جواز؟ ويجذبه إبراهيم معه ، فيدخلها ويلتقي ثانية بالشعراء ويحاورهم . ويقوم ابن القارح مأدبة يدعو إليها كل من في الجنة من شعراء وعلماء وأدباء ، ثم يركب بعض دواب الجنة ويسير فيصل إلى مدائن غريبة ، ويطلع فيرى طائفة من الجن ، ممن آمنوا بالرسول ﷺ ، ويسأل شيخهم عن

(١) انظر في رسالة الغفران (طبعة أمين هندية) المعارف

(وطبعة د. بنت الشاطي) وهي طبعة محققة (نشر دار

أشعارهم التي جمع منها المرزباني قطعة سالحة فيقول الشيخ : إنما ذلك هذيان لامعتمد عليه ، ثم يُرْخى من عنان دابته حتى يصل إلى أقصى الجنة حيث يلتقي بالخطيئة والخنساء وهي تنظر إلى أخيها صخر في الجحيم ، وينظر مثل الخنساء ، فيجد إبليس وبشارا وامراً القيس وعنزة واثني عشر شاعرا معهم من شعراء الجاهلية والأخطل التغلبي ومحاورهم جميعا . ويعود فيلتقي بآدم عليه السلام وبيعض الحيات التي ظلمت في الدنيا ، وكوفئت في الآخرة بدخول الفردوس ونزولها في روضة الحيات . ويمر بجنة الرُّبَّاز ، ومحاورهم في أرجازهم حوارا طريفا . وتنتهي رحلة ابن القارح على الصراط وما شاهد من عذاب في الجحيم ومن نعيم لا يماثله نعيم في الجنة ، ويفضي ابن القارح إلى المتاع بهذا النعيم .

وهذا هو القسم الأول في الرسالة ، وقد كان له تأثير عميق في الآداب العالمية ، إذ كتب دانتى الشاعر الإيطالي المتوفى سنة ١٣٢١ م على غراره الكوميديا الإلهية ، وشُغل بالبحث في ذلك كثير من الباحثين الغربيين ولا يزالون مشغولين .

والقسم الثاني من الرسالة خاص بسؤال ابن القارح لأبي العلاء عن الزنادقة والزنادقة ، وقد استهلها أبو العلاء بالثناء على ابن القارح لوفائه في زمن يعز فيه الوفاء : وتحدث عن حرقة الأدب وهمومها ، ودفع عن المتنبي ما يقال من زندقته أو إلحاده إذ كان متأطفا كما تشهد بذلك أشعاره ، وشك في عقيدة دعبل . وذكر بعض الشعراء الزنادقة وفي مقدمتهم بشار وصالح بن عبد القدوس والوليد بن يزيد ، وتعرض لكثير من النحل المارقة في زمنه ، وفي مقدمتها القرامطة وغلاة الشيعة كعبد الله بن سبأ وعبد الله بن ميمون القداح رأس العقيدة الاسماعيلية والقائلين بالتناسخ كالهنود وبالحلول من الصوفية كالخللاج ، وأصلى ابن الراوندى الزنديق^(١) هو وكتبه : التاج والدامغ والقضيب والفريد والمرجان التي طعن فيها على الدين الحنيف نارا حامية من الدم والتفريع ، ومن قوله في التاج وهو أهم كتب ابن الراوندى الكافرة : لا يصلح أن يكون نعلا ، وأفٌ وثُفٌ ، وجورب وخُفٌ وهما واديان بجهنم . ويعود إلى حديث ابن القارح ، ويعرض لتوبته وتمثيله جالسا للوعظ في مسجد بحلب ، ويلم بأول سماعه عنه وبشيوخه وبيعض علماء حلب وبتلبيات العرب في الجاهلية وبيعض مسائل فرعية .

(١) راجع في ابن الراوندى وإلحاده والرد عليه كتاب
من تاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد الرحمن بدوي

والرسالة نفيسة إلى أبعد حد لالأن أبا العلاء صَوَّرَ فيها المحشر والجحيم والنعيم فحسب ، بل أيضا لأنه ساق في حوارهِ مع الشعراء نقدا لغويا وعروضيا ونحويا ، مع تعرضه لقضية الانتحال على القدماء ، ومع جودة استحسانه لما ساقه من أبيات الشعراء وما ذكر من قصائدهم . وقد عرض في القسم الثاني للنحل الكثيرة في زمنه وما فيها من خروج على الدين وإلحاد ومروق ، وقد أنحى بدم عنيف على كل المارقين الملحدين ، ومع ذلك يقال إنه حمَّلَ الرسالة سخيرية من الدين الحنيف ، والرسالة من ذلك بريئة كل البراءة .

ولم نعرض لأسلوبه فيها ، وهو نفس أسلوبه العام الذي ألفناه . أسلوب يقوم على استخدام الألفاظ المبعدة في الغرابة ، تعبيرا عن ثقافته وعلمه الواسع بالعربية . علما لعل أحدا من أدباء العرب على مر أزمانهم وعصورهم لم يحظَ به ، وهو لا يكتفى بالإغراب في الألفاظ سجعاً ، بل يضيف إليها كما قلنا في غير هذا الموضع وشيا من المحسنات البديعية وخاصة الحناس . وقد ذكر فيها أبو العلاء شبل الدولة بن صالح بن مرداس أمير حلب (٤٢٠ - ٤٢٩ هـ) مما يؤكد أنه أملى رسالته لعهدهِ في العقد الثالث من القرن الرابع .

(ب) رسالة^(١) النَّسْرِ والبَلْبَل

هي رسالة بديعة للمهذب أبي طالب محمد بن حسان الدمشقي ، ترجم له العماد الأصهباني في خريدته . وقال إنه زاره في مدرسته العمادية التي كان يدرس بها لطلابه في ربيع الأول سنة ٥٧١ وأنشد بعض أشعاره ، ثم قال : ونقلت له من رسالة وسمها « بالنسر والبلبل » فاختصرتها وأولها .. « ثم ذكر - فيما يبدو فاتحتها ، وهي تصور نسرا شاهد روضا فاتنا خلب لبه ، ولم يلبث أن استمع إلى بلبل ملاء غبطة وفتنة ، فسأله من أين لك هذا الصوت الساحر وأنا مع أني ملك الطيور ليس لي شيء من سحره وجماله ؟ وأجابه إن الصانع الحكيم لا يهب الأصوات حسب الأجسام . والرسالة تبدأ بوصف النسر على هذا النمط :

طار طائر عن بعض الشجر ، وقد هبَّ نسيم السحر ، وانفلق عمود الفلق^(٢) وانخرق قيص العسق^(٣) مشهور بالقسر^(٤) ، موسوم بالنسر ، والليل قد شابت ذؤابته^(٥) ، وابيضت فته . .

(١) انظر الرسالة في الخريدة (قسم الشام) ١ / ٣٤٠ (٣) العسق : الليل .
وانظر معها ترجمة صاحبها محمد بن حسان وانظره في
كتاب المحمدون من الشعراء والوفاء بالوفيات ٢ / ٣٣٠
(٤) القسر : القهر
(٥) الذؤابة : شعر مقدم الرأس . والاستعارة واضحة
(٢) الفلق : الصبح

كأنما أجنحته رُكبت من العواصف ، واستُلبت من البروق الخواطف . . كأنه سهم رُشِق (١) عن قوس القضاء ، أو نجم أشرق في أفق السماء . . يقبض أجنحته ويبسط ، ويصعد إلى السماء ويهبط يجرح بأسنة قواده (٢) أعطاف القبول (٣) وأطراف الصبا ، وَيُقَدُّ الشمال بخوالف (٤) كأنها غروب (٥) الظبا ، ويفتق بخوافيه (٦) جُيوبَ الجنوب (٧) ، وينخرق بصدرة صدر الرياح في الهبوب . . حتى أشرف . . على روض أريض (٨) . وظلُّ عريض ، وأنهارٍ متدفقة ، وأشجار مونقة ، وظلُّ مشور ، ووردٍ ومشور (٩) ، ومكان بهج ، وزهر أرج . . فن وردٍ فضيُّ الأوراق ، ذهبي الأحداق ، كافوري الصبغة ، مسكى الصيغة ، مائي الجسم ، هوائي الرسم ، حاكت (١٠) الصبا إهابه ، وخاطت الشمال أثوابه ، وفَتَّحت الجنوب أكمامه ، وحسرت (١١) الدبور عن وجه جماله لثامه ، فظهر في أفق الشجر ، كأنه شهب السحر ، أو حدود الحور في القصور ، ظهرت في غلائل من الكافور ، ومن غصون تجتمع وتفترق ، وترنح وتعتنق ، والنسائم تحلُّ عقْد أزرار الزهر . . والشمس تُسفر وتنتقب ، وحاجب الغزاة (١٢) يبدو ويحتجب . . فوق [النسر] في الهواء حين رآها وقال : هذه غاية النفس ومناها . . أين المذهب ، وقد حصل المطلب ، وأين الرواح وقد أسفر الصباح . . وبيننا هو صافُ الأجنحة عليها ينظر من الأفق بعين التعجب إليها ، إذ سمع صوتا من بلبل سحريُّ على وَكْر شجريُّ ، يناغى النسائم بنغمة مزماره ، ورنَّة أوتاره . . وألحان أعذب من نقرات المزهري ، ينثر درأ من عقود ألحانه ولؤلؤا من صدَف افتنانه بين أفنانه (١٣) ، ويرجع قراءة مكتوب غرامه ، ويتلو آيات حزنه من مصحف آلامه . . كأنها ما قيل عن مزامير آل داود وتسايحهم في الركوع والسجود . . أو أصوات رهبان الصوامع ، أو تلاوة من تتجافى (١٤) جنوهم عن المضاجع . . ثم هوى إلى القرار ، لينظر من النافخ في المزمارة ، فرأى البلبل يرجع سجع ألحانه في ربع أحزانه .

(١) رشق : رمى

(٢) القوادم : الريش الطويل في مقدم الجناح

(٣) القبول : ريح الصبا الشرقية

(٤) خوالف : جمع خالفة هي الريش في مؤخر النسر

(٥) غروب : جمع غرب وهو طرف الحد - والظبا :

جمع ظبة وهي الحد للرمح ونحوه

(٦) الخوافي : الريش القصير في الجناح

(٧) الجنوب : ريح جنوبية

(٨) أريض : كثير النباتات حسن المنظر

(٩) المشور : زهر له رائحة ذكية

(١٠) حاكت : نسجت

(١١) حسرت : كشفت . والديور ريح تهب من الغرب

(١٢) الغزاة : الشمس .

(١٣) أفنانه : أغصانه .

(١٤) هم المسلمون الأتقياء تتجافى جنوهم عن

المضاجع ليلا للعبادة والصلاة .

وإذا كان العماد قد اختصر الرسالة ، واكتفى بمطالعها أو فواتحها ، فإننا زدناها اختصارا ، وأكبر الظن ، أنه قد اتضح جمال الأسلوب في هذه الرسالة البديعة ، فسجعها يطير عن الأفواه بنخفته لرشاقة ألفاظه وبدع تصاويره . ويفتن النسر صوت البلبل وجمال تلاحينه ، فيتجه إليه مسلما عليه ، ويظهر العجب لأنه صغير حقير في منظره ، وله هذا اللحن المطرب ، والصوت المعجب ، ويصارحه بما في نفسه ، وأنه مع ضخامة جسمه ليست له حلاوة نغماته ، فيقول له : « أما علمت أن الأرواح لطائف وهي أشرف من الأجسام ، والأجسام كثائف والمعتبر فيها جودة الأفهام ، وإنسان العين صغير ويدرك الأكوان والألوان ، والإنسان عظيم والمعتبر منه الأصغران : القلب واللسان ، ما يكون الدر بقدر الصدف ، وشتان ما بينهما في القيمة والشرف ، ولا الآدمي كالقيل ، وبينهما بؤن في التفصيل .. وأما النغمة التي قرع سمعك سوط لذتها .. فإنني رصعت شذرها^(١) في عقد الحاني على نغم بعض الأغاني » .

ويذكر البلبل للنسر أنه كَوْنُ أَلْحَانِهِ من احتفال يعقد في الروضة كل ليلة لملك يأتيها مع ندمائه ، إذا ولَّى النهار وصَبَّحَ الليل ثوب الكون بظلمته وتُشَعَّلُ له الشموع وتصطف القيان وصفوف الحور والولدان وترجع الأنغام والألحان ، وينقضى ليلهم في لهو وسماع وطرب ، ومنهم أخذ أَلْحَانَهُ وأنغامه . وعليه إذا أراد أن يكون له صوت حسن أن يجذو حذوه في الاستماع إلى رنات الغناء في هذا الحفل العجيب . ويدعو النسر إلى المبيت في الروض غير أنه ينام ، ويضيع منه مراده ، ويعاتبه البلبل عتابا مرا قائلا : إن من استلذ المقام ، عدم المرام ، ووُجِّهَ إليه الملام . وأكثر البلبل على النسر العتاب ، فودَّعه وطار ، وقد عدم الأوطار . ويطلب المهذب في العظة من هذه القصة وأن بلوغ المراد إنما يكون مع الاجتهاد ، وبصدق الطلب يُدْرِكُ الأرب . ويقول العماد إن المهذب أتم الرسالة بفصل وعظي ليس من شرط كتابه ذكره ، وواضح أن وعظها دار حول الجِدِّ في طلب المنى دون مهلة أو ما يشبه المهلة فضلا عن الغفلة وما يشبه الغفلة .

(ج) كتاب الاعتبار^(٢)

مذكرات طريفة لأسامة بن منقذ أحد أبطالنا في الحروب الصليبية ، وقد مرت ترجمته بين الشعراء ، والمذكرات أشبه بترجمة شخصية لأسامة ، إذ صور فيها ذكرياته عن تربيته الأولى في

(١) الشدر : قطع الذهب وصغار اللؤلؤ

(٢) ١٩٣١ وراجع ما كتبناه عنه في كتابنا : الترجمة

الشخصية والرحلات (طبع دار المعارف)

(٢) نشر فيليب حتى هذا الكتاب في برستون سنة

شيزر حصن آبائه وماوقع له فيها من أحداث ، وقد عاش طويلا نحو مائة عام من سنة ٤٨٨ إلى سنة ٥٨٤ وتنقل - كما مر في ترجمته - بين دمشق والقاهرة والموصل .. ووصف ماشاهده واشترك فيه من المعارك الحربية بين المسلمين وحملة الصليب ، وشارك - كما مر بنا - في أحداث مصر قبيل نهاية الدولة الفاطمية ، وروى ما كان فيها من مؤامرات وخصومات بين الوزراء . ووصف وصفا حيا حربه تحت لواء نور الدين وأبيه للصليبيين ، كما وصف وصفاحيا معيشة حملة الصليب بتديار الشام إذ كانت تتصل بينهم وبين المسلمين - حين تضع الحرب أوزارها - علاقات من حسن الجوار ، مما جعله ينزل بينهم في بعض الأوقات . وقد وصفهم بأنهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير » ويصورهم متأخرين حضاريا عن المسلمين . ويذكر في صراحة أن المودة انعقدت بينه وبين بعض فرسانهم ، ويقول إنه لا توجد عندهم غيرة على نساتهم ، ويصورهم متخلفين في الطب تخلفا شديدا ، ويقص هذه النادرة :

« من عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة (في أعالي الشام) كتب إلى عمى أمير شيزر يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل إليهم طبيبا نصرانيا يقال له ثابت فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ماداويت المرضى ! قال : أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيء (فكيف) يداويها ؟ . وقال للفارس : أيما أحب إليك ؟ تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة ، فقال : أحضروا إلى فارسا قويا وفأسا قاطعا ، فحضر الناس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة (قطعة) خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، اقطعها ، فضره وأنا أراه ضربة واحدة فما انقطعت وضره ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة ، فقال : هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه . وعادت تأكل من مآكلهم : الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال ، الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ الموسى ، وشق رأسها صليبا ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس فحكّه بالملح ، فقلت لهم : أبقى لكم إلى حاجة ؟ قالوا : لا فجنث وقد تعلمت من طبهم ما لم أعرفه . »

وثابت الطبيب إنما قال الجملة الأخيرة سخرية من طبهم . ويتحدث أسامة طويلا عن

عاداتهم وما أخذوه من العادات الإسلامية الشرقية في المطعم والملبس ، مما يؤكد أنهم إذا كانوا قد غزوا ديارنا فقد غزتهم بمدنيتها وحضارتها .

وليس في هذه الترجمة الشخصية لأسامة أى ترتيب زمنى ولا أى نسق تأليفي ، بل الأخبار أو قل الذكريات يأخذ بعضها برقاب بعض ، ذكرى من الكهولة وذكرى من الشباب وذكرى من الشيخوخة ، أو قل إنها ذكريات مبعثرة ، غير أنها كتبت بأسلوب قصصى ممتع لاتصنع فيه ولا تكلف ، فلا سجع يداخله ولا محسن من محسنات البديع ، بل يترك أسامة نفسه على سجيتها يصف ما شاهد وصفا نابضاً بالحياة في لغة سهلة ، حتى لتقرب أحياناً من العامية . وتشهد بذلك القطعة المارة آنفاً ، ففيها بعض الخطأ في الإعراب وفي نسق الأسلوب ، غير أن ذلك لا يتصل في الذكريات اتصالاً من شأنه أن يخرجها من المجال الأدبي الفصيح ، وجعل هذا المنحى أسامة يستخدم أحياناً كلمات إنجليزية وأخرى فارسية أو تركية ، وكأنما يريد أداء الواقع بكل ما يتصل به من لغة الناس لزمه . وفي الحق أن هذه الذكريات نفيسة إلى أبعد حد لما تحمل من أحداث حربية وسياسية وأحوال اجتماعية وخاصة لحملة الصليب ، سجلها مشاهد لها رآها تحت بصره .

(د) نسيم^(١) الصبا

مؤلف هذا الكتاب الذى يُعدُّ طرفة أدبية نفيسة بدر الدين الحسن بن عمر الدمشقي المعروف باسم ابن حبيب أحد أجداده ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٧١٠ ولم يلبث الأب أن عُيِّن محتسباً بحلب ، فنشأ بها بدر الدين ، ورحل في طلب العلم والأدب إلى دمشق وأخذ عن ابن نباتة ثم إلى القاهرة والفسطاط سنة ٧٣٦ وأقام في الاسكندرية مدة ، ثم تركها إلى القدس والخليل ومكة . وعاد إلى حلب فطرابلس سنة ٧٥٨ وناب عن الحكم بدمشق في عهد الأمير سيف الدين منجك ، وولى كتابة الإنشاء فترة وعاد إلى حلب وبها توفي سنة ٧٧٩ . وله تاريخ في سلاطين المماليك سماه درة الأسلاك في دولة الأتراك وهو مسجوع ، وله تذكرة النبيه في أيام المنصور (قلاوون) وبنيه ، وله في السيرة النبوية كتابان : النجم الثاقب في أشرف المناقب ، والمقتفى في ذكر فضائل المصطفى .

والشذرات ٢٦٧/٦ وتقاريط الصفدى لنسيم الصبا بين يدي طبعته سنة ١٢٩٠ هـ .

(١) انظر في نسيم الصبا ومؤلفه بدر الدين بن حبيب الدرر الكامنة لابن حجر ١١٢/٢ والنجوم الزاهرة ١١٩/١١

وأهم أعمال ابن حبيب الأدبية « نسيم الصَّبا » وهو ثلاثون فصلاً أو مقالة بتعبيرنا الحديث ، اتخذ موضوعها الطبيعة أحياناً ، إذ له فيها ثمانية فصول في وصف السماء ، والشمس والقمر ، والمطر ، والليل والنهار وفصول العام والبحر والنهر ، والأشجار والثمار والروض والأزهار ، وأحياناً اتخذ موضوعها الحيوان والطير ، إذ له فيه أربعة فصول في الخيل والإبل والوحش ، والطيور ، ورمى البندق أو الصيد . وأحياناً أخرى اتخذ موضوعها الأخلاق الاجتماعية كالكرم والشجاعة والعدل والإحسان . وقد يتخذ موضوعها الإنسان كوصف غلام أو وصف جارية ، أو بعض علاقاته الإخوانية كالاستعطاف والشكر والثناء والتهنئة والرثاء ، أو بعض شئونه المدنية كالكتابة ، أو بعض شئونه الحربية كالسلاح والمعارك الحاطمة للاعداء ، أو بعض علاقاته بالمرأة وما قد يحدث بينهما من الفراق أو يرضيه من العشق ، وقد أدار الفصل الخاص به على مدحه وذمه ، يذكر فيه محاسنه ومساويه . وبعض الفصول - كما يتضح من موضوعها - مفاخرات أو مناظرات ، على نحو ما يلقانا عن فصول السنة في الفصل الخامس . ونشعر دائماً بالقدرة على التعبير المسجوع والتصوير الرائع كقوله في الفصل السادس يصف البحر وسفينة شق بها عبابه :

« هزَّتني رياح الأمل البسيط ، إلى امتطاء نَبَج^(١) البحر المحيط ، فأتيت سفينة يطيب للسَّفَرُ مَثَواها ، وركبتُ فيها (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) .. يالها سفينةٌ ، على الأموال أمينة ، ذات دُسُرٍ^(٢) وألواح ، تجرى مع الرياح ، وتطير بغير جناح ، وتعتاض عن الحادي^(٣) بالملاح ، تخوض وتلعب ، وترد^(٤) ولا تشرب ، لها قِلاع كالقلاع^(٥) ، وشرع يحجب الشُّعاع ، وسكينة وسكَّان^(٦) ومكانة وإمكان ، وجُوجُو وفَقَّارٍ^(٧) ، وأضلاع محكمة بالقار^(٨) .. بعيدة ما بين السَّحَرِ والنَّحْرِ^(٩) ، من أحسن الجوارى^(١٠) المنشآت في البحر ، معقودٌ بنواصيها^(١١) الخير كالخَيْل ، لا تملُّ من سير النهار ولا من سُرَى الليل :

-
- (١) نَبَج : وسط .
(٢) دُسُر : حبال .
(٣) الحادي : سائق الإبل بالهداء وهو الغناء للإبل
(٤) ترد : من ورود الماء وبلوغه
(٥) قِلاع الأولى : شرع السفينة جمع قلع . وقلاع الثانية : جمع قلعة وهي الحصن
(٦) سكينة : وقار . وسكان السفينة : دفتها
(٧) الجُوجُو : صدر السفينة . الفقار : جمع فقارة وهي الواحدة من عظام سلسلة الظهر
(٨) القار : القطران
(٩) السحر : الرثة ، النحر . أعلى الصدر
(١٠) الجوارى : السفن
(١١) نواصيها : مقدماتها . وفي الخيل : الشعر في مقدمة الرأس

ما رأى الناسُ من قصورٍ على الما ء سواها تَسِيرُ سَيْرَ القِداحِ (١) كأنها وَعِلٌّ (٢) ينحطُّ من شاهق ، أو عِرْباضٌ (٣) سابق يحثُّه سائق ، أو عقرب شائله (٤) ، أو عُقاب صائلة (٥) .. حاكمها (٦) عادل في حكه ، عارف بنقض أمرها وبرمه (٧) ، يهتدى بالنجوم ، ويبتدئ باسم الحى القيوم .. وبينما نحن من البحر في قاموسه (٨) ، كتب الجؤ حروف الغيم في طروسه ، وثار ربح عاصف ، يتبعها رعد قاصف ، فالت بنا الفلك (٩) واضطربت ، ودنت شفتها من رشف الماء واقتربت ، واستمرت تعلقو على الأوتاد (١٠) ، وتهيم في كل واد . وتضرم في الكبود نار ناجر (١١) ، إلى أن (بلغت القلوب الحناجر (١٢)) .. ثم نظر إلينا من لآ تخفى عليه السرائر ، وأمر الجارية (١٣) بحمل عبيده إلى بعض الجزائر .

ونزلوا الجزيرة وتنزهوا في رياضها ورأوا فيها نهرا أرضه ذهب وحصباؤه درر . ويمضى ابن حبيب في الوصف بهذه اللغة النقية الصافية وذلك السجع القصير الذى يتمتع الآذان والأذهان بجرسه وما بين الألفاظ من ملامعات تجعل السجع يلذ الألسنة حين تنطق به ، ويسر القلوب حين تستمع إليه . وبحق يقول ناصر الدين بن البارزى فى الكتاب مقرظاً له : « لقد أشبه الدر فى انتظامه ، والثغر فى ابتسامه ، وقطر الندى فى انسجامه ، وزهر الروض فى البكر إذا غنت على غصونه مطربات حامه .. فهو فى اللطافة كالماء فى إروائه ، وكالهواء المعتدل فى ملائمة الأرواح بجوهر صفائه ، وكالسلك إذا أنتقى جوهره وأجيد فى انتقائه » . وقد ختمه ابن حبيب بفصلين بديعين فى الحكم والمواعظ ، ودائماً يوشى أسجاعه بمحسنات البديع من الجناس وغيره .

- | | |
|---|--|
| (١) القداح : السهام | (٩) الفلك : السفينة |
| (٢) الوعل : ماعز الجبل الوحشى | (١٠) الأوتاد : الجبال |
| (٣) العرباض : البعير الضخم | (١١) ناجر : أشد أشهر الصيف حرارة |
| (٤) شائلة : رافعة ذنبا | (١٢) أى نبت عن أماكنها فى الصدور فبلغت الحلاقم ، والآية كناية عن شدة ما أصاب القلوب من الفزع |
| (٥) صائلة : واثبة جائلة | (١٣) الجارية : السفينة |
| (٦) حاكمها : ربانها | |
| (٧) برم الحبل ضد نقضه والاستعارة واضحة | |
| (٨) القاموس : البحر ويريد هنا لجنة العظيم | |

(هـ) فاكهة^(١) الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

مؤلف هذا الكتاب ابن عربشاه أحمد بن محمد الدمشقي الحنفي ، ولد بدمشق سنة ٧٩١ ونشأ بها وطلب العلم فيها ، حتى كانت طائفة تيمور ومحاصرته لدمشق ونهب جنوده التتار لها وإشغالهم النيران فيها ، مما جعل أسرة ابن عرب شاه ترحل إلى الأناضول ، ومنها رحلت إلى إيران وأوغلت إلى سمرقند عاصمة تيمور ، واستوطنها ابن عربشاه مدة . وحُببت الرحلة ولقاء الشيوخ إليه ، فطاف بكثير من البلدان وأخذ عن علماءها وأدبائها ، واستقر في الأناضول أو آسيا الصغرى عند السلطان العثماني محمد الأول (٨٠٥-٨٢٤هـ) وولاه ديوان الإنشاء فكان يكتب عنه إلى أمراء الأطراف باللغات الثلاث التي كان يحسنها : العربية والفارسية والتركية ، وترجم له عن الفارسية كتاب جوامع الحكايات لمحمد عوفى الذي أتم تأليفه سنة ٦٣٣ للهجرة ، ويقال إن عدد حكاياته كان يزيد على ألفي حكاية . وعاد بعد وفاة هذا السلطان العثماني إلى الشام وأقام بجلب ، وخلص حينئذ للدرس والتصنيف . وهاجر إلى القاهرة في عهد السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ) ومربنا في الفصل الثاني أنه كتب له سيرة ، وتحتفظ دار الكتب المصرية منها بمخطوطة . ومر أيضا أنه كتب سيرة لتيمور سماها عجائب المقدور في نواب تيمور ، وهي مسجوعة ، وطبعت مرارا . وكان يحسن النظم والنثر ويجيد الكتابة - كما أسلفنا - في العربية والفارسية والتركية ، وصنف في الفارسية كتابا على غرار كتاب محمد عوفى سماه « مرزبان نامه » طبع قديما ، وعنه نقل كتابه « فاكهة الخلفاء » نثرا مسجوعا . وتوفى بالقاهرة عام ٨٥٤ للهجرة .

وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » يشتمل على حكايات كثيرة ، وهي موزعة على عشرة أبواب مروية عن الشيخ أبي المحاسن حسان يرويها عن الحكيم « حبيب » ، وهو الابن الصغير للملك ، ترك خمسة إخوة تملك أحدهم وأطاعه إخوته ، ثم دب الحسد في نفوسهم ، فرأى أخوهم الصغير « حبيب » اعتزالهم ، فاستأذن أخاه الملك في العزلة وذكر له أنه يعتزم تأليف كتاب يشتمل على فنون من الحكمة ، فاستصوب رأيه غير أن وزيرا له شككه في مقصد أخيه وأن ذلك منه مكر وخديعة ، وأشار عليه أن يجمع بينه وبين حبيب ليظهر زوره ومينه أو كذبه . فجمع الملك

٢٨٠/٧ والبدر الطالع ١٠٩/١ ومقدمة كتابه : « فاكهة

الخلفاء »

(١) طبع هذا الكتاب في مصر مرارا وانظر في ابن عربشاه

النجوم الزاهرة ٥٤٩/١٥ والضوء اللامع للسخاوي ١٢٦/٢

ومثل ذلك كتابه التبر المسبوك ص ٣٢٥ وشذرات الذهب

أعيان الدولة وعلماءها وفضلاءها وأخذ حبيب يسوق حكمه ووعظه في أسلوب قصصي مسجوع بديع ، وكان من ذلك هذا الكتاب بأبوابه العشرة الطريفة . والباب الأول في ذكر ملك العرب ، ومعه أربع قصص : قصة الضحاك الملك الفارسي الأسطوري القديم ، وقصة قابوس بن وشمكير أحد أمراء الأسرة الزيارية التي حكمت طبرستان وجرجان في القرن الرابع الهجري وقتل أعوانه له ، وقصة بهرام جور الملك الساساني الذي كان مشهورا بالفروسية وكثرة الصيد مع الفتاة التي رآها وسرعان ماصادته - كما يقول ابن عرب شاه - بلحظها المكسور فأمسى قلبه وهو في يدها مأسور وما كان من اقترانه بها ، وقصة ابن آوى مع الحمار وكان قد حاول أن يقدمه مآدبة لذئب فقدم الحمار مآدبة للكلاب . والباب الثاني في وصايا ملك العجم وفيه قصص طريفة منها قصة تحكي ماجرى لابن سلطان بابل مع عمه الظالم الخاتل . والباب الثالث في قصة خاقان الأتراك مع ختته أو صهره الزاهد شيخ النساك . والباب الرابع قصص عن الإنسان وعالم الجن والعفاريت . وقصص هذه الأبواب جميعا تدور حول السيرة الحميدة للحكام وما ينبغي أن يأخذوا به الرعية من العدل مع بيان الأخلاق الذميمة ومع استعمال الحكمة وحسن التدبير حتى ينال الإنسان ما يأمّل ، ويأمن ما يحذر .

والأبواب الخمسة التالية قصص عن الحيوان والطير على طريقة كليلة ودمنة ، وقد أشار إلى ذلك المؤلف في مقدمة كتابه قائلا إن الحكمة إذا قيلت على السنة الوحوش وما هو غير مألوف الطباع من البهائم والسباع وأصناف الأطيوار وسائر الهوام مالت إليها الأسماع ورغبت في مطالعتها الطباع ، لأن المألوف منها اقتراف الشرور والافتراس ونقص المعرفة والفطنة فإذا أسندت إليها مكارم الأخلاق من الوفاء وغير الوفاء أصغت الآذان إلى استماع أخبارها ، وتلقته الصدور بالانشراح ، ونفوس الناس بالارتياح . وتتخلل هذه الأبواب جميعا قصص بديعة ، وكثير منها فارسي الأصل كما يدل عنوانها مثل قصة كسرى القديم مع وزيره بزرجمهر الحكيم وسقوط خاتمه الثمين منه في الماء والتقام بطة له وحزنه عليه ورجوعه إليه . وذكر في الباب العاشر قصة كسرى أنوشروان مع الشيخ الهرم الذي رآه يغرس في بعض البساتين مع انحناء قامته وبياض هامته ومع شدة عنائه وتعبه في زرع غرسه ونصبه . وختم الكتاب ابن عرب شاه بقصة جنكز خان الذي طمّ العالم بالفساد ، وأهلك العباد والبلاد .

والكتاب زاخر بدقائق الحكمة والفطنة التي تهذب النفوس والتي تعود على الناس بالتهذيب في معاملتهم والعدل في حكمهم والكسب في معاشهم والعمل الصالح لمعادهم . ويلجّ الكتاب على

أن المال الذى فى خزائن الحاكم إنما هو مال الرعية فىنبغى أن يُنفق فى مصالحها وحوادثها ، وهو فى يد الحاكم أمانة ، وصرفه فى غير وجهه خيانة . ويرسم الكتاب دائما لقارئه الأخلاق الحميدة والشائىل الكريمة مع نفسه ومع أبناء جنسه مع رفق ولين للمساكين ، ومع صلابة فى الدين . وفى كل قصة وكل جانب منها تلقانا النصائح والحكم المعينة على الرشاد فى الحياة ، مع الاستضاءة من حين إلى حين بالآيات القرآنية . والكتاب مسجوع ، غير أن لغته واضحة وقلما يكون فيها لفظ غريب . وقصصه رائعة ، وحرى أن تعرض على الناشئة مع إخلائها مما جاء فى بعضها من ألفاظ مفحشة أونابية . ولانشك فى أن ابن عرب شاه جلب فيها من الأفاصيص خير ماقرأه فى الفارسية والعربية من قصص الملوك والحكام وعلية الناس وصعاليكهم . ولا بد أنه أضاف إلى ذلك بعض القصص من خياله ، وقد رأى أن يحاكى كليلة ودمنة بقصص كثيرة ، كما أسلفنا . والقصص جميعا تكتظ بالحكم على شاكلة ماقرأه فى كتاب سلوان المطاع فى عدوان الأتباع الذى ألمنا به فى حديثنا عن الجزيرة العربية ، وقد ذكر ذلك صراحة فى مقدمته للكتاب ، وحكمه كحكم هذا الكتاب تردد بين الشعر والنثر .

وفى الحق أنه كتاب بالغ الروعة بما يعلم من شئون السياسة والحكم وبما يهدى إليه من البصر بالحياة وما فيها من فضائل تكتسب ، وذرائل تجتنب ، وما أروع الحكمه التى أجزاها على لسان بعض الملوك فى قوله لأبنائه ناصحا : « يابنى اكتسبوا العلم والفضل وأدخروا الحلم والعدل ، فإن احتجتم إلى ذلك كان مالا ، وإن استغنيتم عنه كان جمالا » .

خاتمة

تحدثنا في هذا الجزء عن الشام وتاريخها الأدبي في عصر الدول والإمارات وبدأنا حديثنا عنها بالكلام عن فتح العرب لها مع إمامة موجزة بتاريخها القديم وبيان حياتها السياسية زمن الدولة الأموية وأيام الولاة العباسيين ، وفي عهد الدولتين الطولونية والإخشيديية وأيام الحمدانيين ومن تداولها أو تداول أجزاء منها زمن الدولة الفاطمية ، وقد ظلت معها فلسطين ، وظلت دمشق أيضا معها حصة من الزمن . واستولى بنو مرداس على حلب واستولى السلاجقة منهم عليها كما استولوا على دمشق . ونزل الصليبيون الشام وأسسوا بها ممالكهم واستخلص منهم عماد الدين زنكى الرها وخلفه ابنه نور الدين على حلب وأنزل بالصليبيين ضربات قاصمة وضم إليه دمشق . ولم تلبث الشام جميعها أن انضوت بعده تحت لواء صلاح الدين ، وحطم حملة الصليب في حطين وغير حطين واستنقذ منهم بيت المقدس وأكثر بلدان الشام . وظل يدفعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه خلفاؤه الأيوبيون، ثم المماليك وسحقهم للمغول في عين جالوت مشهور. وكانت مصر والشام في أيام المماليك دولة واحدة إلى أن نزلتها جمافل العثمانيين وأصبحت ولاية عثمانية . وقد عرضنا المجتمع في الشام وحياته الاقتصادية والاجتماعية وما كان ينعم به من الرخاء إلى أن حكمه العثمانيون حكما ظالما غاشيا فانتكست فيه الزراعة والصناعة والتجارة . ومن قديم أخذت تتكاثر في الشام فرق الشيعة من نصيرية ودروز وإمامية وإسماعيلية نزارية وهى المسماة بالفداوية وبالخشاشين. وقد مضت الشام تُعنى بالزهد والتصوف وكثرت فيها - مثل مصر - الزوايا والخانقاهات والطرق الصوفية والدراويش.

وكان بالشام قبل الإسلام تراث يوناني علمي وفلسفي ، وقد نفذت بمجرد دخولها في الإسلام إلى حركة علمية خصبة ، وتكثر في بلدانها المدارس منذ أيام السلاجقة كثرة مفرطة ، وكان طبيعيا أن تشارك في حركة الترجمة للتراث اليوناني وفي العناية بعلوم الأوائل من رياضيات وطبييعيات وطب وجغرافيا بالإضافة إلى ما عُنت به من علوم اللغة والنحو والبلاغة النقد . ومنذ القرن الرابع الهجرى يتألق اسم كثيرين من نحاتها أمثال الزجاجى وابن خالويه وابن يعيش ونزيلها ابن مالك الأندلسى ، ولعل لغويا عربيا لم يبلغ من الشهرة ما بلغه أبو العلاء المعرى ، ونلتقى بحلقة نقدية بحلب زمن سيف الدولة ، وتوالى فيها النقاد من أبى العلاء إلى يوسف البديعى أيام العثمانيين ،

وتنشط بها الدراسات البلاغية منذ ابن سنان الخفاجي إلى عبدالغنى النابلسي في بديعيتيه المشهورتين. وتُعنى الشام بالقراءات ويشتهر بها في القرن الثاني الهجري أحد القراء السبعة، ويتصل فيها هذا النشاط من أيامه إلى أيام ابن الجزري في القرن التاسع الهجري. وينشط بها التفسير وتؤلف فيه كتب نفيسة، كما تنشط دراسة الحديث النبوي ويتكاثر حفاظه النابهون، وبالمثل تنشط دراسة المذاهب الفقهية الكبرى، ويشتهر فيها غير إمام مثل النووي الشافعي وابن تيمية الحنبلي، وتكون الغلبة بين الكلاميين للمذهب الأشعري. وتنشط الكتابة التاريخية بجميع صورها من سيرة مفردة إلى تاريخ الدول أو دولة معينة وتاريخ المدن وخاصة دمشق وحلب والتراجم أو كتب الرجال والطبقات في مختلف العلوم والمذاهب والأدب والأدباء.

وكانت الشام قد أخذت في التعرب قبل الإسلام لاعلى الحدود بينها وبين الجزيرة العربية حيث كان يقيم النبط والغساسنة بعدهم فحسب، بل أيضا في داخل البلاد الشامية، وفيها وعلى الحدود كان العرب يحيون حياة الروم البيزنطيين، وكانوا يدينون بدينهم المسيحي. وكان ذلك سببا قويا في أن يتم تعرب الشام سريعا بعد الفتح الإسلامي، وأن تصبح العربية لسان سكانها جميعا مسلمين ومسيحيين. ولم يكن للشام نشاط يذكر قبل الإسلام في الشعر، حتى إذا هاجرت إليها القبائل القيسية النجدية المشتهرة بالشعر أخذ يكثر على السنة أهلها، وطوال عصر بني أمية كان يفد عليها شعراء الحجاز ونجد والعراق وشارك غير خليفة في نظم الشعر مثل يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد بن عبد الملك، ويظل للشام نشاطها في الشعر طوال عصر الولاة والدولتين الطولونية والإخشيديّة إذ يلقانا للشام غير شاعر نابه مثل أبي تمام والبحتري. وينشط الشعر في القرن الرابع وخاصة في حلب وبلاط سيف الدولة، على نحو ما يصور ذلك الثعالبي في اليتيمة.

ويظل نشاط الشعر مطردا ويخص العماد الأصهباني شعراء الشام في القرن السادس بثلاثة أجزاء من كتابه الخريدة. وتزخر كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام في القرن السابع الهجري وما بعده. ويكثر الشعر الدوري والرباعيات كما تكثر الموشحات ويشتهر بالنظم فيها أيّدمر المحيوى والمحرّار الحلبي، وبالمثل البديعيات والتعقيدات، ويروج سوق المديح رواجا كبيرا على نحو ما نجد عند ابن الخطيب وابن القيسراني وابن الساعاتي والشهاب محمود ومنجك. وتدبج صفحات زاهية لشعراء الحكمة والفلسفة من مثل أبي العلاء المعري ومنصور بن مسلم وابن الجزري. ويكثر شعراء التشيع من مثل كشاجم وابن حيّوس وبهاء الدين العاملي.

ونلتقى بطوائف كثيرة من الشعراء، وأول طائفة تلقانا منهم شعراء الغزل وما يثير في النفوس من

العواطف والخواطر والمشاعر على نحو ما نقرأ عند عبد المحسن الصوري وابن منير والشاب الظريف وحسن البوريني . وكان شعراء كثيرون يحاولون أن يملئوا الدنيا ضجيجا بمفاخرهم وبسالتهم في سحق الأعداء وبفضائلهم أو بهجائهم وما يرسمون لبعض الشخصيات من صور ذميمة ، على نحو ما نقرأ عند أبي فراس الحمداني وأسامة بن منقذ وابن النحاس من جهة وعند عرقلة وابن عنين من جهة ثانية . وملتقى بكثيرين من شعراء المراثي والشكوى مثل ابن سنان الخفاجي والغزوي وفتيان الشاغوري ومصطفى الباني . وكثيرون من الشعراء كانوا يتغنون بحال الطبيعة ويشغفون بمجالس اللهو في المتنزهات والأديرة على نحو ما نقرأ عند الواواء الدمشقي وابن قسيم الحموي ومجير الدين بن تميم وابن النقيب . وشعراء كثيرون كانوا يتغنون بمشاعر الشعب الدينية وما يتصل بها من الزهد والتصوف والمدائح النبوية مثل عبد العزيز الأنصاري ومحمد بن سوار وعفيف الدين التلمساني وعبد الغني النابلسي . وبجانب ذلك كان هناك شعراء شعبيون قصروا شعرهم على الأزجال ولغتها اليومية مثل أبي العلاء بن مقاتل .

وتُعنى الشام بالرسائل الديوانية وخاصة في عهد الدولتين : الأيوبية والمملوكية على نحو ما نجد عند العماد الأصمباني الناثر الشاعر والصفدي وابن حجة الحموي وكانا أيضا ناثرين شاعرين ، وتكثر الرسائل الشخصية ، واشتهر أبو العلاء بكثرة ما أملى من رسائله . وتلقانا بعده رسائل شخصية كثيرة كان يكتبها الأدباء للشكر وللهنئة أو للعتاب أو للاستعطاف أو للعزاء وكثيرا ما كانوا يتراسلون ، من ذلك مراسلات الطغراني والغزوي ، ودائما تلقانا هذه الرسائل الشخصية حتى نهاية العصر وربما قصدوا بها إلى المهارة الأدبية أو إلى الهزل . وتكثر المقامات . ولا تعتمد على أديب متسول كما كانت عند الحريري ، إذ تُعنى بالوصف أو بالوعظ أو المفاخرة بين بعض الأزهار ، وكأنما أصبحت تخاص في موضوعات متنوعة على نحو ما نجد عند ابن الوردى . وتكثر المواعظ وفي مقدمتها خطب ابن نباتة وكتاب الفصول والغايات لأبي العلاء وخطبة القدس بعد فتحه لمحبي الدين بن الزكي وكشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار لابن غانم المقدسي . وتتكاثر في العصر الأعمال الأدبية من رسائل وغير رسائل مثل رسالة الغفران ورسالة النسر والبلبل وكتاب الاعتبار وكتاب نسيم الصبا وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء .

الفهرس

صفحة	
٥ مقدمة
٥٩ - ٩ الفصل الأول : السياسة والمجتمع
٩ ١ - فتح العرب للشام والحقب الأولى
 (أ) فتح العرب للشام
 (ب) زمن الدولة الأموية
 (ج) زمن الولاة العباسيين
 (د) الطولونيون - القرامطة
 (هـ) الإخشيديون - الحمدانيون (سيف الدولة)
 ٢ - الفاطميون - بنو مرداس - السلاجقة - الصليبيون - آل زنكى
٢٣ (نور الدين)
٢٩ ٣ - الأيوبيون (صلاح الدين) - المماليك - العثمانيون
٣٧ ٤ - المجتمع
 ٥ - التشيع : الإسماعيلية والإمامية - النصيرية - الدروز - الإسماعيلية
٤٥ النزارية أو الفداوية أو الحشاشين
٥٢ ٦ - الزهد والتصوف
١١٩ - ٦٠ الفصل الثاني : الثقافة
٦٠ ١ - الحركة العلمية
٧٠ ٢ - علوم الأوائل - علم الجغرافيا
 (أ) علوم الأوائل
 (ب) علم الجغرافيا
٨١ ٣ - علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة
٩٣ ٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام
١١١ ٥ - التاريخ
١٩٨ - ١٢٠ الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء
١٢٠ ١ - تعرب الشام
١٢٤ ٢ - كثرة الشعراء
١٢٨ ٣ - شعر دورى - رباعيات - موشحات - بديعيات - تعقيدات

	(أ) الشعر الدورى
	(ب) الرباعيات
	(ج) الموشحات: أيدمر المحيوى، المّار الحلبي
	(د) البديعيات
	(هـ) التعقيدات
١٤١	٤ - شعراء المديح
	ابن الخياط - ابن القيسراني - ابن الساعقي - الشهاب محمود - منجك
١٦٣	٥ - شعراء الفلسفة والحكمة
	أبو العلاء المعري - منصور بن المسلم - حسين الجزري
١٨٣	- شعراء التشيع
	كشاجم - ابن حيوس - بهاء الدين العاملي
٢٩٤ - ١٩٩	الفصل الرابع: طوائف من الشعراء
١٩٩	١ - شعراء الغزل
	عبدالمحسن الصوري - ابن منير - الشاب الظريف - حسن البوريني
٢١٦	٢ - شعراء الفخر والهجاء
	أبو فراس الحمداني - عرقله - أسامة بن منقذ - ابن عنين - ابن النحاس
٢٤٠	٣ - شعراء المراثى والشكوى
	ابن سنان الخفاجي - الغزي - فتيان الشاغوري - مصطفى البابي
٢٥٧	٤ - شعراء الطبيعة ومجالس اللهو
	الوأواء الدمشقي - ابن قسيم الحموي - مجير الدين بن تميم - ابن النقيب
٢٧٢	٥ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية
	عبدالعزیز الأنصاري - محمد بن سوار - عفيف الدين التلمساني - عبدالغنى النابلسي
٢٩٠	٦ - شعراء شعبيون: أبو العلاء بن مقاتل
٣٤٧ - ٢٩٥	الفصل الخامس: النثر وكتابه
٢٩٥	١ - الرسائل الديوانية
	العماد الأصبهاني - الصفدي - ابن حجة الحموي
٣١٠	٢ - الرسائل الشخصية
	(أ) رسائل أبي العلاء
	(ب) رسائل متنوعة
٣١٨	٣ - المقامات: ابن الوردي

صفحة	
٣٢٥	٤ - المواعظ والابتهالات (أ) خطب ابن نباتة الفارقي. (ب) الفصول والغايات (ج) خطبة القدس بعد فتحه لمحبي الدين بن الزكي (د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار
٣٣٤	٥ - أعمال أدبية: رسائل وغير رسائل (أ) رسالة الغفران (ب) رسالة النسر والبلبل (ج) كتاب الاعتبار (د) نسيم الصبا (هـ) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء
٣٥٠-٣٤٧	خاتمة

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- التطور والتجديد في الشعر الأموي
الطبعة الثامنة ٣٤٠ صفحة
- دراسات في الشعر العربي المعاصر
الطبعة الثامنة ٢٩٢ صفحة
- شوقي شاعر العصر الحديث
الطبعة الثانية عشرة ٢٨٦ صفحة
- الأدب العربي المعاصر في مصر
الطبعة التاسعة ٣٠٨ صفحات
- البارودي رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة ٢٣٢ صفحة
- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر
بني أمية
الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبي:
طبيعته- مناهجه- أصوله- مصادره
الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة
- في التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة
- في الدراسات النقدية
● في النقد الأدبي
الطبعة السابعة ٢٥٠ صفحة
- فصول في الشعر ونقده
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة
- في الدراسات البلاغية واللغوية
● البلاغة: تطور وتاريخ
الطبعة الثامنة ٣٨٠ صفحة
- المدارس النحوية
الطبعة السادسة ٣٧٦ صفحة
- في الدراسات القرآنية
● سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات
- في تاريخ الأدب العربي
● العصر الجاهلي
الطبعة الثانية عشرة ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامي
الطبعة الحادية عشرة ٤٦١ صفحة
- العصر العباسي الأول
الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة
- العصر العباسي الثاني
الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية- العراق- إيران
الطبعة الثالثة ٦٨٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الشام
الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة
- عصر الدول والإمارات
مصر
الطبعة الثانية ٥٠٠ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الأندلس
الطبعة الأولى ٥٥٢ صفحة
- في مكتبة الدراسات الأدبية
● الفن ومذاهبه في الشعر العربي
الطبعة الحادية عشرة ٥٢٤ صفحة
- الفن ومذاهبه في النثر العربي
الطبعة الحادية عشرة ٤٠٠ صفحة

- تجديد النحو
الطبعة الثالثة ٢٨٢ صفحة
- تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً
مع نهج تجديده
الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحات
- الترجمة الشخصية
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة
- الرحلات
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة
- في التراث المحقق
● المغرب في حلى المغرب لابن سعيد
الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة
الجزء الثاني - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة
- كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد
الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة
- كتاب الرد على النحاة
الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة
- الدرر في اختصار المغازي والسير
لابن عبد البر
الطبعة الثانية ٣٥٦
- في مجموعة نوابغ الفكر العربي
● ابن زيدون
الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة
- في مجموعة فنون الأدب العربي
● الرثاء
الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة
- المقامة
الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحات
- النقد
الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

في سلسلة «أقرأ»

- العقاد
الطبعة الخامسة
- البطولة في الشعر العربي
الطبعة الثانية
- معنى (١)
الطبعة الثانية
- معنى (٢)
الطبعة الأولى
- الفكاهة في مصر
الطبعة الثانية

رقم الإيداع	١٩٩٠ / ٣٤٦٠
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-2936-9

١ / ٩٠ / ٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)